الشيخ مرتضى مطهري

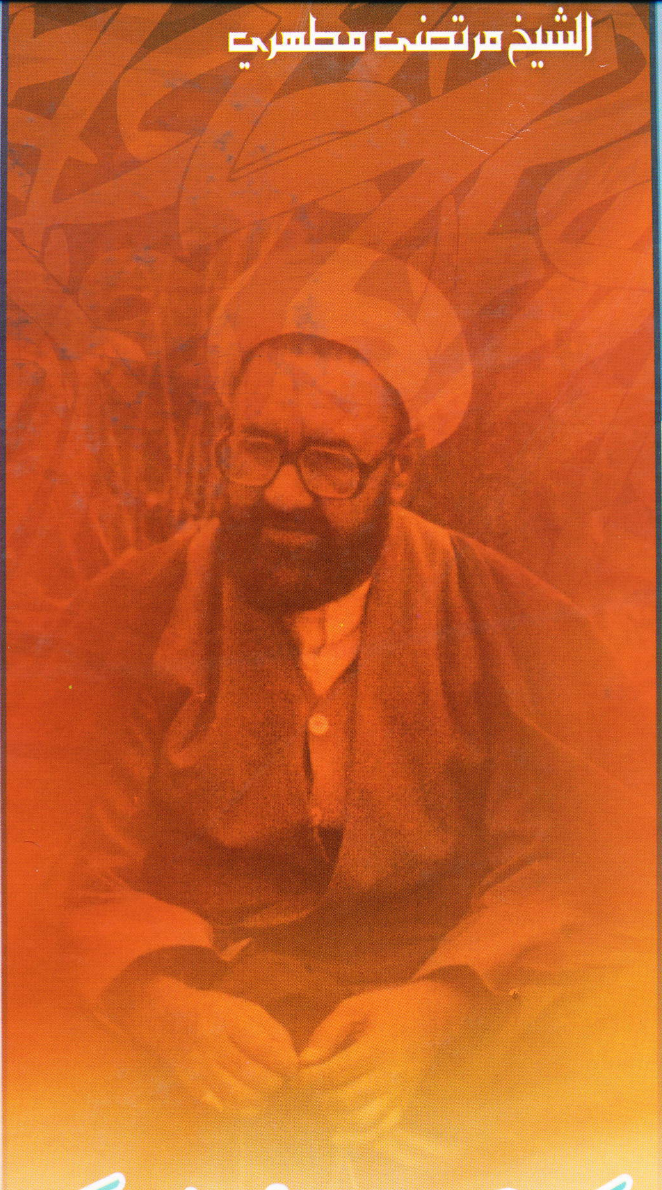

معرفة القرآن (ج ١ و ٢)
ختم النبوّة
الإمام علي (ع) في قوّتيه الجاذبة والدافعة

٤

رؤى جديدة

في الفكر الإسلامي

تحقيق و تصحيح: عبد الكريم الزهيري

رؤى جديدة

في الفكر الإسلامي

مجموعه من مؤلفات

العلّامة الشهيد مرتضى مطهري

٤

الجزء الرابع

مراجعة و تصحيح:

عبدالكريم الزهيري

حقوق الطبع محفوظة للمصحّح
ولا يحقّ طبعه من قبل الناشر إلّا بإذن المصحح

هويّة الكتاب

● اسم الكتاب: رؤىٰ جديدة في الفكر الإسلامي ـ الجزء ٤
○ المؤلف: الشهيد مرتضىٰ مطهري
● مراجعة و تصحيح: عبدالكريم الزهيري
○ الناشر: آينده درخشان
● عدد المطبوع: ٣٠٠٠ نسخة
○ المطبعة: شريعت
● الطبعة: الاولى ـ ٢٠٠٨ م
○ الشابك: ٨ ـ ٠ ـ ٤٨٩ ـ ٩٠ ـ ٦٠ ـ ٩٧٨

مراكز التوزيع:

١ ـ بغداد ـ شارع المتنبي ـ دار الكتب العلميّة ـ الهاتف: ١٤١٥١٢٣٥ـ٠٠٩٦٤
٢ ـ بابل ـ مركز المحقق الحلّي ـ نقّال ٠٧٨٠٣٤١٢٨١٤
٣ ـ النجف ـ الحويش ـ دار المجتبى ـ نقّال: ٠٧٨٠١١٩٨٨٣١
٤ ـ النجف ـ الحويش ـ مكتبة الشهيد الصدر ﵀ ـ نقّال: ٠٧٨٠٣٤٧٠٩١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

يحتوي هذا الكتاب على المقالات التالية:

١ - معرفة القرآن (الجزء الأوّل والثاني)

٢ - ختم النبوّة

٣ - الإمام علي عليه السلام في قوّتيه الجاذبة والدافعة

مقدمة الناشر

منذ أن تأسّست مكتبة الإمام الصادقعليه السلام بدأت بكلّ عزم وثبات تبذل جهداً مضاعفاً من أجل نشر الفكر الإسلامي المبدع الأصيل.

وقد أخذت على عاتقها طبع الكتب الإسلاميّة ذات الأهميّة البالغة، منتقية ما كتبه أعظم مفكري الإسلام وعلمائه، وفي الفترة الأخيرة شرعت هذه المكتبة بطبع مؤلّفات الشهيد مرتضى المطهري المترجمة، و قد قامت بنشر الكتب التالية: «نظام حقوق المرأة في الإسلام» و «سيرة الائمّة الأطهارعليهم السلام» و «مسألة الحجاب» و «التعليم والتربية في الإسلام» و «رؤىٰ جديدة في الفكر الإسلامي ـ الجزء الأوّل و الثاني والثالث».

وهذا الكتاب، الذي بين يديك، هو الجزء الرابع من سلسلة «رؤىٰ جديدة في الفكر الإسلامي» ويحتوي على مجموعة من مؤلّفات ومحاضرات الشهيد مطهري، وإليك أسماؤها:

١ ـ معرفة القرآن (الجزء الأوّل والثاني)

٢ ـ ختم النبوّة

٣ ـ الإمام علي عليه السلام في قوّتيه الجاذبة والدافعة

وسوف تصدر المكتبة قريباً بعون الله تعالى الأجزاء الأخرىٰ من سلسلة رؤىٰ جديدة من أعمال هذا المفكر الكبير، وقد تصل إلىٰ ستة أجزاء عدا الكتب الكبيرة التي سوف تطبع بشكل مستقل لضخامة حجمها.

وأخيراً نعاهد قرّاءنا الأعزاء من الأمّة الإسلاميّة على مواصلة هذا الطريق والعمل على تبليغ الفكر الإسلامي الأصيل في وعي الأمّة وترشيد حركة الفكر الديني بموازاة تطور الآفاق المعرفيّة للإنسان المعاصر. ونسأل الله تعالى أن يفيض علينا من توفيقاته لنسير في خط المسؤولية والرسالة بما يحقق لنا قبوله ونيل رضاه.

مكتبة الإمام الصادق عليه السلام

عبدالكريم الزهيري

معرفة القرآن

(الجزء الأوّل)

معرفة القرآن

الجزء الأوّل

ترجمة:

جعفر صادق الخليلي

بسم الله الرحمن الرحيم

«... أوصي الطلبة الجامعيين الاعزاء، والطبقة المثقفة المتنورة، الملتزمة، أن لا يدعوا دسائس غير المسلمين تنسيهم مطالعة كتب هذا الاستاذ العزيز....»

السيد الخميني

كلمة المترجم

كثيراً ما كنت أجد عناء، وأنا بعد شاب يافع، في مطالعة كتب التفسير، وتاريخ الإسلام والسير وفهمها، بسبب صعوبة اللغة، فكنت أجدني مضطراً إلىٰ أن أتركها جانباً علىٰ مضض، بالرغم من شغفي وولعي بالاستزادة من تلك المواضيع. وكان معي جمع من أصحابي لايقلون عني ضيقاً بضعف ادراكنا للغة تلك الكتب التي كانوا يصفونها بالكتب الصفر.

بل لقد خاب ظننا حتىٰ في خطبائنا الذين كان معظمهم يردد ما كان في بطون تلك الكتب الصفر نفسها، دون أن يحاول التجديد فيها، وتقريبها إلىٰ الأذهان، وتبسيط لغتها، لتشويق الناس إلىٰ سماعها. كان الناس قد حفظوا عن الخطباء كل ما في «مقتل ابي مخنف»، ويرددون معهم قصائد رثاء الحسين عليه السلام بالقريض

وبالعامية، ويروون كل رواياتهم وقصصهم، ويتباكون، لاتغيير ولا تبدل.

ثم سمعنا يوماً أن أحد مشاهير الخطباء الايرانيين قد قدم إلىٰ النجف الأشرف وأنه سوف يخطب في جامع الهندي بضع ليال. كان ذلك قبل ثلاثين ونيف من السنين، وكان اسم الخطيب، حسب ما اتذكّر، الشيخ الطبسي (رحمة الله حياً وميتاً). وحضرت مجلسه مع آلاف غيري حتىٰ اكتظ بهم المسجد علىٰ سعته.

وما انتهىٰ من خطبته في الليلة الأولىٰ، حتىٰ شعرت أن هذا ما كان ينقصنا، وما نفتقر إليه نحن الشبّان الذين كنا نريد أن نبدأ الفهم من البداية وبشيء من التجديد. لقد فسر لنا الشيخ الطبسي بعض الآيات الكريمة من القرآن المجيد، وكان تفسيراً مزيجاً من التاريخ، والفلسفة، والمنطق، والحديث، والروايات المنقولة عن الأئمة ـ عليهم السلام ـ وحتىٰ النكتة والنادرة (حدث في ليلة حارة ان فك الشيخ الطبسي حزامه، وراح يمسح به العرق عن رأسه ووجهه، ثم اعتذر عن ذلك بقوله ان حزامه أشبه بعصا موسىٰ، فهو حزام يوماً، وعمامة يوماً آخر، ومنديل لتجفيف العرق، وسفرة يتناول عليها الطعام أحياناً أُخرىٰ).

وإذ عاد الرجل بعد تلك الليالي إلىٰ بلده، عدنا نحن نجتر ذكرياتنا معه، وقد أحسسنا أنّ الفراغ الذي تركه أخطر بكثير مما كنا نظن، فقد افتقدنا أسلوبه الجديد، وبساطة عرضه، وسعة اطلاعه ولم ينفع معنا ما أخذ يردنا بعد ذلك من مصر ولبنان من الكتب الجديدة لكتّاب أفاضل. صحيح إنها كانت كتباً عظيمةً رائعة، إلا أنها كانت قد كتبت للتاريخ، وللنخبة من الناس، وليس للناس العاديين من الطبقات المتوسطة.

لقد كانت السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية سنوات حرب أعنف وأشد، حرب العقائد والأفكار والآيديولوجيات التي وفدت علىٰ الشرق إلا أنها

كانت حرباً غير متكافئة، وقودها الطبقة الكادحة، والشبّان المثقفون الذين لولا تأصل فطرتهم الدينية وتشبثهم بمبادئهم الأصيلة، لجرفهم التيار العارم. ومع ذلك فالخسائر لم تكن قليلة، فقد اخذ التيار الكثير، ولقد كان بالإمكان تقليل الخسائر إلىٰ أدنىٰ حد، لو أنّ المدافعين كانوا قد تسلحوا بمثل ما تسلح به رجال الدين الأفاضل في ايران، فهم إلىٰ جانب تضلعهم في العلوم الدينية، درسوا العلوم الحديثة، وأخذوا من لغة العصر جانباً مهماً أعانهم علىٰ إيصال الأسس التي بني عليها الإسلام إلىٰ قلوب الكثرة الكاثرة من عموم أبناء الشعب، بلغة سهلة، ومنطق سليم، وقرع الحجة بالحجة، ودحض المفتريات بالأدلة الدامغة، مما حفظ للأُمة الإسلامية في ايران وحدتها وتوحدها، وتمسكها بعلمائها الأعلام.

واليوم، وأنا نزيل طهران، أجدني محاطاً بحشدٍ من خيرة العلماء المتنورين المجاهدين، وبفيض من الكتب القيمة التي تعين عامة الناس علىٰ التمسك بالإسلام ديناً، وخلقاً، وسلوكاً.

ولقد أتاح لي حسن الحظ أن أقوم بجولة ممتعة في مجموعة مؤلفات الاستاذ الشهيد مرتضىٰ المطهري، إطاعة لوصية إمام الأمة، وإذا بي استرجع ذكرىٰ الأيام الخوالي، وإذا بالكلمة تند من فمي «وجدته».

نعم وجدته، فهذا انسان عرف نفسه، وعرف بني جلدته، وعرف ما ينبغي لهم، فقدمه في تدرج سليم، وفي لغة سائغة، خطباً، ومحاضرات، وكتباً، بخبرة الطبيب النطاسي العارف بالداء، والعارف بالدواء، فيصفه بنيّة خالصة تقرباً إلىٰ الله تعالىٰ. فما كان مني إلا أن عقدت العزم، بعون الله علىٰ أن أقدم هذه الكتب النفيسة إلىٰ أبناء اللغة العربية، تلك اللغة الشريفة التي ما فتئ شهيدنا الاستاذ المطهري ينادي في كتبه بضرورة تعلمها وتعميمها حتىٰ في المدارس الابتدائية.

وإني إذ اضع اليوم بين يدي القارىء العربي هذا الكتاب الأول من سـلسلة «القرآن» ليحدوني الأمل في أن يمد الله تعالىٰ في توفيقي، فأقدم ما بقي من كتبه ودراساته وبحوثه، فأكون قد حققت بذلك ما كان ينبغي أن يتحقق من قبل لسد الفراغ الذي ما زلنا نحسه في نفوس جيل الشباب والطلاب[١] حتىٰ اليوم.

ولا يسعني هنا إلا أن اسجل تقديري وشكري لمؤسسة «بنياد بعثت» التـي كانت سبباً في ما حباني به الله من توفيق، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

جعفر صادق الخليلي

١ ـ في الأصل: نفوس شبيبتنا وطلابنا. (المصحح)

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة القرآن

إن معرفة القرآن لكل فرد عالم باعتباره عالماً، ولكل فرد مؤمن باعتباره مؤمناً، أمر ضروري وواجب. إلّا إن ضرورة معرفة القرآن لعلماء النفس ولعلماء الاجتماع، تتأتىٰ من حقيقة أن هذا الكتاب كان ذا تأثير علىٰ المجتمعات الإسلامية، بل وفي مصير المجتمع البشري برمته.

إن نظرة إلىٰ التاريخ، تؤيد القول إنه لم يكن لأي كتاب ما كان للقرآن من الأثر في المجتمعات الإنسانية والحياة البشرية[1]. ولهذا يدخل القرآن عنوة إلىٰ ميدان علم الاجتماع، ويصبح جزءاً من مواضيع بحث هذا العلم. وهذا يعني أنّ إجراء أية دراسة أو تحقيق حول تاريخ العالم خلال الأربعة عشر قرناً الماضيات، ومعرفة المجتمعات الإسلامية علىٰ وجه الخصوص، لايمكن أن يتيسر قبل أن نعرف القرآن.

أما ضرورة معرفة القرآن للمسلم المؤمن، فناشئة من كونه أصل إيمان

---

١ ـ اما من حيث اتجاه الأثر. وهل كان نحو تغيير سير التاريخ باتجاه سعادة البشر ورفاههم، ام باتجاه التفسخ والانحطاط. أم أنه بسبب هذا الكتاب ظهرت في التاريخ وثبة وحركة، فسرت في عروق المجتمعات البشرية دماء جديدة، أم أنه العكس. ذلك موضوع خارج عن نطاق هذا البحث.

المسلم، ومنبع دينه وأساس فكره، فما يمنح حياة المسلم حرارتها ومعناها وحرمتها وروحها إنما هو القرآن.

والقرآن ليس كباقي الكتب الدينية التي تطرح سلسلة من المسائل الغامضة فيما يختص بالله والخليقة والتكوين، ومن ثم يتقدم بسلسلة من المواعظ الأخلاقية الساذجة فحسب، بحيث إن المؤمنين لايرون مندوحة عن اللجوء إلىٰ مصادر أخرىٰ يستقون منها القوانين والأفكار.

إن القرآن يبين أصول المعتقدات والأفكار والآراء اللازمة للإنسان كفرد «مؤمن» وذي عقيدة، وكذلك يضع أصول التربية والأخلاق والنظام الاجتماعي والأسري، ولم يترك علىٰ عاتق السنة أو الاجتهاد سوىٰ ما يتطلبه التوضيح، والتفسير، والتشريح، والاجتهاد أحياناً، وتطبيق الأُصول علىٰ الفروع. لذلك فكل رجوع إلىٰ أي مصدر آخر، يقتضي أولاً الرجوع إلىٰ القرآن ومعرفته. إذ إن القرآن هو المقياس والمعيار لكل المنابع الأخرىٰ. فالحديث والسنة علينا أن نقيسهما بمعيار القرآن لكي نرىٰ إن كانا يطابقان القرآن فنتقبلهما وإلا فلا.

إن أهم مصادرنا المقدسة ـ بعد القرآن ـ في الحديث هي «الكتب الأربعة» وهي: «الكافي» و«من لا يحضره الفقيه» و«التهذيب» و«الاستبصار»، وفي الخطب «نهج البلاغة»، وفي الأدعية «الصحيفة السجادية». إلا أنها جميعاً فروع من القرآن، وليست لها قطعية بت القرآن. أي أن اعتبارنا لحديث الكافي، يعتمد علىٰ مقدار تطابقه مع القرآن وتعليماته. وعلىٰ ألا يكون بينهما اختلاف. كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار يقولون ما معناه: أعرضوا أقوالنا علىٰ القرآن، فما لم ينطبق عليه منها، فاعلموا أنه موضوع ومختلق ومنسوب إلينا. فنحن لا نقول ما يخالف القرآن.

انواع معرفة القرآن

اما وقد شخصنا ضرورة معرفة القرآن، فقد بقي أن نعرف طرق معرفة هـذا الكتاب. إن لمعرفة كل كتاب ودراسته، عموماً طرقاً ثلاثة:

الأول: المعرفة السندية والانتسابية

في هذه المرحلة، نسعىٰ لمعرفة مدىٰ انتساب الكتاب إلىٰ مؤلفه. فلنفترض إننا نريد معرفة ديوان حافظ (الشيرازي) أو الخيّام. إن الخطوة الأولىٰ هي أن نرىٰ إن كان ما يطلق عليه اسم ديوان حافظ كله من نظم حافظ، أم إن بعضاً منه فقط من نظمه، وإن بعضه الآخر مضاف إليه. كذلك الأمر بشأن الخيّام وغيره.

وهنا تبرز قضية تعدد النسخ، وعلىٰ الأخص أقدمها تاريخاً وأكثرها اعتباراً، فنلاحظ أن أياً من هذه الكتب لايستغني عن المعرفة والتمحيص. فديوان حافظ الذي طبعه المرحوم القزويني، استناداً إلىٰ أكثر النسخ اعتباراً، يختلف اختلافاً بيناً عن دواوين حافظ المعروفة التي طبعت في ايران أو في بمبي، والتي يحتفظ بها الناس في مكتباتهم. فالدواوين التي طبعت قبل ٣٠ أو ٤٠ سنة تكاد تبلغ ضعفي حجم الدواوين التي يعتمدها الباحثون اليوم. علىٰ الرغم من أننا نجد بين الأشعار التي يعتبرها الباحثون منحولةً أبياتاً لا تقل جودة عن شعره الموثوق.

وعندما ننظر إلىٰ الرباعيات المنسوبة إلىٰ الخيّام نجد ثمة ٢٠٠ رباعية تكاد تكون متقاربة المستوىٰ ولا يتعدىٰ ما فيها من اختلاف تلك الحدود المتعارف عليها عند الشعراء. ولكننا كلما تقدمنا تاريخياً مقتربين من عصر الخيام نجد أن مالا يشك في نسبته إلىٰ الخيام من ذلك العدد لايتجاوز عشرين رباعية. والباقي إما أن يكون مشكوكاً في انتسابه إليه، أو أنه لشعراء آخرين حتماً.

وعليه، فإن المرحلة الأولىٰ في معرفة كتاب ما هي أن ننظر إذا كان ما بين أيدينا يمكن إسناده إلىٰ مؤلفه أم لا. وإلىٰ أي مدىٰ يصح ذلك. هل مستنداتنا تؤيد كل ما بين أيدينا، أم أنها تصح علىٰ بعض دون بعض؟ وفي هذه الحالة، ما هي النسبة المئوية لصحة المنسوب إلىٰ المؤلف؟ ثم ما دليلنا علىٰ صحة الانتساب، أو علىٰ الشك في الانتساب؟

إنّ القرآن غني عن هذا النوع من المعرفة، وهو، لهذا السبب، كتاب فريد بابه في العالم القديم، فما من كتاب بين الكتب القديمة يمكن أن تمر عليه قرون طويلة ويبقىٰ مع ذلك لاتناله شبهة أو اعتراضات من قبيل أن تكون السورة الفلانية مشكوكاً فيه، أو أن الآية الفلانية موجودة في النسخة الفلانية وغير موجودة في غيرها، ليست مطروحة أساساً. إن القرآن متقدم علىٰ النسخ وعلم المعرفة بالنسخ، فليس ثمة أدنىٰ شك في أنّ الذي أتىٰ بجميع تلك الآيات هو محمد بن عبدالله ﷺ علىٰ اعتبار أنها معجزة، وأنها كلام الله. وأنّ أحداً لا يستطيع أن يدعي بوجود نسخة مختلفة من القرآن، ولا الزعم باحتمال وجودها. ولم يظهر من المستشرقين أحد يحاول تناول القرآن من هذه الناحية، ليقول إن علينا أن نبحث عن نسخ القرآن القديمة جداً لكي نرىٰ ما فيها وما ليس فيها ولئن كانت كتب مثل التوراة

والإنجيل والأوستا[١]، أو مثل «شاهنامة» فردوسي و«گلستان» سعدي وغيرها تستلزم هذه الطريقة، فإنّ القرآن غني عن كل ذلك.

في هذا الموضوع سبق أن قلنا إن القرآن متقدم على النسخ والعلم بالنسخ، فهو فضلاً عن كونه كتاباً مقدساً سماوياً وينظر إليه أتباعه من هذا المنظور، فإنه أقوى دليل وبرهان على صدق دعوى الرسول وأكبر معجزة من معاجزه.

ثم إن القرآن لم ينزل دفعة واحدة كالتوراة لتظهر عندئذ مشكلة التساؤل عن النسخة الأصلية، بل تتابع نزول القرآن خلال ثلاث وعشرين سنة. ومنذ اليوم الأول من نزوله أخذ المسلمون يعبّون منه مثلما يعبّ العطشان من الماء الفرات عبّاً، فكانوا يستوعبون آياته ويحفظونها في قلوبهم. حيث كان المجتمع الإسلامي يومئذ مجتمعاً بسيطاً وليس عنده كتاب آخر يقرأه ويحفظه إلى جانب القرآن، فكان يمتاز بخلو الذهن وقوة الحافظة. كما أن تفشي الأمية بينهم حملهم على أن يتناولوا معلوماتهم ومعارفهم من بين ما يرون ويسمعون.

لذلك فقد ارتسم القرآن على قلوبهم ـ وهو الذي نزل منسجماً مع ما لديهم من عاطفة وإحساس ـ ارتسام النقش على الحجر. ولما كان القرآن عندهم كلام الله، لا كلام بشر، فقد راحوا ينظرون إليه بتقديس، ولا يسمحون بأن يتبدل فيه حرف واحد، ولا أن يتغير مكان كلمة واحدة تقديماً وتأخيراً، بل كانوا لا يفتأون يتلونه ويرتلونه تقرباً إلى الله تعالى. ولابد أن نذكر أن النبي صلى الله عليه وآله قد انتخب منذ الأيام الأول عدداً من الكتبة عرفوا باسم «كتّاب الوحي» هذه ميزة أخرى تضاف إلى مميزات القرآن لم تكن من نصيب أي كتاب آخر. إذ إن تدوين كلام الله منذ

١ ـ «الاوستا» هو الكتاب المقدس لدى الزرادشتيين. (المصحح)

البداية يعتبر من جملة الأسباب الرئيسة في حفظه وصيانته من التحريف.

إن من المظاهر الأخرىٰ التي كانت سبباً في حسن استقبال الناس للقرآن، هو جانبه الأدبي والفني الرفيع.. جانب فصاحته وبلاغته. كانت لقوته الأدبية جاذبية تشد الناس إليه شداً وتحملهم علىٰ سرعة استيعابه، بخلاف ما هو عليه الأمر بشأن كتب الأدب الأخرىٰ، مثل ديوان حافظ وأشعار مولوي وغيرهما، فقد كان المولعون بها لايتحرجون من التلاعب بما فيها لكي يزيدوها اكتمالاً علىٰ ما يدعون. إلا أن أحداً لم يجز لنفسه أن يمد يداً إلى القرآن، وقد نزل قوله تعالىٰ:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾(١).

وآيات غيرها تبين وخامة التقول علىٰ الله سبحانه. وعلىٰ ذلك، وقبل أن يطرأ أي تحريف علىٰ هذا الكتاب السماوي، تواترت آياته حتىٰ بلغت مرحلة لم يعد بالإمكان معها حدوث أي تصحيف أو تحريف أو إنكار. ولهذا فلسنا بحاجة إلىٰ أن نبحث هذا الجانب من جوانب القرآن، كما لايحتاج ذلك أي خبير متضلع في القرآن. بيد أننا لابد أن نتطرق إلىٰ نقطة بهذا الخصوص، وهي إنه علىٰ أثر سرعة انتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجاً، وبسبب ترامي اطراف بلاد المسلمين وبعدها عن المدينة المنورة، مركز الصحابة وحفظة القرآن، فقد ظهر احتمال وجود خطر يهدد القرآن، وعلىٰ الأخص في المناطق النائية، حيث يمكن أن يقوم بعضهم من باب التعمد أو السهو، بإضافة أو حذف أو تغيير في نسخ القرآن هناك. غير أن ذكاء المسلمين وحسن تقديرهم للأمور، حال دون وقوع هذا

---

١ ـ سورة الحاقة، الآيتان: ٤٤ ـ ٤٦.

الإحتمال، إذ إنهم تنبهوا إلىٰ ذلك مبكراً في النصف الأول من القرن الأول الهجري، وأدركوا أن عليهم أن يدرأوا خطر أي تغيير متعمد، أو غير متعمد في القرآن، فاستفادوا من حفظته ومن الصحابة. وأرسلوا نسخاً مصدقة من المدينة إلىٰ تخوم الإسلام البعيدة، وبذلك وقفوا بوجه أي تخريب من هذا القبيل، وعلىٰ الأخص بوجه اليهود الذين كانوا أساتذة فن التزوير والتحريف المشهورين.

الثاني: المعرفة التحليلية

في هذه المرحلة يكون تحليل الكتاب هو موضع الدراسة، أي دراسة ما يشتمل عليه الكتاب من مطالب، وما يقصد إليه من أهداف، ما هي نظرته إلىٰ الكون؟ وإلىٰ الإنسان؟ وإلىٰ المجتمع؟ ماهي طريقة عرضه لتلك المطالب وأسلوب معالجته إياها؟ أينطوي علىٰ منظور فلسفي، أو كما نقول اليوم، أفيه منظور علمي؟ أينظر إلىٰ الأمور بعين العارف، أم أن له أسلوبه الخاص؟ وثمة سؤال آخر: أيحمل هذا الكتاب رسالة ما موجهة للبشرية؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب، فما هي تلك الرسالة؟

في الواقع إن المجموعة الأولىٰ من الأسئلة تتعلق بوجهة نظر الكتاب إلى الكون والإنسان والحياة والموت، أو بعبارة أشمل تتعلق بوجهة نظره الكونية، وهو ما يصطلح عليه فلاسفتنا اليوم بحكمته النظرية. أما المجموعة الأخرىٰ من الأسئلة فتتعلق بما إذا كان الكتاب يعرض خطة لمستقبل الإنسان، وعلىٰ أي طراز يريد أن يبني الإنسان والمجتمع؟ وهذا ما نطلق عليه اسم: رسالة الكتاب.

علىٰ كل حال، هذا الضرب من المعرفة يخص المحتوىٰ، ويمكن إخضاع أي

كتاب إلىٰ هذه المعرفة سواء أكان كتاب «الشفاء» لابن سينا، أم ديوان «گلستان» لسعدي. وقد نجد كتاباً ليس فيه (منظور) ولا (رسالة) أو قد يكون له (منظور) بغير رسالة، أو قد يضمهما كليهما.

أما من حيث معرفة القرآن معرفة تحليلية، فينبغي لنا أن نعرف المسائل التي يتناولها وكيفية تناوله إياها، وكيف تكون استدلالاته ومجادلاته في مختلف المواضيع.

وإذا كان القرآن حارس الإيمان ومحافظاً له، ورسالته رسالة الإيمان، فهل ينظر إلىٰ العقل بعين الرقيب المنافس محاولاً صد هجماته، أم انه بالعكس ينظر دائماً إلىٰ العقل بعين الحامي والمدافع محاولاً الاستعانة به؟ هذه الأسئلة، ومئات غيرها مما يطرح خلال المعرفة التحليلية، هي التي تقودنا إلىٰ إدراك ماهية القرآن.

الثالث: معرفة الأصل

في هذه المرحلة، وبعد الاطمئنان إلىٰ نسبة الكتاب إلىٰ مؤلفه، وبعد التحليل التام لمحتواه، علينا أن نبدأ البحث لنعرف إن كانت محتويات الكتاب ومطاليبه من إبداعات فكر المؤلف نفسه، أم أنها مدينة إلىٰ أفكار الآخرين. ففيما يتعلق بديوان حافظ، مثلاً، وبعد الانتهاء من مرحلتي المعرفة المستندية والمعرفة التحليلية، علينا ان نتساءل إن كانت هذه الأفكار والآراء التي أفرغها حافظ في قوالب الكلمات والجمل والأبيات، وعبر عنها بلغته الخاصة، قد ابتدعها بنفسه، أم أن ابوّته لها إنما تقتصر علىٰ الألفاظ والكلمات وجمالها الفني فحسب، وأن الأفكار والآراء تخص غيره من الناس؟ وبعبارة أخرىٰ إننا بعد أن نتأكد من أصالة حافظ

الفنية، ينبغي أن نتأكد من أصالته الفكرية أيضاً[١].

هذا النوع من المعرفة بخصوص حافظ أو أي مؤلف آخر هو معرفة أصول أفكار المؤلف وآرائه. وهذه المعرفة فرع يتفرع من المعرفة التحليلية. أي إننا يجب أولاً أن نعرف محتوىٰ أفكار المؤلف بدقة، ومن ثم نتوجه إلىٰ معرفة أصوله، وبغير هذه الطريقة يكون حاصل عملنا مشابهاً لما يقوم به بعض المؤلفين في كتابة تاريخ العلوم بدون أن يكون لهم أي علم بها. أو مثل بعض المؤلفين الذين يكتبون في الفلسفة، كأن يكتبوا عن ابن سينا وأرسطو ويحاولون إيجاد ما يتشابهان فيه وما يختلفان، ولكنهم مع الأسف لا يعرفون ابن سينا ولا أرسطو.

إنهم ما إن يجدوا عندهما بعض الألفاظ المتشابهة، حتىٰ يأخذوا بإصدار الأحكام، مع أن عليهم عند المقارنة أن يتعمقوا في فهم الفكرة، وإن التعمق في

---

١ ـ إذ يمكن أن يكون حافظ مجرد فنان لا مفكراً ولا عالماً، ولكنه أيضاً يمكن أن يكون في الوقت نفسه فناناً وعالماً معاً إنما الذي نسلم به هو أن حافظاً كان عالماً قبل أن يكون شاعراً. وكان عارفاً بالمفكرين الآخرين عن طريق كتبهم، كالشعراء والأدباء والمفسرين والفقهاء، والمتصوفين علىٰ وجه الخصوص، ولقد كان أكثر علمه بهم عن طريق أساتذته. إنما نحن اليوم نعرف حافظاً شاعراً أكثر من كونه عالماً، بينما كان في أيامه عالماً وإن نظم الشعر أحياناً، ففي الكتب التي تم تأليفها في زمانه وفيها ذكر له، نجده موصوفاً بما يوصف به العلماء لا الشعراء.
فإذا كان هذا العالم واقفاً علىٰ آداب زمانه، ومطلعاً علىٰ سير العلماء وسلوكهم، ومتعمقاً في معرفة متصوفة عصره، بحيث إنه استطاع أن يضع كل ذلك في الشعر بأفضل مما يستطيعه أي شاعر آخر، فهل كان عرضه تلك الأفكار متأثراً بأحد ممن سبقه؟ أم أن ذلك كان من ابتداعه وابتكاره؟ وهل لمحي الدين الأندلسي، الذي يعد أبا التصوف الإسلامي، أي أثر علىٰ حافظ؟ أفهل يستبعد أن يكون لابن الفارض المصري ـ وهو أسبق من حافظ، ولا يقل مكانة في الأدب الصوفي العربي عن مكانة حافظ في الأدب الفارسي ـ تأثير في التكوين الشكلي لأفكار حافظ؟ إن وظيفة (معرفة الأصل) هي البحث في أمثال هذه المسائل وإيجاد الإجابة عنها.

إدراك عمق أفكار اشخاص مثل ابن سينا وأرسطو ليستغرق عمراً بأكمله، ليس ما يقال غير ذلك سوىٰ تخمين وخبط عشواء.

عند بحث القرآن ومعرفته، وبعد أن نكون قد أنجزنا مطالعتنا التحليلية، يأتي دور المقارنة والمعرفة التاريخية. وهذا يعني أن علينا أن نقارن القرآن بكل محتوياته مع كتب أخرىٰ كانت موجودة في عصره، وعلىٰ الأخص الكتب الدينية. ولإجراء هذه المقارنة لابد من توفر جميع الشروط، مثل مدىٰ ارتباط شبه الجزيرة العربية بالمناطق الأخرىٰ، ونسبة الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة يؤمئذٍ في مكة... الخ. ثم نقوم بالتقويم والتقدير.

ترىٰ هل كان ما موجود في القرآن موجود أيضاً في كتب أُخرىٰ؟ فإذا وجد، فما هي نسبة وجوده؟ وهل المطالب الموجودة في الكتب الأُخرىٰ تتخذ بشكل الاقتباس أم أنها مستقلة، أم أنها لاتعدو أن تكون مجرد تصحيحات وتوضيحات لما قد يكون فيها من تحريف؟

أصالات القرآن الثلاث

عندما نقرأ عن القرآن تتضح لنا «أصالات القرآن الثلاث»:

أولاها: أصالة الانتساب، أي إننا بغير أن يخامرنا أدنىٰ شك، أو أن نحتاج إلىٰ دراسة النسخ القديمة، نكون واثقين بأن ما يقرأ اليوم باسم القرآن المجيد، هو الكتاب عينه الذي نزل علىٰ محمد بن عبدالله ﷺ.

والأصالة الثانية: هي أصالة المحتوىٰ، أي إن المعارف القرآنية ليست ملتقطة ولا مقتبسة، بل هي مبتكرة. والتحقيق في هذا الجانب تتكفل به المعرفة التحليلية.

والأصالة الثالثة: هي الأصالة الإلهية، أي إن هذه المعارف قد فاضت مما وراء أفق الرسول ﷺ الذهني والفكري، وإنه لم يكن سوىٰ ناقل هذا الوحي ومبلغ هذه الرسالة، وهذا ما تتكفل به معرفة أصل القرآن.

إنّ معرفة الأصل، أو بعبارة أخرىٰ معرفة أصالة المعارف القرآنية، مبنية علىٰ النوع الثاني من المعرفة، ولذلك فإننا سنبدأ من المعرفة التحليلية، أي إننا سنبدأ ببحث محتويات القرآن، وماهية المسائل المطروحة فيه، والمسائل التي تنال حظاً أوفر من التوكيد، وطريقة عرض تلك المسائل. فإذا استطعنا في المعرفة التحليلية أن نفي تلك المسائل والمطالب حقها، وأن نزداد معرفة بالمعارف القرآنية، نكون، كما قلنا، وصلنا إلىٰ أصالة هي أهم أصالات القرآن، وهي (الأصالة الإلهية) أي كون القرآن معجزة.

شروط معرفة القرآن

يتطلب التعرف علىٰ القرآن بعض المقدمات التي سوف نوردها فيما يلي: إن من أهم الشروط اللازمة للتعرف علىٰ القرآن هو معرفة اللغة العربية، فبمثلما يتطلب التعرف علىٰ حافظ وسعدي معرفة اللغة الفارسية، كذلك لا يمكن التعرف علىٰ القرآن المكتوب باللغة العربية إلا بمعرفة اللغة العربية. والشرط الآخر هو معرفة تاريخ الإسلام، ذلك لأن القرآن لم ينزل دفعة واحدة مثل التوراة والإنجيل. وإنما استغرق نزوله ثلاثاً وعشرين سنة من حياة الرسول ﷺ، من بعثته حتىٰ وفاته، في غضون سنوات ثائرة من تاريخ الإسلام. ولذلك فإن لآيات القرآن (شأن نزول). ولا يعني هذا أن معنىٰ الآية محدد بحدودها، بل علىٰ العكس من ذلك، إذ إن معرفة شأن النزول تساعد كثيراً علىٰ توضيح مضمون الآية وتمهد السبيل لفهمها. والشرط الثالث هو معرفة أقوال الرسول الأكرم ﷺ إذ إنه، حسبما ورد في القرآن، المفسر الأول لهذا الكتاب:

﴿وَأنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾[1].

وكما في آية أُخرىٰ:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

---

١ ـ سورة النحل، الآية: ٤٤.

وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾[١].

فالرسول، بحسب القرآن، هو المبيّن لهذا الكتاب والمفسر له، وكل ما وصلنا منه يعيننا علىٰ تفسير القرآن. أما نحن الشيعة المعتقدين بالأئمة الأطهار. والمؤمنين بأن ما كان عند الرسول ﷺ من الله قد نقله إلىٰ أوصيائه الأكرمين، نرىٰ الروايات الموثوقة التي وصلتنا منهم لها ما للروايات الموثوقة التي وصلتنا من الرسول ﷺ نفسه. ولذلك فإن الموثوق به مما يروىٰ عن الأئمة يعيننا علىٰ التعرف علىٰ القرآن كذلك.

ثمة نقطة مهمة تجب ملاحظتها عند دراسة القرآن والبحث فيه، وهي إن مجموع آيات القرآن تؤلف بنياناً متماسك الأجزاء، أي إننا لو أخذنا آية واحدة وقلنا إننا نريد أن نفهم هذه الآية وحدها، فلن نكون قد اتخذنا سبيلاً سوياً. لا شك في أن فهمنا لتلك الآية قد يكون صحيحاً، ولكنه عمل غير سليم، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهذا ما أيده الأئمة الأطهار حسبما ورد علىٰ لسان بعض كبار المفسرين. إن للقرآن طريقة خاصة في بيان المسائل، ففي كثير من الأحيان يكون للآية إذا أخذت منفردة مفهوماً يختلف كل الاختلاف عن مفهومها إذا ما وضعت إلىٰ جنب الآيات المشابهة لها في المضمون.

كمثال علىٰ طريقة القرآن الخاصة، يمكن أن نشير إلىٰ آياته المحكمات والمتشابهات والتي يحمل العامة عنها تصوراً معيناً، ويظن بعض ان المحكمات هي تلك الآيات التي ترد فيها المسائل بصورة صريحة وبسيطة، والمتشابهات، علىٰ العكس، هي التي ترد فيها المواضيع بصورة ألغاز ومعميات ورموز. وعلىٰ

---

١ ـ سورة الجمعة، الآية: ٢.

هذا يحق للناس أن يقتصروا علىٰ التدبر في محكمات آياته الصريحة، ظانين أنّ متشابهاته عصية علىٰ الفهم والتدبر.

وهنا يبرز هذا السؤال: ما هي فلسفة وجود الآيات المتشابهات؟ لماذا يعرض القرآن آيات غير قابلة للفهم؟ إن الجواب إجمالاً هو إنه لا المحكمات صريحة في معناها، ولا المتشابهات غامضة المعنىٰ. إن الغامضة من التعابير، هي ما يكون معناها مبهماً ومجملاً وفي كلمات لا تفيد المعنىٰ بصورة مستقيمة. فمثلاً عندما كافأ السلطان محمود (الغزنوي) فردوسي الشاعر مكافأة ضئيلة علىٰ الرغم مما عاناه من تعب، فإنه رفض صلة السلطان، وأخذ يهجوه في شعره، متهماً إياه بالبخل والإمساك، وكان بعض هجوه صريحاً، وبعضه الآخر مبهماً.

من ذلك قوله ما معناه: «لو كانت ام السلطان ملكة لبلغ ذهبي وفضتي ركبتي».

ويقول في مكان آخر: «إن كف السلطان محمود، فاتح البلاد، عادت تسعة في تسعة وثلاثة في أربعة». فما معنىٰ هذا؟

هنا يستخدم فردوسي تعبيراً غامضاً أشبه باللغُز وهو يقصد: ٩ × ٩ = ٨١ و ٣ × ٤ = ١٢ و المجموع = ٩٣ وهذا يعني أن كف السلطان محمود تشبه الرقم ٩٣، أي إن كفه مضمومة ضماً شديداً باستثناء الإبهام الذي يكون مع السبابة الرقم ٩. ويؤلف مع الأصابع الثلاثة الأُخرىٰ الرقم ٩٢. وبهذا يشير فردوسي إلىٰ خسة السلطان محمود.

والآن، هل في القرآن آيات ذوات ألغاز؟ إن هذا يتنافىٰ مع نصوص القرآن التي تقول إن القرآن كتاب ينير الطريق، ويفهمه كل الناس، وآياته نور وهداية. إن السر في ذلك هو أن بعض المسائل المطروحة في القرآن تدور حول ما وراء الطبيعة والأمور الغيبية. وهي أمور غير قابلة للإفصاح عنها بالألفاظ.

وكما يقول الشيخ الشبستري:

«لا يمكن ضم المعاني في الحرف، بمثلما لا يمكن ضم البحر اللامتناهي في إناء».

ولكن لما كانت لغة القرآن هي لغة الناس ذاتها. فكان لابد لتلك المواضيع الدقيقة المعنوية أن ترتدي تعابير مما يستعملها الناس للمواضيع المادية. ولغرض الحيلولة دون وقوع سوء فهم. فقد طرحت بعض الآيات بحيث لاتكون مندوحة عن الرجوع إلىٰ آيات أخرىٰ للاستعانة بها في تفسيرها. وما من سبيل غير هذا في ذلك. مثلاً، إن القرآن أراد أن يتطرق إلىٰ حقيقة «رؤية الله قلبياً». أي إن الإنسان قادر علىٰ أن يرىٰ الله بقلبه.

هذه الحقيقة وردت هكذا:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1].

فالقرآن يستخدم هنا لفظة النظر لعدم وجود كلمة أُخرىٰ تناسب المقصود.

ولكنه لكي يحول دون حدوث أي سوء فهم يقول في مكان آخر:

﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾[2].

فلا شك في أن القارئ سوف ينتبه، علىٰ الرغم من التشابه اللفظي. أن ليس بين هذين الأمرين علاقة. وأنهما منفصلان كل الانفصال. ولئلا تختلط تلك المعاني الرفيعة الشامخة بالمعاني المادية. يطلب القرآن منا أن نرجع بالمتشابهات علىٰ المحكمات:

---

١ ـ سورة القيامة، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ﴾[١].

والمحكمات هي التي لايمكن إخراجها عن معانيها، ولا أن نستنتج منها معاني أخرىٰ. تلك هي الآيات الأُم. فكما أن الطفل يرجع إلىٰ أمه، وهي مرجع طفلها ـ أو كما أن أم القرىٰ هي مرجع المدن الصغرىٰ، كذلك تكون الآيات المحكمات مراجع للآيات المتشابهات. فالمتشابهات للفهم والتدبر، ولكن بعد الرجوع إلىٰ المحكمات، فبغير عون الآيات الأم لا يكون ما نأخذه من الآيات المتشابهات موضع اعتبار.

١ ـ سورة آل عمران، الآية: ٧.

ما معنىٰ معرفة القرآن؟

عند تحليل القرآن ومعرفة محتواه، يتبادر إلىٰ الذهن السؤال التالي: أيمكن تعريف القرآن ودراسته أصلاً؟ أيمكننا أن نتدبر القرآن ونفكر في آياته؟ أم أنّه لم ينزل لكي يعرفه الناس، بل نزل لمجرد التلاوة والقراءة، ولنيل الثواب والتبرك والتيمن ليس غير؟ قد يبدو لأول وهلة أن لا داعي لإيراد مثل هذا السؤال، وأنه لا شك في أن القرآن نزل لكي يعرف؛ ولكن بما أنه قد ظهرت في دنيا الإسلام أمور يؤسف لها بحيث ما زالت ذات جذور لأفكار منحطة وخطيرة في مجتمعنا، فقد رأينا أن علينا أن نورد ما يوضح هذا الجانب من الأمور.

قبل ثلاثة قرون أو أربعة، ظهر من بين علماء الشيعة افراد اعتقدوا بأنّ القرآن ليس حجة، ورفضوا القبول بثلاثة من أصول الفقه الأربعة التي كان علماء الإسلام قد اعتبروها معياراً لمعرفة المسائل الإسلامية، وهي: القرآن، والسنة، والعقل، والإجماع.

ففيما يتعلق بالإجماع كانوا يقولون: إن هذا من تقاليد أهل السنة فلا يمكن اتّباعه.

وبخصوص العقل كانوا يقولون: كيف يجوز اعتماد العقل وهو كثير الأخطاء.

أما عن القرآن فكانوا يدعون من باب التقدير والاحترام: إنه أكبر من أن نتمكن نحن التافهين من البشر أن نطالعه ونتفكر فيه، بل إن الرسول والأئمة

وحدهم الذين يحق لهم أن يتلوا آياته. وهؤلاء هم الأخباريون. لذلك كان مرجع الأخباريين الوحيد الجائز هو الأحاديث والأخبار. وقد ينتابكم العجب إذا علمتم أن في بعض التفاسير التي كتبها هؤلاء، كانوا يدرجون الآية إذا كان لها ثمة حديث، ويغفلون إدراجها إذا لم يكن لها حديث، وكأنها ليست من القرآن. هذا لون من الظلم والجفوة بحق القرآن.

ومن البديهي إن مجتمعاً يهمل كتابه السماوي. كتاباً كالقرآن، بهذه الصورة ويطرحه في زاوية النسيان، لا يمكن أن يكون سائراً علىٰ هدي القرآن.

كان هناك غير هؤلاء جماعات أخرىٰ أيضاً، اعتقدت بضرورة إبعاد القرآن عن أيدي العامة. ومن هؤلاء، الأشاعرة الذين كانوا يعتقدون بأن معرفة القرآن لا تعني تدبر آياته، بل تعني فهم معانيها الحرفية، أي إن علينا أن نقبل بالمعنىٰ الظاهر للآيات، ولا شأن لنا بعد ذلك بالباطن.

لاشك في أن هذه النزعة تؤدي إلىٰ الإنحراف والضلال، وذلك لأن هؤلاء كانوا مضطرين إلىٰ توضيح معاني الآيات ولكنهم، بالغائهم عمل العقل، لم يكن امامهم من القرآن إلّا مفهوم هو أقرب إلىٰ مفهوم العوام. وهم لذلك سرعان ما انحرفوا عن جادة الصواب، واعتنقوا معتقدات غير صحيحة.

من ذلك مثلاً تجسيدهم الله (سبحانه) ومئات أخرىٰ من المعتقدات الخرافية، كإمكان رؤية الله تعالىٰ عياناً ومخاطبته، وإلىٰ غير ذلك.

وفي مقابل هذه الجماعات التي تركت القرآن فعلاً، ظهرت جماعة أخرىٰ جعلت من القرآن وسيلة للوصول إلىٰ غاياتهم وأهدافهم. أخذ هؤلاء يؤولون القرآن كيفما اقتضت منافعهم، ونسبوا إلىٰ القرآن أموراً لم تكن فيه إطلاقاً، وكانوا يردون علىٰ كل اعتراض قائلين إنهم وحدهم الذين يدركون المعاني الباطنية

للقرآن وإن تأويلاتهم تلك متأتية من معرفتهم بآياته.

إن أبطال هذه الجماعات فئتان: الفئة الأولىٰ هم الاسماعيلية، ويعرفون بالباطنية أيضاً. والثانية هم المتصوفة. وأكثر الاسماعيلية في الهند وقليل منهم في ايران. وقد بلغ بهم الأمر أنهم أنشأوا حكومتهم أيضاً، وهي الدولة الفاطمية في مصر. ويعرف الإسماعيليون بأنهم من الشيعة الذين يعترفون بستة من الأئمة. غير أن المقطوع به، وبإجماع واتفاق تام من علماء الشيعة الاثني عشرية، أن هؤلاء أبعد ما يكونون حتىٰ عن غير الشيعة. أي إن أهل السنة الذين لايرون في أئمة الشيعة ما يرىٰ الشيعة فيهم، أقرب إلىٰ التشيع من هؤلاء المحسوبين علىٰ الشيعة[١].

إن هؤلاء، بسبب تشبثهم بالباطنية، أساءوا إلىٰ الإسلام وخانوه خيانات عديدة في التاريخ الإسلامي، وكان لهم دور كبير في إيجاد الإنحرافات في أمور الإسلام.

بعد هؤلاء نأتي إلىٰ المتصوفة الذين كانت لهم اليد الطولىٰ في تحريف الآيات وتأويلها بحسب عقائدهم الخاصة، وكمثال علىٰ ذلك، نذكر نموذجاً من تفاسيرهم، ليتبين طراز تفكيرهم، بحيث يستطيع القارئ أن يقرأ المفصل من هذا المجمل:

لقد جاء في القرآن ذكر ابراهيم وابنه اسماعيل، وأن الله قد أمر ابراهيم في

---

١ ـ في مؤتمر «التقريب بين المذاهب الإسلامية» الذي عقد قبل حوالي ٣٥ سنة، والذي جمع أصحاب مختلف المذاهب الإسلامية لازالة كل سوء تفاهم، حضر أيضاً عدد من الاسماعيلين، غير أن الشيعة والسنة الحاضرين اتفقوا بالإجماع علىٰ عدم اعتبار هؤلاء من جملة الفرق الإسلاميّة، ومنعوهم من الإشتراك في المؤتمر.

المنام عدة مرات بذبح اسماعيل تقرباً إليه. ويعجب ابراهيم أول الأمر لهذا الأمر، ولكنه بعد تكرر الرؤيا يؤمن بذلك ويسلم أمره لله، ويفاتح ابنه بذلك، فيستسلم اسماعيل استسلام المخلص له:

﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(1).

المقصود هنا هو هذا التسليم أو الرضا بقضاء الله، ولذلك عندما قام الأب والإبن، بكل خلوص نية ونقاء سريرة بإعداد العدة لتنفيذ أمر الله تعالىٰ، توقف التنفيذ بأمر من الله أيضاً. أما المتصوفة فيرون في تفسير هذه الآية إن إبراهيم هو العقل، وإن اسماعيل هو النفس، وإن العقل ههنا كان ينوي قتل النفس.

من الواضح أن هذا المفهوم لايعدو أن يكون تلاعباً بالقرآن، ولوناً من المعرفة التحريفية. إن هذه المفاهيم المنحرفة المبنية علىٰ الأهواء الشخصية، هي التي قال فيها الرسول صلى الله عليه وآله: **«من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»**. إن هذا التلاعب خيانة للقرآن بل خيانة عظمىٰ(2).

والقرآن، في قبال جمود الأخباريين وجفاف تفكيرهم، وكذلك في مواجهة انحرافات الباطنية ومفاهيمهم الخاطئة وأمثالهم، يعرض سبيلاً وسطاً هو التأمل والتدبر الخالص المنصف وبغير تغرض. إن القرآن لايحرض المؤمنين فحسب

---

١ ـ سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

٢ ـ إنه لمما يؤسف له في هذا الزمان أن تكون سوق المفاهيم المنحرفة والتفاسير الاعتباطية رائجة، فتظهر الآراء اللا إسلامية بلبوس الإسلام. ولقد أعلن الاستاذ الشهيد حرباً شعواء علىٰ أمثال هذه الأمور، فبارز بافكاره وبقلمه الجبار، حتىٰ إنه في آخر الأمر ضحىٰ بحياته في سبيل ذلك تضحية صادقة ـ الناشر.

علىٰ التفكير في آياته، بل إنه يحث المخالفين له علىٰ ذلك أيضاً، ويطلب منهم ألا يتحزبوا، بل يتأملوا في آياته، ويقول:

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(١).

وفي آية أُخرىٰ يقول:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(٢).

أي أنه كتاب غزير الثمر، كثير البركة، وإن تدبر آياته لا يعني تقبيله ومن ثم وضعه علىٰ الرف، بل يعني تدبر آياته والتفكير فيها.

إن هذه الآيات وعشرات أُخرىٰ في توكيد تدبر القرآن، تجيز كلها تفسير القرآن وتؤيده، ولكن لا التفسير المبني علىٰ هوىٰ النفس، بل المبني علىٰ أساس من الصدق والإنصاف والتجرد عن الغرض. فعندما نتأمل في القرآن صادقين وغير مغرضين، لن تكون هناك ثمة ضرورة إلىٰ أن تكون لنا القدرة علىٰ حل كل مسائله.

إن القرآن من هذا المنظور أشبه بالطبيعة. ففي الطبيعة كثير من الأسرار التي ما زالت تفتقر إلىٰ الحل، وليس بالإمكان حلها في الظروف السائدة فعلاً، ولكنها سوف تحل في المستقبل. ثم إن الإنسان في سعيه لمعرفة الطبيعة ينبغي له أن يلائم بين تفكيره والطبيعة كما هي، لا أن يفسر الطبيعة علىٰ حسب ما يشاء هو. وكذلك هو القرآن، فإنه لم ينزل لزمان واحد، ولو لم يكن الأمر كذلك، لا نكشفت أسراره منذ أمد، ولفقد هذا الكتاب السماوي كل جاذبيته وجدته وتأثيره. غير أننا نرىٰ أن

---

١ ـ سورة محمد، الآية: ٢٤.

٢ ـ سورة ص، الآية: ٢٩.

الرغبة في تدبره والتفكير فيه واستكشاف جديده لم يزل باقياً كما كان، وهذه ملاحظة سبق أن شرحها النبي والأئمة.

فقد ورد في حديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «**مثل القرآن كمثل الشمس والقمر، فهو مثلهما في جريان دائم**». أي إنه ليس علىٰ وتيرة واحدة ولا هو قد سمرّ في مكان واحد. وقال علي عليه السلام: «**القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق**»[1].

وجاء في عيون أخبار الرضا عليه السلام عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه سئل عن السرّ في أن القرآن تزداد طراوته وجدته بتقادم الزمان عليه وبتكرار تلاوته. فقال: لأن القرآن لم ينزل لزمان دون زمان ولناس دون ناس، بل إنه نزل لكل الأزمان ولكل الناس. إن منزّله قد صاغه بحيث إنه يتقدم علىٰ كل تطور في العلم والتفكير، علىٰ الرغم من التطور الهائل في المعارف والعلوم، كما أنه يعرض من المعاني والمفاهيم القابلة للدرك بما يتسع لظرفية الزمان واشباعه.

---

١ ـ بحار الأنوار: ج ٢، ص ٢٨٤.

الفصل الأول

معرفة القرآن تحليلياً

نريد في هذا الفصل ان نبحث في محتويات القرآن. وطبيعي أننا لو اردنا تناول موضوعاته موضوعاً موضوعاً لاقتضانا ذلك أطناناً من الورق. وعليه فسوف نعالج الكليات أولاً، ومن ثم نعود إلى بعض من الجزئيات.

يتناول القرآن كثيراً من المطالب بالبحث، وفي غضون ذلك يؤكد بعضها توكيداً أكبر دون بعض. ومن جملة الأمور التي جرىٰ بحثها في القرآن، إله الكون والكون. علينا أن نرىٰ كيف ينظر القرآن إلىٰ الله. هل يعرّفه معرفة فلسفية، أم معرفة تعبدية؟ هل يذهب، مثل التوراة والإنجيل، مذهباً دينياً، أم أنه يسير كما تسير الديانات الهندية، أم أن له مذهبه الخاص والمستقل في معرفة الله؟

والموضوع الآخر هو الكون. لابد لنا أن ندرك النظرة التي ينظر بها القرآن إلىٰ الكون. فهل ينظر إلىٰ الخليقة والكون نظرة عبث ولهو؟ أم أنها نظرة الصدق والحق؟ فهل يرىٰ جريان العالم يسير علىٰ وفق سنن ونواميس، أم يراه يجري علىٰ غير هدى أو قاعدة، بحيث لايبدو أي شيء سبباً لأي شيء آخر؟

ومن جملة المسائل الكلية المطروحة في القرآن مسألة الإنسان. فلابد من تحليل نظرة القرآن إلىٰ الإنسان. أتراه يتحدث عن الإنسان متفائلاً، أم أن نظرته إليه سلبية ومتشائمة؟ أيرىٰ الإنسان حقيراً، أم يرىٰ أن له كرامة وعزة؟

ومسألة أخرىٰ هي مسألة المجتمع الإنساني. أفهل يرىٰ القرآن للمجتمع الإنساني أية أصالة، أم يرىٰ الفرد هو الأصيل؟ وهل للمجتمع الإنساني في نظر القرآن حياة وموت ورفعة وانحطاط، أم أن هذه الصفات تختص بالفرد فحسب؟ وهنا تدخل مسألة التاريخ، وكيف ينظر القرآن إليه. ترىٰ ما هي القوىٰ المحركة للتاريخ، وما هو مقدار تأثير الفرد في التاريخ؟

هنا لك مسائل كثيرة أُخرىٰ يطرحها القرآن، ونحن نورد هنا سرداً لبعض منها: نظرة القرآن إلىٰ القرآن، ثم مسألة الرسول في القرآن، وكيف يعرّف القرآن الرسول، وكيف يحادثه... ثم مسألة تعريف المؤمن في القرآن، وماهية صفات المؤمنين، وغيرها.

ولا شك في أن لكل واحدة من هذه المسائل الكلية مسائل فرعية، فمثلاً عند الكلام عن الإنسان، لابد لنا أيضاً أن نتكلم عن الأخلاق، أو إذا تحدثنا عن المجتمع، لابد أن نتحدث عن روابط الأفراد، وعن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن مسائل الطبقات الإجتماعية... وغير ذلك كثير.

كيف يعرّف القرآن نفسه؟

من الأفضل في تحليل القرآن أن نبدأ من ملاحظة رأيه في نفسه، وكيف يعرّف نفسه. إن أول ما يطالعنا بهذا الشأن هو قوله إن هذه الكلمات والعبارات هي كلام الله. إنه يعلن صراحة أن الرسول ليس هو منشىء القرآن، بل إنه إنما يبين ما

ينزل به روح القدس أو جبرائيل بإذن الله.

والأمر الآخر الذي يوضحه القرآن هو تعريف رسالته. وهي إنها هداية أبناء البشر وقيادتهم للخروج بهم من الظلمة إلىٰ النور:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[١].

ولا شك أن من مصاديق هذه الظلمات، الجهالة. فالقرآن يقود البشر من ظلمة الجهل إلىٰ نور العلم؛ ولكن لو كانت هذه الظلمات تنحصر بالجهل فحسب، فقد كان بإمكان الفلاسفة أن يقوموا بتلك المهمة، غير أن هناك ظلمات أخرىٰ أخطر بكثير من ظلمة الجهل، ولا يستطيع العلم أن يعالجها. فهناك مثلاً حب المال، والأنانية، واتباع الشهوات، وغيرها... مما يعتبر من الظلمات الفردية الأخلاقية. وثمة ظلمات اجتماعية كالظلم، والتمييز، وغيرها... والظلم من مشتقات الظلام، مما يوحي بنوع من الظلام الإجتماعي المعنوي، وإن مكافحة هذه الظلمات من شأن القرآن والكتب السماوية الأخرىٰ.

يخاطب القرآن موسىٰ بن عمران قائلاً:

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾[٢].

إنها ظلمات الظلم، ظلم فرعون والفراعنة، والنور هو نور الحرية والعدالة.

إنّ مما التفت إليه المفسرون هو أن القرآن لايورد كلمة «الظلمات» إلا بصيغة الجمع، ومقرونة بالألف واللام، لتدل علىٰ الاستغراق، فتشمل كل ضروب الظلمات، ولكنه يورد النور بصيغة المفرد. وهذا يعني أن الطريق الصحيح واحد لا

---

١ ـ سورة إبراهيم، الآية: ١.

٢ ـ سورة ابراهيم، الآية: ٥.

أكثر، بينما سبل الانحراف والضلال عديدة. من ذلك مثلاً الآية التالية:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[1].

وهكذا يعين القرآن هدفه: تحطيم اغلال الجهل والضلال والظلم والتردي الأخلاقي والإجتماعي. وبكلمة واحدة: القضاء علىٰ الظلمات، والهداية نحو العدالة والخير والنور.

معرفة القرآن

المسألة الأخرىٰ، مسألة معرفة لغة القرآن وتلاوته. يظن بعضهم أن القصد من تلاوة القرآن هو قراءته طمعاً في الثواب دون إدراك شيء من معانيه. هؤلاء هم الذين «يختمون» القرآن مرّات عديدة، ولكننا إذا سألنا أحدهم إن كان قد فهم معنى ما يقرأ فسوف يعجز عن الجواب. إن قراءة القرآن بقصد تفهم معانيه أمر لازم ومطلوب، لا بقصد الحصول علىٰ الثواب فقط.

إن لإدراك معاني القرآن مستلزمات لابد من الإهتمام بها. إن ما يحصل عند القارئ الذي يريد تعلم كتاب ما، هو سلسلة من الأفكار الجديدة لم تخطر له من قبل. فههنا يكون العقل وقوة فكر القارئ هما الفاعلان النشيطان. وفيما يتعلق بالقرآن يجب أن يكون التعلم والإدراك هما القصد من قراءته. والقرآن هو نفسه يقول:

---

١ ـ سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبارَك لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[١].

إن واحدة من وظائف القرآن، التعليم. وهنا يخاطب القرآن عقل الإنسان بلغة المنطق والإستدلال،؛ ولكن للقرآن لغة أُخرىٰ لايخاطب بها العقل، بل القلب، ويطلق علىٰ هذه اللغة الثانية اسم الإحساس، فمن يريد أن يتعرف علىٰ القرآن وأن يأنس به، عليه أن يعرف هاتين اللغتين، وأن يستفيد منهما معاً، إذ إن الفصل بينهما يؤدي إلىٰ الخطأ، وسوء الفهم، وما هذا إلاّ خسران كبير.

إن ما نطلق عليه اسم القلب هو ذلك الإحساس العظيم والعميق الكامن في داخل الإنسان، وقد يطلقون عليه أيضاً اسم الإحساس بالوجود، أي ذلك الاحساس الذي يرتبط بالوجود المطلق. إن من يعرف التكلم بلغة القلب ويخاطب به الإنسان فإنه يهزه من أعماق حياته وكنه وجوده، وعندئذ لايكون العقل وحده تحت التأثير، بل الوجود بأكمله يكون متأثراً.

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً للغة الاحساس، فإننا نضرب بالموسيقىٰ مثلاً لذلك. فالموسيقىٰ، علىٰ اختلاف انواعها، تشترك في أمر واحد، وهو إنها تعالج إحساس الإنسان. إنها تهيج روح الإنسان وتغرقه في عالم خاص من المشاعر. وبالطبع تختلف انواع الهيجانات باختلاف انواع الموسيقى.

فقد يمتاز نوع بإثارته مشاعر البطولة والحماس، فهو يخاطب الإنسان بهذه اللغة. انكم تعرفون أنهم يعزفون الموسيقى العسكرية والأناشيد خلال الحروب. إن تأثير هذه الموسيقى يكون أحياناً من القوة بحيث إن الجندي المرتعد خوفاً من العدو داخل خندقه، يندفع خارجاً متحدياً هجمات العدو ويقابله بالهجوم.

١ ـ سورة ص، الآية: ٢٩.

ونوع آخر من الموسيقى قد يثير أحاسيس الشهوة، فيرتخي الإنسان، ويرتمي في أحضان الشر. من الملاحظ أن هذا اللون من الموسيقى متفش وواسع الإنتشار، ولعله أقدر من أي شيء آخر علىٰ هدم جدران العفة والاخلاق. وهكذا الأمر فيما يتعلق بالغرائز والمشاعر الأخرىٰ، التي يمكن السيطرة عليها ووضعها تحت المراقبة، سواء عن طريق الموسيقى أم أية وسيلة أخرىٰ.

إن من أرفع غرائز الإنسان واحساساته هي حسه الديني، وفطرته في البحث عن الله. فتوجه القرآن يكون نحو مخاطبة هذا الحس الشريف السامي[١].

القرآن نفسه يوصينا أن نقرأه بلحن لطيف وجميل. إن هذا اللحن السماوي، هو اللحن الذي يخاطب به القرآن فطرة الإنسان الإلهية ويجذبها إليه[٢]. عند وصف القرآن ذاته يقول إنه يتكلم بلغتين، فهو مرة كتاب الفكر والمنطق الاستدلالي، ومرة أُخرىٰ كتاب المشاعر والعشق. وبعبارة أخرىٰ، ليس القرآن غذاء العقل والفكر بحسب، بل هو غذاء الروح أيضاً.

والقرآن يؤكد موسيقاه الخاص توكيداً كبيراً. تلك الموسيقىٰ التي يكون تأثيرها في استثارة مشاعر الإنسان العميقة والسامية أقوىٰ من كل موسيقىٰ. فالقرآن يطلب من المؤمنين أن يقضوا بعض ليلهم في تلاوته. وأن يقرأوه كذلك خلال الصلاة عند توجههم إلىٰ الله. إنه يخاطب الرسول قائلاً:

---

١ ـ لقد قيل الكثير في شرق العالم وغربه عن هذا الحس الديني. إننا هنا سوف نوجز أقوال عالمين من علماء العالم. أوّلهما هو أنشتاين. ففي إحدىٰ مقالاته يتطرق إلىٰ الدين ويقول إنه يعتقد بأن في العالم عموماً ثلاثة أنواع من الأديان.

٢ ـ كان الأئمة عليهم السلام يقرأون القرآن بكثير من الانفعال والتهيج بحيث كان المستطرقون المستمعون إليهم يتوقفون عنوة وتنقلب أحوالهم ويجهشون في البكاء.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً * نِصْفَهُ ...﴾[١].

قم ناج ربك، ورتل القرآن في صلاتك. والترتيل يعني عدم الإسراع في القراءة لئلا تتداخل الكلمات فلا تفهم، وعدم الإبطاء إلىٰ درجة فصم الرابط بين المعاني. يقول إقرأ القرآن بتأنٍّ وبتوجه إلىٰ المعنىٰ. ويضيف في آيات أخرىٰ في السورة نفسها مخاطباً الناس: إذا ما ألجأتكم أعمالكم اليومية، كالتجارة والجهاد في سبيل الله. إلىٰ فترة نوم أطول، فلا تنسوا خلوة العبادة[٢].

إنّ السبب الوحيد الذي كان يزيد نشاط المسلمين، وقدرتهم الروحية، وخلوصهم، وصفاء بواطنهم، هو موسيقىٰ القرآن. لقد أحال نداء القرآن، في فترة وجيزة، النفوس الخشنة الجافة في جزيرة العرب إلىٰ مؤمنين ثابتة أقدامهم. تمكنوا من مصارعة أقوىٰ سلطات زمانهم والقضاء عليهم. لم يكن المسلمون ينظرون إلىٰ القرآن علىٰ أنه مجرد كتاب للدرس والتعليم فحسب، بل كانوا يرون فيه غذاء للروح، ومادة لكسب القوة وازدياد الإيمان. كانوا يتلونه أثناء الليل بنية خالصة. يناجون ربهم، وفي النهار يهجمون علىٰ الأعداء كالأسود الضارية. ولقد كان القرآن يتوقع هذا من المؤمنين به. إذ يقول مخاطباً الرسول:

﴿فَلا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾[٣].

إن قصة حياة الرسول نفسها مصداق لهذا القول. فهو بمفرده، وبغير سند، يرفع القرآن، ويبدأ ثورته، فيكون القرآن له كل شيء، يعد له الجند، ويهئ السلاح

---

١ ـ سورة المزمل، الآيتان: ١ ـ ٢.

٢ ـ جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام لختم القرآن: «واجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مؤنساً».

٣ ـ سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

والعدة، وأخيراً يجبر العدو علىٰ الخضوع والتسليم، ويجتذب افراد العدو لينحنوا أمام رسول الله، وهكذا يفي الله بما وعد[١].

عندما يسمىٰ القرآن لغته بلغة القلب، إنما يقصد ذلك القلب الذي يريد أن يصقله ويهذبه بآياته ويثيره. وهذه غير لغة الموسيقىٰ التي تغذي أحياناً رغبات الإنسان الشهوانية. وهي كذلك غير لغة المارشات العسكرية والأناشيد الحربية التي يعزفونها في الجيش لاستثارة روح الحرب في الجنود، بل إنّها تلك اللغة التي تجعل من أعراب البادية مجاهدين قيل فيهم: «حملوا بصائرهم علىٰ أسيافهم».

أولئك الذين وضعوا معارفهم ونظراتهم وأفكارهم النيرة ومداركهم الإلهية والمعنوية علىٰ أسيافهم التي شهروها في سبيل تلك المعتقدات. لم تكن لديهم منافع شخصية ولا مسائل فردية. وعلىٰ الرغم من أنهم لم يكونوا معصومين من الخطأ، وكانت تصدر عنهم أخطاء. إلا أنهم كانوا يمثلون مصداق القول: «**قائم الليل وصائم النهار**». كانوا دائماً علىٰ ارتباط عميق بالوجود، فيقضون ليلهم بالعبادة ونهارهم بالجهاد[٢].

---

١ ـ يتحقق وعد الله الحق هذا في زماننا أيضاً، فيظهر رجل من ذرية الرسول، يؤمن، كجده، بالقرآن وحده، فينزل بجند الكفر وجيش الباطل هزيمة مهلكة ـ الناشر.

٢ ـ في الخطبة رقم ١٩٣ من خطب نهج البلاغة المعروفة باسم «المتقون» يعدد أمير المؤمنين عليه السلام صفات المتقين، وبعد أن يذكر كيف هم قولاً وفعلاً، يصف حالهم في الليل، أو كما يقول سعدي: يصف ليالي رجال الله قائلاً:

«أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن، يرتلونه ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم» أي انهم يقرأون القرآن قراءة تفهم وتأمل، لا كما يقرأ بعضنا القرآن اليوم، بغير أن نفهم شيئاً من معناه. وهم يقرأونه بلحن محزون خاص، ينبعث من قلوبهم، وإذا ما بلغوا آية فيها إشارة إلىٰ رحمة الله.

⇦

فالقرآن بالنظر لخصوصيته في كونه كتاباً للقلب والروح، يثير الأشجان، ويسيل الدموع، ويهز الأفئدة. ويصدق هذا حتىٰ علىٰ أصحاب الكتب الأخرىٰ:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾[1].

ويؤكد في آية أخرىٰ إن النصارىٰ من أهل الكتاب أقرب إلىٰ المسلمين من اليهود والمشركين.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾[2].

ثم يصف النصارىٰ الذين يؤمنون عند سماع القرآن فيقول:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[3].

وعند الإشارة إلىٰ المؤمنين عموماً. يصفهم هكذا:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[4]

في هذه وفي كثير غيرها من الآيات (مثل الآية ٥٨ من سورة مريم، والآيات

⇦ نظروا بشوق، وإذا ما بلغوا آية تشير إلىٰ غضب الله. هلعت قلوبهم، وكأنهم يسمعون صراخ أهل النار.

١ ـ سورة القصص، الآيتان: ٥٢ ـ ٥٣.

٢ ـ سورة المائدة، الآية: ٨٢.

٣ ـ سورة المائدة، الآية: ٨٣.

٤ ـ سورة الزمر، الآية: ٢٣.

الأول من سورة الصف) يشير القرآن صراحة إلىٰ أنه ليس كتاباً علمياً وتحليلياً فحسب. بل إنه في الوقت الذي يستفيد فيه من منطق الإستدلال. كذلك يتحدث مع مشاعر البشر وأذواقهم، ويضع أرواحهم تحت تأثيره.

من يخاطبهم القرآن

من النقاط الأخرىٰ التي ينبغي استنباطها من معرفة القرآن هي معرفة الذين يخاطبهم. إننا نجد في القرآن تعابير مثل: «هدى للمتقين»، و«هدىٰ وبشرىٰ للمؤمنين»، و«ولينذر من حيّ» وهنا نتساءل: إن الهداية لا لزوم لها للمتقين. لأنهم متقون.

ومن جهة أخرىٰ نجد القرآن يعرف نفسه قائلاً:

﴿إِنّ هُوَ إلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[١].

إذن، هل نزل الكتاب لكل الناس أم للمؤمنين دون غيرهم؟ وفي آية أخرىٰ يخاطب الله رسوله فيقول:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٢].

سيأتي توضيح ذلك مفصلاً عند الكلام عن التاريخ في القرآن. ولكننا هنا نجمل قائلين إن الآيات التي تخاطب أهل العالم كلهم، يقصد منها القول في الواقع

---

١ ـ سورة ص، الآية: ٨٧.
هذه واحدة من آيات القرآن العجيبة. فعند نزولها كان الرسول ﷺ في مكة، وكان يحادث أهل إحدىٰ القرىٰ. لقد كان مما يثير ضحك الناس أن يسمعوا شخصاً وحيداً يقول بكل اطمئنان: إن خبر هذه الآية سيأتيهم فيما بعد، أي سيعرفون ما فعل هذا الكتاب بالعالمين في مدة وجيزة.

٢ ـ سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

إنّ القرآن لايختص بقوم أو بجماعة بعينها، فمن يقترب صوب القرآن ينجُ.

أما الآيات التي تخاطب المؤمنين والمتقين، فالمقصود هو الإشارة إلىٰ نوع الناس الذي سيجتذبهم القرآن إليه، والنوع الذي سيبتعد عنه في نهاية الأمر. والقرآن لايشير إلىٰ قبيلة بعينها أو قوم معينين علىٰ أنهم من المرتبطين به والمؤيدين له. وهو لايقول إنه يختص بقوم دون قوم، ولا هو يضع إصبعه علىٰ منافع طبقة معينة كما تفعل باقي المذاهب، فلا يقول إنه جاء لحماية مصالح الطبقة الفلانية فحسب. إنه لا يقول مثلاً إنه جاء ليحمي مصالح الطبقة العاملة دون غيرها، أو لتأييد طبقة الفلاحين فقط. بل إنه يؤكد كونه كتاباً جاء ليبسط العدل.

ويقول بشأن الرسل:

﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ﴾(١).

يريد القرآن القسط والعدالة لكل المجتمعات الإنسانية، لا لهذه الطبقة أو لتلك، أو لقوم دون قوم. يريد القرآن، بخلاف بعض المذاهب، كالنازية، أن يجتذب الناس، فيضع إصبعه علىٰ مواطن عصبيتهم. وكذلك هو، بخلاف الماركسية مثلاً، لايستند إلىٰ ما في الإنسان من روح النفعية والمصلحية، ولايحركه عن طريق منفعته(٢).

وكما أن القرآن يقول بأصالة الإنسان العقلية. يقول أيضاً بأصالته الوجدانية والفطرية. وإن فطرة البحث عن الحق والعدالة هي التي تحمل الإنسان علىٰ السير والحركة.

---

١ ـ سورة الحديد، الآية: ٢٥.

٢ ـ حيث في هذه الحالة لاتكون العدالة والحق من أهداف أتباعه، بل سيكون هدفهم الوصول إلىٰ منافعهم واتباع رغباتهم.

لذلك فرسالة الرسول ليست موجهة إلىٰ العمال أو الفلاحين أو المحرومين أو المستضعفين. إن القرآن يخاطب كلا الظالم والمظلوم، يدعوهما إلىٰ طريق الحق.

موسىٰ يبلغ رسالته لبني اسرائيل ولفرعون كليهما، ويطلب منهما الإيمان بالله والمسير في طريقه. كذلك عرض محمد صلى الله عليه وآله رسالته ودعوته علىٰ سراة قريش، وعلىٰ أمثال أبي ذر وعمّار. يورد القرآن نماذج عديدة لتحريض الفرد علىٰ التمرد علىٰ ذاته، والرجوع عن طريق الضلال والفساد إلىٰ طريق التوبة. لاشك في أن القرآن ذاته يعلم أن توبة الذين كانوا يعيشون في رفاه ونعيم أصعب بكثير من توبة المحرومين والمظلومين، فهؤلاء يسيرون بمقتضىٰ الطبع في طريق العدالة. أما الأولون فعليهم أن يتنازلوا عن مصالحهم الشخصية وامتيازاتهم القبلية وأهوائهم.

يقول القرآن إن أتباعه هم ذوو الأرواح الطاهرة النقية. وإن تبعية هؤلاء للقرآن متأتية من حبهم الفطري للبحث عن الحقيقة والعدالة، وليس لميولهم الدنيوية ومنافعهم المادية وأهوائهم الخاصة.

الفصل الثاني

العقل في نظر القرآن

تكلمنا في الفصل السابق باختصار عن لغة القرآن، وذكرنا إن القرآن يستعين بلغتين في إبلاغ رسالته، وهما لغة الاستدلال المنطقي، ولغة الاحساس. ولكل من هاتين اللغتين مخاطبوها المختصون. فالأولىٰ تخاطب العقل. والثانية تخاطب القلب. في هذا الفصل سوف نتناول بالبحث وجهة نظر القرآن في العقل.

علينا أن نعرف أن كل القرآن يعتبر العقل سنداً، أو كما يقول علماء الفقه والأُصول، هل العقل حجة؟ أي إذا كان المكتشف حقاً من مكتشفات العقل الصحيحة. فهل ينبغي علىٰ البشر أن يحترموه وأن يعملوا بموجبه أم لا؟ فإذا عمل به وارتكب في ذلك أحياناً خطأ ما، فهل سيعذره الله علىٰ ذلك أم سيعاقبه؟ وإذا لم يعمل به، فهل سيعاقبه الله علىٰ عدم العمل به مع أن عقله قد حكم بذلك، أم لا؟

دلائل كون العقل حجة

إن كون العقل حجة وسنداً في نظر الإسلام أمر ثابت، كما أن علماء الإسلام جميعاً، ومنذ البداية وحتىٰ الآن ـ عدا مجموعة صغيرة ـ لم يشكّوا في سندية العقل، واعتبروه أحد مصادر الفقه الأربعة.

١ ـ الدعوة إلىٰ التعقل في القرآن

بما أننا نبحث في القرآن، فلابد لنا من الرجوع إلىٰ القرآن نفسه للحصول علىٰ الدليل الذي يثبت كون العقل حجة. إن القرآن يضع توقيعه علىٰ مستند سندية العقل بطرق مختلفة. وأوكد: بطرق مختلفة. فمن الآيات يمكن أن نعد ستين أو سبعين آية وردت في القرآن تشير إلىٰ أن موضوعاً ما قد طرح لكي يتدبره العقل. ولنضرب مثلاً إحدىٰ الآيات العجيبة في القرآن:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾[١].

من الواضح بالطبع، إن المقصود بالصم البكم ليس العضوي منهما، بل المقصود هو الجماعة من الناس الذين لايريدون أن يسمعوا الحقيقة، وإذا سمعوها لايعترفون بها بألسنتهم. فالأذن التي تعجز عن سماع الحقائق، ولا تعجز عن سماع لغو الكلام الفارغ، لهي في القرآن أذن صماء. واللسان الذي يقتصر علىٰ الشقشقة والهراء، لهو في القرآن لسان أبكم.

أما «الذين لايعقلون» فهم الذين لاينفعهم تفكيرهم. وهؤلاء لايراهم القرآن جديرين بصفة (الإنسان)، فأدرجهم في سلك الحيوانات والدواب، فيخاطبهم بهذا المنظور[٢].

وفي آية أخرىٰ يطرح مسألة الإيمان، بقوله:

---

١ ـ سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

٢ ـ يورد سعدي هذا المضمون في بيت شعر جميل:

به نطق آدمى بهتر است از دواب دواب از تو به گر نگوئى صواب

«الإنسان خير من الدواب بنطقه لكن الدواب خير منك إن لم تقل صواباً».

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[١].

وعلىٰ أثر طرح هذه المسألة الغامضة التي لايتسع بعض القول لدركها. تستأنف الآية قولها:

﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾[٢].

في هاتين الآيتين اللتين اوردتهما، مثالين، يدعو القرآن إلىٰ إعمال العقل بدلالة التطابق، حسب تعبير أهل المنطق. هنالك آيات كثيرة أخرىٰ يؤكد فيها القرآن سندية العقل بدلالة الالتزام[٣]. أي إنه يتكلم بأمور يستحيل قبولها دون القبول بسندية العقل وحجته. فهو مثلاً يطلب من الخصم استدلالاً عقلياً، حيث يقول: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[٤].

أي إنه يريد أن يبين، بدلالة الالتزام، إن العقل حجة وسند أو إنه لكي يثبت وحدة الوجود صراحة يعتمد القياس المنطقي:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٥].

---

١ و ٢ ـ سورة يونس، الآية: ١٠٠.

٣ ـ عندما يقودنا وجود أمر إلىٰ أمر آخر. نطلق علىٰ ذلك اسم الدلالة. والدلالات انواع شتىٰ ومنها الدلالة اللفظية، وهذه تتخذ صوراً ثلاثاً:

الاولى: دلالة التطابق أو المطابقة، أي أن اللفظة تدل علىٰ كل معناها، كأن نقول: سيارة ونقصد كل اجزائها.

الثانية: دلالة التضمين، أي إن اللفظة تدل علىٰ جزء من المعنىٰ، كأن نقول: السيارة هنا، ونفهم من ذلك أن هيكلها أو محركها موجود أيضاً.

الثالثة: دلالة الالتزام، أي إن في اللغة دلالة علىٰ أمر خارج معناها، كأن نسمع اسم حاتم الطائي فيخطر لنا جوده وكرمه.

٤ ـ سورة البقرة، الآية: ١١١.

٥ ـ سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

وهنا يقيم القرآن قضية شرطية، فقد استثنىٰ المتقدم وأهمل المتأخر، إن القرآن، بتوكيده العقل، يريد إبطال أقوال بعض الأديان التي تقول إن الإيمان غريب عن العقل، وإنه، لكي يؤمن المرء، عليه أن يعطل عمل العقل، وأن يكتفي بعمل القلب، لكي يدخله نور الله.

٢ ـ الاستفادة من العلة والمعلول

إن من الأدلة الأخرىٰ علىٰ قول القرآن بأصالة العقل هو تبيان بعض المسائل باستخدام العلية والمعلولية.

فالعلة والمعلول، وأصل العلية، قواعد للفكر العقلاني، وهذا ما يحترمه القرآن ويعمل به. وعلىٰ الرغم من أن القرآن كلام الله، وأن الله هو خالق العلة والمعلول، وأن الكلام يدور علىٰ ما وراء ما تقع العلة والمعلول دونه، فإنه مع ذلك لا يغفل عن ذكر السببية والمسببية لهذا العالم، ويضع الوقائع والظواهر تحت سيطرة هذا النظام.

من ذلك الآية التي تقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١).

وهو بهذا يريد أن يقول إنه مع أنّ كل المصائر بيد الله، فإن الله يحمّل البشر مصائرهم بسبب اختيارهم وتصميمهم وعملهم، ولا يقوم بعمل جزافاً، بل حتىٰ المصائر لها نظام، ولن يغير الله مصير مجتمع علىٰ عواهنه وبغير بديل، إلا إذا غير المجتمع ما به، كأن يغير نظامه الأخلاقي أو الإجتماعي...

---

١ ـ سورة الرعد، الآية: ١١.

والقرآن من ناحية أُخرىٰ يحث المسلمين علىٰ النظر في أحوال الأقوام السالفة ومصائرها، يستخلصون منها الدروس والعبر. من البديهي إنه لو كانت مصائر الأقوام والملل وأنظمتها قد سارت خبط عشواء، ومصادفة. أو لو كانت تلك المصائر مفروضة من فوق، لما كان ثمة داع لدرس أو عبرة. فبهذا التوكيد يريد القرآن أن يشير إلىٰ أن مصائر الأقوام تتحكم بها أنظمة واحدة، أي لو تشابهت ظروف مجتمع ما مع مجتمع آخر لتشابه مصيرهما.

وقد جاء في آية أخرىٰ:

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[١].

نجد في كل هذا أنّ قبول النظم بدلالة الالتزام يؤيد النظام المبني علىٰ العلة والمعلول والقبول بحجية العلة والمعلول، قبول بسندية العقل.

٣ ـ فلسفة الأحكام

من الدلائل الأُخرىٰ علىٰ القبول بحجية العقل في نظر القرآن، هو القول بوجود فلسفة للدساتير والأحكام. أي إن العلة في وضع الدستور هي المصلحة. يقول علماء الأُصول إن المصالح والمفاسد تتدرج في سلسلة علل الأحكام. فمثلاً، يقول القرآن: أقيموا الصلاة.

ثم يذكر في مكان آخر فلسفة هذا الأمر:

---

١ ـ سورة الحج، الآيتان: ٤٥ ـ ٤٦.

﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ﴾[١].

فيشرح الأثر الروحي للصلاة، وكيف أنها ترتفع بالانسان عن الفحشاء، فيبتعد عن المفاسد والموبقات. أو أنه يذكر الصوم، ويأمر الناس به، ثم يقول:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

وهكذا الأمر فيما يتعلق بأحكام أُخرىٰ، كالزكاة والجهاد، فقد بين القرآن في جميع الموارد مردوداتها الفردية والاجتماعية. وعليه فإن القرآن يمنح هذه الأحكام جانبها الدنيوي، علىٰ الرغم من كونها سماوية ومن الأعلىٰ، ويطلب من الإنسان أن يتأملها، ويتفكر فيها، لكي يستبين له كنه الأُمور، ولئلا يحسبها مجرد سلسلة من الرموز أسمىٰ من فكر البشر.

٤ـ مكافحة شطحات العقل

ثمة دليل آخر، أقوىٰ مما سبق، علىٰ أصالة العقل في نظر القرآن، وهو مكافحة القرآن لشطحات العقل. ولكي نوضح هذا الأمر لابد لنا من إيراد مقدمة قصيرة.

لا شك في أن فكر الإنسان يقع في الخطأ في كثير من الأحيان، وهذا أمر معروف وشائع، ولكنه ليس مقصوراً علىٰ العقل، فالحواس والمشاعر تخطىء أيضاً، وقد أحصوا لحاسة البصر عشرات الأنواع من الأخطاء. ففيما يتعلق بالعقل، كثيراً ما يتفق أن يستدل الإنسان علىٰ أمر، ويتوصل إلىٰ نتيجة، ومن ثم يتضح ان

---

١ ـ سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

٢ ـ سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

استدلاله كان خطأ من أساسه. وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: أيجب علينا أن نلغي عمل العقل بسبب خطئه هذا، أم ينبغي أن نوجد وسائل وأسباباً تحول دون العقل وارتكاب الخطأ؟ في الرد علىٰ هذا السؤال يقول السفسطائيون إن الاعتماد علىٰ العقل غير جائز، بل إن الاستدلال لغو لا طائل وراءه. ويرد الفلاسفة عليهم ردوداً مفحمة، قائلين، مثلاً، إن الحواس تقع أيضاً في الخطأ كالعقل، غير أن أحداً لم يحكم بتعطيل الحواس وبعدم استعمالها. ولما لم يكن بالإمكان الاستغناء عن العقل، اضطر المفكرون إلىٰ الحيلولة دون وقوعه في الخطأ.

وفي غضون بحثهم في هذا الموضوع لاحظوا أن كل استدلال يتكون من قسمين: المادة، والصورة، كما هي الحال عند تشييد عمارة، إذ نكون بحاجة إلىٰ السمنت والحديد والجص الخ.. (المادة) وإلىٰ هيكل البناء وشكله (الصورة). ولكي تبنى العمارة علىٰ خير ما يكون، علينا أن نهيء أفضل المواد، وأجمل خريطة مكتملة لا نقص فيها. كذلك الأمر في الاستدلال، فلكي يكون صحيحاً لابد أن تكون مادته وصورته صحيحتين. وللتوصل إلىٰ صورة صحيحة للاستدلال، ظهر منطق أرسطو، أو المنطق الصوري. وكانت وظيفة المنطق الصوري هذا أن يبين صحة صورة الإستدلال، أو عدم صحتها، فيعين العقل لكيلا يخطئ في صورة الإستدلال[1].

---

١ ـ من جملة الأخطاء التي ظهرت منذ عدة قرون في دنيا العلم وكانت سبباً في كثير من سوء الفهم، هو اعتقاد بعضهم بأن وظيفة المنطق الأرسطي هي الحكم علىٰ صحة مادة الإستدلال أو عدم صحته أيضاً. ولما لم يكن هذا من وظائف المنطق الأرسطي، فقد أفتوا بعدم صلاحية هذا المنطق إطلاقاً، وإنه لمما يؤسف له أن هذا الخطأ ما يزال يتكرر في زماننا هذا، وهو أمر يدل علىٰ

⇦

إن القضية الرئيسة في ضمان صحة الإستدلال هي إن المنطق الصوري وحده لايكفي لإثبات صحة الإستدلال. فهذا المنطق إنما يضمن جانباً واحداً، ولكي نطمئن إلىٰ صحة مادة الإستدلال لابد من اللجوء إلىٰ منطق المادة أيضاً، أي إننا نحتاج إلىٰ معيار نقيس به المادة الفكرية كذلك.

لقد سعىٰ علماء من أمثال «بيكن» و«ديكارت» لوضع منطق لمادة الإستدلال، مثلما وضع أرسطو منطقه لصورة الإستدلال. ولقد نجحوا في ذلك إلىٰ حد ما، ولكنهم لم يبلغوا به الكمال الذي اتصف به منطق أرسطو. وإن استطاع الإنسان أن يستعين به لدرء أخطاء الإستدلال؛ ولكن الذي قد يثير عجبكم هو أن القرآن قد عرض بهذا الخصوص أموراً لها علىٰ مقترحات أمثال ديكارت فضل التقدم وتقدم الفضل.

منشأ الخطأ في نظر القرآن

من جملة مناشئ الخطأ التي ذكرها القرآن هي إن الإنسان يأخذ الشك مأخذ اليقين[١]. إذا تقيد الإنسان دائماً باليقين ولم يقبل بالظن، فلن يقع في الخطأ[٢].

⇦ أن المفتين لم يعرفوا منطق أرسطو ولم يفهموه. لو عدنا إلىٰ مثالنا السابق عن العمارة، لنا أن نقول إن مثل وظيفة منطق أرسطو في تعيين صحة الإستدلال كمثل الشاقول في تعيين استقامة الجدار. إن الشيء الوحيد الذي يكتشفه لنا الشاقول هو استقامة الجدار، أو اعوجاجه. إن منطق أرسطو، الذي اكتمل علىٰ يد علماء آخرين وازداد غنى، لايصدر حكمه إلا علىٰ صورة الإستدلال. لا علىٰ مادته.

١ ـ وهذه هي القاعدة الأولىٰ عند ديكارت، إذ يقول إنه لا يصدق شيئاً إلا بعد التأكد، فإن وجد فيه ١٪ من احتمال الخطأ، نبذه ولم يأخذ به. وهذا هو معنىٰ اليقين.

٢ ـ لابد ان نشير هنا إلىٰ أنه في حالات الظن والشك، حيث لايمكن بلوغ اليقين، يجب أن

وهذا ما يؤكده القرآن كثيراً، حتىٰ إنه يصرح بأن أكبر مزالق الفكر البشري هو اتباعه الظن.

وفي مكان آخر يخاطب النبي قائلاً:

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ﴾[(١)].

وفي آية أخرىٰ:

﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[(٢)].

هذه تذكرة تصدر من القرآن لأول مرة في تاريخ البشر، تنهىٰ الإنسان عن ارتكاب مثل هذا الخطأ.

المنشأ الثاني لحصول الخطأ في مادة الإستدلال، وبخاصة في الأُمور الاجتماعية، هو التقليد. فبعض الناس يثقون بصحة الأمر مادام المجتمع يثق بصحته. أي إن الأمر المقبول عند المجتمع، أو إن الأسلاف الأقدمين قد ارتضوه، يكون مقبولاً عند الجيل الحاضر أيضاً[(٣)].

أما القرآن فيقول: عليكم أن تزنوا كل أمر بميزان العقل. لا أن تثقوا بكل ما كان أجدادكم يفعلون، ولا أن تنبذوه كلياً لهذا السبب. ثمة مسائل كثيرة طرحت

⇨ نأخذ تلك الحالات بنظر الاعتبار. أي أن نقبل بالظن علىٰ أنه ظن، والاحتمال علىٰ أنه احتمال، لا أن نأخذ الظن والاحتمال علىٰ أنهما يقين، إذ إن هذا يقود إلىٰ الخطأ.

١ ـ سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

٢ ـ سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

٣ ـ لقد ورد هذا الموضوع في إحدىٰ محاضرات «بيكن». حيث يطلق علىٰ هذا النوع من التقليد الأعمى اسم «عبادة الصنم الاجتماعي» ضمن الأصنام الأخرىٰ التي يعبدها الناس.

في الماضي، وكانت خطأ في الوقت نفسه، ولكن الناس تقبّلوها. وثمة مسائل أُخرىٰ كانت صحيحة في زمانها، ولكن الناس رفضوها من باب الجهل. لابد من أخذ رأي العقل في قبول الأُمور أو رفضها، لا أن نقلد الآخرين فيها تقليداً أعمىٰ.

والقرآن يضع اتّباع الآباء والأجداد، في معظم الأحوال، في تعارض مع العقل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾(١).

يؤكد القرآن إن قدم الفكرة لايكون دليلاً علىٰ صحتها أو خطأها. إن لتقادم الزمن أثراً في الأمور المادية، ولكن حقائق الوجود لايمكن أن يصيبها البلىٰ مهما تقادم عليها الزمان. فحقيقة «إن الله لا يُغَيِّرُ مَابِقَومٍ حَتَى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» تظل صادقة ما دامت الدنيا قائمة. يقول القرآن إنه تجب مواجهة الأمور بسلاح العقل والفكر. فلا ينبغي نبذ عقيدة صحيحة لمجرد كون بعضهم يلصقها بالناس، ولا أن نتقبل أخرىٰ لمجرد كونها تقترن باسم هذا أو ذاك من الشخصيات المعروفة. بل يلزم القيام بالدرس والتحقيق في كل المسائل(٢).

من العوامل المؤثرة في حصول الخطأ المذكورة في القرآن هو اتباع هوىٰ النفس، وميولها، أغراضها المريضة. وفي ذلك يقول مولوي ما مضمونه: إذا ما برزت الأغراض حجب الفن ومدّ مائة ستار بين القلب والعين. فما من انسان استطاع أن يكون سليم التفكير إلا إذا ابتعد عن شر التغرض والتحيز. أي إن العقل

---

١ ـ سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

٢ ـ إن مسألة تقليد الأسلاف، والكبار، والبدع المعاصرة، والصبغة الاجتماعية، التي نهىٰ القرآن عنها بشدة يجب ألا تخلط بمسألة تقليد المجتهد الأعلم والأعدل، المذكورة في الفقه، إذ هي أمر واجب ومبني علىٰ الاستفادة من العلم والتخصص.

يستطيع أن يعمل في محيط يخلو من أهواء النفس.

هنالك بهذه المناسبة، حكاية تروىٰ عن العلامة الحلي جديرة أن نضرب بها مثلاً هنا. سئل العلامة الحلي مرة عن مسألة فقهية، وهي أنه إذا مات حيوان في بئر وبقيت الميتة النجسة في البئر، فكيف يمكن الاستفادة من ماء البئر؟ وقد حدث من باب المصادفة والاتفاق أن وقع حيوان ميت في بئر دار العلامة الحلي نفسه. الأمر الذي اضطر معه إلىٰ أن يستنبط لنفسه حكماً شرعياً بهذا الشأن. لم يكن أمامه غير طريقين: فإما أن يدفن البئر نهائياً، ويستفيد من بئر أخرىٰ، أو أن يستخرج مقداراً معيناً من ماء البئر، ومن ثم يستعمل البئر دون وازع. ولكنه رأىٰ إنه لايستطيع أن يحكم في هذه المسألة دون أن يلتفت إلىٰ مصلحته الشخصية. فكان أن أمر بدفن البئر أولاً. ومن ثم راح يفكر براحة بال ودون وسوسة النفس في استنباط الحكم.

وفي القرآن اشارات كثيرة إلىٰ اتباع هوىٰ النفس، منها:

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ﴾[١].

---

١ ـ سورة النجم، الآية: ٢٣.

الفصل الثالث

القلب في نظر القرآن

لعله لا حاجة بنا إلىٰ أن نقول إن المقصود بـالقلب فـي المـصطلح الأدبـي والديني ليس ذاك العضو العضلي الذي يقع في الطرف الأيسر من الجسم ويضخ الدم كالمضخة في العروق. ففي قول القـرآن: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَـانَ لَـهُ قَلْبٌ﴾[1].

أو ما جاء في هذا التعبير الأدبي اللطيف لحافظ:

«هلع قـلبي وإنـي أيـها الدرويش غـافل

فماذا جرىٰ ياترىٰ لهذا الصياد الحائر»[2]

يتضح إن المقصود من القلب شيء سام ورفيع، يختلف عن عضو الجسم هذا

---

١ ـ سورة ق، الآية: ٣٧.

٢ ـ دِلَم رميده شد و غافلم من درويش‌كه اين شكارى سر گشته را چه آمد پيش

كل الاختلاف. وإن أصابه المرض أيضاً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾[١].

إلا أن معالجة هذه الأمراض ليست من اختصاص أطباء القلب. وإذا كان ثمة طبيب يعالجها، فذاك هو الطبيب المختص بالأمراض الروحية.

تعريف القلب

إذن ما المقصود بالقلب؟ علينا أن نبحث عن جواب هذا السؤال في حقيقة وجود الإنسان. فعلى الرغم من أن الإنسان كائن فرد واحد. فإن له مئات الأبعاد، بل آلافها. فالـ(أنا) إنسان يتألف من العديد من الأفكار والآمال. ومن الخوف والرجاء والحب. الخ.. وكل هذه الأفكار أشبه ما تكون بالأنهر والنهيرات التي تلتقي في مركز واحد. وهذا المركز نفسه بحر عميق، لم يدّع أحد من البشر بعد أنه قد سبر أعماقه وعرف كنهه. علىٰ الرغم من أن الفلاسفة، والروحانيين، وعلماء النفس، قد وصل كل منهم إلىٰ كشف بعض أسراره، ولكن الظاهر إن الروحانيين، كانوا أكثر توفيقاً من غيرهم. فالذي يسميه القرآن بالقلب هو في الحقيقة ذلك البحر، وإن ما نسميه نحن بالروح إن هو إلا الأنهر، والروافد، التي تتصل بهذا البحر.

وبما أن القرآن يتحدث عن الوحي، فإنه لايذكر العقل، بل يقتصر علىٰ التوجه إلىٰ قلب الرسول. وهذا يعني أن القرآن لم يحصل للرسول عن طريق قوة العقل، ولا بالاستدلال العقلي. وإنما هو قلب الرسول الذي بلغ حالة لانستطيع نحن

---

١ ـ سورة البقرة، الآية: ١٠.

تصورها. فاصبح فيها قادراً علىٰ إدراك تلك الحقائق السامية وشهودها. إن كيفية هذا الإرتباط مبينة إلىٰ حد ما في آيات من سورتي النجم والتكوير(١).

وإذا يتحدث القرآن عن الوحي، وإذا يخاطب القرآن القلب، يكون بيانه أوسع من العقل، ولكنه ليس ضده، ذلك لأن ما يعرضه القرآن أوسع في منظوره من منظور العقل والشعور، بحيث لا يقدر العقل علىٰ إدراكه ويعجز عن نيله.

مميزات القلب

القلب في نظر القرآن أداة من أدوات المعرفة، إذ إن القرآن في معظم رسالته يخاطب القلب، تلك الرسالة التي تستطيع أذن القلب وحدها سماعها، وما من أذن أخرىٰ قادرة علىٰ سماعها. لذلك فالقرآن كثيراً ما يعني بالحفاظ علىٰ هذه الأداة، وبتعهدها وترتيبها. هنالك الكثير من الآيات في القرآن نقرأ فيها عن تزكية النفس، ونور القلب، وصفائه:

---

١ ـ نقرأ في سورة النجم الآيات التالية:
﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.
يذكر القرآن كل هذه الأمور لكي يبين أن مستوىٰ هذه المسائل أرفع من مستوىٰ العقل، فالحديث هنا عن الرؤية والسمو.
ونقرأ في سورة التكوير: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.
يقول إقبال اللاهوري في تعبير لطيف بهذا الخصوص: «إن الرسول هو من تفيض عنه الحقائق إذ يمتلئ بها، فيعرض مما أوتي علىٰ الناس لكي يغير ويبدل ويرتب وينظم».

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[١].

﴿كَـلا بَلْ رَانَ عَلَى قُـلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾[٣].

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَـنَا﴾[٤].

وبالنظر إلىٰ أن السيئات تلقي الظلام علىٰ روح الإنسـان وتكـدر صـفاءه، وتبعد عنه حبه للخير وسعيه إليه، فقد تكرر القول في القرآن بهذا الشأن، وقد جاء علىٰ لسان المؤمنين:

﴿لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[٥].

أو يقول في وصف المسيئين:

﴿كَـلا بَلْ رَانَ عَلَى قُـلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٦].

﴿فَـلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُـلُوبَهُمْ﴾[٧].

أو إنه يتحدث عن إغلاق القلوب وختمها وقساوتها:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[٨].

---

١ ـ سورة الشمس، الآية: ٩.

٢ ـ سورة المطففين، الآية: ١٤.

٣ ـ سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

٤ ـ سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

٥ ـ سورة آل عمران، الآية: ٨.

٦ ـ سورة المطففين، الآية: ١٤.

٧ ـ سورة الصف، الآية: ٥.

٨ ـ سورة البقرة، الآية: ٧.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[١].

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الكَافِرِينَ﴾[٢].

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٣].

كل هذه الآيات تؤكد أن القرآن يرىٰ الإنسان في جو روحي ومعنوي عال، ويرىٰ أيضاً أن علىٰ الإنسان أن يحافظ علىٰ هذا الجو نظيفاً، نقياً. ولما كان كل سعي يقوم به الفرد في الحفاظ علىٰ طهارته، في مجتمع غير سليم، يعود في الأغلب عقيماً غير موفق، فإن القرآن يحث الناس علىٰ بذل الجهد لتصفية مجتمعهم، وتزكية محيطهم. ويشير القرآن صراحة إلىٰ أن ما تستثيره آياته من العشق، والإيمان، والرؤىٰ. والتطلعات السامية، وتقبل النصح، وغير ذلك، يتوقف كله علىٰ تجنب المجتمع الإنساني والإنسان نفسه الرذائل، والدناءات، وحب الذات والشهوات.

يؤخذ من تاريخ البشر أنه كلما ارادت القوىٰ الحاكمة أن تبسط سيطرتها علىٰ مجتمع ما، لاستغلاله، سعت إلىٰ ذلك المجتمع فنشرت فيه الفساد، فتيسر لأفراده مجالات اشباع الشهوات، وتحثهم علىٰ اتباع الملذات.

لقد ظهرت أمثولة هذا الأتجاه الشائن، الفاجع، ذي العبرة، في الأندلس الذي كان يعتبر من منابع عصر النهضة، وكان من أكثر دول اوربا تقدماً ـ فلكي ينتزع المسيحيون الأندلس من المسلمين، أخذوا يفسدون روحية الشبّان المسلمين وأخلاقهم، فلم يألوا جهداً في توفير أسباب اللهو واللعب، والانغماس في الملذات

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

٢ ـ سورة الأعراف، الآية: ١٠١.

٣ ـ سورة الحديد، الآية: ١٦.

للمسلمين، ولقد نجحوا في هذا إلىٰ درجة أن القادة، وكبار رجالات الدولة، وقعوا في حبائلهم، فلوّثوا نفوسهم، وبذلك تمكنوا من أن ينتزعوا ما كان في المسلم من عزم، وارادة، وقوة، وشجاعة، وإيمان، وطهارة روح، فأحالوهم إلىٰ أفراد جبناء، ضعفاء، شهوانيين، يشربون الخمر، ويرتكبون الموبقات، ومما لاريب فيه هو أن قهر شعب هذا شأنه ليس بالأمر العسير.

لقد انتقم المسيحيون من حكومة المسلمين، ذات القرون العديدة انتقاماً يخجل التاريخ أن يذكره، ويشمئز من ترديد تلك الجنايات الشائنة. لقد كانوا هم أولئك المسيحيون الذين كان المسيح عليه السلام قد علمهم أن يديروا خدهم الأيسر لمن يصفعهم علىٰ خدهم الأيمن. لقد اجروا في الأندلس بحاراً من دماء المسلمين، فبيضوا بذلك وجه جنگيز (المغولي). وبالطبع كان السبب في هزيمة المسلمين ضعف هممهم، وفساد أرواحهم، جزاء إهمالهم تعاليم القرآن ودستوره.

وفي زماننا هذا، حينما وضع المستعمرون قدماً في بلادنا، كان اعتمادهم علىٰ الحالة نفسها التي حذر منها القرآن. أي إنهم سعوا إلىٰ إفساد القلوب. وإذا فسدت القلوب، انقلب العقل إلىٰ قيد أكبر، يغل أيدي الناس وأقدامهم. ولهذا نجد أن المستعمرين، والمستغلين، لايخشون إنشاء المدارس والجامعات، بل يؤسسونها بأنفسهم، ولكنهم يسعون، في الوقت نفسه، وبكل قواهم، إلىٰ إفساد روح الطالب وقلبه. انهم يدركون حق الإدراك أن القلب المريض لن يكون قادراً علىٰ المقاومة، بل يستكين إلىٰ كل انحطاط، واستغلال، واستثمار.

لذلك يولي القرآن أهمية كبرىٰ لطهارة روح المجتمع، إذ يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

---

١ ـ سورة المائدة، الآية: ٢.

فيطلب من الناس أن يتوجهوا أولاً إلىٰ عمل الخير، وتجنب الإثم، ثم أن يكون توجههم هذا جماعياً ثانياً.

فيما يتعلق بالقلب، ساورد لكم بعض أقوال الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام لتكون حسن الختام لهذا الموضوع. جاء في كتب السير، إن رجلاً قدم علىٰ الرسول صلى الله عليه وآله وقال إن لديه ما يسأل عنه. فقال له الرسول: أتريد أن تسمع الجواب أم تريد أن تسأل؟ فقال اريد الجواب. فقال الرسول: لقد جئت تسأل عن البر والخير، وعن الإثم والشر. فقال الرجل هو ذاك. فضم الرسول ثلاثة أصابع وضرب بها صدر الرجل بلطف وقال: استفت قلبك، ثم قال: لقد صنع قلب المرء بحيث يكون متصلاً بالخير، فهو يهدأ بالخير، ويضطرب بالشر. مثل ذلك مثل الجسم، إن دخله ما لا يتجانس معه، اختل نظامه وتوازن اعضائه. كذلك روح الإنسان، يختل بالأعمال القبيحة. إن ما يسمىٰ عندنا بعذاب الضمير، ينشأ من عدم انسجام الروح مع الآثام والأعمال الشائنة.

«استفت قلبك وإن افتاك المفتون»(١).

هنا يضع الرسول إصبعه علىٰ أمر مهم، وهو أنه إذا كان الإنسان باحثاً عن الحقيقة بتجرد، وخلوص نية، فإن قلبه لن يخونه أبداً، وإنما يهديه إلىٰ الطريق الصحيح. في الحقيقة إن الإنسان مادام باحثاً عن الحق والحقيقة، ويتقدم علىٰ طريق الحق، فإن كل ما يصادفه هو الحق والحقيقة. إلا أن ثمة نقطة ظريفة تبعث علىٰ سوء الفهم، وهي أنه إذا ضل الإنسان طريقه، فالسبب هو إنه كان منذ البداية

---

١ ـ أوضحت في كتاب «جولة في نهج البلاغة» أن الإسلام يضع فرقاً بين أن يكون للمرء علاقة بالدنيا وأن يكون متعلقاً بها.

متوجهاً وجهة خاصة، بعيدة عن البحث عن الحقيقة بخلوص نية.

لقد أجاب الرسول ﷺ الشخص الذي سأله عن «البر» قائلاً له إنك إن كنت حقاً تبحث عنه، فاعلم أنك إن وجدت ضميرك قد استراح إلىٰ أمر، فذاك هو البر، ولكنك إن رغبت في شيء لم يرتح له قلبك، فاعلم إن ذاك هو الإثم.

ويسألون النبي ﷺ عن معنىٰ الإيمان فيقول: إن من إذا ارتكب القبيح قلق وندم، وإذا عمل صالحاً سُرّ وفرح، فهذا له نصيبه من الإيمان.

ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام إنه قال: إذا تحرر المرء من تعلقه بالدنيا أحس بحلاوة حب الله في قلبه، فيرىٰ الأرض قد ضاقت به، ويسعىٰ بكل وجوده للتحرر من عالم المادة، والخروج منه. وهذا ما أكد أولياء الله والمنقطعون إليه صحته بطريقة معيشتهم. لقد جاء في سيرة حياة الرسول ﷺ إنه زار مرة بعد صلاة الصبح أصحاب الصفة، وكانوا جماعة من الفقراء، لايملكون من متاع الدنيا شيئاً، يعيشون بجوار مسجد النبي. فوقع نظر الرسول علىٰ واحد منهم اسمه زيد، أو حارث بن زيد، ورآه واهناً نحيفاً، قد غرقت عيناه في محجريهما، فسأله:

كيف أصبحت؟ فقال الرجل: أصبحت وحالي حال أهل اليقين.

فقال النبي: هذا زعم كبير. فما علامة ذلك؟

فقال الرجل: علامة يقيني هي إن النوم قد جفا عيني ليلاً، وأنا بالنهار في صوم دائم، أقضي الليل حتىٰ الصباح مضطرب الجوانح في العبادة.

فقال النبي: هذا لايكفي، زدني.

فأخذ الرجل يسرد العلامات الأخرىٰ، فقال: يارسول الله، انا الآن في حالة وكأني أرىٰ أهل الجنة وأهل النار وأسمع أصواتهم، وإن اجزتني أخبرتك بباطن أصحابك فرداً فرداً.

فرد النبي قائلاً: صمتاً، صمتاً! لا تزد. بل قل لي ما ترجو.

فقال: أرجو أن أجاهد في سبيل الله.

يقول القرآن إنّ صقل القلب يوصل الإنسان إلىٰ مقام بحيث إنه إذا رفعت دونه الحجب ـ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ لما زادته يقيناً.

إن ما يرمي إليه القرآن بتعليماته هو تربية الإنسان، مستفيداً من سلاح العلم والعقل، ومن سلاح القلب أيضاً. وهو يستعملها بأفضل أسلوب، وأرفع طريقة، في سبيل الحق، ذلك الإنسان الذي يجسده في أمثلة حية أئمتنا وتلامذتهم الصالحون حقاً.

معرفة القرآن

(الجزء الثاني)

معرفة القرآن

الجزء الثاني

ترجمة:

جعفر صادق الخليلي

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ (١)

عند البدء بكتابة القرآن، كانت كل سورة تفتتح بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) ـ باستثناء سورة البراءة ـ أي أن كل سورة تبدأ بـ (بسم الله)؛ ولكن حصل خلاف كبير منذ زمن طويل بين الشيعة والسنة حول ما إذا كانت البسملة جزءاً من كل سورة أم لا. أهل السنّة يرون أنها ليست جزءاً من أية سورة، وإنما يعتبرون البسملة في بداية كل سورة مثل البدء بها عند الشروع في أي عمل، مع أنها ليست جزءاً من العمل. وهم قد يقرأون سور القرآن بغير أن يقرأوا البسملة. وفي الصلاة عند تلاوة سورة الفاتحة أو أية سورة أخرىٰ، لا يقرأون البسملة معها.

---

١ ـ سورة الحمد.

غير أن الشيعة باتباعهم الأئمة الأطهار عليهم السلام يخالفون أهل السنة في ذلك، حتىٰ نقل عن الأئمة قولهم: «**قتل الله الذين يحذفون اكبر آية من آيات القرآن**».

فلو حذفنا هذه الآية من بدايات السور كلها، لما بقيت هذه الآية في القرآن، سوىٰ في سورة النمل حيث جاءت بصيغة مقول القول نقلاً عن ملكة سبأ يوم أن جاءتها رسالة سليمان، فقالت: «**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**».

إن الشيعة، علىٰ كل حال، يرون أن هذه الآية جزء من القرآن، وليست منفصلة عنه كانفصالها عن إي عمل إذا ما قرئت عند الشروع فيه، أي إنها ليست إضافة تضاف إلىٰ السور القرآنية[1].

---

١ ـ يتفق التشيعة جميعاً بهذا الشأن. غير أن أهل السنّة يختلفون فيما بينهم، فبعض يؤيد الشيعة فيما ذهبوا إليه، وبعض يخالفهم أشد المخالفة، وبعض قائل بالتفصيل.

فأما الذين يؤيدون كون البسملة جزءاً من السورة، فمنهم: ابن عباس، وابن مبارك، وعاصم، والكسائي، وابن عمر، وابن الزبير، وابو هريرة، وعطاء، وطاووس، وكذلك الإمام فخر الدين الرازي في التفسير الكبير، وجلال الدين السيوطي، وفي الاتقان، حيث يقولون بتواتر الروايات بهذا الشأن.

وبعض آخر، مثل مالك، وأبو عمر ويعقوب، يقولون إنها ليست جزءاً من السورة، بل وضعت في أوائل السور تيمناً، وبمثابة فواصل بينها.

وهنالك بعض آخر من اتباع الشافعي، وحمزة، يقولون بالتفصيل، أي إن البسملة جزء من سورة الفاتحة فقط وليست في السور الأخرىٰ.

ويرىٰ بعض المؤرخين أن أحمد بن حنبل يؤيد القول الأول (تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٦، ويقول غيرهم إنه يؤيد التفصيل (تفسير الآلوسي ج ١، ص ٣٩).

أما من حيث قراءد البسملة في الصلاة من وجهة نظر الفقهاء عموماً، فهي هكذا:

١ـ الحنفية قالوا: يسمي الإمام والمنفرد سراً. ٢ ـ المالكية قالوا بكره الإتيان بالتسمية في الصلاة المفروضة. ٣ـ الشافعية قالوا: البسملة آية من الفاتحة فالإتيان بها فرض. ٤ـ الحنابلة قالوا

⇦

إبتداء الأعمال بـ (بسم الله)

إنكم تلاحظون إن الآية التي نحن بصددها تتألف من جار ومجرور، وليست جملة تامة، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف، وقد اختلفت آراء المفسرين في هذا المحذوف وماهو. ومن ذلك قولهم إن المحذوف: «أستعين» أو «أبتدئُ» أو «أسِمُ» وهو الاحتمال الأقوىٰ.

تكون الدوافع والأهداف عند التسمية متنوعة. فقد يرىٰ أحدهم أن يُلقي اسماً فردياً علىٰ مؤسسة ما، وهو يرمي بذلك إلىٰ الحصول علىٰ فائدة مادية من ذلك الاسم. أو حسبما جرت العادة أن يسموا الوليد باسم شخص كان ذا حظوة عندهم في الماضي، مستهدفين تجديد حياة ذلك الشخص في المولود الجديد لكي تبقى ذكراه حية.

ولكن ترىٰ ماهو الدافع وراء الطلب من البشر أن يبدأ كل أعماله بـ(بسم الله)؟ الدافع هو أن تتسم أعماله بالقدسية والعبادة، وأن تنال أعماله البركة.

إن الإنسان الذي يضم في قلبه إحساساً فطرياً بالله، ويراه وجوداً قدسياً ومنبعاً للخير، يعني بوضعه اسم الله علىٰ أعماله إنه يريد أن يضفي القدسية علىٰ عمله في ظل قدسية الله وسموه وكرمه.

⇦ التسمية سنة، وليست آية من الفاتحة. (نقل بايجاز من كتاب الفقه علىٰ المذاهب الأربعة). ولكن الشيعة، استناداً إلىٰ روايات أهل البيت عليهم السلام، وتمسكاً بسيرة المسلمين، فقد أفتوا بأنها جزء من السور، وأوجبوا الإتيان بها. ويمكن الرجوع إلىٰ هذه الروايات في «فروع الكافي» باب قراءة القرآن ص ٨٦، وفي «الإستبصار» باب الجهر بالبسملة ج ١ ص ٣١١، وفي «التهذيب» باب كيفية الصلاة وصفتها ص ١٥٢، وفي «وسائل الشيعة» باب إن البسملة آية من الفاتحة ج ١ ص ٣٥٢.

وبما ان الابتداء باسم شخص يعني اعتباره قدوساً، منزهاً عن جميع النقائص، ومنبعاً للكمال، وإنه يريد أن ينتسب عمله إلىٰ ذلك الشخص ابتغاء بركته، لذلك لايمكن الإبتداء بأي اسم كان، حتىٰ باسم الرسول ﷺ وهذا هو السر في الأمر بالتسبيح باسم الله الوارد في سورة «الأعلىٰ».

يتكرر في القرآن ورود تعابير مثل: «يُسَبِّحُ لِلَّهِ» أو «سَبَّحَ لِلَّهِ» أو «سُبْحَانَ اللَّهِ»، ولكن التسبيح باسم الله لم يرد في القرآن إلا في سورة «الأعلىٰ»، حيث يقول: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ﴾.

أرىٰ أن خير نظرية بهذا الشأن هي نظرية صاحب «الميزان»، إذ يقول إن معنىٰ تسبيح اسم الله هو إنه عندما يكون المقام مقام تقديس وتكريم، فينبغي ألا يردف اسم مخلوق باسم الله، أو إذا كان لابد من ذكر اسم الله، فلا يجوز ذكر اسم كائن آخر. أي إنه لايجوز ذكر اسم أحد مع ذكر اسم الله، ولا يجوز ذكر اسم أحد بمكان ذكر اسم الله، فكلا الحالتين شرك.

لقد شاع مؤخراً بين الجماعات التي تدعي مكافحة الشرك، أمر هو نفسه من مظاهر الشرك. فبدلاً من أن يبدأوا أعمالهم باسم الله، يقولون: بسم الشعب!

فإذا كان وضع اسم الرسول بمكان اسم الله يعد شركاً، فإن الإبتداء باسم الشعب يعد أيضاً بمثابة اصطناع خليفة لله. إنها شريعة القرآن التي تطالبنا بالتسبيح باسم الله دائماً، والشروع في أعمال البشر باسم الله، لا باسمٍ آخر، لكي تتسم تلك الأعمال بالقداسة وبالبركة.

الله

الله اسم من أسماء الخالق: إن التسمية التي توضع للأفراد قد تكون علامة وقد

تكون صفة. ففي الحالة الأولىٰ لا تكون معاني الأسماء هي المقصودة، علىٰ الرغم من أن لتلك الأسماء معانيها الخاصة. بل يكون المقصود هو التشخيص والتعرف، لذلك لايزيد حكمها علىٰ حكم العلامات. وقد يتفق ألا يطابق الاسم المسمىٰ، بل وقد يكون ضده، كأن تسمي زنجياً باسم كافور، مثلاً.

في القسم الثاني من التسمية يحكي الاسم جانباً من جوانب المسمىٰ، فيبين صفة من صفاته.

ليس لله سبحانه وتعالىٰ اسم من أسماء العلامات، فكل أسمائه تبين حقيقة من حقائق ذاته القدسية.

نجد في القرآن ما يقرب من مائة اسم من أسماء الله، وهي في الحقيقة مائة صفة من صفاته، وقد جاء بعض منها في هذه السورة: الله ـ الرحـمن ـ الرحـيم، مالك يوم الدين؛ ولكن أياً منها لا يتصف بالشمول كاسمه هذا، لأن كل واحد منها يدل علىٰ واحد من كمالاته، غير أن هذا الاسم يبين جميع صفاته الكمالية ذاتها.

كلمة «الله» كانت في الأصل «الأله» ثم حذفت الهمزة بالاستعمال.

أما من حيث أصل الكلمة فثمة آراء متعددة منهم من يقول إنها من «أَلَـهَ»، ويقول آخرون إنها من «وَلَهَ» وإن «إلَه»، فِعال بمعنىٰ المفعول، كالكتاب بـمعنىٰ المكتوب.

فإذا كانت مشتقة من «أَلَهَ» فتكون بمعنىٰ «عَبَدَ» فـتعني كـلمة «الله» الذات الكاملة الحقيقة بالعبادة وذلك لأن أي كائن هو نفسه مخلوق وفيه ما فيه من نقص، فلا يكون جديراً بالعبادة، فإذن كما قلنا، الأله يعني تلك الذات التي استجمعت كل صفات الكمال، وتنزهت عن كل عيب، فحقت علينا عبادتها.

أما إذا كانت مشتقة من «وَلَه» بمعنىٰ تحيّر، وواله بمعنىٰ الحيران أو العاشق

المفتون، فإنّ كلمة «الله» تكون بمعنىٰ الذي يحار العقل في ذاته المقدسة، أو أنه يتوجه إليه توجه العاشق الواله ويحتمي به.

سيبويه، العالم النحوي العربي المعروف الذي عاش في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري، والذي يعتبر نابغة زمانه، ويعد كتابه المعروف بـ«الْكِتاب» من الكتب الفريدة في بابها، مثل المنطق لأرسطو، والمجَسْطي لبطليموس في علم الهيئة [علم الفلك]، ويعتبر رأيه في اللغة والأدب سنداً موثوقاً به، يرىٰ أن أصل كلمة «الله» من الحيرة في قبال عظمة الخالق، أو من الوله والعشق.

وقد جاء ذلك في مثنويات مولوي الذي يقول في هذين البيتين:

«في معنىٰ الله قال سيبويه: يولهون في الحوائج هم لديه
قال: الهنا في حوائجنا إليك والتمسناها وجدناها لديك»

يشير مولوي هنا إلىٰ حالات من الحاجة تصيب الإنسان فيحار في أمره ولا يجد ملجأ يلجأ إليه ويحتمي به سوىٰ «الله» ومن ذلك أيضاً قوله[1]:

«مئات الألوف من العقلاء عند الألم يئنون جميعاً أمام الديان الفرد
بل كل الأسماك في الأمواج وكل الطيور في علیائها
بل كل الأمواج اللعوب مشتاقة إليه جهاراً وعياناً»

ليس الإنسان وحده هو الذي يتوجه وقت الحاجة إلىٰ الله، بل أسماك البحار

---

١ ـ جمله نالان پيش آن ديّان فردجمله نالان پيش آن ديان فرد
بلكه جمله ماهيان در موجهاجمله پرندگان در اوجها
بلكه جمله موجها بازيكنانذوق و شوقتش راعيان اندر عيان
(مثنوي: طبع كلاله خاور ص ٣٤ الابيات ٣٧).

بين الأمواج، والطيور في عنان السماء، بل وحتىٰ تلك الأمواج الميتة نفسها في اليم، تئن في حضرة الله!

وهناك احتمال قوي في أن تكون كلمتا «أَلَهَ» و «وَلَهَ» لغة واحدة، أي إن الكلمة كانت في البداية «وله» ثم تطور استعمالها فصارت «أله» ثم دخل علىٰ صورتها هذه معنىٰ العبادة، وعلىٰ ذلك يكون معنىٰ «الله» هكذا:

تلك الذات التي تعشقه الموجودات كلها بوله، بغير أن تدري، وهي الحقيقة التي تستحق العبادة.

ترجمة كلمة «الله»

نستطيع أن نقول إننا في اللغة الفارسية ليست لدينا كلمة يمكن أن تكون مرادفة لكلمة الله بحيث تقوم مقامها، فجميع ما عندنا لا يفي بإيصال معنىٰ كلمة الله إيصالاً كاملاً. إذ لو وضعنا كلمة «خُدا» مكان «الله» لقصرنا عن إيصال المقصود، لأن كلمة «خُدا» مخففة من كلمة «خداي» وهذه تعطي المعنىٰ الذي يطلق عليه الفلاسفة اسم «واجب الوجود»، أو لعلها أقرب إلىٰ صفة «غني» الواردة في القرآن منها إلىٰ كلمة «الله». وإذا استعملنا كلمة «خداوند» لكنا قاصرين أيضاً، لأن هذه الكلمة تعني «صاحب» [صاحب الشيء] مع أن الله «صاحب» أيضاً، ولكنه ليس مرادفاً له، فكونه صاحباً يعتبر شأناً من شؤونه.

﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمِ﴾

هنا أيضاً ليس لدينا في الفارسية ما يمكن أن يقوم مقام هاتين الكلمتين بحيث يكون ترجمة صادقة لهما. أما قولهم «بخشنده مهربان» فليس ترجمة

صادقة، لأن «بخشنده» تعني «الجواد»، و «مهربان» تعني «الرؤوف» وكلاهما من صفات الله الواردة في القرآن.

الجواد «بخشند» هو الذي عنده ما يعطيه إلىٰ الآخرين بغير عوض؛ ولكن «الرحمن» و «الرحيم» كلاهما مشتقان من «الرحمة»، وفيها معنىٰ إضافي كالآتي:

عندما يكون المرء محتاجاً ومستحقاً، يكون، لفظياً، كمن يمد يده طلباً للصدقة، فهو يستحق أن يوصل إليه شيء، وفي هذه الحالة يكون هذا الشيء هو الرحمة، غير أن رحمة الإنسان لا تصل إلىٰ المستحق، إلا إذا وقع تحت تأثير المستحق ورقّ قلبه له، ولكن الله منزه عن هذه الحالات.

إذن عندما نقول «الرحمن الرحيم»، يتجسد في ذهننا معنيان: الأول هو حاجة البشر العظيمة، وكل المخلوقات التي تمد يدها جميعاً، كل بطريقته، نحو الغني بتضرع متوسلين. والثاني هو إنه يرسل إليهم رحمته الواسعة فيعطيهم سؤلهم، ويقضي حاجتهم.

لذلك فقد رأىٰ بعض المترجمين المتأخرين أنه ما من كلمة تستطيع أن توصل معاني تلك الكلمات في الآية الشريفة: بسم الله الرحمن الرحيم، فترجموها هكذا: «به نام الله رحمن رحيم».

الفرق بين الرحمن والرحيم

من اللازم أن نوضح أن وزن «فعلان» في العربية يدل علىٰ الكثرة، مثل عطشان، أي كثير العطش[1]. والكلمات التي تأتي علىٰ وزن فعيل تسمىٰ «الصفة

---

١ ـ في الأصل «العطش الكثير». (المصحح)

المشبهة» وتدل علىٰ نوع من الثبات والدوام.

فالرحمن، التي هي علىٰ وزن «فعلان» تدل علىٰ الكثرة والسعة، وتدل علىٰ أن رحمة الله منتشرة وتشمل كل شيء.

إن شيئية كل شيء، أصلاً تساوي رحمة الله، أي أن الكينونة ذاتها هي الرحمة عينها، كما ورد في سورة الأعراف، الآية ٥٦: «ورحمتي وسعت كل شيء» ونقرأ في دعاء كميل «ورحمتك التي وسعت كل شيء».

هذا النوع من الرحمة ليس فيه إستثناء، فلا يعني أنه يشمل الإنسان ولا يشمل غير الإنسان، أو أنه يشمل الإنسان المؤمن فحسب، كلا. بل إن الكون بأكمله تشمله رحمة الله، أو أنه هو رحمة الله. أي إن ما هو موجود في عالم الوجود هو رحمة الله.

إن الدرس الذي نستطيع أن نستخلصه من آية (بسم الله الرحمن الرحيم) هو أن كل ما يصل من الله إلىٰ العالم ليس الخير والشر، بل إن ما يصل منه كله خير ورحمة، وهي رحمة تشمل الجماد والنبات والحيوان والإنسان، لأن الوجود قد افتتح برحمة الله.

أما الرحيم، علىٰ وزن فعيل، فتدل علىٰ رحمة من الله دائمة لاتنقطع. قلنا إن «الرحمن» تدل علىٰ رحمة الله الواسعة التي تشمل كل الموجودات، غير أن في هذا العالم مجموعات من الموجودات التي تفنىٰ، و(الرحيم) تدل علىٰ تلك الرحمة الخالدة التي لا تشمل إلا الذين وضعوا أنفسهم في مهب هذه الرحمة بإيمانهم وأعمالهم الصالحات.

وعلىٰ ذلك، فإن لله رحمة عامة ورحمة خاصة. فبرحمته العامة يضم جميع الكائنات، ومنها الإنسان، ولكن الإنسان هو الكائن الوحيد المكلف وهو

المسؤول عن نفسه، فإذا أنجز ما بعهدته من تكاليف ووظائف، شملته رحمة الله الخاصة. فالرحمن إشارة إلىٰ الرحمة الشاملة بغير تفريق بين مؤمن وكافر، وحتىٰ الإنسان والجماد والنبات. والرحيم إشارة إلىٰ الرحمة الخاصة إلىٰ تقتصر علىٰ الإنسان المطيع[1].

﴿الحمدُ للهِ﴾

هنا أيضاً لابد من القول إننا لا نملك في الفارسية كلمة نترجم بها كلمة (الحمد). هنالك في الواقع كلمتان يمكن أن يقاربا معنىٰ «الحمد»، ولها مرادفان بالفارسية يستفاد منهما في ترجمة «الحمد». الأولىٰ هي «المدح» ويرادفها بالفارسية كلمة «ستايش» والأخرىٰ «الشكر» ويقابلها «سپاس» بالفارسية، ولكن لايمكن لأي منهما بمفردها أن توصل معنىٰ كلمة «الحمد».

كلمة «المدح» قريبة في المعنىٰ من «الحمد» بل يرىٰ بعضهم أن هناك احتمالاً قوياً أن تكون اللفظتان لكلمة واحدة. إذ إن في العربية الكثير من نظائرها، مثل خلص ولخص، وأيس ويئس، حيث نرىٰ أن حروفها واحدة وإن اختلفت مواضعها.

والمدح من المشاعر التي يختص بها الإنسان. فالإنسان هو وحده الذي يبلغ من الإدراك والإحساس بحيث إنه إذا واجه الكمال والجلال والجمال والبهاء، أثار فيه هذا الشعور رد فعل يحمله علىٰ المدح. هذا الإحساس لا وجود له في

---

١ ـ ورد في الروايات عن الفرق بين الرحمن والرحيم كما يلي: عن الصادق عليه السلام (في حديث): «والله إله كل شيء الرحمن لجميع خلقه، والرحيم بالمؤمنين خاصّة». (الكافي ـ توحيد الصدوق ـ تفسير العياشي).

الحيوان، فلا هو يدرك ذاك الكمال والجلال والعظمة، ولا هو قادر علىٰ أن يمدح تلك الأوصاف.

قد يتدنىٰ المدح في الإنسان أحياناً فيظهر في صورة منحطة، وهو ما يطلق عليه عندئذ اسم «المداهنة» وهذه من الرذائل، وهي تحدث عندما يمدح المرء أمراً لا حقيقة له. إنه لمن القبيح أن يستعمل الإنسان تلك القدرة التي وهبها الله له كي يمدح الجمال والعظمة علىٰ حقيقتهما، فيمدح بها مالا يستحق المدح بالمرة لمجرد الطمع. وما تلك القدرة السامية علىٰ تمجيد الكمال وتكريمه إلا لكي يشبعها الإنسان ويرضيها، لا أن يضعها في خدمة الطمع، ذلك النوع الخسيس من الإحساس. أما المدح الحقيقي فلا يخالطه شيء من الطمع، إنما هو أمر فطري وطبيعي في الإنسان عندما يصادف مظهراً من مظاهر الجمال، فلو رأىٰ، مثلاً، ورق القرآن الذي كتبه (بايسنقر) قبل سنين لدهش من جماله ولما وسعه إلا أن يمدحه ويثني عليه. فلو سئل هذا الإنسان: ما الذي حملك علىٰ المدح، أيدفعون لك شيئاً لقاء ذلك؟ ترىٰ ماذا سيكون جوابه؟ سيقول: وهل يلزم أن يدفع أحد شيئاً؟ أنا إنسان، والإنسان إذا وقف أمام الجمال والكمال والعظمة والجلال لا يسعه إلا أن يحني رأسه، وأن يمدح ما يرىٰ. هذا هو معنىٰ كلمة «المدح»، ولكن كلمة «الحمد» لا تعني المدح فقط.

في الإنسان ثمة إحساس آخر، الإحساس بالطهارة، وهذا أيضاً من خصائص الإنسان، وهو ما يسمىٰ بالشكر. ويحصل هذا عندما ينال الإنسان خيراً، حيث تقضي إنسانية الإنسان أن يظهر امتنانه للذي أناله الخير. فلنفترض أن رجلاً في سيارته يريد العبور فيصادف سائق سيارة آخر له حق السبق بالمرور، فإذا توقف هذا وسمح للأول بالمرور، فإن الآداب الإنسانية، وهي فطرية، تقضي

أن يشكر صاحب الحق علىٰ كرمه، أو حتىٰ أن يلوح له بيده أو برأسه. إن هذه الخصلة، وإلىٰ هذا الحد، غير موجودة في الحيوان، بل يختص بها الإنسان، وما سؤال القرآن: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» إلا خطاب موجه إلىٰ فطرة الإنسان السليمة، والمجيب هو ضميره الطاهر ووجدانه.

لقد قيل إن من عرف نفسه فقد عرف ربه. وهذا أمر صادق وعظيم، إذ إن معرفة الإنسان نفسه توصله إلىٰ معرفة ربه. وإن من طرق معرفة الإنسان نفسه هو أن يعرف مشاعره الإنسانية الخاصة، ومنها هذا الإحساس بالشكر والإمتنان، والذي يهيمن عليه الضمير، ولا علاقة له بالتربية والمحيط والعادات المحلية، ولا يتعلق بإقليم دون آخر. فالآداب والعادات يغيرها الزمان والمكان، بل قد ينقلب إلىٰ ضده. فقد تجد في بلد ما أنّ الناس يرفعون قبعاتهم ويعيدونها إلىٰ رؤوسهم تحية، ولكنك قد لاتجد هذا سائراً في بلد آخر؛ ولكن لايمكن أن يكون جزاء الإحسان إساءة في بلد معين، ثم يقال إن هذا من عادات ذلك البلد وآدابه!

والحمد، لا هو مدح خالص ولا هو شكر خالص. فما هو إذن؟ يمكن القول إننا إذا مزجنا الأثنين كان الحمد. أي تلك الحالة التي تستوجب المدح لجلالها وعظمتها وحسنها وكمالها وبهائها، وفي الوقت نفسه تستوجب الشكر أيضاً لما وصلنا منها من خير وإحسان. ههنا يكون موضع استعمال (الحمد).

الحمد يكون لله

ليس من المستبعد أن يكون للحمد مفهوم آخر، وهو مفهوم العبادة. وعلىٰ ذلك يدخل في مفهوم الحمد عناصر ثلاثة في وقت واحد: المدح، والشكر، والعبادة. فالحمد، بعبارة أخرىٰ، هو مدح الشاكر العابد. وقد جاء في الآية: ﴿لَهُ

﴿الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ فلعل هذا هو منشأ مفهوم العابد في كلمة «الحمد».

يجمع المفسرون علىٰ أن معنىٰ الآية هو أن «الحمد» كله لله، فإذا لم تكن الكلمة تتضمن معنىٰ الخضوع والتواضع، بالإضافة إلىٰ معنىٰ العبادة، وأنها تعني الشكر فقط، فلماذا يمتنع الإنسان عن الشكر إزاء النعم التي وهبها الله له؟ بل إن علىٰ الإنسان أن يشكر حتىٰ المخلوقات التي جعلها الله وسيلة لإيصال الخير إلىٰ الإنسان، حتىٰ لقد قيل: «من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق» كالأب والأم، والمعلم، وكل أولئك الذين كان الإنسان مشمولاً دائماً بخيرهم وإحسانهم. ولا يقبل الإعتذار بأن علىٰ الإنسان أن يشكر الخالق، وليس عليه ذلك تجاه المخلوق، فينساهم وينسىٰ إحسانهم. والمسألة ليست أن نعلم أنه ليس مستقلاً بذاته، وأنه إنما كان بعون الله أن أوصل إلينا خيره، فوجب الشكر لله قبل ذلك.

يتضح من اختصاص الحمد بالله أن معناه ليس الشكر فقط، بل المدح والعبادة أيضاً.

ولما كان الله هو وحده الجدير بالعبادة، وبما أنه هو الرحمن الرحيم، فإنّنا نمدحه ونشكره ونعبده.

الخلاصة هي إن «الحمد» من الأحاسيس الإنسانية الباطنية الطاهرة. إحساس يعجب بالجمال والجلال، فيثني عليهما ويخضع لهما. لذلك فإن سورة الفاتحة تستلزم معرفة الله. أي إذا لم يعرف الإنسان ربه معرفة كاملة، فلن يكون قادراً علىٰ قراءة سورة الفاتحة قراءة صحيحة واقعية، فتكون مجرد لقلقة.

مثلاً، إذا صادفت إنساناً ذا روح عالية كبيرة وملكات وفضائل، وإذا ألمّت بك حاجة وجدته يسرع إلىٰ نجدتك ورفع حاجتك بدون تحفظ أو تقاعس، فيصل إليك خيره وإحسانه، تجد إنك تكبره في نفسك وتجله، وإذا ما ورد ذكره في

مجلس تسرع، كالبلبل الواله أمام الورد، بمدحه والثناء عليه بكل ما في قلبك من امتنان وعرفان بالجميل. إن ثناءك هذا ينبع من أعماق روحك، وإنك لتشعر باللذة والراحة إذ تفعل ذلك.

والإنسان تصيبه حالة مماثلة في الصلاة. لقد سبق أن قلنا مراراً إننا نعتقد بأن العبادة لازمة لمعرفة الله، وإذا لم تكمل معرفة الله، لم تبلغ العبادة مراقي السمو.

هنا تجدر الإشارة إلىٰ أن هناك بعد «الحمد لله» أربع صفات هي: «رب العالمين ـ الرحمن ـ الرحيم ـ مالك يوم الدين». وكل صفة منها باب إلىٰ معرفة الله، مما سوف يرد توضيحه.

ولكن قبل أن نصل إلىٰ تلك الصفات، نجد أن اختصاص «الحمد» بالله ـ تلك الذات التي تستحق العبادة والثناء ـ يدل علىٰ أرفع الدرجات. أي إنه الذات التي يجدر بنا أن نحمدها ونعبدها، بصرف النظر عن نعمها علينا وإحسانها إلينا، وبصرف النظر عن معرفة البداية والنهاية في العلم والمعرفة، وخلق الإنسان، وهذا الكون الفسيح.

لا شك في أن بلوغ هذه الدرجة ليس في متناول كل إنسان، فذاك علي بن أبي طالب الذي يقول: «إلهي ماعَبَدتُكَ طَمَعاً في جَنَّتك ولا خَوفاً مِنْ نارِك، بَل وَجَدتُك أهلاً لِلعبادة فَعَبدتُك».

أي إن عبادتي لك ليست لأنك خلقتني وأحسنت إلي، وليست لأنك وعدت عبادك بأن لهم الجنة في الدار الآخرة، بل لأنك أنت أنت، وإنك أهل للعبادة»[1].

---

١ ـ جاء في نهج البلاغة إن عبادات العابدين أنواع ثلاثة: «قوم عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجار، وقوم عبدوا الله رهبة، فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار».

يقول سعدي ما معناه:

«إذا كانت عينك من الصديق علىٰ إحسانه.

فأنت تحب ذاتك لا الصديق.

وهذا خلاف «الطريقة» أن يتمنىٰ

الأولياء من الله غير الله»[١].

﴿ربِّ العَالَمِينَ﴾

فيما يتعلق بكلمة «رب» لابد أن نشير إلىٰ أنه ليس في الفارسية كلمة تقوم مقامها، فهي قد تكون بمعنىٰ المربي، ولكن يجب الإنتباه إلىٰ أن «رب» تأتي من «ربَبَ» لا من «رَبَي» فالمربي مأخوذة من مادة «ربي». وقد تأتي أحياناً بمعنىٰ «صاحب» أو «ولي الأمر» كما جاء في قول عبدالمطلب: «**أنا رَبُّ الإبِلِ وَلِلْبَيْتِ ربٌّ**».

علىٰ كل حال، إن أي اشتقاق من هذين لايفيد المعنىٰ المتضمن في «رب»، علىٰ الرغم من أن كلاً منهما صفة من صفات الله، ولكن يبدو أن في كلمة «رب» مفهوماً يؤدي معنىٰ الألوهية، وكذلك معنىٰ ولي الأمر أو صاحبه، ومعنىٰ المربي. والله هو وحده ولي أمر العالم كله، وموصله إلىٰ مرتبة الكمال.

لا شك أنّ الله قد خلق عوالم وموجودات كانت منذ البداية كاملة لا نـقص فيها. أي إنها لا تملك أية قوة أو استعداد للتكامل، بل إنها قد خلقت متكاملة منذ

---

١ ـ گر از دوست چشمت به احسان اوست تو دربند خويشى نه دربند دوست
خلاف طريقت بود كاولياء تمنا كنند از خدا جز خدا

بدء خلقها، أي إن «بدءها» و«عودها» شيء واحد، وهي من حيث كونها مخلوقة ومبدعة، تكون مربوبة لله، والله ربها.

أما العالم الذي نعيش فيه نحن، عالم المادة هذا، فإنه عالم متدرج، يبدأ نظامه من النقص ويتجه نحو الكمال. أي إن «بدءه» و«عوده» ليسا شيئاً واحداً، بل هما شيئان اثنان. موجوداته مخلوقات الله، وهي مربوبة له.

وفي الوقت نفسه يختلف عالم الطبيعة عن العوالم الأخرىٰ، بالنظر لما فيه من التنوع. ولكل نوع من أنواعه عالم خاص به، مثل عالم الجماد، وعالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان، وعالم الأفلاك، وكلها تسير من النقص إلىٰ الكمال في حركة مستمرة، وإن أياً منها لم يكن منذ خلقه كاملاً، وإن الله هو الذي يوصل هذه العوالم إلىٰ الكمال، فهو رب العالمين.

يستفاد من القرآن أن هذا العالم عالم التربية. والإنسان، الذي ينقسم بدوره إلىٰ مجموعات مختلفة، منها الصالح ومنها الطالح، يمر بفترة التربية. وإن مما يلفت النظر أن العالم يبدو وكأنه محيط زراعي يصلح لكل أنواع البذور، تنمو فيه وتترعرع. والصالح هو وحده الذي يسير نحو التكامل، فالطالح (أي الذي يبذر بذوراً طالحة) يمر كذلك في هذا العالم بمراحل تطوره. لقد جاء في سورة اسرائيل: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَشْكُوراً * كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾**(١).

---

١ ـ سورة الإسراء، الآيات: ١٨ ـ ٢٠.

أي إن من يطلب الدنيا ويبذر بذراً دنيوياً فسوف يجعل الله تلك البذور تثمر، إنما إلىٰ الحد الذي يريده الله، وللشخص الذي يشاء. أي إن ذلك لايتبع نظاماً قاطعاً بحيث إنه يعطي كل باذر بذرة دنيوية ثمراً.

والسبب في أن وصول طالب الدنيا إلىٰ نتيجة ليس قطعياً هو إن هذه الدنيا تعج بالآفات، والتزاحم، والعقبات، وليست لتربية أمثال هذه البذور؛ ولكن الله يقول إن من كان هدفه محصوراً بالدنيا وخرج عن مسيرة الإنسان الصحيحة، فإن مصيره النار.

ولكن الذي لايستهدف أهدافاً دنيوية، فيبذر بذوراً للآخرة ويجتهد في سبيل ذلك، فإن الله لن يضيع عمله ويوصله إلىٰ غرضه. «كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهؤُلاءِ».

وعليه فإن نظام هذا العالم قد وضع بحيث إن كل من يبذر بذراً يجد في النظام عوناً علىٰ نمو بذرته وتربيتها نفسها، غير أن بعض هذه البذور تصل إلىٰ نتيجة كاملة مائة بالمائة، وتلك هي البذرة التي توضع علىٰ الصراط المستقيم. وثمة بذور فيها إمكانية النمو، إلا أنها قد لا تنمو النمو الكامل المطلوب منها. وعلىٰ ذلك فإن الذين يخططون لأعمال قبيحة ويصلون إلىٰ بعض نتائجها، لايمكن أن يحتجوا بأنهم لم يكونوا ليصلوا إلىٰ النتيجة لو أن خططهم لم تكن صحيحة. كلا، إن وصول أية نظرية إلىٰ نتيجة لايدل علىٰ صحتها وأحقيتها، بل هو نظام الكون الذي يقول «كلا نمد هؤلاء وهؤلاء».

﴿الرَّحمٰنِ الرَّحيم﴾

سبق أن بحثنا بعض الشيء في هاتين الصفتين، ولعلنا نضيف هنا فنقول: إن وصف الله بهاتين الصفتين يتطلب معرفة كاملة بالله، فالرحمن صفة من كانت

رحمته كثيرة، ولكنها ليست بالضبط بالمعنىٰ الذي نفهمه من كلمة (كثيرة)، بل المعنىٰ إن كل ما في الوجود قد جاء منه، وإن كل ما يجيء منه خير ورحمة. والرحيم صفة من تفيض رحمته علىٰ الإنسان دائماً.

هاتان صفتان: أولاهما ترتبط بنظام الوجود، والأخرىٰ تختص بعالم الإنسان. إن الإنسان ليحتاج إلىٰ معرفة عميقة جداً حتىٰ يستطيع أن يدرك اتصاف الله بالصفة الأولىٰ بحيث يقدر أن يبصر أرجاء العالم وقد غرقت في فيض رحمة الرحمن، وحتىٰ يبعد عن نفسه الثنائية لكي لايقسم العالم إلىٰ خير وشر، بل يرىٰ العالم الذي نشأ عنه وعاءً من الرحمة والخير ليس غير. وهذا هو مصداق العدل الإلهي.

ينبغي علىٰ العبد أن يتذكر دائماً هذا الأمر، وكما جاء في بعض الأدعية، كالدعاء الذي يقرأ بعد التكبيرة الخامسة من التكبيرات المستحبة قبل الصلاة: «لَبيكَ وسَعْدَيك وَالْخَير في يَديكَ، والشَرُّ لَيْس إليك».

فإذا عرفنا الله أنه هو الرحمن، فقد عرفنا العالم علىٰ أنه المظهر الأتم لحكمة الله البالغة ونظامه الأكمل. علىٰ الإنسان عندما يصف الله بهذه الصفة أن يرىٰ في نظام الكون نظاماً كله خير ورحمة ونور. أما الشر، والحقد، والظلمة، فهي أمور نسبية وغير حقيقية. لا شك في أنه ليس بمقدور كل فكر ناضج أن يزعم أن له مثل هذا المنظور إلىٰ العالم. وليس بإمكان أحد أن يكون له هذا المنظور بالقوة أو حتىٰ بالتعبد. فإذا أرادنا القرآن أن نحمد الله بهذه الصفة، فإنه يريدنا أن نعرف الله والعالم بهذه الصورة. وإن معرفة كهذه تعني أننا ندرك أمراً شامخاً عظيماً كهذا بطريقة صحيحة، عن طريق العقل والبرهان. وفي هذا كله دعوة ضمنية للتفكير في الإلهيات وتأييدها.

أما فيما يتعلق بالصفة الثانية «الرحيم»، فهنا أيضاً يجب أن نقول: إن معرفة الله بهذه الصفة تقتضي أن يكون الإنسان علىٰ معرفة تامة بموقعه بين الكائنات في هذا العالم.

إن ما يمتاز به الإنسان بين الكائنات، هو أنه الابن البالغ لهذا العالم. إنه ليس الابن القاصر لهذه الأُسرة ليبقىٰ تحت قيمومة الأب والأم الاجبارية، وإنما هو قد بلغ من الرشد والتعقل إلىٰ درجة قيل له: إن عليك أنت أن تختار طريقك. بينما نرىٰ الكائنات الأخرىٰ تقع بالإكراه تحت سيطرة عوامل هذا العالم. فالإنسان هو وحده الذي يستطيع بعقله أن يكون حراً في اختيار أحد طريقين أمامه:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[1].

فإذا سار الإنسان في الصراط المستقيم وطريق الحق، أصبح تحت رحمة من الله خاصة شاملة، لكأن العالم قد صيغ بحيث إن السائر في طريق الله لابد أن يكون الله في عونه، فيهديه ويأخذ بيده، ويسبغ علىٰ قلبه النور والقوة:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2].

ويهيّيء له أسباب الرزق وسبله «من حيث لا يحتسب»، ويبلغ بعد ذلك مرحلة يشعر فيها أنه في مرحلة الأخذ والعطاء مع ربه، إذ يرىٰ أنه كلما ازداد خلوصاً في عمله، ازدادت عناية الله ورحمته به. تلك هي مرحلة الرضا والتسليم.

﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

تقرؤون في «الرسائل العملية» أن هذه الآية يجوز أن تقرأ علىٰ وجهين:

---

١ ـ سورة الدهر، الآية: ٣.

٢ ـ سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

«مالك يوم الدين»، و «مَلِك يَوْمِ الدِّينِ». فهل يؤدي هذا الإختلاف في القراءة إلىٰ اختلاف في المعنىٰ؟

ملك ومالك لهما في الاستعمالات اليومية معنيان مختلفان، فالأوّل علاقة سياسية، والآخر علاقة اقتصادية. فحيثما يكون الإنسان مالكاً لشيء يكون معنىٰ ذلك إن له أن ينال فائدة من ذلك الشيء. أما قول: ملك فيعني وجود قوة فوق أُخرىٰ لها حق السياسة والتدبير.

غير أن كلا الجانبين يفتقران إلىٰ الواقعية، بل هما اتفاق ليس غير. أي أننا إذا قلنا أن فلاناً مالك الدار الفلانية، فهذا يعني أنه اتفق علىٰ أن يكون الأمر كذلك في الوقت الحاضر، وإذا قيل: إن فلاناً ملك الناحية الفلانية، فهذا أيضاً لا يزيد علىٰ أن يكون مجرد اتفاق واعتبار. وعليه فإذا صادف أن تبدل هذا الاعتبار ونقض الاتفاق، لم يعد لأي منهما وجود، أي يمكن في لحظة واحدة أن يعيّن مالك تلك الدار وملك تلك الناحية شخصين آخرين وباتفاقين جديدين.

ففي حالات مثل هذه حيث تتعين المالكية والملكية في نطاق الاعتبارات والاتفاقات، يكون لكل منهما معان ومميزات تختلف عما للأخرىٰ، أي أن ملك لا تقوم مقام مالك، ولا هذه مقام تلك، فههنا واحدة مُلك وواحدة مالك.

ولكن في حالات أخرىٰ تكون هذه الروابط حقيقية وواقعية. فإذا قال أحد، مثلاً: إنه مالك قواه البدنية، فيعني إنه حرفي الاستفادة منها، أي إن فيه قوة يستطيع استعمالها وقتما يشاء، كأن يتحدث بها، وإن لم يشأ لم يفعل. وهكذا ترون أن مفهومي ملك ومالك شيء واحد هنا، أي إننا مالكو أعضائنا وجوارحنا، وفي الوقت نفسه هي ملكنا ونحن مسلطون عليها، وذلك لأنه أمر تكويني وليس مجرد اتفاق.

أما فيما يتعلق بالله، وهو خالق الكون، وإرادته فوق كل إرادة، فإن توحد المعنىٰ في ملك ومالك أمر بيّن، وههنا تكون الرابطة الحقيقية بين المالك والمملوك. وقد جاء في القرآن بخصوص يوم القيامة:

﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لِلّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾[١].

وفي آية أخرىٰ:

﴿قُلِ اللّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ﴾[٢].

في هذه الآية يصبح «ملك» و «مالك» كلاهما تحت عنوان «مملوك»، وهذا هو معنىٰ «لِمَنِ المُلك»، فاللام هنا لام الإفادة، أي: مَن المالك؟ فيكون الجواب: الله. وهكذا يتضح أن «مِلك» و«مُلك» ليستا بعيدتين بعض عن بعض، ولا هما تمشيان في خطين منفصلين.

فهل الله مالك وملك في يوم القيامة فقط، لا في الدنيا؟ فالله مالك الدنيا والآخرة وملكهما معاً. وإنما الفرق هو إن الإنسان في هذه الدنيا لايملك عيناً ترىٰ الحقيقة، لذلك فهو ينظر إلىٰ المالكين والملاك نظرة اعتبارية مجازية، ويرىٰ نفسه وغيره مالكاً للأشياء وملكاً عليها، فيقول: أنا ملك هذه الدار، ولكنه عندما تنكشف له حقائق الدنيا وينظر إلىٰ العالم نظرة واقعية، عندئذ سيرىٰ أن كل مالك وملك مصطنع وما مالك أو ملك حقيقي إلا وجوده:

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٣].

والرواية التالية تؤيد هذا الموضوع أيضاً:

---

١ ـ سورة المؤمن، الآية: ١٦.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

٣ ـ سورة القاف، الآية: ٢٢.

«عن جابر عن أبي جعفرﷺ أنه قال: الأمر يومئذ واليوم كله لله. يا جابر إذا كان يوم القيامة بادت الحكام فلم يبق حاكم إلا الله»[١].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينَ﴾

علىٰ الرغم من أن المرء يحسب أن التوحيد واحد من المسائل الإسلاميّة، وأن هناك آلاف المسائل الأخرىٰ إلىٰ جانب التوحيد، ولكن النظرة الدقيقة تكشف له أن الإسلام كله توحيد، أي إن جميع المسائل، سواء أكانت ترتبط بأصول العقائد، أم ترتبط بالأخلاقيات وبالتربية وبالتعاليم اليومية، كلها توحيد.

ثمة اصطلاح في المنطق اسمه التحليل والتركيب، وهما كلمتان مأخوذتان من ميدان العلوم الطبيعية، حيث يكثر استعمالهما. والمقصود بهما هنا هو إنه مثلما يوجد تركيب وتحليل في عالم المادة، أي إن جميع المركبات قابلة للتحليل إلىٰ عناصرها الأولية، وإنه إذا أعيد تركيب تلك العناصر عاد المركب ثانية، كذلك الأمر في الآراء والأفكار.

يقول الفلاسفة: إن أفكار البشر وآراءهم تعود جميعاً إلىٰ أصل واحد هو عدم التناقض، أي إذا حللناها فإن رجوعها إلىٰ هذا الأصل أمر حتمي.

إن في الإسلام أصلاً كهذا هو التوحيد، أي إننا إذا حللنا جميع المباني الإسلاميّة لعادت جميعها إلىٰ التوحيد.

إذا أخذنا النبوة والمعاد، وهما أصلان من أصول العقيدة، أو لو حللنا الإمامة، لرأينا أنها هي التوحيد.

---

١ ـ الميزان: ج ٢، ص ٢٢٩.

إذا بحثنا القواعد الأخلاقية أو الأحكام الإجتماعية الإسلاميّة ستتضح أنها شكل من أشكال التوحيد.

إلىٰ هنا نكتفي بهذا المقدار من هذا البحث، مؤجلين التفصيل فيه إلىٰ مناسبة أخرىٰ، كما أن في «تفسير الميزان» تفاصيل أكثر.

التوحيد النظري والتوحيد العملي

في الإسلام توحيدان: نظري وعملي. التوحيد النظري يتعلق بعالم المعرفة والفكر، أي معرفة الله بالوحدانية. والتوحيد العملي هو جعل الذات عملياً ذاتاً واحدة باتجاه الذات.

وبعبارة أخرىٰ، التوحيد النظري يعني معرفة وحدانية الله، والتوحيد العملي يعني بلوغ وحدانية الإنسان!

إن النقطة التي أود ذكرها هي إن ما ذكرناه حتىٰ الآن من سورة الفاتحة يتعلق بالنوع الأول من التوحيد، أي التوحيد النظرى، ولكننا من هنا (إياك نعبد) نبدأ ببيان التوحيد العملي، وهنا يستطيع الإنسان أن يدرك عظمة هذه السورة الصغيرة التي لا نظير لها، والتي تعد نموذجاً واضحاً لإعجاز هذا الكتاب الكريم. الحق إن المرء لايستطيع أن يمنع نفسه من الدهشة والعجب، إذ كيف يمكن لرجل أمّي، لم يدخل مدرسة وعاش في محيط أمّي يجهل كل شيء عن العلوم والحضارات، أن يجري لسانه بذلك العمق الذي حمل علماء اللاهوت علىٰ الإنغمار في التفكير والتأمل، وبتلك السلاسة والعذوبة، بحيث إن المرء لايشبع أبداً من تكراره.

وإليكم توضيح ذلك:

إن الجمل والكلمات التي مرت بنا من أول السورة حتىٰ «مالك يوم الدين»

كانت مجموعة من المسائل التي تتعلق بمعرفة الله، فهو «الله» وهو «الرحمن» وهو «الرحيم» وهو «رب العالمين» وهو «مالك يوم الدين». ويضاف إلىٰ ذلك أنه «محمود» علىٰ الإطلاق، وكل حمد وشكر يختص به.

في الواقع إن جميع الإلهيات قد تضمنتها هذه الكلمات، فهي تشمل أهم المسائل الالهية.

لقد صدق العلماء والحكماء عندما استنبطوا أنّ قيام القرآن بطرح هذه المسائل إنما هو دعوة إلىٰ ولوج أعماقه وسبر أغوار حقائقه. لا يريدنا القرآن أن ندير كلماته علىٰ ألسنتنا في لقلقة فارغة، بل يريدنا أن ندرك حقائقها.

إن من يذكر الله في صلاته بهذه الصفات، فإنه يدّعي، في الحقيقة، بأنه يعرف الله بصفاته وأسمائه تلك.

إن معرفتنا بأنه هو «الله» تعني معرفتنا بذاته الكاملة الجديرة بالعبادة، وإن كل الكائنات تتوجه إليه بالفطرة. وبعبارة أُخرىٰ، هي معرفة موجود مطلق الكمال والإعتراف به، وعلىٰ أنه منزه عن كل نقص وعدم وحاجة، ولذلك فإن كل شيء منه وإليه.

أما معرفتنا بأنه (رحمن) فيجب حقاً ـ كما سبق لنا قوله ـ أن يكون الإنسان دقيقاً جداً في تفكيره حتىٰ يقدر علىٰ معرفة الله متصفاً بهذه الصفة. أي أن يدرك أن الوجود بكليته مظهر من مظاهر (رحمانيته) وأن ما يصدر عنه ليس إلا الخير والرحمة، وأن كل موجود من حيث كونه موجوداً، ومن حيث كونه منتسباً إلىٰ ذات الله، ومن حيث كونه أمراً واقعياً، ليس سوىٰ الخير والرحمة. أما الشر والحقد وغيرهما فلها جانبها العدمي أو النسبي أو هي حالات إضافية، وليس لها وجود

في نفس الإنسان[١].

معرفة الله علىٰ أنه (رحيم) تعني إن من يصف الله بهذه الصفة يدّعي بأنه قد بلغ مرحلة من المعرفة بحيث إنّه لا يدرك نظام الخلق وصدور الأشياء فحسب علىٰ أنها من مظاهر ذات الله، بل ويدرك أيضاً أن نظام رجوع الأشياء إلىٰ الخير نظام خير ورحمة أيضاً، أي إن الكائنات قد جاءت من الرحمة وإلىٰ الرحمة تعود.

وهذا يعني أن الرحمة سابقة علىٰ النقمة، وبعبارة أخرىٰ، لو عرفت النقمة أو العذاب معرفة جيدة لظهرت أنها رحمة في لبوس نقمة.

بتعبير آخر: إن الله سبحانه وتعالىٰ يتصف بصفات الجمال، كالعلم والقدرة والحياة والجود والرحمة، ويتصف بصفات الجلال، فهو القدّوس وهو الجبار وهو المنتقم..

وهو، سبحانه وتعالىٰ، ليس ثنائياً في ذات وجوده، أي إنه لاينقسم إلىٰ نصفين، فنصف رحيم وخير وجواد وربوبية، ونصف قدوس وجبار ومنتقم. كما أنه في الوقت الذي يكون فيه خيراً وجوداً ورحمة لايكون جباراً ومنتقماً، بل ثمة تقدم وتأخر في أسمائه وصفاته.

لقد أجرىٰ أهل الحكمة والمعرفة بحوثاً عميقة كثيرة ولافتة للنظر في هذا المجال، تعتبر من أثمن نتائج الفكر البشري، لأنها خلاصة أعمال اشخاص وهبوا قرائح عبقرية، وقدرة علىٰ المتابعة بغير كلل، إضافة إلىٰ التعمق والتمحيص للوصول إلىٰ حقائق الأمور.

أجل هنالك ضرب من التقدم والتأخر في أسماء الله وصفاته، أي أن بعض

---

١ ـ للحصول علىٰ تفاصيل أوفىٰ راجع «العدل الإلهي» للأستاذ مطهري.

الأسماء والصفات تلدها أسماء وصفات أخرىٰ. وعلىٰ العموم، تتقدم الصفات الجمالية علىٰ الصفات الجلالية، فهذه وليدة الأولىٰ. أما الذي تتقدم فيه جباريته وانتقاميته علىٰ كل شيء فهو (يهوه) إله اليهود الذي اصطنعوه، وليس «الله» الحقيقي، رب العالمين، الذي يعرفه القرآن.

ومن هنا يمكن أن ندرك لماذا يقترن «اسم الله» في القرآن بالرحمن الرحيم، لا بالجبار المنتقم، وذلك لأن بيان الوجود في نظر القرآن هو بيان الله الرحمن الرحيم، وما جبروته وانتقامه إلّا من مظاهر رحمانيته ورحيميته.

من الواضح أن رحمة الرحيم هي الرحمة التي تشمل جميع الكائنات عند رجوعها إلىٰ الله، وهي تشمل بالدرجة الأولىٰ أهل الإيمان، وهم الذين كل ما يصلهم بالظاهر والباطن خير ورحمة، رحمة ليست في صورة نقمة، بل رحمة مطلقة لا نسبية.

أما القول إنّ الفرق بين «الرحمن» و«الرحيم» هو أن الأول يختص بالدنيا، والثاني يختص بالآخرة، أو القول إنّ «الرحمن» تشمل جميع الناس بكفارهم ومؤمنيهم، وإن «الرحيم» تشمل المؤمنين دون غيرهم، فالمقصود من ذلك هو ما أوضحناه من قبل.

إن الدنيا والآخرة، من حيث كونهما عالمين، لا يختلفان، حتىٰ يقال إن أحدهما يعتبر الرحمة تعود علىٰ «الرحمن»، والآخر يعود علىٰ «الرحيم»، أن يقال إن الرحمة التي يشترك فيها الكافر والمؤمن مأخوذة من مادة واحدة، وإن الرحمة التي تختص بالمؤمنين دون غيرهم مأخوذة من مادة أخرىٰ.

ليس في عالم الوجود تقسيمات كهذه. إن الوجود ينقسم، من حيث الرحمة، إلىٰ القول إنّ في العالم «مجيئاً» وإنّ فيه «رجوعاً». ففي العالم «منه» و«إليه». فالله

رحمن يعني «المجيء منه» وهو مظهر من مظاهر الرحمة. والله رحيم يعني «الرجوع إليه». وهو مظهر من مظاهر الرحمة أيضاً. وحتىٰ جهنم والعذاب باعتبارهما من مظاهر جبروت الله وانتقامه، فإنّهما وليدتا رحمته. وليس بالمستطاع إيضاح أكثر هنا.

﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

إنه مالك يوم الدين. هنا يطرح نوع آخر من المعرفة. وهنا العبد يدّعي معرفة نهاية الخلق. أي إنه يعرف يوم الجزاء حيث ينكشف عدم اصالة أية وسيلة أو سبب، سوىٰ الله المالك والملك.

كل هذا والذي قيل من قبل ينطوي تحت لواء التوحيد النظري، أي التوحيد الذي هو من مقولة المعرفة، وهي معرفة لازمة وضرورية، إذ لا ينبغي أن يقال إنها مرحلة فكرية لا ضرورة لها. أبداً، لأن الإسلام يرىٰ أن للمعرفة نفسها أصالتها، وأنه لولا هذه المرحلة لما تقدم الإنسان.

لكن هل تكفي هذه المرحلة؟ أي إذا عرف الإنسان وفهم، فهل يعد موحداً؟

كلا، إذ إن هذه المعرفة والفهم ليستا سوىٰ المقدمة لكي يكون موحداً. أي إن عليه أن يعرف وأن يفهم لكي يصبح موحداً (التوحيد العملي).

وعندما نقول «إياك نعبد» نكون قد بدأنا التوحيد العملي ونريد أن نعلن الوحدانية.

أصل كلمة عبادة

يطلق في العربية علىٰ حالة الشيء الذي يكون ليناً، ومطيعاً، بحيث لا يعصي

ولا يقاوم ولا يعتدي، اسم حالة التعبد.

لم تكن الطرق في الأيام القديمة مثلما هي عليه اليوم، حيث تقوم مكائن خاصة بتعبيدها ومن ثم يكون السير عليها. بل كان السير هو الذي يصنع الطرق، لذلك فقد كانت الطرق في أوائل أيامها مليئة بالأحجار والصخور والأشواك، مما كان يعيق المرور، ولكن بازدياد المرور تصاغرت تلك الأحجار، ولانت، ولم تعد تعترض سبيل المارين، ولا تؤذي أقدام الناس وحوافر الحيوان، إذ غدت مرنة طيعة، وهي التي كانت أحجارها من قبل صلبة قوية. أما بعد أن أصبحت هينة طيعة، أطلق عليها اسم: الطريق المعبد[1].

والإنسان العبد والمعبد يعني الإنسان المطيع المسالم الطيع الذي لا يعصي، فهي حالة الإطاعة والإنقياد والرياضة، وعدم العصيان مقدار ذرة، تلك الحالة التي يجب أن يتصف بها الإنسان أمام خالقه، فأن تكون عبداً لله يعني أن تكون في تلك الحالة نحو الله تعالىٰ. أما التوحيد في العبودية والعبادة، فيعني إنك لا تكون في تلك الحالة أمام أي كائن وتحت أي آمر، بل أن تكون في حالة عصيان وتمرد في غير حضرة الله. وعليه، علىٰ الإنسان أن يكون في حالين متضادين: التسليم المطلق لله، والعصيان المطلق لغير الله. وهذا معنىٰ إياك نعبد. أي إنني أعبدك أنت وحدك، ولا أعبد غيرك.

لابد هنا أن نشير إلىٰ أن إطاعة الذين أوجب الله طاعتهم، كالأب والأم، والإمام القائد الجامع للشروط، تعد كلها في الواقع في حكم طاعة الله، فما دام الله هو الذي يأمرنا فعلينا أن نطيع وكل ما يشبه هذا يعتبر عبادة لله، وكل كل ما يقف

---

١ ـ يقال طريق معبد أي مذلل ـ مفردات الراغب.

بازاء الله عرضياً، لا طولياً، شرك.

أنواع الشرك والتوحيد

ورد في القرآن ذكر أنواع من الشرك، نشير إلىٰ بعض منها بحيث نلقي مزيداً من الضوء علىٰ معنىٰ التوحيد العملي بصورة إجمالية.

١ـ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[1].

في هذه الآية عد الإنسان العابد لشهواته مشركاً. وفي هذا يقول مثنوي:

«أم الأصنام صنم النفس
فتلك أفعىٰ وهذه تنين
النفس صخر وحديد والصنم الشرر
ومن الماء يأخذ حكمه الشرر
كيف يسكن الصخر والحديد الماء
كيف يأمن الإنسان مع هذين»[2]

وعليه عندما نقول «إياك نعبد» ننفي بذلك العبودية لغير الله، ونؤيد في الوقت نفسه كوننا نطيع أوامره هو، ولا نطيع أوامر ميولنا وأهوائنا وشهواتنا.

٢ـ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[3].

١ـ سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

٢ـ مادر بت‌ها، بت نفس شماست چون كه آن بت، مار و اين بت اژدهاست
آهن وسنگ است نفس و بت شرارآن شرار از آب ميگيرد قرار
سنگ و آهن زاب كسى ساكن شود آدمى با اين دوكى أين شود

٣ـ سورة التوبة، الآية: ٣١.

في الوقت الذي يذم فيه القرآن اليهود والنصارىٰ، يقول: إنهم، بغير أن يكون عندهم أي أمر من الله، اتخذ اليهود علماءهم والنصارىٰ رهبانهم آلهة يعبدونهم.

إن الذي نعلمه هو أن اليهود والنصارىٰ لم يعبدوا علماءهم وقدّيسيهم مثلما يعبد عبدة الأصنام أصنامهم، أي أنهم، مثلاً، لم يسجدوا لهم، ولكنهم كانوا يتعبدون أمامهم. أي أنهم كانوا يطيعونهم مستسلمين بغير إذن من الله، وكانوا في الواقع يطيعون أهواءهم وميولهم، فما كان يأمر به أولئك اتباعاً لشهواتهم كان هؤلاء يطيعونهم. يقول الله: إن الطاعة من الحقوق الخاصة به فإذا ما جاء أحد بأمر من الله فلابد من طاعته، ولكن الله لم يرسل الأحبار والرهبان بأمر منه، فلماذا يطيعونه؟

فبقولنا «إياك نعبد» نخاطب الله قائلين: إننا لن نعبد أحداً باسم الروحانيين، أو القديسين أو أي اسم آخر، ولا نطيع أحداً طاعة عمياء، إنما نطيع من أمرتنا أنت بإطاعته، ولا نطيع من لم تأمرنا بطاعته. فإذا كنا نطيع رسولك فذلك لأنك أنت الذي أوجبته علينا. وإذا كنا نطيع الأئمة الأطهار علىٰ أنهم أولوا الأمر منا، فذاك بأمر منك. وإذا أطعنا العلماء المجتهدين جامعي الشروط، أي العلماء العدول المتقين، فذلك لأن الرسول والأئمة الأطهار، الذين أوجبت علينا إطاعتهم، قد أمرونا بذلك.

٣ ـ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ﴾(١).

هذه الآية هي الرسالة التي أرسلها الرسول ﷺ سنة خمس أو ست هجرية إلىٰ ملوك العالم. إنها مظهر من مظاهر التوحيد العملي في العالم: ليس للإنسان أن يتخذ

١ ـ سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

إنساناً آخر رباً، ولا أن يكون إنسان مربوباً لآخر. وهكذا فإن «إياك نعبد» تعني: إلهنا أنت وحدك ربنا المطاع، وليس لنا رب اجتماعي، ولا نضع إنساناً بإزائك، ولا نطيع أمراً غير أمرك.

٤ـ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[١].

عندما واجه موسىٰ بن عمران فرعون ودعاه للإيمان بالله، رد عليه فرعون غاضباً: أوَ لست الذي كنت في بيتي وكبرت تحت يدي، وقمت بعملك الكبير القبيح (يقصد قتل القبطي)؟ فأجابه موسىٰ: أتمنّ عليّ ذلك حتىٰ تستعبد بني إسرائيل؟ أتريد لي الصمت لأنك اتخذت بني إسرائيل عبيداً لك؟

تلاحظون أن موسىٰ عليه السلام يصف موقف فرعون من بني إسرائيل علىٰ أنه (تعبيد) مع أن بني إسرائيل لم يسجدوا لفرعون، إنما كان قد أذلهم وأجبرهم علىٰ طاعته والعمل له، سالباً منهم كل حق وحرية اختيار، مستغلاً إياهم، فكانوا بهذا المنظور، مستسلمين لفرعون مطيعين له. لذلك فإن «إياك نعبد» تعني: ربنا إننا لن نستسلم للتعبيد، ولا للإذلال، ولا للإكراه علىٰ العمل، ولا للطاعة، ولا لسلب حق الإختيار والحرية.

هذه هي نماذج مما ورد في القرآن توضح معاني التوحيد العملي. فالتوحيد العملي هو ذلك الذي يصطلح عليه علماء الإسلام بالتوحيد في العبادة، أي التوحيد في الواقع الخارجي، بمعنىٰ أن واقع وجود الإنسان قد توحد أيضاً.

خلاصة ما قيل: هو إنه لايكفي في الإسلام أن يكون المسلم موحداً في مرحلة الرأي والفكر فيعرف الله في ذاته وصفاته وأفعاله بالوحدانية، وأن يكون

---

١ ـ سورة الشعراء، الآية: ٢٢.

قادراً، إن طلب منه، علىٰ أن يتحدث ستة شهور حول معرفة الله. إنّ شخصاً هذا شأنه لا يملك من التوحيد إلّا نصفه، والنصف الثاني هو أن يكون في الأفعال توحيدياً أيضاً، بل أن يكون موحداً. عندئذ يكون قد عرف الله بكمال صفاته، ويكون موحداً في التسليم بطاعته ويمكن أن نقول: إنه أصبح موحداً.

ههنا، كما قلنا من قبل، تبدو عظمة سورة الفاتحة وتتضح. وإنه لمدعاة للعجب حقاً أن يستطيع شخص لم يقرب الدرس عمره، ولا خالط فيلسوفاً، ولا جالس عالماً، أن يأتي في أولىٰ سور كتابه بكلمات، وأن يرتبها، بحيث يضع رسالته كلها في مقطوعة صغيرة، وأن يصوغ فكرة التوحيد النظري بأرفع جلالها في جملة قصيرة، وأن يبين التوحيد العملي في جملة «إياك نعبد» القصيرة!

حصر العبادات

في إعراب جملة «إياك نعبد» تكون إياك مفعولاً به للفعل نعبد، فكان حقها أن تأتي بعد الفعل، فتكون الجملة «نعبدك»، ولكنها لو جاءت هكذا لكان المعنىٰ: ربنا إننا نعبدك؛ ولكن رجال الأدب واللغة يقولون: تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

وهذا لا يختص باللغة العربية، ففي الفارسية مثله أيضاً. لذلك فإن معنىٰ الجملة يصبح: ربنا نعبدك وحدك ونستسلم لك ونطيعك، ولا نطيع أمراً لا يكون صادراً عنك. فتلك الجملة إذن جملة واحدة بدلاً من أن تكون جملتين: جملة مثبتة: نستسلم لله، وجملة منفية: لا نستسلم لغير الله.

وعلىٰ ذلك نجد في هذه الجملة شعار التوحيد الذي يجمع الإيمان والكفر، كقول المسلم لا إله إلا الله، حيث يبرز الإيمان والكفر معه ـ الإيمان بالله والكفر بغير الله.

لقد جاء في آية الكرسي:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾[١].

الإيمان في الإسلام، بغير الكفر، لايكون عملياً، إذ يجب دائماً أن يكون بجوار التسليم لله إنكار لمظاهر الطغيان، حتىٰ يكتمل الإيمان.

ضمير الجمع

في هذه المرحلة عند بلوغ التوحيد العملي ومرحلة (تكوّن) الإنسان، تجدر الإشارة إلىٰ نقطة لافتة للنظر، وهي إن الفاعل في (نعبد) ضمير يدل علىٰ الجماعة فلم يقل (أعبد) فيكون الفاعل عندئذ مفرداً، أي لم يقل «أنا أعبدك وحدك» بل قال «إننا نعبدك وحدك) ففي هذا المقام، مقام صنع الإنسان وصياغته، تجري عملية صنعه في ضوء معرفة الله والتوجه إليه، لا في حالة إغفاله وعدم معرفته، في مضمار العمل والنشاط، لا بالنظرية والفكر المحض.

يصاغ الإنسان في خضم العمل الإجتماعي وبمسايرة المجتمع الموحد والإنسجام معه، وليس منفصلاً عن قافلة أهل التوحيد. إن الإنسان كائن فكري، إلهي، عملي، واجتماعي.

فالإنسان بغير الفكر والمعرفة ليس إنساناً حقيقياً. إن الإنسان المنقطع عن الله والغافل عنه ليس إنساناً. إن إنسان الفكر الإلهي المنقطع عن العمل ليس إنساناً حقيقياً كذلك، إنه إنسان ناقص، بمثل ما هو ناقص ذلك الإنسان المفكر الذي

---

١ ـ سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

يعرف الله معرفة عملية، ولكنه منقطع عن المجتمع الموحد. لذلك فإن معنىٰ جملة «إياك نعبد» في الحقيقة هو:

ربنا، نحن أناس المجتمع الموحدين، نسير في حركة متناسقة ومعاً متوجهين إليك بآذان صاغية لأوامرك.

﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

منك وحدك نريد العون، ولا نريد العون من غيرك.

هذه الجملة تفيد التوحيد في الإستعانة، ومعنىٰ ذلك هو إننا نطلب العون والمساعدة منه وأننا نعتمده وحده. هنا يمكن أن نطرح سؤالاً، ويمكن أن يطرح هذا السؤال علىٰ صورتين:

الأولىٰ عن أصل الإستعانة. يرىٰ علماء التربية والتعليم وعلماء الأخلاق، أن الإنسان يجب أن يعتمد نفسه، لأن اعتماد المرء غيره والإستعانة بالآخرين يجعل منه إنساناً ضعيفاً واتكالياً، بخلاف اعتماد النفس الذي يوقظ فيه القوة والحيوية.

فبموجب هذه القاعدة ينبغي علىٰ الإنسان أن يتكل علىٰ نفسه، لا علىٰ غيره، سواء أكان اتكاله علىٰ الله أم علىٰ غيره. ولهذا فإن علماء اليوم يرون أن كلمة (توكل)، التي تعني التوكل علىٰ الله، وسلب التوكل علىٰ النفس، تعتبر ذات مضمون سلبي لا أخلاقي.

ويمكن أن يطرح هذا السؤال بصورة أخرىٰ: لماذا ينبغي ألاّ نطلب العون من غير الله؟ صحيح إننا ينبغي ألاّ نعبد غير الله، ولكن ما المنطق في ألاّ نطلب المساعدة من غيره؟ لقد جعل الله العالم عالم الأسباب، وجعل الناس يحتاج بعضهم بعضاً، فلا مندوحة عن طلب عون الآخرين في سد الحاجات اليومية وغيرها.

للاجابة عن هذا السؤال يجب أن نقول: ليست القضية هكذا، وإنما هي شيء آخر، فليس كل طلب للمعونة وكل توكل علىٰ الآخرين قبيحاً، أبداً. بل إن الله قد خلق الإنسان محتاجاً إلىٰ غيره من خلق الله، أي أن المجتمع الإنساني قد بني علىٰ أن يكون الناس محتاجين بعضهم إلىٰ بعض، وإنه لمن هذا المنطلق أننا نرىٰ أن التعاليم الإسلاميّة تحث علىٰ التعاون. لقد جاء في القرآن المجيد:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[1].

وكلمة «التعاون» من مادة «عون»، ولو كانت الإستعانة بغير الله غير جائزة بكل الحدود، لما حث الله الناس علىٰ التعاون لكونهم يحتاج بعضهم إلىٰ بعض، ولذلك فلابد أن يتعاونوا فيما بينهم.

جاء في الأخبار إن رجلاً دعا الله بالدعاء التالي وهو في حضرة أمير المؤمنين عليه السلام: اللهم لا تحوجني إلىٰ خلقك. فقال الإمام: لا تقل هذا. فقال: فكيف أقول؟ فقال الإمام: قل اللهم لاتحوجني إلىٰ لئام خلقك.

وذلك لأن الجملة الأولىٰ مستحيلة مادامت طبيعة الإنسان وتكوينه الإجتماعي يقتضيان التعاون. جملة (إياك نستعين) لا تقول إن علىٰ الإنسان ألاّ يستعين بالآخرين، فما هي المسألة؟

إن ما في الآية هو أن الإعتماد النهائي، وأن ما يتكل عليه قلب الإنسان، أي ما يتكل عليه الإنسان في نفسه، ينبغي أن يكون الله، وأما الذين يستمد منهم العون في الدنيا فإنّما هم وسائل. فالإنسان نفسه، وطاقته، وقوة عضلاته، وقوة فكره، كلها وسائل خلقها الله ووضعها تحت تصرفه، ولكن الأمور بيد الله. لذلك فقد يتكل

١ ـ سورة المائدة، الآية: ٢.

الإنسان في دنياه علىٰ وسائل كثيرة، ثم يخيب ظنه فيها لأنها لم تقدم له العون الذي كان ينتظر. بل قد يعتمد قواه الخاصة، ولكنه يجدها قد خيبت أمله. إن القوة الوحيدة التي يستطيع الإنسان أن يتكل عليها وينظم برنامجه معها دون خوف، هي الله.

جاء في التاريخ إنه في إحدىٰ الحروب ابتعد النبي ﷺ قليلاً عن المعسكر، وارتقىٰ مرتفعاً من الأرض وتمدد ليستريح، فغلبه النوم. واتفق أن مر به أحد فرسان العدو الشجعان، فأبصر الرسول، فعرفه، ففرح بذلك وقال في نفسه إنه سيقتله. وفيما كان الرسول نائماً وقف هذا علىٰ رأسه وصاح به: يا محمد، أهذا أنت؟

ففتح الرسول عينيه، وقال: أي والله إنه أنا.

فقال الرجل: فمن تراه يقدر علىٰ خلاصك مني؟

فقال الرسول دون تردد: الله.

وإذ لم يكن الرجل ينتظر هذا الرد قال له: سوف نرىٰ. وتأخر خطوة حتىٰ تزداد ضربته قوة، وإذا به يعثر بصخرة ويقع علىٰ الأرض. فأسرع الرسول ووقف على رأسه وقال: فمن تراه يقدر علىٰ خلاصك مني؟ وعندها قال الرجل مفتوناً: كرمك. فعفىٰ النبي ﷺ عنه.

خلاصة القول هي إن هذه الآية لاتعني أن الإنسان يجب ألاّ يمد يده طلباً للعون أبداً، ولكنه يجب ألاّ ينسىٰ، وهو يطلب العون، سبب الأسباب، وأن يدرك أن الوسائل كلها بيد الله تعالى[١].

---

١ ـ في الأصل (بيده). (المصحح)

﴿إِهْدِنَا الصِّراطَ المُسْتَقيم﴾

إننا لكي نلقي الضوء علىٰ الصراط المستقيم يجب أن نبين بعض النقاط:

١ـ كل الموجودات تسير في مسيرة كونية لا إرادية حتمية نحو الله في صيرورة:

﴿ألا إِلَى اللّهِ تَصِيرُ الأمُورُ﴾[1].

والإنسان لايخرج عن هذا بحكم كونه من الموجودات:

﴿يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[2].

٢ـ هنالك بين الطرق الكثيرة طريق مستقيم لاحب واحد، هو طريق السعادة، وهو اختياري، أي أن علىٰ الإنسان أن يختاره بنفسه.

٣ـ بما أن ما يختاره الإنسان هو طريق من الطرق. فإنه لذلك يتحرك في مسيرة ويطوي الطريق نحو هدفه. وبعبارة أخرىٰ، إنه يريد أن يتقدم نحو الكمال. وعليه فإن الإنسان كائن يطلب الكمال ويبحث عنه. فجملة: إهدنا الصراط المستقيم تعني: ربنا ارشدنا إلىٰ الطريق المستقيم الذي يوصلنا إلىٰ التكامل.

٤ـ طريق التكامل طريق يجب أن يكتشف، لا أن يبتدع، بخلاف نظرية الوجوديين التي تدعي أنه لا وجود لأي طريق ولا لأي هدف، وأن الإنسان هو الذي يخلق بنفسه مكانة وهدفاً وطريقاً، فهو نفسه خالق الهدف وخالق الطريق وخالق الكمال، أي أنه هو الذي يخلق كمال كماله وقيمة قيمته. في نظر القرآن

---

١ ـ سورة الشورىٰ، الآية: ٥٣.

٢ ـ سورة الأنشقاق، الآية: ٦.

الكمال والطريق، وكمالية الهدف، وتقويم القيمة، متعينة منذ بدء الخليقة والوجود، وعلىٰ الإنسان أن يكتشفها، وأن يعثر علىٰ الهدف، ويقطع الطريق إليه.

٥ـ الطريق المستقيم هو طريق وجهته معروفة منذ البداية، بخلاف الطرق غير المستقيمة المنحنية أو المتعرجة أو المنكسرة التي يفترض فيها أيضاً أن توصل الإنسان إلىٰ الهدف بعد كثير من تعدد الوجهات. وعلىٰ ذلك فإن طريق الإنسان نحو الكمال ليس ذلك الطريق الذي يمر عبر الأضداد والإنحراف من ضد إلىٰ ضد كما يقول الديالكتيكيون.

٦ـ إن قول القائل إنّ طريق التكامل طريق يجب أن يكتشف، لا أن يبتدع، لايعني أنه كالطرق المكانية، وإنه كان موجوداً قبل وجود السائر، ومخططاً، وذا معالم كالشوارع، وإن علىٰ الإنسان أن يمشي فيه، بل يعني وجود مسير بوجود السائر، يوصل إلىٰ الكمال الحقيقي الذي يقترب من حضرة الله، أي أن في جبلة الإنسان استعداداً فطرياً لبلوغ الكمال الحقيقي، كالأستعداد الكامن في نواة التمر لكي تكون[1] شجرة كاملة.

٧ـ علىٰ الرغم من أن للإنسان استعداده الفطري، إلا أنه محتاج إلىٰ المرشد الهادي. ذلك لأن الإنسان يختلف عن جميع الكائنات ذوات الإستعداد الفطري اختلافاً رئيساً.

فالموجودات الأخرىٰ طريقها في الطبيعة واضح مرسوم، وليس أمام أي منها إلا أن يسير في الطريق المرسوم، وليس الإنسان كذلك. ويعبر عن ذلك في الفلسفة بمقولة: إن لكل موجود طبيعة، عدا الإنسان، فإنه لا طبيعة له.

---

١ ـ في الأصل (للتخلّق والنمو). (المصحح)

يصرّ الوجوديون على القول إنّ الإنسان كائن عديم الماهية وعديم الطبيعة. لقد سبق لنا أن بحثنا هذا الموضوع في مكانه، وأثبتنا أنه ليس صحيحاً بالشكل الذي يشرحونه.

إن للإنسان طبائع مختلفة ومتضاربة، وعليه أن يختار طريقه من الطبائع العليا والسفلى. أما الحيوانات الأخرى فلم يعهد إليها بحرية الإختيار، بل الحصان والشاة والقطة والكلب لكل منها غرائز خلقت معها وهي التي تعيّن طريقها، ولذلك نرى كلاً منها في كل أرجاء الأرض تختص بطبائع وميول موحدة، وهي متشابهة في أفعالها وسلوكها. فالنحل والنمل لكل منها عاداتها في بناء مساكنها وإعداد غذائها، لاتتحول عنه مدى الدهر.

ولكن أمام الإنسان مئات الطرق والأساليب، له أن يختار منها ما يشاء.

لقد جاء في سورة الليل: «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى».

لاشك في أن هذا دليل على كمال الإنسان، لا نقصه.

بقي علينا أن نرى إن كان هذا يستلزم ألاّ يكون للإنسان أي طريق مطلقاً.

على الرغم من أن الماديين يرون هذا الرأي، إلا أن القرآن لا يقبل بذلك. يقول القرآن إن هناك مساراً مرسوماً بين الإنسان والله، وهو مسار كمال الإنسان. إن أمام الإنسان ألوفاً من الطرق، غير أن واحداً منها هو الطريق المستقيم اللاحب الذي يتجه نحو الله وينتهي إليه. إلا أن للإنسان ملء الحرية في الأختيار، فإن اختار الطريق المستقيم فبها، وإلّا فإن جميع الطرق الأخرى غير صحيحة ومضللة.

هنالك حديث يروى عن الرسول الكريم أنه كان يوماً جالساً وحوله جمع من الناس، وراح الرسول يرسم خطوطاً على الأرض، وكان واحد منها مستقيماً

والخطوط الأخرىٰ غير مستقيمة، ثم قال: هذا خطّي دون باقي الخطوط.

هذا هو السر في أن الظلمة ترد في القرآن بصيغة الجمع، والنور بصيغة المفرد: **﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾** فطرق الضلال متنوعة، وطريق الحق طريق واحد.

هنا تتجلىٰ الحاجة إلىٰ هداية الأنبياء، إذ إن الطريق المستقيم الذي يوصل الإنسان إلىٰ الكمال النهائي لايستطيع الإنسان الإهتداء إليه بغير هدايتهم، وهم الذين أرسلهم الله لهداية الإنسان.

يقول صاحب «تفسير الميزان» إن كلمة «سبيل» قد وردت في القرآن بمعنىٰ «الطريق» ولكنه يختلف في المعنى عن «الصراط»، ولذلك فقد يأتي «السبيل» في صيغة الجمع، ولكن لم يرد «الصراط» إلّا بصيغة الفرد. والسبيل هو ذلك الطريق الفرعي الذي ينتهي إلىٰ الطريق الرئيس. والصراط هو ذلك الطريق الرئيس.

قد لايكون للوصول إلىٰ نقطة ما غير طريق واحد، غير أن الطرق الفرعية التي تأتي من الأطراف والأكناف كثيرة ومتعددة، ولكنها تلتقي ذلك الطريق الرئيس في النهاية.

نحن البشر أشبه ما نكون بالقافلة، نكون معاً أثناء سيرنا نحو الكمال، ولكن علينا، للوصول إلىٰ الكمال النهائي، أن نجتاز الطريق الرئيس، إلا أننا قد نصل إليه عن طرق فرعية. فإذا قام كل امرىء، في مكانه الوظيفي ومركزه الإجتماعي، بالسير علىٰ وفق الموازين الإنسانية والأخلاقية والشرعية، يكون في الواقع قد اختار طريقاً سيوصله في النهاية إلىٰ الطريق الرئيس، حتىٰ وإن كانت البدايات متفرقة مختلفة، كأن يكون أحدنا طبيباً مثلاً، والآخر عاملاً، والثالث تاجراً... فهذه كلها طرق يستطيع المرء المسير فيها ليقترب من الصراط المستقيم.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

الناس من حيث مقام العبودية وما يريدون بلوغه، ومن حيث حريتهم في أي طريق يختارون، ينقسمون إلىٰ أقسام ثلاثة:

فأولاً: أولئك الذين يطوون طريق العبادة وهم، كما قلنا في شرح كلمة (الرحيم)، مشمولون برحمة الله الخاصة، تنزل عليهم النعمة تلو الأخرىٰ علىٰ الدوام، ويشعرون كأن يداً من الغيب تجرهم جراً. هؤلاء هم المقربون إلىٰ الله، كالأنبياء والأولياء ومن ثم الأشخاص الذين بلغوا الكمال. فعلىٰ المرء أن يجعل هؤلاء قدوة يقتدي بهم ويقتفي أثرهم. فالإنسان، في الجملة الأولىٰ، يطلب من الله أن يضعه في طريقهم.

وثانياً: أولئك الذين يقفون مقابل الجماعة الأولىٰ، والذين عصوا الله، وعبدوا إلهاً غيره، فبانت عليهم أعمالهم الواحد بعد الآخر، وكأن يداً تبعدهم دائماً عن الطريق الصواب، فبدلاً من أن يتجهوا نحو الأعلىٰ مثل الجماعة الأولىٰ، فيكونوا موضع نعمه المتوالية، تراهم موضع غضب الله، وقد فقدوا سبيلهم نحو الكمال كلياً، متجهين إلىٰ هاوية الشقاء المخوفة:

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾. هؤلاء في الواقع، أناس تخلوا عن طريق الإنسانية واتبعوا طريق الحيوانية، فمسخت إنسانيتهم، فهم يتأخرون بدلاً من التقدم، وهم الذين يعبر عنهم القرآن بقوله «المغضوب عليهم».

وثالثاً: هنالك فيما بين هؤلاء وهؤلاء جماعة ثالثة، مذبذبة، لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء، لايرون طريقاً واضحاً أمامهم ليسيروا فيه، تراهم حيارىٰ ضائعين، يتخذون في كل لحظة سبيلاً ولا يصلون إلى نهاية. وهؤلاء يعبر عنهم القرآن بـ«الضالين».

فعندما نقول: إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ندعو الله تعالىٰ قائلين: ربنا أرشدنا إلىٰ الطريق الصحيح، طريق أوليائك الصادقين المطهرين، طريق الذين لاتفتأ تشملهم بنعمك المتتالية، لا طريق عبيدك الذين مسخوا وتغربوا عن الإنسانية، فباؤوا بغضب منك، ولا طريق التائهين الضائعين الذين يظهرون في كل لحظة بمظهر مختلف ومع جماعات مختلفة[1].

خاتمة سورة الفاتحة

١ ـ في الأصل (مختلفات). (المصحح)

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ
مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ
اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾[1].

وجه تسمية السورة

تسمىٰ هذه السورة باسم سورة البقرة بالنظر لورود اسم بقرة بني إسرائيل فيها. وهي أول سور القرآن، وتتألف من حوالي جزءين ونصف من أجزاء القرآن.

---

١ ـ سورة البقرة: الآيات ١ ـ ٧.

الحروف المقطعة

هذه سورة مدنية، وتبدأ، مثل ثلاث عشرة سورة أخرىٰ، بحروف مقطعة، ونقصد بها أحرف الهجاء بدون أن تتركب مع بعض.

قد تبدأ هذه السور بحرف واحد، مثل سورة «ن والقلم» أو سورة «ق»، وقد يبدأ بعضها بحرفين إثنين، مثل سورة «يس» وسورة «طس»، وقد تبدأ سور أخرىٰ بثلاثة حروف، مثل سورة «طسم» وسورة «ألم»، وقد تكون أربعة حروف، مثل سورة «المر»، وبعض بخمسة حروف، مثل سورة «حمعسق» وسورة «كهيعص».

يختص القرآن وحده بهذه الخصوصية، إذ لم يسبق أن ابتدأ كتاب، سماوياً كان أم غير سماوي، بحروف مقطعة، فما هو المقصود من هذه الحروف؟

لقد طرح هذا السؤآل منذ الأيام الأول من صدر الإسلام، وظهرت نظريات عديدة بهذا الشأن، ويمكن القول بأنه لم يظهر لهذا السؤال جواب قاطع لحد الآن.

وإليكم بعض هذه النظريات:

يرىٰ بعضهم إن هذه الحروف سلسلة رموز بين القائل والسامع، أي بين الله ورسوله، تشير إلىٰ معارف ومعلومات أرفع في مستواها من مستوىٰ العامة، وإنه لما لم يكن باستطاعة الناس أن يستوعبوا سماعها، فلم تذكر صراحة، بل جاءت علىٰ صورة رموز، وهذا أمر مألوف حتىٰ بين الناس، فحين يريد أحدهم أن يقول شيئاً لا يفهمه إلاّ المخاطب المقصود، فعندئذ يخاطبه بالرموز.

نظرية أخرىٰ تقول إن هذه الرموز هي أسماء السور التي بدأت بها، أي إن إسم سورة البقرة هو «ألم»، وإن اسم سورة طه هو «طه».

ونظرية ثالثة تقول إنها قسم، فكما إن القرآن يقسم بسائر مظاهر الخلق، بالشمس، بالقمر بالنجم، بالنهار، بالليل، وبالنفس، فإنه يقسم أيضاً بالحروف؛ أي إن معنىٰ (أ ـ ل ـ م) هو: اقسم (بـ ـ أ ـ ل ـ م).

عندما يقسم الإنسان بشيء، فإنه في الحقيقة يقسم بشيء يكون محترماً عنده، ويكون المخاطب عارفاً كذلك بأن صاحبه يحترم ذلك الشيء ولا يرتضي له إهانة أو تحقيراً، ولذلك فهو يستند إلىٰ ذلك الشيء ليدل علىٰ صدقه وأنه يقول الحق، ولكن الإنسان قد يقسم في حالات مختلفة، فقد يقسم ليفيد أمراً يقتضي القسم، أي إنه يقسم لكي يعرف المخاطب إنه يقدر الشيء ويحترمه، فعندما يريد امرؤ أن يشعر الناس أنه يحترم فلاناً، فإنه يقسم برأس فلان أو بحياته، ففي مثل هذه الحالات يكون المقصود من القسم هو المقسم به، أي الذي أقسم برأسه أو بحياته، لا المقسم عليه، أي موضوع القسم.

وهذا النوع الثاني من القسم، هو الذي يرد في القرآن؛ فإذا أقسم القرآن بالقمر والشمس والتين والزيتون والنهار والليل، فإنه يريد أن يوجه إنتباه البشر إلىٰ أهمية تلك الأشياء.

إن من أهم الأمور التي كان لها دور أساس في حضارة الإنسان وتمدنه هو حروف الهجاء، فقد لعبت هذه الحروف، أو الأصوات التي تخرج بهيئة حروف، دوراً كبيراً في حياة البشر الإجتماعية؛ إن للحيوانات أصواتاً وأغاني، ولكنها لا تقدر أن تصنع منها حروفاً، فلو لم يستطيع الإنسان أن يصنع من أصواته حروفاً، كالبكم، ولو لم يكن قادراً علىٰ التكلم وإيصال مقاصده إلىٰ الآخرين، لما كان هناك علم ولا تمدن أو صناعة، وحتىٰ الكتابة ورسم الخط، تلك النعمة الكبرىٰ والتي يقسم بها القرآن أيضاً، فقد ظهرت بعد مرحلة التكلم؛ أي إن مقدرتنا علىٰ

كتابه (ا ـ ل ـ م) منفردة هي من نتائج مقدرتنا علىٰ أن نلفظها منفردة، فلولا هذه الحروف لكان علينا أن نرسم صورها لأيصال مقاصدنا؛ لكان علينا، مثلاً، أن نرسم بيتاً ليدل علىٰ البيت، وصورة السيارة لتدل عليها، وهذا يعني إستحالة إيصال مالا يمكن رسم شكله.

ثمة نظرية أخرىٰ تقول: إن هذه الحروف إشارة إلىٰ إعجاز القرآن. وهم يشرحون نظريته كما يلي:

إن حروف الهجاء العربية التي تبلغ «٢٨» حرفاً ـ وقد تكون أكثر في بعض اللغات، حتىٰ قيل أن في بعض اللغات حوالي ٣٠٠ حرف من حروف الهجاء ـ تعتبر بمنزلة لبنة البناء، وهي في متناول الجميع، ولكن هل يستطيع الجميع أن يقولوا قولاً رفيعاً؟ كلا، فالحروف مثل خيوط الغزل بيد الناسجين، ولكن أتراهم من حيث الفن ينسجون علىٰ منوال واحد؟ أبداً.

إن قدرات الكلام وفنون الخطابة تتألف من هذه الحروف ذاتها، وكذلك الكتب والمقالات والقصائد الشعرية كلها نسيج هذه الحروف، ولكن الناتج علىٰ درجات من التفاوت، قد يصل التفاوت ما بين السماء والأرض.

نقرأ في آيات أخرىٰ أن القرآن يتحدىٰ الناس ويطلبهم إلىٰ المبارزة، فليجمعوا كل خطبائهم ورجال الكلام فيهم وليأتوا بآية من مثله. أفهل يستطيعون؟

فالقرآن، بذكره هذه الحروف، علىٰ سبيل المثال، يريد في الحقيقة أن يقول: هاهي المواد الأولية التي صُنع منها القرآن؛ أيها الناس، لم يصنع القرآن من مواد غيرها حتىٰ تقولوا لو كان عندكم مثلها لجئتم بمثله؛ إنما هي الحروف ذاتها وقد ألفت في طراز بديع، فتعالوا واصنعوا منها مثله؛ لم يصنع القرآن في مصنع معين

حتىٰ تقولوا انكم لاتملكون آلاته ومواده، بل إن آلادته[١] ومواده بين أيديكم.

هذا بيان إعاز القرآن، إذ كيف يمكن لشخص أمي لم ير المدرسة ولم يقرأ كتاباً أن يصوغ كلاماً لا يقدر علىٰ الأتيان بمثله أحد؟

قبل بضع سنوات قليلة طرحت نظرية أخرىٰ فيما يتعلق بالحروف استأثرت باهتمام الصحافة والناس وهي إن مصرياً مختصاً بالكمبيوتر [العقل الآلي] أجرىٰ دراسة دقيقة علىٰ هذه السور الأربع عشرة، فتوصل إلىٰ أن دور حرف البداية في كل سورة أكبر بالنسبة إلىٰ الحروف الأخرىٰ المستعملة في السورة نفسها. فمثلاً إن الحروف (أ ـ ل ـ م) في سورة البقرة تلعب دوراً أكبر مما تلعبه الحروف الأخرىٰ الواردة في السورة، وإن نسبتها من الدقة بحيث لا يستطيع العقل البشري حسابها، إذ أن الكسور فيها تصل درجات لايقدر عليها غير الحاسب الآلي.

وفي الختام أورد احتمالاً آخر بهذا الخصوص وهو:

هنالك بحث قديم يدور حول الوجود الأول في نظام الوجود هذا. أي ما الذي تقدم، وما الذي تأخر، وقد جاءت نظريتان للأجابة علىٰ هذا التساؤل، فبعض يقول: في البداية كانت الكلمة والكلام، ويقصدون بذلك إن البداية كانت في الفكر والفهم والأدراك، لأن الكلمة والكلام من علامات الفكر والتفكير، ومن ثم ظهرت المادة، ويرىٰ آخرون إن المادة كانت سابقة، إي إن المادة والطبيعة قد ظهرتا في البداية، وبعد تكاملها ظهر الفهم والأدراك والشعور، ومن ثم ظهرت الكلمة والكلام.

يبدو أن القرآن يؤيد أولىٰ هاتين النظريتين، إذ إنه عندما يشرح قصة الخليقة،

---

١ ـ في الأصل «مكائنه». (المصحح)

يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١].

أي إن الأول هو القول، ثم تأتي سائر المخلوقات. إنه لمن الواضح هنا أن القول لايعني مجرد التلفظ، الهواء والصوت فحسب، بل إن له معنىٰ أشمل وأكمل.

يبدو إن الله بهذه الحروف المقطعة يبين أسلوب الشروع بعمله، أي إن القول والكلام والفكر أسبق من الجسم والطبيعة وجوداً.

ومهما يكن فإن الحروف المقطعة من متشابهات القرآن، وعلىٰ الأخص إذا قبلنا بالنظرية الأولىٰ وقلنا إنها رموز بين الله ورسوله.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾[٢]

ذلك الكتاب؛ لاحظوا إنه لايقول «هذا الكتاب»، بل يقول (ذلك الكتاب)، وهذا يعني التعظيم، ففي العربية إذا أرادوا الأشارة إلىٰ شيء عظيم استعملوا الأشارة إلىٰ البعيد، أي إن ذلك الشيء تفصله عنا وعنكم الفواصل.

لا ريب فيه: لا شك فيه. ما معنىٰ هذا؟ كيف ليس في القرآن شك؟ علىٰ الرغم من علمنا بوجود من يشك في أصالة القرآن، حيث ان القرآن نفسه يقول:

﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَاتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[٣].

في الأجابة يجب أن نقول إنك قد تقرأ كتاباً وتجد فيه أموراً، فتتساءل: أصحيح كل هذا الذي فيه، أم لا صحة له؟ فأنت متردد وشاك، ولكي تتوكد لك صحته أو عدم صحته، يقتضيك أن ترجع إلىٰ ما فيه من أسانيد فتتحقق منها.

---

١ ـ سورة يس، الآية: ٨٢.

٢ ـ سورة البقرة: ٢ .

٣ ـ سورة البقرة، الآية: ٢٣.

نعم هكذا الأمر بشأن هذه الكتب، وعلىٰ الأخص في كتب الأخبار والروايات والأدعاءات، إذ إن إثبات صحتها يحتاج إلىٰ دليل وبرهان.

ولكن قد يتفق أحياناً إن الأمور تتوكد للقارئ بشكل ملموس ومحسوس بحيث لايجده محتاجاً إلىٰ إي شاهد ودليل.

فمثلاً لو أن أحداً لا سابق معرفة لك به ولم تخالطه من قبل إدعىٰ إنه عادل، فلابد إنه بهذا يثير فيك الشك، فتأخذ بالبحث عن البينة والشاهد، فإذا أيد لك ذلك إثنان ممن تعرف فيهم العدالة وشهدا علىٰ صدق دعواه، فإنك ستقتنع، وإلّا فلا.

أما إذا كان هذا الشخص المدعي العدالة من المقربين إليك؛ زاملته في الحل والترحال وعرفت أعماله ودرست سلوكه، بحيث تجلت لك عدالته وتقواه، فهل تراك تحتاج إلىٰ دليل أو شاهد علىٰ إدعائه؟ كلا.

كذلك الأمور في القضايا العلمية والنظرية، فبعض المسائل يتطلب إثباتها إلىٰ البرهان، وفي بعض آخر يجد الإنسان أن الموضوع واضح أمامه فلا يحتاج إلىٰ برهان، بل إن مجرد طرحه يعتبر دليلاً علىٰ صحته.

كذلك هو القرآن. فقد يرتاب أحد في أصالة القرآن، وهذا يكون مادام بعيداً عنه، فما أن يقترب منه حتىٰ يزايله الشك فيه.

ولكن لابد أن نعلم إن الأقتراب من القرآن علىٰ نوعين: الأول هو أن يقرأ الإنسان القرآن، فيفهمه ويرجع إلىٰ التفاسير في مشكله، والثاني هو أن يعمل به.

ولما لم يكن القرآن مجرد كتاب نظري، فقد اقترنت فيه النظرية والعمل توأمين، وعليه فإن هذه الآية تريد أن تقول: يا أيها الذين ترتابون في القرآن وتشكون فيه، لكم كل الحق في ذلك، لأنكم لم تقتربوا منه، ولم تنظروا فيه، ولم تطّلعوا عليه، ولم تختبروه في مراحل العمل! فلو اقتربتم منه ولمستموه، لما وجدتم في أصالته ترديداً.

﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾[١]

أول ما يتبادر للذهن في معرض معرفة القرآن والتقرب إليه هـو أن نـعرف أولاً: لماذا نزل القرآن، وما هي ماهيته؟ ولا يخامرنا شك في أصالته، لأن الكتاب الذي لا نعرف سبب كتابته وما هو هدفه، لا نستطيع أن نعطي فيه رأياً.

فلننظر الآن أي كتاب هذا ولماذا؟ أهو كتاب في الطب؟ في الفـلسفة؟ فـي التاريخ؟ في الرياضيات؟ لا، ليس أياً من هذه، فماذا إذن؟ إنه كتاب هداية.

انّه هدى

فمن الذين يهديهم هذا الكتاب، أيهدي الجميع؟ أفلا يعود هناك أي ضال بعد نزول القرآن؟ وهل سيهدي الناس جميعاً بالأجبار؟ كلا، فهو وإن لم يهد النـاس جميعاً، فإنه سيكون سبباً لضلالة بعض آخرين؟ وذلك كما يقول هو:

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾[٢].

ولكن ينبغي ألاّ ننسىٰ بالطبع ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلا الفَاسِقِينَ﴾.

والفاسق هو الذي يخرج عن طريق الفطرة الإنسانية.

وفي هذا المعنى يقول مولوي:

«ادع الله ان يـــــجعلك تـــحيا في نـور هـذه الأمـور لتـصل الغـاية
فـــقد ضـــل بـــالقرآن كـثيرون اذ بـهذا الحبل هـووا فـي قـعر بـئر

١ ـ سورة البقرة: ٢.

٢ ـ سورة البقرة، الآية: ٢٦.

ولكن الحبل لا ذنب له أيها العنيد إنما أنت نفسك لم ترد الصعود

وهو بهذا يشير إلىٰ أن القرآن حبل الله.

فالقرآن إذن هدى للمتقين، والمقصود بالمتقين (الطاهرين) وهم الباقون علىٰ فطرتهم الأولىٰ، وهذا موضوع بحثناه في مكانه، وسوف نبحثه مرة أخرىٰ. فالقرآن، علىٰ وجه العموم، يرىٰ أن كل إنسان يولد طاهراً، أي إنه مجهز بتقوىٰ ذاتية، ولكنه قد يتلوث بالتدريج بمفاسد المحيط والبيئة، فيخرج عن باطن الفطرة، فيكون مسخاً.

يقول القرآن، انه لو بقي الإنسان علىٰ فطرته الأولىٰ لأوصله هذا الكتاب وهداه إلىٰ القصد والغاية، بمعونة كل ما فيه من بذور الكمال والفضيلة.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾(١)

أول ما يهدي القرآن إليه هو أنه يهدي الإنسان إلىٰ الإيمان بالغيب؛ والغيب والشهادة مصطلحان من مصطلحات القرآن.

عالم الوجود، من حيث وجهة نظر القرآن، ليس منحصراً بالأمور التي نحسها فحسب، بل إن المحسوسات هي الطبقة الخارجية من العالم، والقسم الأعظم منه وراء ذلك. فالمحسوس يسمىٰ الشهادة، وغير المحسوس اسمه الغيب.

إن ما يسميه الفلاسفة عالم الطبيعة، من شجر، وورد، وبحار، وصحاري، ومجرات ونجوم.... وكل ما يراه الإنسان أو يشمه أو يحسه عموماً، هو ما يسميه القرآن عالم الشهادة.

---

١ ـ سورة البقرة: ٣.

ولو كان العالم هو كل هذا، لكان منظور الإنسان منظوراً خاصاً، إي إنه كان يرىٰ الإنسان يولد، ويعيش مدة من الزمن في هذه الدنيا، ثم يموت ويتلاشىٰ، ولم يكن يرىٰ غير هذا شيئاً، فلا يرىٰ له بداية ولا نهاية، ولا يخطر له أن يسأل: من أين ظهر هذا الإنسان، وإلىٰ أين سوف يذهب؟

إنما رسالة القرآن هي أن يخرج الإنسان من هذه النظرة الضيقة، فيطلعه ويجعله يؤمن بأن عالم الشهادة هذا ليس سوىٰ قشر الوجود، وإنما الوجود الحق العظيم هو ما وراء ذلك.

أفضل مثل نضربه لعالم الغيب هو الإنسان نفسه، فجسم الانسان من الأمور التي يحسه الإنسان كما إننا نعرف النفس أيضاً. فهنا قسمان من عالم الشهادة، ولكننا لا نحس نفس الآخرين، فنفوسهم بالنسبة لنا من عالم الغيب، إذ إننا حتىٰ لو قضينا عمرنا مع غيرنا، فسنسمع صوته، ونرىٰ لونه، ونلمس جسمه، ولا شيء غير هذا، فنفسه ستظل خافية علينا دائماً، فإذا اطلعنا علىٰ ما يدور في خلده فذلك لأننا نستنتج ذلك من حديثه معنا، وإلّا فليس باستطاعتنا أن نعرف مكنونان ضميره بصورة مباشرة، ولا ما في قلبه.

يقال إنّ لنا نفساً ذاتية المعرفة، وهو ما نعبر عنه بقولنا: إننا هكذا نفكر، ونحس هذا، ونحب الشخص الفلاني، ونكره الشخص الفلاني، وثمة نفس غير ذاتية المعرفة، وهي تؤلف القسم الأعظم من وجودنا. فالإنسان نفسه أكثره غيب وأقله مشهود.

والقرآن يرىٰ هذا في العالم كلّه، ويمنح الإنسان منظوراً جديداً. فالملائكة واللوح المحفوظ والعرش والكرسي، كلها تتعلق بعالم الغيب وباطن هذا العالم، وعلىٰ الرغم من أننا لانحسها بحواسنا فاننا لا نستطيع إنكارها، بل لابد من

الأعتقاد بأن عالم الغيب هو ما تعجز الحواس عن إحساسه، وإن ما لاتعجز عن إحساسه، فهو العالم المشهود.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾[١]

بعد الإيمان بالغيب يأتي موضوع إقامة الصلاة. يمكن القول إن الأصل الأول، وهو الإيمان بالغيب، يتعلق بالنظام الفكري العقائدي عند المسلم، والأصل الثاني يرتبط ببناء الذات، والأصل الثالث هو الإنفاق، ويتعلق ببناء المجتمع، وهذا ما سوف نعود إليه مرة أخرىٰ.

تتضح من هذا أهمية الصلاة، حيث اعتبرت من دعائم الدين، وإذا كان لكل مذهب أسلوبه في تكوين أتباعه، فإن العبادة علىٰ رأس برنامج التربية الإسلاميّة، وعلىٰ رأس كل العبادات الصلاة.

ولكن علينا أن نلاحظ إن القرآن لايقول: يتلون الصلاة، بل يقول: يقيمون الصلاة، وهناك فرق بين أن نتلوا الصلاة وأن نقيمها، ففي المواضع التي يشير فيها القرآن علىٰ أنها تقرأ هي مواضع يراد بها الذم، أي إن الكلام يدور فيها علىٰ الذين في صلاتهم شبهة.

ما معنىٰ إقامة الصلاة

إقامة الصلاة تعني إعطاء الصلاة حقها، أي إنها يجب ألّا تكون كالجنة التي لا روح فيها، بل أن تجعل الصلاة العبد متوجهاً إلىٰ الله خالقه حقاً، وهذا أيضاً هو

---

١ ـ سورة البقرة: ٣.

معنى الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[١].

تذكر الله يساوي نسيان غير الله. لو أن الإنسان ظل حتىٰ فترة قصيرة يناجي ربه ويطلب عونه، ويحمده، ويصفه بأنه الله، وأنه الرب، وأنه الرحمن، وأنه الرحيم وأنه أحد، وأنه الصمد، وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فسيكون لذلك أرفع الآثار في نفسه، وتبنىٰ روحه علىٰ ما يريده الإسلام، ولا يكون هذا بغير ذلك.

﴿وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[٢]

فما هو الإنفاق؟ لا يعني الإنفاق بالطبع أن يجعل المرء من نفسه فقيراً ـ كما يظن بعضهم ـ بل الإنفاق هو بذل المكتنزات. والإنفاق قد يعني الأزالة. أي إزالة النفق والفقر، فهم يزيلون الفقر ويقضون علىٰ الحاجات.

والإنفاق يقيم روابط الإنسان بالمجتمع علىٰ أسس مستقرة، مثلما إن الأصل الأول، الإيمان بالغيب، يرتبط بمنظور الإنسان للعالم، والأصل الثاني، إقامة الصلاة، يرتبط بالرابط الدائم بين الإنسان وعالم الغيب.

هل يختص الإنفاق بالمال؟

تقول الآية: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وللرزق معنى عام، والكلمة تعني في القرآن الرزق المعنوي والمادي، والعلوم والمعارف تدخل ضمن أرزاق الله،

١ ـ سورة طه، الآية: ١٤.

٢ ـ سورة البقرة: ٣.

وعلىٰ الذين رزقهم الله منها أن ينفقوها ليستفيد منها الآخرون.

فلسفة الإنفاق

قد يحسب بعضهم أن فلسفة الإنفاق الوحيدة هي ملء الفراغ الإجتماعي، فيقولون: لو أن الحكومات والدول تلتزم هذا الأمر فتنشيء مؤسسات تأخذ علىٰ عاتقها حل مشاكل الفقر، فلن تبقىٰ حاجة إلىٰ الإنفاق الفردي لحلها؛ ولكن الأمر ليس كذلك، أقصد إن فلسفة الإنفاق ليست ملء الفراغ الإجتماعي فحسب، بل إن لها علاقة ببناء الإنسان أيضاً.

يقول «برتراند راسل» وأتباعه: وهل فلسفة حياة الأسرة غير أن يقوم الوالدان بتنشئة الأطفال، وبالمحافظة عليهم، وبتمريضهم عند المرض؟ هذا الضرب من التربية كان سائداً في السابق القديم، لكن بعد أن تكامل المجتمع، كان لابد من نقل هذه الوظائف الأسرية إلىٰ مؤسسات حكومية كبيرة، حيث يؤخذ الطفل من دار الولادة مباشرة إلىٰ دار الحضانة، حيث يكبر مع غيره من الأطفال، وهكذا تأخذ هذه المؤسسات مكان الوالدين والأسرة، وتعود الحقوق التي كانت في عنق الأبناء تجاه الوالدين، والتي كانت علىٰ الوالدين تجاه الأبناء، إلىٰ روابط بين الشعب والدولة.

إن العيب الكبير في هذه المسألة هو الخروج من مسيرة الفطرة الإنسانية؛ لقد خُلق الأبوان وفيهما عاطفة الأبوة والأمومة، وخلق الأبناء وفيهم عاطفة البنوة، أي إن الأم من حيث كونها أماً تجد في نفسها دافعاً يدفعها لكي تحتضن وليدها وتربيه بحنانها، وهذه عاطفة فطرية، بل إنها أعمال تجري مجرىً لا إرادياً، حتىٰ إن الأم لاتدري ما تفعل.

ومن جهة أخرىٰ، عندما تطبع الأم تلك القبلة الحنونة علىٰ وجنة وليدها وتضمه إلىٰ صدرها ضماً، فإنها بذلك تربي فيه روح المحبة والحنان، أي إنه يتلقىٰ حرارة حبها ويتقبله، إن هذا الحب والحنان يشحنان الطفل بالطاقة، حتىٰ إذا ما كبر ونما، سطع نورها في نظرات حب وحنان يلقيها علىٰ من حوله؛ لذلك فإن بعض الذين يتربون في دور الحضانة ولم يروا حضن أم ولا حب أب، ينقلبون إلىٰ مجرمين خطرين.

فالإنفاق من هذا القبيل أيضاً، فينبغي ألّا نقول إن فلسفته هي إشباع الجياع فقط، وإنه يمكن تحقيقه من باب آخر، إذ إن فلسفة الإنفاق هي بناء الإنسان، فالإنسان تتربىٰ روحه تربية إنسانية في ظل العفو والتسامح والأيثار.

وعلىٰ ذلك فلا يستطيع امرؤ أن يقول إنه يستطيع القناعة والإكتفاء بمحبة ولا يريد شيئاً أبداً. ويرىٰ نفسه بناء علىٰ ذلك أنه إنسان كامل. كلا، فمن يستطيع أن يملك، عليه أن يملك، وأن يكمل نفسه بالإنفاق. إذ ليس من الكمال في شيء ألّا تملك وألّا تنفق. بل أن تنال وأن تنتزع مما تنال وتنفق، إنه عامل من عوامل بناء الذات.

وهذا ما يتبين بوضوح من القرآن المجيد، حيث يخاطب الرسول الكريم قائلاً:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾[1].

في هذه الآية إشارة إلىٰ فلسفة البناء التي ذكرناها، لا إلىٰ الفلسفة الإجتماعية عن إشباع الجياع، لأنها تقول خذ من أموالهم صدقة لكي تطهر بها نفوسهم،

---

١ ـ سورة التوبة، الآية: ١٠٤.

وتوصلهم إلىٰ الرشاد. مثل النبات الذي يزداد نمواً بتشذيبه، وهذا في الواقع شأن كل الموجودات، فكلما أزلت عنها آفاتها، ازدادت نمواً ورشداً.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (١)

من صفات المتقين الأخرىٰ الإيمان بالوحي، فقد يتفق أن يؤمن المرء بالوحي وألّا يؤمن به في الوقت نفسه؛ أي إنه يقبل بالقرآن كتاباً من أمهات الكتب في العالم، ويعتقد بأنه يحتوي علىٰ تعاليم منجية، إلا إنه لا يراه كتاب وحي أنزله الله.

ولعل هذا أكثر ما يصح علىٰ غير المسلمين الذين يعتقدون بالقرآن ويعدونه من بين كتب التربية والتعليم.

صاحب كتاب «في أحضان السعادة» يذكر القرآن في الفصل الخاص بالمطالعة والكتب، علىٰ أنه من كتب التربية العظيمة.

وشبلي شميل (المسيحي) اللبناني العربي المادي المذهب، له أبيات جميلة بشأن الرسول والقرآن، يوجهها إلىٰ رشيد رضا صاحب مجلة المنار المصرية، منها قوله:

إني وإن قد كفرت بدينه ... هل أكفرن بمحكم الآيات

ولكن هذا القبول بالقرآن ليس إيماناً به، إذ الإيمان به هو الأعتقاد بأنه وحي قد نزل من الله: **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾** (٢).

---

١ ـ سورة البقرة: ٤.

٢ ـ سورة الشعراء، الآية: ١٩٣ ـ ١٩٤.

لابد من الأشارة إلىٰ أن الإيمان بالغيب قد شمل الوحي أيضاً، وما ورد ذكره إلّا من باب التفصيل بعد الأجمال، لأن مسألة الوحي ليست بمثل وضوح مسألة (الله) فوردت ثانية.

﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(١)

كلمة الآخرة مؤنث الآخر، وهذه ضد الأول ومؤنثها الأولىٰ، والسبب في إيراد الكلمة في القرآن بصيغة المؤنث هو أن هذه الصفة سبق أن وردت لوصف (الدار) أو (الحياة)، فوردت مؤنثة، لتبعيتها للموصوف.

وقد تأتي «الآخرة» في قبال «الدنيا» وقد تأتي في قبال «الأولى». وكلمة «دنيا» يحتمل أن تكون من مادة «دَنَو» بمعنىٰ: قرب، وقد تكون من مادة «دَنَي» بمعنىٰ: الدون. فإذا كانت من الدنو فتعني هذه الحياة الأقرب، وبذلك يكون معنىٰ الآخرة هو الحياة الأبعد. وإذا كانت من (دَنَي)، فتعني هذه الحياة التي هي في الأدنى، فتكون الآخرة هي الحياة ذات المرتبة الأعلى.

في سورة «الضحى» تقع الآخرة في قبال الأولىٰ، حيث يقول الله تعالىٰ، في معرض تعزية الرسول علىٰ انقطاع الوحي:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي إن نهاية أعمالك خير من بدايتها، أي إنك كلما تقدمت اقتربت من الكمال الأسمىٰ.

علىٰ كل حال، «وبالآخرة هم يوقنون» يعني الذين يؤمنون بوجود حياة أخرىٰ وراء هذه الحياة، وهي حياة الثواب والعقاب.

---

١ ـ سورة البقرة: ٤.

والأعتقاد بالآخرة اعتقاد بالخلود، إذ الفرق بين الحياتين هو أن هذه تنتهي إلىٰ نهاية، والآخرة خالدة لا نهاية لها، سواء أكان الإنسان فيها شقياً أم سعيداً؛ صحيح أن شقاء بعضهم وقتي، إلا أنهم يخلّدون بعد ذلك في سعادة دائمة، وقد وردت كلمة الخلود مرات عديدة في القرآن.

إن الإيمان بالخلود من سمات الأديان الآلهية، وهي من الأفكار القادرة علىٰ توجيه العالم، ذلك لأن المذاهب المادية التي لا تؤمن بالخلود، وترىٰ الإنسان كالفقاعة التي إذا انفجرت ذهبت هباء، لا تعني سوىٰ اللا شيئية وسوء الظن بالوجود.

وهذا هو الذي يقلقهم أشد القلق، حتىٰ إن بعض الماديين لجأ مؤخراً إلىٰ حيلة ينقذ بها مذهبه من اللاشيئية هذه.

يقولون: صحيح إن الفرد فإن إلا أنه يستمر في مسيرته ضمنياً بتقدم المجتمع عن طريق التكامل. فإذا ما قُتلنا أنا وأنت، فإننا نكون خالدين مادام الطريق خالداً.

من الواضح أن مقولات كهذه ليست سوىٰ محاولات للدفاع عن فلسفتهم، ولكن الذي يؤسف له حقاً هو أن بعض الناس يسعون إلىٰ مطابقة مفاهيم القرآن مع هذه التخرصات، فيقولون، مثلاً، إن «بالآخرة هم يوقنون» تعني إنهم يؤمنون بنظام أكثر تكاملاً في هذه الحياة، أي إن الفرد ليس خالداً، بل النوع هو الخالد. لكننا نقول لهم إنه إذا قلنا بعدم خلود الفرد، فلابد أن نقول بعدم خلود النوع أيضاً، إذ إنه بموجب الحسابات التي أجراها علماء الفيزياء، يكون قد مضىٰ علىٰ الأرض عدة ملايين من السنين، وسوف يأتي يوم لا تكون فيه أرض ولا إنسان، فما معنىٰ خلود النوع في هذه الحالة؟

﴿أوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِن رَبِّهِمْ﴾[١]

إن الله الذي يربي العالم وينمّيه، يرشد كل الكائنات إلىٰ طريق الكمال، فبعض يهديهم هداية تكوينية وبعض يهديهم هداية تشريعية، أي عن طريق الأنبياء والمرسلين، ولكن هؤلاء هم وحدهم الذين يحق لهم بلوغ الكمال عن طريق الهداية التشريعية.

﴿وَ أوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[٢]

هؤلاء وحدهم هم الناجون، وما من أحد ناج غيرهم. وإلىٰ هنا ينتهي قسم الإيمان في هذه السورة، ويبدأ قسم الكفر.

﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أأنذَرْتَهُمْ أمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[٣]

الكفر: وهي مأخوذة من مادة «كَفَر» ومعناه: ستر؛ ولكن القرآن يطلق علىٰ الذي ينكر اسم «كافر»، وذلك لأن الحقيقة جلية عندهم، ولكنهم بدلاً من أن يصدقوا بها، يخفونها.

الإنذار: يخلط بعضهم بين معنىٰ الأنذار والتخويف. فالتخويف هو أن يكون امرؤء، مثلاً، سائراً وإذا بأحدهم يفجر متفجرة علىٰ مبعدة منه، فيخاف، والأنذار ليس هذا، بل هو إعلان عن الخطر، أي إنك إذا علمت بوجود خطر سوف يتهدد

---

١ ـ ٢ ـ سورة البقرة: ٥.

٣ ـ سورة البقرة: ٦.

أحداً، فأخبرته أنت بما ينتظره، تكون قد أنذرته، فالرسل هم المنذرون.

والآن فلننظر إلىٰ القرآن، إنه يقول عن الكافرين إنهم لا يجديهم نفعاً، سواء إن أنذرتهم أم لا، فما معنىٰ هذا؟ أفهل يجب أن يكون الناس مؤمنين حتىٰ يأتيهم الرسول بدعوته؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنه من تحصيل الحاصل، كما يقال.

بل قد جاء الرسل ليجعلوا الكفار مؤمنين، لا ليجعلوا المؤمنين مؤمنين.

يتذرع بعضهم بهذا ليزعم أن القرآن يوجه المجتمع والتاريخ توجيهاً مادياً، أي إنه يقول إن الناس مجموعتان: مجموعة مستغلة (بالفتح) ومجموعة مستغلة (بالكسر). فالمجموعة الأولىٰ هي التي تملك الأستعداد لتقبل الدعوة، فجاءهم رسول فعلاً، وكانوا هم الذين يخاطبهم، أما المجموعة الأخرىٰ فليست موضع دعوة الرسول.

هذا كلام كله هراء، فالقرآن للجميع، والرسول يخاطب كل الناس:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[1].

والناس تعني عموم الناس، ولا صحة للقول بأنها تعني المحرومين منهم فقط.

عندما بعث الرسول، كانت دعوته تشمل الأسود والأبيض، المستعمر والمستعمر، الغني، والفقير، وغيرهم جميعاً، فما معنىٰ الآية إذن؟

إذن كلمة «كافر» لا تطلق في القرآن ـ إن لم نقل في كل الموارد، ففي أكثرها ـ علىٰ كل من لم يكن مسلماً، بل إنه يقصد بالكافرين أولئك الذين جاءتهم الرسل ودعتهم إلىٰ الحقيقة التي اكتشفت لهم، ولكنهم واجهوا الرسل وأنكروا، إي إن الناس مالم تأتهم الرسل، لايكونون مؤمنين، ولا كافرين، ولا منافقين، بل هم الناس، كل الناس.

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

ولكن الناس، بعد أن تأتيهم الرسل، ينقسمون إلىٰ ثلاثة أقسام: فقسم يؤمن، وقسم ينكر، وقسم يتظاهر بالقبول.

فالمقصود بالكفار في الآية الشريفة ليس الذين لم يسلموا من قبل، بل الذين وصلتهم دعوة الرسول وعرفوا الحقيقة، ولكنهم خالفوا عقولهم وحكمتهم وأنكروا الدعوة:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[1].

إن من طبيعة الإنسان المنفتحة نفسه علىٰ تقبل الحقيقة، أن يتقبلها إذا ما تكشفت له، ولكن الذي يورد الإنسان موارد الهلكة، هو أن يقف موقفاً مناوئاً للحقيقة.

هنالك أناس كثيرون هكذا هم، يتخذون مواضعهم مع المناوئين للحقيقة. وقد رسم القرآن لهؤلاء لوحة رائعة، حيث يقول:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[2].

إنهم يفضلون أن ترجمهم السماء بالحجارة علىٰ أن يعترفوا بالحق، أي بدلاً أن يقولوا ربنا إن كان هذا حقاً ومن عندك، فوفقنا لقبوله، يقولون: إن كان حقاً فامحقنا.

وهذا هو معنىٰ مناوئة الحقيقة. فأناس من هذا القبيل، لاتنفع فيهم النذر، ولا تفيدهم شيئاً. فهؤلاء مقصرون لا قاصرون، كما يصطلح عليهم الفقهاء.

---

١ ـ سورة النمل، الآية: ١٤.

٢ ـ سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

بناء علىٰ ذلك، إن من لم يكن مسلماً، لا يستلزم بالضرورة أن يكون كافراً، أبداً. إنما الأمر كما قلنا، والكفر في مصطلح القرآن يعني الأنكار، وستر الحقيقة. والكفار هم الذين يتخندقون في جبهة ضد الأنبياء والمرسلين، ويناوئونهم من مواضعهم السلبية هذه.

قد يتبادر إلىٰ الذهن سؤال عن الذين لم يعرض عليهم الإسلام ولا أي دين آخر، ولم يظهروا، بالطبع، مخالفة ولا موافقة، فماذا يكون هؤلاء؟

الجواب هو إن هؤلاء ليسوا من المؤمنين، ولا ريب، فلا يشملهم أحكام المؤمنين الخاصة، ولكنهم، في الوقت نفسه، لاتشملهم كذلك آيات مثل هذه الآية. في الحقيقة إن دعوة الرسل هي التي توجد تلك الأقسام الثلاثة من الناس: المؤمنين، والكفار، والمنافقين.

الكفر المقدس

لابد أن نشير هنا إلى إنه مادام أصل كلمة الكفر يعني، الستر والأنكار والوقوف موقف المناوي، فإنها قد ترتدي أحياناً لبوساً مقدساً في القرآن، أي إنها عندئذ تعني الوقوف ضد الباطل والكفر به، وأوضح ما يكون هذا في آية الكرسي:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّهِ﴾[1].

إي إن علىٰ كل مؤمن أن يكون كافراً أيضاً، فما دام في موضع الحق، لابد له أن يكون من موضعه هذا ضد الباطل، فينكره. وهذا هو الفكر المقدس.

---

١ ـ سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

يعتقد الشيعة إن فروع الدين عشرة، فيكون التولي هو الفرع التاسع، والتبرّي هو الفرع العاشر؛ أي إن علىٰ كل فرد أن يؤمن بولاية علي بن أبي طالب، إلا أن هذا وحده لا يكفي، بل يجب أن يكون لهذا جانبه السلبي في الوقت نفسه، أي عليه أن يتبرأ أيضاً من كل ما هو ضد علي وخط سيره، فههنا أيضاً لا يكفي الإيمان بالله، بل يجب أن يصاحب ذلك إنكار الطاغوت والكفر به.

﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾(١)

عند الأنتهاء من كتابة رسالة ما، فإنك تختمها بتوقيعك، أو بختمك، وبذلك لا تستطيع أن تضيف إليها شيئاً آخر؛ يقول القرآن إن قلب الإنسان مثل الرسالة التي تكتب فيها السطور بالتدريج، وقد تكون جيدة أو رديئة، إلىٰ أن تصل حيث تنتهي، فتختمها، ولا تعود تستطيع إضافة شيء عليها.

فدعوة الرسول لأمثال هؤلاء لا تنفعهم شيئاً، ولا تؤثر فيهم، فيقول الله لرسوله: كف عن دعوتهم، وليس هذا لأن الدعوة منذ البداية لم تؤثر فيهم، بل لأنهم قد تقولبوا، فقد سمعوا الدعوة وألقيت عليهم الحجة، ولكنهم رفضوا وأنكروا، فضلت قلوبهم علىٰ هذه الحال.

يرىٰ القرآن في الإنسان كائناً دائم التحول والتبدل، وما سمي قلبه بالقلب إلّا لتقلبه، وبالطبع ليس المقصود هو قلب الإنسان الطبيعي، بل هو تلك الروح، أو النفس، التي لها في كل لحظة حالة جديدة يصف الرسول صلى الله عليه وآله القلب، فيقول: «**مَثَلُ القَلبِ كَمَثَلِ رُيشَةٍ في الفلاةِ تَعَلَّقَتْ في أصلِ شَجَرَة، يُقَلّبُها الريحُ ظهراً لبطنٍ**»(٢).

---

١ ـ سورة البقرة: ٧.

٢ ـ كنز العمال: ج ١، ص ٢٤٤.

لقد ضمّن مثنوي هذا الحديث في بيتين، وبالمعنىٰ نفسه:

گُفْت پيْغَمْبَر كِهْ دِلْ هَمْجُونْ پَرِىْ اسْتُ
دَرْ بِيابانى اَسِيرِ صَرْصَرِى اسْتُ
بادْ پَرَ را هَرْ طَرَفْ رانَدْ گِزافْ
گَرْ چَپُ وْ گَرْ راسْتُ با صَدْ اِخْتِلافُ

لا يكون الإنسان في لحظتين بحالة واحدة، فهو تحت تأثير أعماله قبل أي شيء آخر، فالعمل الساطع يضفي عليه نوراً، والعمل المظلم الكالح يسلب الإنسان نوره ويبقيه في ظلام. إن العمل الطيب يهب الإنسان لطفاً يجعله سريع التقبل للنصيحة وللحق وللحقيقة. أما الأعمال التي تخالف فطرة الإنسان، أعمال الكافرين، فإنها تورث القساوة في القلب، وقد تحيل قلبه إلىٰ قطعة سواد، وهي التي يصفها القرآن بأنها قد ختم عليها، وانتهىٰ أمرها، إذ أن أصحابها يرون بأم أعينهم، ثم يلوون كشحاً، كأن ستاراً قد ضرب علىٰ أعينهم، وعلىٰ أبصارهم غشاوة.

هذه آثار الكفر، لا أسبابها. وبهذا البيان تحل كل المسائل.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ
اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا
فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا
يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا
إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى
شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝١٤ اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي
طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا
كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾ (١).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

لما كان النفاق أخطر من الكفر، فإن القرآن المجيد لم يذكر هنا في الكفر سوىٰ آيتين، ولكنه أورد آيات عدة بشأن النفاق. ولعل هناك ١٣ سورة ورد فيها ذكر النفاق والمنافقين في صور شتىٰ، واختص القرآن المنافقين بسورة كاملة هي السورة ذات التسلسل ٦٣، واسمها «المنافقون».

---

١ ـ سورة البقرة: الآيات ٨ إلىٰ ١٦.

٢ ـ سورة البقرة: ٨.

ما النفاق؟

النفاق يعني أن يكون المرء ذا وجهين، أي أن يكون في الباطن شيئاً، وفي الظاهر شيئاً آخر، إن هذه الخصلة، وإن تكن مرفوضة ومذمومة، إلا أنها في الوقت نفسه ناشئة عن كمال الإنسان؛ أي، لما كان الإنسان، من بين الحيوانات، قد بلغ مرحلة أكثر تكاملاً، فقد أصبح أقدر علىٰ التصنع والتظاهر، وما الحيوانات أو أكثرها بقادرة علىٰ النفاق، باستثناء بعضها الذي وصل من حيث الذكاء إلىٰ مدىٰ أبعد، مكنها من أداء بعض التصنع، ولكنّ الحيوانات الأخرىٰ، كالطيور، أو ذوات الأربع، كالحصان، والحمار، ليس في مقدورها أن تتصنع، إنما القط قد يكون له بعض هذه المقدرة، حيث يستفيد عند محاولة اصطياد فأر أو عصفور من هذه المقدرة، فيخفىٰ نفسه ويصطاد فريسته، وهكذا الثعلب، ولذلك يوصف بالمكر، وكذلك يقال هذا عن الذئاب التي تصل إلىٰ فرائسها بالحيلة.

ولكن ما من حيوان بقادر علىٰ التصنع مثل الإنسان، الذي يسبغ علىٰ تصنعه ألواناً من التعابير الأدبية، كالمخاتلة، والمخادعة، والمداهنة، وكلها ضروب من النفاق، أو يقال إن فلاناً يشارك الذئب طعامه، ويشارك الراعي بكاءه!

وما قولي إن النفاق ناشئ عن تكامل الإنسان، إلا لأننا نرىٰ إنه كلما كان الإنسان أقرب إلىٰ البداوة، كان أقل نفاقاً. والطفل في صغره لاينافق، ولذلك نراه إذا كان في مجلس، وقدم إليه طعام، يتناوله إذا كان راغباً فيه، بل وقد يستعجله بالبكاء، إذا أبطأوا في تقديمه له، ولكن الكبير في مجلس كهذا، علىٰ الرغم من رغبته الشديدة في تناول الطعام، فإنه، عندما يدعونه إليه، يقول: لا أشتهي. هذه كذبة لا يقولها الطفل.

كلما تقدم الإنسان في مضمار التمدن، ازدادت قدرته علىٰ النفاق، لم يكن الإنسان قبل ألف سنة يعرف من النفاق عشر معشار ما يعرفه اليوم.

أفلا تلاحظون إن الألفاظ والتعابير السائدة اليوم أكثرها نفاقية؟ خذ، مثلاً كلمة (استعمار) فهي لغوياً ذات معنى جيد جداً، وقد استعملها القرآن بمعناها الأصلي:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾[١].

فاستعمار من باب استفعال، ومن مادة عمّر، عمراناً، أي انه طلب منكم عمران الأرض، لقد خلقكم علىٰ سطح الأرض، وكلفكم بعمرانها، فالاستعمار يعني طلب العمران.

وحيثما كانت تذهب الدول الأستعمارية، لم تكن تقول لهم: إننا جئنا لنهب ثرواتكم، وسلبكم خيراتكم؛ بل كانوا يقولون: جئنا لنعمر دياركم. وكانوا فعلاً يتظاهرون بفعل ذلك، فكانوا يعبّدون[٢] شارعاً أو شارعين، ولكنهم كانوا يسرقون من الشعوب آلاف الأضعاف مما كانوا ينفقون، وبهذا كانوا يستعبدون الشعوب. وعلىٰ ذلك، فإن كلمة استعمار كلمة منافقة، أي إنها علىٰ الرغم من معناها السليم؛ فإنها لا تستعمل بمعناها الحقيقي.

إن الذين كانوا يصطلحون علىٰ تسميتهم بالمبشرين المسيحيين كانوا في الحقيقة طلائع الاستعمار؛ أي إنهم كانوا يمهدون الطريق لدخول الأستعمار إلىٰ البلاد لاستعمارها، فكانوا يدخلون باسم التبشير بالدين المسيحي، فيشغلون

١ ـ سورة هود، الآية: ٦١.

٢ ـ في الأصل «يمهدون». (المصحح)

الناس باوصاف عيسىٰ المسيح وأمه مريم العذراء، وبعد مدة كان الناس يحسون أنهم أخذوا يفقدون ثرواتهم المادية تحت ستار الثروة الروحية.

يقول أحد الأفارقة: يوم أن وطئت أقدام الأوربيين بلادنا، كنا نملك الأرض، وكانوا يملكون الأنجيل؛ ولكن بعد مضي ٤٠ ـ ٥٠ سنة رأينا إنجيلهم في أيدينا وأرضنا في أيديهم، ذلكم هو النفاق.

والحقيقة، إن كثرة تناول القرآن لموضوع المنافقين ليس سوىٰ تحذير لنا نحن المسلمين، لكي نكون علىٰ حذر دائم من المنافقين، ولئلا نقع فريسة مخاتلاتهم. فالمنافقون ليسوا محصورين بصدر الإسلام، ففي كل زمان منافقون، يتسربون في صفوف المسلمين، متظاهرين بالإسلام، ثم يطعنونه بالخنجر في ظهره.

لعلكم قد سمعتم باصطلاح «الرتل الخامس»، الذي ظهر خلال الحرب العالمية الأولىٰ. إذ كان لأحدىٰ الدول جيش يتألف من اربعة (ارتال) تحارب بالأسلحة المألوفة، ولكنها كانت قد سربت قبل ذلك مجموعة من الجنود إلىٰ داخل جيش العدو، يستغفلونه. يقال إن تأثير هذه المجموعة كان أشد من تأثير الجيش العلني، فأطلقوا عليه اسم الرتل الخامس، إذ يتظاهر أفراده بالمحبة لأفراد العدو، ولكنهم في الباطن يعملون لمصلحتهم.

فالقرآن يقول إن الرتل الخامس يتهدد المسلمين، وهم أولئك الذين يقولون: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1] يقولون إنهم يؤمنون بيوم القيامة ولكنهم يكذبون.

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ٨.

﴿يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾(١)

لم يقل «يخدعون الله» إذ ما من أحد يستطيع أن يخدع الله، ولذلك قال «يخادعون الله». المخادعة، من باب مفاعلة، ومن إحدىٰ معانيها: إنهم يسعون إلىٰ خدع الله ويحاولون ذلك ويريدونه.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إلا أنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(٢)

ليس من الممكن خدع الحقيقية والواقع، فمن يتصدىٰ لخدع الحقائق، فإنه في الواقع يخدع نفسه، قد يستطيع المرء أن يخدع الطبيب، ولكنه لن يخدع الطب. فهو يستطيع أن يكذب علىٰ الطبيب فيخدعه، فإذا سأله إن كان قد استعمل الدواء السابق، يقول نعم، مع أنه لم يستعمله، ثم لا يتبع إرشاداته، ويقول إنه فعل. فإنه لا شك قد خدع الطبيب، ولكنه لم يخدع الطب، بل لقد خدع نفسه، وذلك لأن الطبيب يصف الدواء بحسب وصف المريض المرض، وهكذا يكون المريض هو المنافق فيزداد مرضاً، وينتهي أمره.

والمسلمون أيضاً يمكن أن ينخدعوا، إذ يتم الدخول إليهم عن طريق المكر والحيلة، ولكن الخديعة لن تنطلي علىٰ الله، رب الحق والحقيقة والمخادع سيكون هو المخدوع.

قد يكون في جملة «يخادعون الله» احتمال آخر، وهو إن المنافقين ما كانوا يريدون أن يخدعوا الله، إذ إنهم لو لم يعتقدوا بالله لما فكروا في خدعه، وإذا كانوا

---

١ ـ ٢ ـ سورة البقرة: ٩.

معتقدين به، فإن المعتقد بالله لايمكن أن يعتقد بامكان خدع الله. وعليه، فإن هذه الجملة لابد أن تكون من جملة تلك الموارد التي ينسب الله إلىٰ نفسه أعمال أصحاب الحق، وأمثال هذا في القرآن كثير. ففي سورة الفتح (الآية ١٠) يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

لذلك فإن الآية تعني: إن الذين يتصدون لخدع أهل الإيمان، يقومون في الواقع بخدع أنفسهم إذ إن الذين يسيرون علىٰ هدى الحق، يكونون سائرين علىٰ الصراط المستقيم الذي توصل نهايته إلىٰ الله، إنهم قد أسلموا أنفسهم للحقيقة، وإن روح تسليمهم هذا هو الذي ينجيهم، حتىٰ وإن بدا عليهم في الظاهر أنهم في هذه الدنيا ليسوا من الممتازين[1] الأذكياء. أما الذين يدعون الامتياز[2] والذكاء، ويريدون أن يتقدموا عن طريق المكر والخديعة، يحسبون أنهم قادرون علىٰ ذلك حتىٰ في هذا المجال، فيسعون إلىٰ خدع أصحاب الإيمان لبلوغ أهدافهم.

ولكن بالنظر لأن الحق والحقيقة لايمكن أن تنطلي عليهما خدعة، حتىٰ وإن أمكن خدع أصحاب الحق، فإن خطط المخادعين سوف تنقلب عليهم أنفسهم.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[3]

يبين الله في هذه الآية أصل الحالة ومنشأها؛ أصل الحالة هو مرض القلب؛ إنهم مصابون بأمراض روحية ونفسية.

ولقد وردت في القرآن آيات عديدة تشير إلىٰ أمراض القلب:

---

١ ـ في الأصل: «الشطار». (المصحح)

٢ ـ في الأصل: «الشطارة». (المصحح)

٣ ـ سورة البقرة: ١٠.

مرض التكبر والأستبداد، مرض التعصب للخرافات القديمة، مرض اتباع الآباء والأجداد، مرض اتباع الكبر والمتكبرين. هذه بعض نماذج من الأمراض الروحية والنفسية التي تحول بين الإنسان والرضوخ للحق، بمثل ما إن الفسق، والفجور، والتلوث، تطمس استعداد الإنسان لتقبل الحق.

هؤلاء المرضىٰ يزيد الله مرضهم، وذلك لأن طبيعة الروح تشبه طبيعة الجسم. فإذا مرض إنسان يرجع إلىٰ الطبيب للعلاج، ولكنه إذا لم يمتثل لأوامر الطبيب، بل نافق معه، وكذب عليه، فلا شك في أنه سيزداد مرضاً.

لقد صنع الله تعالىٰ هذا العالم بحيث تنمو فيه كل زراعة، إنما الإنسان هو الذي عليه أن يختار نوع البذور التي يبذرها، فإن شعيراً زرعت شعيراً تحصد شعيراً و إن زرعت قمحاً حصدت قمحاً، وإن حنظلاً فحنظل حصيدك، وإن تمراً فتمر، وكما يقول القرآن المجيد:

﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَٰؤُلاء وَهَٰؤُلاءِ﴾[١].

فالله يعين الجميع، والعالم قد بني بحيث يسير كل نحو تكامله، الصالح، والطالح[٢].

---

١ ـ سورة الإسراء، الآية: ٢٠.

٢ ـ الفسق من فسقت التمرة، وهي أن تضغط التمرة فتخرج النواة، أي انشقت التمرة فخرجت النواة. (وقد جاء في القاموس المحيط: فسقت الرطبة عن قشرها، خرجت، كانفسقت. قيل: ومنه الفاسق، لانسلاخه عن الخير ـ المترجم).

از خدا میخواه تا زين نكتهها در نور زى ور رسى در منتها
زانكه در قرآن بسى گمره شدندزين رسن قومى درون چه شدند
مررسن را نيست جرمى اى عنودچون ترا سود اى سر بالا نبود

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١)

سبق للقرآن أن ذكر بأن المنافقين يخدعون أنفسهم. وهذه آية أخرىٰ يتضح فيها خداع النفس عند المنافقين.

يقال إن الكذاب، لكثرة كذبه وتكراره، يؤمن بالتدريج بصدق أقواله، أو قد ينسىٰ أنه هو الذي أشاع تلك الأقوال والشائعات الكاذبة.

ومن ذلك قولهم: إن أبلهاً تضايق مما يصيبه من أذىٰ الأطفال، فأراد يوماً أن يبعدهم عنه، فأخبرهم إن في الطرف الآخر من المدينة يوزعون بعض الخيرات من الطعام، فصدقه الصبية، وانفضوا عنه، وهرعوا إلىٰ حيث قال. وما أن رآهم يبتعدون عنه مسرعين، حتىٰ راح يسرع وراءهم، قائلاً في نفسه: لعل الأمر صحيح!

يقول القرآن هؤلاء هم الرتل الخامس الذي يتظاهر بالولاء والمحبة للمسلمين، ولكنه في الباطن يضمر الشر والفساد والإخلال بالمجتمع الأسلامي، وأهداف الإسلام المقدسة، وإذا طلب منهم أصحابه أن يكفوا عن الفساد؛ يردون عليهم: إننا مصلحون، ولسنا مفسدين.

﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٢)

لاحظوا كيف يستعمل القرآن الحصر، فمرة نقول: زيد عالم. ومرة أخرىٰ

---

١ ـ سورة البقرة: ١١.

٢ ـ سورة البقرة: ١٢.

نقول: العالم زيد، وهذا يعني إن زيداً هو وحده العالم في العالم، وإن غيره لا يعد من العلماء، فمعنىٰ الآية هو أن هؤلاء هم وحدهم المفسدون، وأن أي مفسد آخر لا يعد مفسداً بازائهم، أي إن الفساد قد تجسد في هؤلاء، ولكنهم لا يحسون ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]

إن الأداة (ألا) في هذه الآية ـ وكما في «ألا إنهم هم المفسدون» ـ تنبيه للمسلمين أن أحذروا هؤلاء، فإنهم سفهاء، وإنهم في درجة من الظلام دون أن يدركوا ما هم فيه.

هنالك نوعان من الجهل: الجهل البسيط والجهل المركب.

الجهل البسيط هو أن لا يعلم المرء، ويعلم أنه لا يعلم، وهذا جهل تسهل ازالته، وذلك لأن المرء إذا لم يكن يعرف شيئاً، وعرف أنه لا يعرفه، سيسعىٰ حتماً لمعرفته، أو أنه في الأقل، يستمع إلىٰ ما يقوله الآخرون ويتقبله ان وجده حقاً، فهذا علىٰ كل حال جهل لا خطر منه.

الجهل المركب هو أن لا يعلم المرء، وأن لا يعلم أنه لا يعلم، وهذا جهل لا علاج له، لأن غرور صاحبه يحول بينه وبين إزالة الجهل، وهذا ديدن معظم الذين يدعون التنور والفهم، وهي دعوىٰ أساسها عدم التنور والفهم.

يشير ابو علي بن سينا في كتاب (الأشارات) إلىٰ هذا، علىٰ ما أتذكر، فيقول: «إياك وفطانة بتراء» إي كن علىٰ حذر من الذكاء الناقص، والقصد هو إن من الخير

---

١ ـ سورة البقرة: ١٣ .

أن يكون الإنسان إما بسيطاً ساذجاً، وإما عاقلاً مكتمل النضج والفهم، فالساذج البسيط يعرف عادة هذه الصفة في نفسه، أما ذوو الذكاء الناقص والذين يكونون أذكياء أحياناً، فإنهم يحسبون أنفسهم في قمة الذكاء، وأن كل أعمالهم تتصف بالحكمة، إنما هؤلاء هم أكثر الناس حمقاً وأشدهم عناءً.

وللغزالي مأثورة يقول فيها: إن الوجود الناقص لأي شيء خير من عدمه، إلا العلم والمعرفة، أي إننا لو ملكنا أي مقدار من الصحة، أو من الثروة والجاه لكان خيراً من ألّا نملك منها شيئاً، وليس كذلك العلم والمعرفة. فالإنسان الأمي خير من إنسان نصف أمي، إذ إن هذا يظن إنه مثقف كامل المعرفة، وعندئذ لا يسعىٰ للأستزادة من العلم.

ثمة بيت شعر للشاعر «سنائي» علىٰ ما أظن يقول فيه:

«كل امرىء يعاني من شيء وعنائي أنا من أنصاف المجانين»[١]

يريد أن يقول أن العقل كالعلم، فأما أن يكون المرء عاقلاً تماماً، أو عالماً تماماً، فأنصاف العقلاء وأنصاف العلماء أشد ضرراً من فاقدي العقل والعلم.

وكل مخادع عاش في المجتمع يكون عادة من هؤلاء (الأنصاف) من الناس أي من أصحاب أنصاف الذكاء، لا كل الذكاء، فالذكي الكامل، إن لم يعتقد بشيء، فإنه يدرك بذكائه أن السعادة والنجاح في الصدق. أما أنصاف الأذكياء، والذين صادفتهم في حياتي كثيراً، فيرون أن مكانتهم تقتضي ألّا يعاملوا أحداً بصدق، وهؤلاء لا صديق لهم إطلاقاً، إذ إنهم لايثق بهم أحد، لأن الناس تعرف أنهم في كلامهم خبثاء، يتشاطرون.

---

١ ـ نهج الفصاحة والجامع الصغير، ج ١، ص ١٠٢.

والقرآن يرىٰ أن هؤلاء المنافقين هم من ذوي الجهل المركب، ويقول إنـهم لايعلمون، ولا يعرفون أنهم لا يعلمون، لا يشعرون، ولكنهم يحسبون أنهم يشعرون.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[١]

وكما قال القرآن من قبل: **﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُم﴾**[٢] يقول أيضاً: **﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾**[٣] أي إنهم يظنون أنهم قادرون علىٰ السخرية من الحق وعلىٰ خداعه؛ ليس الأمر كذلك ألبتة، بل الحقيقة هي التي تسخر منهم، فهم فـي نـهاية الأمر يُستهزأ بهم وحدهم.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٤]

إنهم طغاة، والله يزيد من إنغمارهم في الطغيان حتىٰ تصيبهم الحيرة وينتابهم الأرتباك التام، فلا يدركون ما يفعلون.

إلىٰ هنا يكون القرآن قد اورد عدداً من صفات المنافقين:

الأولىٰ: هي أن المنافقين يتظاهرون، فالتظاهر من سمات المنافقين، بحيث أنهم يتظاهرون بالإيمان أكثر مما يظهره المؤمن.

الثانية: هي أنهم مخادعون، مداهنون. وهذه من خاصة صفاتهم.

الثالثة: هي أنهم مصابون بمرض نفساني، فـيحسبون أنـهم بأعـمالهم تـلك

---

١ ـ سورة البقرة: ١٤.

٢ ـ سورة البقرة: ٩.

٣ ـ ٤ ـ سورة البقرة: ١٥.

يشفون مما فيهم من عقد نفسية، ولكنهم، علىٰ العكس من ذلك، يشتد عليهم المرض، وتزداد عقدهم.

الرابعة: أن الأمر قد اختلط عليهم بحيث أنهم يظنون أن في أعمالهم صلاح المجتمع، أي أنهم يلبسون أعمالهم الفاسدة لبوس الصلاح، وهم يظنون أنها كذلك.

الخامسة: هي أنهم هم الحق والسفهاء ويظنون أن غيرهم هم السفهاء.

السادسة: هي أنهم ذوو وجهين، ومن ذلك أنهم يقولون شيئاً في هذا المجلس، ويقولون ضده في مجلس آخر.

تلك هي صفات المنافقين التي وردت في القرآن.

هنا لابد أن نشير إلىٰ عدد من النقاط:

١ ـ كلمة (الناس): من الناس من يقول آمنا... فهذه الكلمة عامة، وتشمل طبقات شتى، كالغني، والفقير، والعالم، والجاهل، والأبيض، والأسود، والظالم، والمظلوم، الخ.

فإذا لم نكن نقصد أياً من هذه الطبقات، والأنواع، ولا تهمنا أشكالها ولا ألوانها عندئذ نجيء بهذه الكلمة لتشمل الجميع، أي الإنسان بصرف النظر عن اللون، والشكل، والطبقة، والدين، والعقيدة، وباصطلاح الفلاسفة: الإنسان غير المشروط.

لقد أيد المفسرون القدامىٰ هذا المعنىٰ لكلمة (الناس) وهو ما نعتقد بصحته، ولكن ثمة آخرون وقعوا في السهو، فقالوا إن كلمة (الناس) تطلق علىٰ فاقدي كل شيء، أي الطبقة الكادحة، الطبقة المحرومة، في هذه الحالة تشمل الكلمة طبقة معينة، ولا تشمل الجميع.

إلا أن الأمر ليس هكذا، وإنما معنىٰ كلمة (الناس) هو ما ذكرنا، وما هو

مقصود به في القرآن. هم الناس، دون اعتبار لوضعهم الخاص، لدينهم، لفقرهم، لغناهم، للونهم، لعلمهم، لجهلهم، وعندما يقول القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[1] فإنه لا يوجه الخطاب إلىٰ الطبقة المحرومة فقط، وإنما هو يخاطب الجميع. وكذلك قوله:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[2].

فالحج قد فرض علىٰ الناس كلهم، لا علىٰ بعض دون بعض، إنما اشترط لذلك الاستطاعة.

﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[3].

وهي تشير إلىٰ الحملة التي كان الكفار ينوون شنها علىٰ المدينة، حيث أشيع إن (الناس) قد اجتمعوا لمهاجمة المسلمين، وذلك لكي يلقوا الرعب في قلوب المسلمين. كما أن (الناس) قد أطلقت في الآية التي نبحث فيها علىٰ المنافقين: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ...» والذين قالوا إن «الناس» تعني الطبقة المحرومة، اضطروا إلىٰ القول بأن المنافقين جزء من الطبقة المحرومة، وليس هذا صحيحاً، فالمنافق يمكن أن يكون من أية طبقة، والجدير بالذكر أن منافقي صدر الإسلام، الذين عناهم القرآن، كانوا من الأشراف في غالبيتهم؛ إن رئيس المنافقين علىٰ عهد الرسول صلى الله عليه وآله كان (عبدالله بن أُبي) وكان من أكبر شخصيات المدينة قبل هجرة الرسول إليها، حتىٰ إن أهل المدينة كانوا قد اتفقوا علىٰ اختياره ملكاً عليهم، لكي يقضوا علىٰ الخلافات القديمة بين الأوس والخزرج، فكانوا يعدون العدة لصنع

---

١ ـ سورة البقرة، الآية: ٢١.

٢ ـ سورة آل عمران: ٩٧.

٣ ـ سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

تاج الملوكية له.

وفي تلك الفترة التي كان يرىٰ فيها التاج في متناول يده، ظهر الإسلام في مكة، واتصل عدد من أهل المدينة بالرسول صلى الله عليه وآله وأسلموا، وطلبوا منه أن يرسل إلىٰ المدينة من يعلمهم أمور دينهم، فأرسل الرسول مصعب بن عمير، وأسلم عدد كبير من أهل المدينة، وهكذا مهد الطريق لهجرة الرسول صلى الله عليه وآله إليها وكان حتماً أن تنهار كل استعدادات عبدالله بن أبي، وتتلاشىٰ آماله، فكان أن استشاط قلبه حقداً علىٰ الإسلام.

فعندما أسلمت الكثرة من أهالي المدينة، لم يجد هذا الرجل بداً من التظاهر بالإسلام، ولكنه في باطنه لم يسلم أبداً.

علىٰ كل حال، فإن كلمة (الناس) هنا ليست بمعنىٰ المحرومين، والدليل علىٰ ذلك هو عبدالله بن أبي، هذا الذي لم يكن من محرومي المدينة، بل كان من أشرف أشرافها.

٢ـ النقطة الأخرىٰ هي إنكم لاريب قد لاحظتم أن القرآن المجيد قد أورد ذكر الكفار مرتين، وذكر المؤمنين ثلاث مرات أو أكثر، ولكنه عندما يصل إلىٰ المنافقين، فإنه يذكرهم في حوالي ١٣ آية. وقد بدأ عدداً منها بـ(ألا) التحذيرية. فلماذا يعتني[١] القرآن كل هذه العناية بتعريف المنافقين؟

هذه مسألة لم يغفل عنها المفسرون، إذ يقولون: علىٰ الرغم من أن المنافق يدخل ضمن الكفار، إلا أنه، كما ورد في القرآن، أخطر علىٰ الإسلام من الكافر كثيراً. فالكافر ـ حسب تعريف القرآن ـ هو الذي لايقبل بالله وبالرسول، وهو

---

١ ـ في الأصل «يعني». (المصحح)

صادق في إنكاره، أي إنه يعلن رأيه هذا، فيعرفه الناس، أما الذي يخفي ما في قلبه، فيقول بلسانه خلاف ما في قلبه، فهذا خطره كبير، لأنه يخدع المسلمين، بينما الكافر لا يخدع الناس، لذلك قال الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾(١).

لقد رأينا في التاريخ أن الرسول صلى الله عليه وآله يحارب وينتصر، ولكنّ علياً عليه السلام لا يستطيع أن ينتصر مثل رسول الله، والسبب هو أن الرسول كان يحارب الكفار، وعلي كان يحارب المنافقين! أي إن الرسول كان يحارب أُناساً كانوا صادقين في سلوكهم وصراحتهم، وعندما كان يقول لهم: قولوا «لا إله إلا الله»، كانوا يرفضون ذلك؛ كان أبو سفيان ينادي: «أعل هبل، أعل هبل»، وكان الرسول ينادي: «وقولوا الله أعلىٰ وأجل». وهكذا كان الله يقف وجهاً لوجه مع هبل، فكانت النتيجة معلومة، انتصار الله وهزيمة هبل.

أما علي عليه السلام فقد كان يواجه أمثال معاوية بن أبي سفيان، ولكن شعاراتهم كانت شعارات إسلامية. إذ لو كان معاوية ـ وهو الذي كان يسعىٰ للوصول إلىٰ مر أبي أبيه ـ قد رفع، مثل أبيه، شعار أعل هبل لكانت هزيمته محققة، ولكنه الآن يرتدي لبوس الإسلام، ويذرف دموع التماسيح علىٰ الإسلام ويقول:

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾(٢).

كان ينادي إن خليفة الرسول عثمان، قد استشهد، أيها الناس، أيجوز أن

---

١ ـ سورة النساء، الآية: ١٤٥.

٢ ـ سورة الأسراء: الآية ٣٣.

يذهب دم خليفة الرسول هدراً؟ وهكذا راح يؤلب الناس للأنتقام من قتله عثمان، ثم أعلن إن علياً كان علىٰ رأس أولئك القتلة، مع إن قاتل عثمان الحقيقي هو معاوية نفسه، وهذا كلام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «**وإنّهم ليطلبون حقّاً هم تركوه و دماً هم سفكوه**»[١]. ثم يخاطب معاوية قائلاً: «.. **فإنك إنّما نصرت عثمان حيث كان النصر لك، وخذلته حيث كان النصر له**»[٢].

ذلك إنه كان قد بعث بعيونه إلىٰ المدينة ليحصوا علىٰ عثمان حركاته، فما أن يقتل حتىٰ يرسلوا بقميصه الملوث دماً إلىٰ الشام، وقد نفذت العيون أمره، وبقي القميص زماناً معلقاً في مسجد الشام، حيث كان معاوية يتباكىٰ عنده ويلطم صدره تحت أنظار الناس، فيثير السذج منهم، ويحركهم باسم الله ولله، فيريقون دماءهم ويقتلون.

ثم في موقعة صفين، يوم أدرك أن الهزيمة وشيكة، لم يتورع عن اللجوء إلىٰ الخديعة والنفاق، فأمر بالمصاحف فرفعت علىٰ الرماح، زاعماً إنه يقبل بحكم القرآن، فيما كان علي عليه السلام، وهو العالم بالخدعة المخفية في ذلك، ينادي أن اضربوا وتقدموا، غير أن الجهلة من الأخيار الذين لم يدركوا خط المنافقين، صرخوا بأنهم لا يحاربون القرآن، وأن استمرارهم في الحرب محاربة للقرآن، وهكذا نجا الأمويون.

ذلكم هو خطر النفاق الذي يحذر منه القرآن بـ(ألا) التحذيرية؛ لم يواجه الإسلام كفاراً إلا وانتصر، ولم يواجه النفاق إلا وهزم، لأن النفاق يستغل قوة

---

١ ـ هذا الخطاب موجّه لطلحة و الزبير، نهج البلاغة، ج ١، ص ٥٩، الخطبة ٢٢.

٢ ـ نهج البلاغة و من كتاب له إلى معاوية، رقم ٣٧.

الإسلام نفسها ويستخدمها ضده، أي إنه يرتدي لباس الإسلام، ويقاتله به.

٣ـ ثالثة الأمور التي أود الأشارة إليها هي إن خطر النفاق كان دائماً يهدد الإسلام، ولكنه لم يكن يظهر بالشكل ذاته في كل مرة، بل كان في كل عصر وفي كل زمان يظهر بشكل جديد.

قبل أيام كنت أطالع كتاباً يبدو أنه حيث الأنتشار في الأسواق، وقد ظهر لي منه أن هناك أشخاصاً يبشرون بالمادية، بعلم أو بغير علم، تحت ستار القرآن.

فالكتاب يبدأ بسم الله الرحمن الرحيم، وكله عن الله، والرسول، والقرآن، ولكن عندما تصل إلىٰ محتوىٰ الكتاب تجده يخفي ماديته تحت ملامح القرآن.

أي إن ذلك المادي نفسه الذي ظن قبل بضع سنوات أنه قادر علىٰ محاربة الدين في ايران، فراح يقول إن الله كذب، والرسول كذب، والوحي كذب، ولكنه هزم شر هزيمة في قبال قوىٰ الدين، جاء الآن، بعد أن يئس من أسلوبه ذاك، بأقواله نفسها ولكن بصبغة إسلامية، أي إنه ينكر وجود الله ولكن بشكل آخر، وكذلك ينكر يوم القيامة، فحيثما يكون الكلام علىٰ يوم القيامة والآخرة، تكون الأشارة إلىٰ نظام أعلىٰ، وإذا كان الكلام علىٰ الدنيا، فتكون الأشارة إلىٰ عالم أدنىٰ.

فالدنيا بلسان القرآن هي عنده ذلك النظام الطاغوتي، الذي إذا تغير أصبح: الآخرة! وهذه بالطبع كلمة حق يراد بها باطل. فما من شك في أن في الدنيا أنظمة سيئة، فلابد من محاربتها، وإقامة أنظمة أعلىٰ مكانها، وهذا ما نراه في التعابير القرآنية أيضاً ولكن القرآن لم يقصد بالدنيا والآخرة نظاماً أدنىٰ ونظاماً أعلىٰ، أبداً. بل إن الدنيا والآخرة، والنظام الأدنىٰ والأعلىٰ مواضيع متباينة مختلفة.

نلاحظ إنه لا يقول إن الآخرة كذب، ولا ينكر خلود الإنسان في العالم الآخر،

ولكنه يصف الخلود بمثل ما يصفه الماديون، من أنه التكامل، أي إن فرداً يروح، ويأتي آخر بمكانه، ويروح الثاني ويأتي الثالث، وهكذا يكون الجنس البشري باقياً، وهذا هو الخلود.

هذا هو القرآن الذي رفعه معاوية علىٰ الرمح، إنما قد تغيرت ملامحه. وهذا هو النفاق الذي يظهر في كل عصر بشكل جديد، دون أن يعرف المسلمون أنهم مخدوعون بذلك القرآن المرفوع علىٰ الرمح، وكلما ظهرت جماعة معادية للدين، ألبست عداءها لباس الدين، ولكن إذا تنبه لهم المسلمون واستفاقوا، لذهبت خطط أولئك أدراج الرياح.

والقرآن يرثي لهؤلاء حالهم، فيقول: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾[1].

فهؤلاء علىٰ الرغم من أنهم لم يربحوا شيئاً، فإنهم قد أصيبوا بأضرار بالغة، ولم يجدوا لأنفسم مخرجاً، فضلوا ضائعين.

يسأل الإمام عليه السلام عن العقل، فيقول:

«**العقل ما عُبِدَ بِهِ الرحمنُ، وَاكتُسِبَ بِهِ الجَنان**»[2].

فيسأله السائل: إذن ما هذا الذي كان عند معاوية؟ فيكون جواب الإمام: «**تلك النكرى والشيطنة**»، وهما والعقل شيئان مختلفان.

ويقصد الإمام بذلك الدهاء والشيطنة والنفاق، أما العقل فهو الذي يهدي الإنسان إلىٰ المعنويات والإنسانية.

---

١ ـ سورة البقرة: ١٦

٢ ـ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٧٦.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ (١)

بعد أن أشار القرآن إلىٰ كيد المنافقين ومخادعاتهم، ووصفها بأنها سلسلة أعمال لا أثر لها ومهزومة، وقال إن هؤلاء أرادوا أن يكونوا الخادعين، فكانوا المخدوعين، ضرب مثلين لهذا النوع من الكيد والمخادعة، نرىٰ فيهما وجهاً مهماً من وجوه (فلسفة التاريخ) في نظر القرآن، بحيث يمكن القول بأنه أصل من أصول الفكر القرآني، ونظرة توحيدية من نظراته إلىٰ العالم، ونحن بالنظر لكوننا نجد هذا من المباحث المهمة والرئيسة، تجدنا ملزمين أن نورد شرحاً أوفىٰ لهذا الموضوع.

هنالك نظريات وآراء متعددة بخصوص العالم عموماً، وبخصوص الإنسان، والمجتمع البشري، منذ بدايته وحتىٰ مستقبله الآتي، من حيث الخير والشر، والجودة والرداءة، والحق والباطل، وهل إن وجود العالم حق وخير، أم إنه هباء

---

١ ـ سورة البقرة: ١٧ ـ ٢٠.

وباطل وشر، أم إنه مركّب، نصف حق وخير، ونصف شر وباطل، وهل إن ما يحكم حياة الإنسان خير أم شر، حق أم باطل، أو إنه نصف حق، ونصف شر، فإذا قلنا بكليهما، فلمن تكون الأصالة، للحق أم للباطل... الخ.

سوف نبدأ أولاً بذكر النظريات التي قالها الفلاسفة والمفكرون وعلماء الإجتماع، ثم نذكر وجهة نظر القرآن التوحيدية بشأن كل ذلك.

لا شك في إن حياة البشر حياة خليطة، أي إن حياة الفرد وحياة المجتمع خليط من الخير والشر، فيها العدل وفيها الظلم، وفيها الصدق وفيها الغش والخداع؛ لحياة البشر إذن صفحتان: صفحة نيرة، وأخرىٰ مظلمة.

إن اختلاط النور بالظلمة، والعدل بالظلم، في حياة الإنسان، من العمق بحيث إن الإنسان كان موضع كلام في الملكوت الأعلىٰ، قبل خلقته علىٰ الأرض، وإنه قد نظر إليه من منظورين إثنين.

عندما يعلن الله تعالىٰ للملائكة قائلاً: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] ارتفعت الأصوات في الملكوت الأعلىٰ تتساءل عن الحكمة في خلق كائن مفسد دموي: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[2] لقد كان الملائكة ينظرون إلىٰ الإنسان من وجهة نظر واحدة، هي كونه مخلوقاً مفسداً، سافكاً للدماء، فتساءلوا ـ إن لم نقل اعترضوا ـ عن الحكمة في خلقه.

إن لهذا جانبه الآخر، فهذا الإنسان مخلوق لم يستطع حتىٰ الملائكة أن يصلوا إلىٰ أسرار وجوده وسبرها، وإن الله هو وحده الذي يعرف أسرار وجوده؛ ولكن

---

١ ـ ٢ ـ سورة البقرة: ٣٠.

الله لم يقبل هذا من الملائكة، ورفض قولهم، ورد عليهم قائلاً: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1] ثم خلق الإنسان، وفي إختبار إستعراضي واحد أثبت لهم أنهم كانوا مخطئين.

فإذا ما تجاوزنا ذلك، نجد إن فلاسفة البشر ومفكريهم مافتئوا يتحدثون عن هذا، ولهم فيه نظريات.

إن أكثر الفلاسفة الماديين الذين يحملون نظرة متشائمة عن الطبيعة، والذين لايعتقدون بأصل خلقة الإنسان، ويعتبرونه نتيجة المصادفات، يقولون: إن الشر جزء من طبيعة الإنسان، وإنه لم يترك فعل الشر منذ أن وجدت الأرض، وإنه ما يزال كذلك، ولسوف يبقىٰ كذلك في المستقبل، فلا أمل فيه من حيث السعادة؛ لذلك فهؤلاء يرفضون كل مشروع لأصلاح المجتمع، إذ لا أمل لهم فيه، ولا يرون إمكان إصلاحه، بل ينظرون بعين الريبة إلىٰ كل وجهة نظر إصلاحية سواء أكانت دينية أم فلسفية، قائلين إن كل هذا إصلاح سطحي، زاعمين إن واضعي تلك المشاريع الأصلاحية هم أنفسهم من البشر، ولهم ما للبشر من غرائز مختلفة، ولا يتأتىٰ من الغرائز البشرية غير الشر، وذلك فهم لايرون فائدة من وضع خطة للأصلاح الاجتماعي.

فإذا سئلوا: بأي أمل يبقىٰ الناس أحياءً إذن؟ أجابوا: ما من شيء يحدوهم علىٰ البقاء ولا ينبغي لهم؛ إن علىٰ الإنسان الذي يبلغ الكمال أن ينتحر، وهذه هي قمة التقدم، حيث يصل الإنسان إلىٰ مرحلة يدرك فيها ألاّ شيء في الدنيا غير الشر، ولا يختلف مستقبله عن حاضره، فكلما طال بقاؤه في العالم، ازدادت

---

١ ـ سورة البقرة: ٣٠.

الشرور من حوله. وبهذا يكون الإنسان قد بلغ مرحلة (بلوغه الفكري) وعليه أن ينتحر.

لقد كتب الكثير من الكتب عن هذا الموضوع، ولسنا بصدد ذكرها هنا، إلا أن عدداً من أمثال هؤلاء الفلاسفة قد انتحروا فعلاً، وهم من الماديين، ويعرفون بالفلاسفة المتشائمين. وهناك في اوربا عدد من الكتاب الذين اتّبعوا هذه الفلسفة وكتبوا حولها مقالات عديدة.

وثمة كتاب هنا في ايران وفي عصرنا هذا نفثوا سمومهم في كتاباتهم. وأحد هؤلاء هو (صادق هدايت)، الذي كان شاباً، ولكنه وقع تحت تأثير هذه الأفكار، وانتحر في ١٣٢٠ هـ ش. كان هذا يفتخر في كتاباته بأنه قد وصل إلىٰ تلك المرحلة من (البلوغ الفكري) التي لا يسعه معها سوىٰ الأقدام علىٰ الأنتحار. وكان يريد من الناس أن يحذوا حذوه، فينتحروا.

والأدهىٰ من ذلك، أن بعضاً من هؤلاء، يقول: إن أعظم خدمة للبشرية هي أن يستطيع الإنسان قطع دابر البشر واجتثاثه من علىٰ وجه الأرض، كأن يباد بقنبلة، يتضح من ذلك مدىٰ خطل هذه الأفكار وحماقتها.

هنالك طراز آخر من التفكير، وهو صادر عن الماديين أيضاً، وعلىٰ الرغم من أنه متشائم أيضاً، إلا أن تشائمه ليس كذلك، وإنما هو يثير مشكلة أخرىٰ. يقول هؤلاء أن ليس للإنسان ميول فطرية، وإنما هو يتبع ما يخطط له.

وأما الذين يقولون بمادية التاريخ والمجتمع، فيقولون بأن ما يتحكم في حياة البشر حكماً مطلقاً هو العلائق الإجتماعية المادية، والعلائق الأقتصادية، والعلائق الأنتاجية، وإن حياة الإنسان تابعة لهذه الروابط، إن خيراً وإن شراً. فلا تفاؤل ولا تشاؤم، فقد تكون حياة الإنسان حسنة إذا حسنت هذه العلائق، وقد تسوء حياته

إذا ساءت هذه العلائق، فهي محكومة بها.

يقولون: عندما كان مستوىٰ الأنتاج ووسائله منخفضاً، ولم يكن الإنسان قادراً علىٰ الحصول علىٰ أكثر مما يحتاجه لطعامه اليومي، لم تكن حياته تختلف عن حياة الحيوان، كالطيور التي تطير من أعشاشها صباحاً جائعة، وتبقىٰ[1] تلتقط الحب حتىٰ المساء حين تعود إلىٰ أعشاشها، وتعيد ذلك في اليوم التالي.

هكذا كان الإنسان الأول، لم يكن يدخر شيئاً، ولم يكن يملك ثروة.

كان الناس يعيشون حياة اشتراكية، وأحياناً كانوا يعدون طعامهم بصورة مشتركة أيضاً. فالشخص لم يكن قادراً علىٰ صيد الحيوان بمفرده، إذ لم يكن يملك الوسائل المناسبة، فكان يجتمع مع غيره، فيصطادون حيواناً كبيراً بصورة مشتركة ويقسمون لحمه فيما بينهم.

في ظروف كهذه، كان الناس مضطرين للعيش مع بعضهم كالأخوان، تحت ضغط الظروف المذكورة، مثلما كانت أسرار الطيور تعيش متآخية، فلا حرب، ولا نزاع، ولا سفك دماء.

ثم لما تدرج الإنسان علىٰ مدىٰ التاريخ وازدادت تجربته، واكتشف الزراعة، ودجن الحيوان، واستفاد من لبنه، وعرف طرق تكاثره، إستطاع أن يدخر طعامه، وزرع الحنطة فحصد أضعافها، وأصبح الفرد قادراً علىٰ إنتاج ما يكفي عشرة.

وما أن بلغ الإنسان هذه المرحلة من إدخار أكثر مما يحتاج، حتىٰ أنهار تنظيمه السابق، واستجد تنظيم جديد؛ في النظام السابق كان علىٰ كل امرئ أن يعمل حتىٰ يأكل، فإذا توقفت يداه عن الحركة، توقف فكّاه عن الحركة أيضاً،

---

١ ـ في الأصل «تظل». (المصحح)

ولكن في النظام الجديد، حيث الفرد يستطيع أن ينتج أكثر مما يحتاج، أخذ الأقوياء يسخرون الضعفاء ليعمل هؤلاء، فيأكل أولئك. وظهرت بذلك الملكية، ملكية الأرض، وملكية الإنسان.

وعلىٰ إثر اختلاف نظام الأنتاج وملكية وسائل الأنتاج، اختلف النظام الإجتماعي، فبعد أن كان الناس يعيشون كالأخوة، بدأوا يعيشون متقابلين كالأعداء. غرب ذاك النور والخير السابق، وساد الظلام حياة البشر كلها، ومنذ ذلك اليوم في تاريخ البشر إنتصر الظلام علىٰ النور، والشر علىٰ الخير، والظلم علىٰ العدل، والكذب والخداع علىٰ الصدق، وفي غضون ذلك كان ثمة شرر أو برق يلتمع في الظلمة بصورة استثنائية، كأن يظهر فيلسوف، أو قائد نهضة، يضطره الضغط إلىٰ أن يخطو خطوة، أو في نظر الذين لم يكونوا كثيري التشاؤم، يظهر رسول، وينشر الخير والعدل بعض الوقت، ولكن لما كان النظام الذي يحكم التاريخ نظام ملكية الثروة، لم يدم نظام الخير والعدل طويلاً، فتلاشىٰ مثل لمحة البرق في ظلام الليل. وعادت خطة الأصلاح نفسها لتصبح وسيلة بيد أصحاب الثروة يستغلون بها المظلومين والمقهورين؛ أي إن ما ظهر أولاً كإدام للخبز أصبح بلاءً علىٰ رؤوس الناس، حتىٰ أمسىٰ هذا مصير كل دين أو فلسفة أو إصلاح أخلاقي يظهر علىٰ يد أحد المصلحين.

ويقولون أيضاً: إن هذا ما زال مستمراً، وإنه لا علاج له إلا إذا تغير الأساس نفسه، أي علاقات الأنتاج. يعني إن البشر كان يوماً يعيش في ظل نظام اشتراكي مضطراً، بسبب نقص وسائل الأنتاج، واليوم إذا تكاملت وسائل الأنتاج، فسيضطر الإنسان إلىٰ العودة إلىٰ النظام الاشتراكي، راضياً أم كارهاً. إي إن الحالة تصل حداً لايمكن أن يعيش فيها الإنسان إلا إذا طبق الأشتراكية، ولا تأثير لارادة الإنسان

في هذه القضية، بل إن ازدياد وسائل الأنتاج يوجد الأشتراكية بصورة صحيحة.

ثم لايعود النور، والعدل، والخير، والصفاء، والمحبة، والأخوة، إلىٰ المجتمع البشري مرة أخرىٰ، إلا إذا عادت الأشتراكية الكاملة: الشيوعية.

إذن، هذه النظرية لا تقول، كالمادية، بأن طبيعة البشر مجبولة علىٰ الشر وستبقىٰ كذلك. ولكنها تقول إن الإنسان لا طبيعة له، إنما هو لعبة مسخرة بيد وسائل إنتاجه.

في البداية كانت وسائل الأنتاج بشكل يضطر معها الإنسان إن يكون صالحاً، ثم اتخذت وسائل الأنتاج شكلاً آخر، وظهرت الثروة والملكية، فغدا الإنسان فاسداً. ومادامت الثروة والملكية موجودة، فلا سبيل إلىٰ الأصلاح، وإذا قال البشر إنهم يريدون أن يصلحوا، فإنهم واهمون، وهذا ما يسمىٰ بالأشتراكية الخيالية. فإذا أراد الإنسان إصلاحاً حقيقياً، عليه أن يصبر حتىٰ يبلغ مرحلة إلغاء الملكية والتي تكون نتيجة لرشد وسائل الإنتاج. فذلك هو اليوم الذي يمكن أن نشاهد فيه المساواة، والعدالة، والنور، والخير تسود المجتمع البشري.

نظرية القرآن

نعود الآن إلىٰ القرآن لنرىٰ كيف ينظر إلىٰ هذه المسألة، وهي من أهم مسائل القرآن في تفسير التاريخ. هل ينظر القرآن إلىٰ الإنسان وحياته نظرة متفائلة، ويقول بأن الشر لم يكن له وجود، وليس له وجود، ولن يكون له وجود؟ من الواضح إن الأمر ليس هكذا، وليس ثمة ما يوجب البحث في ذلك، لأن القرآن يقول بأن الحرب بين الحق والباطل كانت مستمرة علىٰ امتداد التاريخ، ولذلك فهو يرىٰ إن للباطل كياناً ووجوداً. أي إن القرآن يضع النور في قبال الظلمة، ففي قصة

خلق آدم كما مرت، وقد حسب الملائكة أن آدم شر محض، نبههم الله إلىٰ أنهم كانوا مخطئين، وقال إنه يعلم أشياء لا علم لهم بها، وإنه يرىٰ مالا يرون. إي إن ما يرونه صحيح، والله يراه أيضاً، ولكنه يرىٰ ضمن ذلك أموراً لايستطيعون هم رؤيتها، إذ أنهم لم يقرأوا إلّا وجهاً واحداً من الصفحة دون الوجه الآخر. وعليه، فإن نظرة القرآن ليست كذلك.

فهل يرىٰ القرآن إن البشر شر محض؟ أي إنه يحمل النظرة المتشائمة اليائسة نفسها التي كان يحملها «نيتشه» و«شوبنهاور» وأتباعهما، ممن يقولون إن البشر كائن لايمكن إصلاحه، فيجب أن يترك وشأنه؟ كلّا.

وذلك لأن رسالة الأنبياء هي إصلاح المجتمع الإنساني عموماً. فلو كانوا يحملون نظرة متشائمة كتلك، لما جاءوا بمناهج إصلاحية. ثم إن هذه النظرية لاتتلاءم مع نظرية التوحيد، وهي من أهم نظريات القرآن الرئيسة. أي إن النظرة الإلهية التوحيدية، إلىٰ العالم ليست كتلك، إذ لايمكن أن تكون نظرة القرآن إلىٰ العالم نظرة إلهية توحيدية، ثم ترىٰ إن العالم باطل وشر وبلا طائل.

إن القرآن المجيد يرىٰ، كما هو المشهود منه، إن نظام الخليقة نظام خير، أي إنه، مع قوله بوجود الخير والشر في العالم، فإنه يعتقد بانتصار الخير علىٰ الشر، والإسلام لايجيز نظرة غير هذه للعالم، فما الذي يقوله القرآن، وما هي نظرته بهذا الشأن؟

إن نظرة القرآن هي علىٰ النقيض من النظرة الماركسية. فالقرآن يقول، إن الحق والباطل كانا دائماً موجودين علىٰ امتداد التاريخ، وإن النزاع بينهما من طبيعة البشر، لأن الإنسان كائن ذو طبيعتين وسجيتين، تلك الطبيعة التي تقول عنها

الأخبار والروايات، إن الله قد خلق فيها الشهوة والعقل[١]؛ ولكن القرآن يرىٰ أيضاً إن النصر في هذا النزاع الطويل عبر التاريخ للخير، فالعدل والنور دائمان، والظلمة والشر موقتان. والقرآن، بخلاف ماركس، لايجعل الملكية هي المعيار، وإنما هو يقول بأصالة الايمان، أي الأُسس الروحية والفطرية. أي إنه لا يقول إن الدين والأخلاق كانا دائماً ألعوبة بيد الثروة، بل رد هذه الفكرة بشدة، لا شك إن الثروة والسلطة استطاعا أحياناً التأثير في الدين ويتبين ذلك في ظهور البدع والأنحرافات، ولكن، علىٰ وجه العموم، كان للدين الأثر الاقوىٰ في مصير البشرية.

الأصالة للحق

يرىٰ القرآن أن ليس للشر والباطل أساس أصيل، وإنما هما وليدا وجود الحق، كالظل والضوء، أو الظلمة والنور، فكلاهما موجودان، ولكن لا أصالة للظلمة في قبال النور، أي إنهما ليسا واقعين ناشئين عن مصدرين مختلفين، أحدهما للنور، والآخر للظلمة، بل الأصل هو النور، فحيثما لايوجد نور، تكون الظلمة، فلا يصح أن نقول إنه إذا خلا مكان من النور، وجد شيء هو ضد النور، فالظلمة هي انعدام النور.

والمسألة تشبه الصحة والمرض، أي إذا شاء الإنسان أن يكون سالماً، فيجب أن يكون في جسمه تعادل، فمثلاً، ينبغي ألّا تزيد كريات دمه البيض عن حد معين

---

١ ـ قال الإمام علي عليه السلام: «إنّ الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، و من غلبت شهوته عقله، فهو شرّ من البهائم». علل الشرائع: ١٠٢. (المصحح)

ولا تنقص، وكذلك كرياته الحمر وضغطه، ومقدار اليوريا، إلىٰ غير ذلك. فما المرض إلا انعدام الصحة، والأصل في الجسم هو التوازن والسلامة، وإذا أدىٰ اختلال التوازن إلىٰ المرض، فإن ذلك يعود علىٰ الصحة والسلامة بالضرر.

ومثلما يحتاج الجسم إلىٰ التعادل والتوازن، يحتاج المجتمع كذلك إلىٰ الصدق، والأمانة والإيمان والعفة، فلا يحب أن يخلو مجتمع من هذه المفاهيم، فلو خلا مجتمع منها لما استطاع البقاء يوماً واحداً، ولئن ساد المجتمع ظلم، وعدوان، وتحلل، واختلال، فإن ذلك أمر موقت، وسرعان ما سيعود الأمر إلىٰ طبيعته.

وعليه فيمكن تلخيص وجهة نظر القرآن في بضع نقاط:

١ـ ليس للباطل أصول متأصلة في العالم، وإنما هو طفيلي علىٰ الحق.

٢ـ ولما لم تكن للباطل أصالة وتأصل، فإنه سريع الزوال؛ إنما الحق هو الدائم الذي لا يزول.

٣ـ وعلىٰ الرغم من أنه ليس للباطل أصل، وأنه سريع الزوال، فإن له ظاهراً عريضاً لافتاً للنظر، بحيث أنه إذا كانت العين لاتبصر الحق، فقد ينخدع الإنسان بهذا الظاهر، ويقول بأصالة الباطل، يرىٰ الحق صغيراً في قبال الباطل.

ثمة نقطة أخرىٰ جديرة بالإهتمام، وهي أنه علىٰ الرغم من أن الباطل طفيلي لا أصل له، وأنه لذلك مثل الزبد يتلاشىٰ بسرعة، فإنه عند ظهورة يتخذ أبعاداً واسعة مترامية الأطراف، حتىٰ أن الإنسان الضحل التفكر ينادي: أين الحق إذن؟ إن كل ما أراه هو الباطل؛ هذا هو الخطأ الذي يقع فيه بعض الناس، ولما لم يكن عميق النظر، يقول: حتىٰ لو كان الحق قد ظهر في العالم، فإنه قد ظهر في لمحة البرق الخاطف وتلاشىٰ، وبقي الباطل هو الحاكم بأمره، غافلاً عن الأصالة في الحق، فما قوة الباطل إلا بوجود الحق، وإن الباطل ليس سوىٰ طفيلي غطىٰ وجه الحق.

يذكر القرآن صراع الحق مع الباطل ونتيجة الصراع في آيات عديدة، وضرب لذلك الأمثال، كما يلي:

١ ـ ﴿أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾[1].

فالماء الذي ينزله الله من السماء، يسيل في الأودية، ويحصل الزبد، فيخال للناس أن هذا كله زبد، ولكنه الماء، الأساس هو الماء، ولكن الزبد يتسع وينتشر ويغطي سطح الماء كله، ثم يقول: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾[2].

أي إنه يحصل مثل ذلك عند إذابة المعادن لكي يصنعوا منه بعض الحلي، فيظهر الزبد كذلك.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ﴾[3]، فهذا مثله مثل الحق والباطل، أو إنه، كما يقول بعض المفسرين، هكذا يبدو، أي إن الحق كالماء الرائق، أو كذائب المعدن، وما الباطل إلا ذاك الزبد ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾[4] وسرعان ما يزول الزبد ويتلاشىٰ ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾[5] وهو الحق الذي سيبقىٰ في الأرض لمنفعة الناس. فالماء الذي تحت الزبد يجري في الأنهر إلىٰ المزارع فيروي الأرض، ويثمر ثمراً نافعاً. وكذلك المعدن الذي يظل علىٰ هيئة قضبان أو

---

١ ـ سورة الرعد، الآية: ١٩.

٢ ـ ٥ ـ الرعد: ١٧.

حلي، فينتفع بها الناس.

٢ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾(١).

إن لفظة «كلمة» تستعمل في القرآن مرة لتدل علىٰ اللفظة، ومرة أخرىٰ لتدل علىٰ الحقائق، كقوله تعالىٰ عن عيسىٰ «كلمة الله».

وفي هذه الآية، يعبر عن عقيدة الباطل، بـ(كلمة)، وضرب لكل مثلاً. فالحق مثل شجرة سالمة نظيفة، مثمرة تضرب جذورها في أعماق الأرض، وتعلو أغصانها مرتفعة نحو السماء، مليئة بالثمر والورق في كل الفصول، فهي، كما يقال، دائمة الخضر ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(٢) فكلما قطفت ثمارها عادت فأثمرت.

أما عقيدة الباطل، فكشجرة رديئة، لا ثمر لها ولا جذور؛ إننا نجد أحياناً شجيرات نابتة بغير ثمر، وبالتفحص نجدها بغير أصول أيضاً، فهي واه بنيانها، وما أن يهب عليها نسيم حتىٰ يقتلعها وتذهب في مهب الريح، مثل ذاك الزبد ـ في الآية السابقة ـ عظيم الظاهر، تافه الوجود.

كتب «ناصر خسرو» حواراً بين نبتة يقطين نبتت تحت شجرة دلب، وسرعان ما نمت وامتدت سيقانها وتسلقت الشجرة وغطتها باوراقها في غضون بضعة

---

١ ـ ابراهيم: ٢٤ و ٢٥ و ٢٦.

٢ ـ إبراهيم: ٢٥.

أسابيع. فسألت كم يوماً عمرك؟ فاجابت الشجرة: ينوف عمري علىٰ ثلاثين سنة. فضحكت منها النبتة وقالت ساخرة: أنظري إلي أنا بنت العشرين يوماً نموت وترعرت أكثر منك، فأجابت الشجرة:

«إنتظري حتىٰ تهب ريح الخريف

عندئذ يتضح الرجل من غير الرجل»[١]

القصد هو إن القرآن يريد أن يقول لنا: لاتغرنكم الظواهر، ولاتنخدعوا بظاهر الباطل العريض، بل عليكم أن تتعمقوا في النظرة، فقد يتخذ سلوك، لايزيد عمره عن عشرين أو ثلاثين سنة، واجهة واسعة تبدو كما لو كانت أوسع من مدرسة الحق التي مضىٰ عليها أربعة عشر قرناً. يقول القرآن إن علينا بالصبر، إنتظاراً لهبوب الرياح المختلفة. لقد مضىٰ على الثورة الإسلامية أربعة عشر قرناً، ولكم هبت رياح مختلفة، ولكنها ما زالت تقف مكينة ثابتة، بينما ذلك السلوك وأمثاله سرعان ما يزول ويضمحل.

٣ـ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[٢].

إن الآية التي تسبق هذه تتعلق بأصل الخليقة، أي إنها تحارب الفكرة المادية التي ترىٰ العالم هباءً فارغاً. إن حياة الإنسان والمجتمع يرتبطان بأصل الخليقة، فلو كان هذا الأصل مبنياً علىٰ اللهو واللعب، لكان الإنسان ووجوده كله فراغاً

---

١ ـ مع اختلاف واحد، وهو ما سوف نبحثه في مكانه، عند البحث في كلمة «رب» بتفصيل أكثر.

٢ ـ الأنبياء: ١٨.

باطلاً، ولكن الله يقول ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَـيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾[1]. لقد خلقنا هذا الكون العظيم ولم نكن نلعب؛ نحن لم نكن نبني مثل الأطفال لنهدم مرة أخرىٰ من باب اللهو.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ﴾ وكأن هذه الآية رد علىٰ من يقول: إذا لم يكن خلق العالم لعباً ولهواً، فلماذا كل هذا الباطل الذي نراه في المجتمع الإنساني؟ أفـليس فـي العالم كذب وخيانة؟ أفليس في العالم ظلم وعدوان واراقة دماء؟ فلماذا نرىٰ كل هذه العقائد الباطلة، وهذه الأتجاهات الباطلة موجودة في العالم؟

في الأجابة علىٰ ذلك قول القرآن: هذه كائنات طفيلية، تظهر بالضرورة مع ظهور الحق، إلا أنها لا تدوم طويلاً. بل سرعان ما تزول.

«القذف» هو أن تمسك بالشيء وترميه بقوة، كأن تلتقط حجراً وتـرمي بـه إنساناً أو زجاجاً. فقول القرآن ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ﴾ كأنه يعني إننا نصنع من الحق قنبلة نقذفها بشدة علىٰ الباطل، فتحطمه تحطيماً، وعندما تتقدم لترىٰ ما الذي حدث، لاتجد شيئاً ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. ولا يعني هذا إنه لم يكن زاهقاً مـنذ البداية، وإنه أصبح زاهقاً الآن. كلا، بل كان مظهراً يبدو كبيراً قبل أن يتقدم الحق لحربه، وعندئذ انكشف باطنه، وأنه لم يكن شيئاً، أو كان كبالون منفوخ، ثم أفرغ من الهواء.

٤ـ ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[2].

ههنا أيضاً لاتحسبوا أن الباطل كان شيئاً عينياً وواقعاً، وإنه الآن عندما جاء

---

١ ـ سورة الأنبياء: الآية ١٦ .

٢ ـ سورة الأسراء، الآية: ١٨.

الحق أخذ مكانه وملأه، كلا، إذ ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ كان فانياً بنفسه، أي إنه لم يكن سوىٰ هيكل أو شاخص، كان نموذجاً، لا كيان واقعي له.

فالقرآن لاينظر إلىٰ حرب الحق والباطل علىٰ أنها حرب بين وجود ووجود، بل هي حرب الوجود ضد اللاوجود، حرب الكمال ضد النقص، إذ إن الباطل يرجع كله إلىٰ النقص، فالظالم ظالم لنقصه، لا لكماله، أي إن ظلمه ناشيء عن جهله أو شعوره بالحقارة، فيحسب إنه بذلك يتكامل.

الخلاصة هي إنه وإن كان القرآن يقول بوجود الحرب بين الحق والباطل، ولكنه في الوقت نفسه لايرىٰ للباطل أصلاً، علىٰ النقيض من الماديين الذين إما أن يقولوا بأن البشر كائنات شريرة بذاتها، أو أن ينكروا علىٰ الإنسان كل فطرة، قائلين إنه نتاج ما يطرأ علىٰ وسائل الأنتاج من تغيرات وتحولات، ولا شك إنهم ليست لديهم (مدينة فاضلة)، ولا يمكن أن تكون لهم، فإذا ورد عندهم شيء عنها، فذلك خلاف عقيدتهم، ففكرة (المدينة الفاضلة) فكرة إسلامية، وهي فكرة لايتقدم بها أحد، إلا إذا كان مؤمناً بأمكان إصلاح البشر.

يشير القرآن إلىٰ مصائر أقوام، ومدنيات تاريخية لكي يصل إلىٰ حقيقة أن كل مجتمع ساد فيه الشر، وطغىٰ فيه الباطل، فذاك مجتمع آيل للزوال لا محالة، ولا يبقىٰ إلا المجتمع الذي يكون فيه الحكم للحق، وفي القرآن شواهد عديدة علىٰ هذا. فما أكثر المجتمعات التي باءت بغضب من الله لأنها انحرفت عن طريق الحق، واتجهت إلىٰ الباطل.

إن من الممكن أن ينظر المرء إلىٰ التاريخ، ليجد المجرمين لاتخلو منهم صفحة، فيقول: التاريخ ظلام ليس غير. إلا أن هذا الحكم غير صحيح، لأنه حكم نشأ عن المفهوم الخاطئ القائل بأن التاريخ يصنعه الأفراد. يقول القرآن إن هؤلاء

هم الزبد الذي يذهب جفاء.

فلو نظرنا إلىٰ التاريخ الأسلامي، لوجدنا هارون الرشيد، بطل ألف ليلة وليلة، بسجونه ولياليه المخمورة، وظلمه، فنقول: هذا نموذج لتاريخ العالم، ويقول القرآن: لا، ليس الأمر كذلك، فهارون فانٍ، ولا بقاء له. أما الذين هم أصل إدارة عجلة الحياة، أي الذين يفلحون الأرض، والذين ينتجون، ويأخذون ويعطون، وبعبارة أخرىٰ، العاملون الذين بيدهم يديرون عجلة المجتمع، فلا يلفتون نظرنا، مثلهم مثل الماء الذي يجري تحت الزبد، وما هارون وأمثاله إلا طفيليات تعيش علىٰ وجودهم. أما أنت فواجبك أن تجاهد هارون وأمثاله، دون أن ينتابك اليأس، فتقول: إن هؤلاء كانوا دائماً موجودين، وهم الذين كانوا يديرون المجتمع. كلا، بل إن موسىٰ بن جعفر، الذي كان في سجن هارون، يجاور قصره، ويسمع عربدة السكارىٰ وضجيجهم، هو الذي يبقىٰ، ومع إن هارون لم يمسح لأحد بزيارته، فهو في قلوب الناس وفي نفوسهم قوة خالدة يصبح فكر موسىٰ بن جعفر أبدياً، بينما يزول هارون بكل عظمته، وكبكبته، ودبدبته.

بعد هذه المقدمة التي طالت بعض الشيء، سنباشر بتفسير المثلين اللذين نحن بصددهما:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾[1]

هؤلاء أشبه بالذين يوقدون[2] ناراً في الصحراء يستضيئون بها، وإذا بالريح

---

١ ـ سورة البقرة: الآية ١٧.

٢ ـ في الأصل «يشعلون». (المصحح)

تهب فتطفيء نارهم ويغرقون في الظلمة ثانية، والمقصود بالنار والنور هنا هو الخطط الخادعة لأتباع الباطل، لا نور الحق، كما ذهب إليه بعض المفسرين.

وشرح الموضوع كما يلي:

إن الإنسان يهتدي بوسائل عديدة، فهو يهتدي بالغريزة، وهذه ضعيفة في الإنسان، وقوية في الحيوان، وهو يهتدي أيضاً بالحواس، فيتعرف على الأشياء بالعين، أو بالأذن، الخ. وهو يهتدي بالعقل والتفكير، إلىٰ أن يصل إلىٰ الأهتداء بالوحي الذي يختص به أتباع الأنبياء.

ومهما يكن فكر الإنسان فهو نور ينير الظلمة، وأحياناً يستعمل الإنسان هذا النور بحسب نظام الخليقة، وفيما يرضي الله، كما جاء في القرآن:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾[١].

ولكن يحدث أحياناً أخرىٰ أن شخصاً يجانب طريق الهداية ويستخدم فكره في طريق الضلالة، أي إنه بعقله وبفكره يضع الخطط، ولكنها خطط تخالف ما يقضي به الله، ومع ذلك فإنها قد تنتج وتتقدم بضع خطوات، ولكنها لن تستمر، وسرعان ما تزول.

فالقرآن يقول إن مثلهم مثل من يوقد ناراً في بيداء مظلمة، يريد بها أن ينير بعضاً مما حوله، ولكن ناره إضافة إلىٰ كونها ضعيفة الإنارة، ولا تضيء إلا من أمامه، فإنها لا تدوم طويلاً، إي مادام الباطل مبنياً علىٰ الخدعة والغش، فإنه فانٍ وزائل.

تلاحظون أن القرآن ـ بخلاف الذين يقولون إن الحق كان طوال التاريخ

---

١ ـ سورة محمد، الآية: ١٧.

مجرد ومضة برق سرعان ما خبت ـ يقول إن الباطل هو الومضة التي سرعان ما تخبو، فهو ما ان أضاء ما حوله، وظن المرء أنه يرىٰ بوضوح حتىٰ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[1]. إن الله، بما لديه من وسائل الخلق الأبدية، أطفأ نورهم ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾[2] ولا يرون طريقاً يسلكون.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[3]

بل إنهم بالأضافة إلىٰ كونهم لا يبصرون، فإن آذانهم لاتسمع. إذا كان المرء في الصحراء أعمىٰ لا يبصر، فإنه قد يستطيع العثور علىٰ طريقه بما تسمع أذنه من أصوات، وأبواق سيارات، وأجراس إبل سارية، أو حتىٰ وقع أقدام إنسان. وإذا كان نطقه سليماً، فيمكنه أن يصرخ مستنجداً.

ولكن هؤلاء لا عين فيهم ترىٰ، ولا أذن تستطيع سماع أصوات الآخرين، ولا لسان ينطق طلباً للنجدة.

﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[4]

لا رجوع لهؤلاء. لابد أن يدفنوا في ذلك المكان. وهكذا تلاحظون كيف ينظر القرآن إلىٰ التاريخ نظرة متفائلة، ويطمئننا علىٰ أنه إذا دخل الحق حرباً، فإنه هو المنتصر، والباطل هو المندحر في النهاية.

كان هذا مثلاً عن النور والضوء اللذين يصنعهما الإنسان بنفسه، أي تلك

---

١ و ٢ ـ البقرة: ١٧.

٣ ـ سورة البقرة: الآية ١٨.

٤ ـ سورة البقرة: الآية ١٨.

الأفكار والتعابير، والخطط التي يرسمها، والتي تبقىٰ أمامه بعض الوقت.

ولكنهم قد يستفيدون من نور لم يوقدوه بأنفسهم، بل كان ومضة برق متجهة إلىٰ مكان آخر. فقد تنطلق شرارة، مثلاً، فيظنون أنهم قادرون علىٰ الأستفادة من هذا الشرر، فيعدون عدتهم لاستغلاله، ولكنه ينطفىء قبل أن يستغلوه.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ (١)

أو كمثل مكان أظلمت فيه السماء، وانهمر المطر مدراراً، حيث ظلمات عديدة: فأنهيار المطر ظلمة، ووجود الغيوم الحتمي ظلمة، وإذا كان الوقت ليلاً، فظلمة ثالثة. إذ لو كان الوقت ليلاً فحسب، بغير سحاب ومطر، لكان بالأمكان أن يستضيء المرء بنور النجوم، ولو كان ثمة سحاب بغير مطر، لكان في الجو بصيص من ضوء، مهما يكن ضئيلاً، ولو حدث كل ذلك في النهار، لكان ضوء الشمس خلف الغيوم كافياً للرؤية. وهكذا يقول القرآن: فيه ظلمات ورعد وبرق.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ (٢)

إن الأصوات الراعدة في السماء من الشدة بحيث أنهم يرتجفون هلعاً، ويسدون آذانهم لكيلا يسمعوها.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ (٣)

كذلك البرق، كأنه من شدة سطوعه يريد أن يعميهم.

---

١ ـ ٢ ـ سورة البقرة: الآية ١٩.

٣ ـ سورة البقرة: الآية ٢٠.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾[1]

وخلال هذه الظلمات المتراكمة، يستغلون وميض البرق ليخطوا خطوات إلىٰ الأمام، ولكن هذا لايدوم، وسرعان ما يتلاشىٰ، فلا يستطيعون السير أكثر من خطوة واحدة.

﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾[2]

وكلما استغرقهم الظلام، لبثوا في أماكنهم واقفين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[3]

وكالمجموعة الأولىٰ التي ابتلاهم بالظلمة، يستطيع الله كذلك أن يسلبهم آذانهم وعيونهم.

ذلك هو مصير أصحاب الخدعة في التاريخ؛ إذ يقول القرآن: إنهم لا أصالة لهم، فلا تخشوهم ولا تحسبوا النصر من نصيبهم، فزوالهم محتم، والباقي هو الحق.

ولا يعني هذا أننا يجب أن نجلس ننتظر زوال عهد الملكية، وظهور عهد الأشتراكية، وهكذا. كلا، فحيثما ظهرت الأشتراكية، اشتدت الظلمة، وانكشف لا جدوى تكامل وسائل الأنتاج أيضاً. إنما الإنسان هو القادر علىٰ إقامة العدل وإشعال النور، ليحظىٰ في رعايتها بحياة سعيدة.

﴿إِنَّ اللّٰهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

١ ـ ٣ ـ سورة البقرة: الآية ٢٠.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾[٢]

في هذه الآية المتألفة من جزءين متكاملين، يدعو الله الناس إلىٰ التوحيد، أكثر مبادئ الإسلام تأصلاً، وأقوىٰ قاعدة من قواعده الفكرية والعقائدية.

تلاحظون أن الآية تبدأ بنداء موجه إلىٰ الناس. وكلمة «الناس» كثيرة الورود في القرآن، سواء كمنادىٰ كما هو الحالة هنا، أم بصيغ أخرىٰ، مثل **﴿لله عَلىٰ النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ...﴾**[٣].

وكلمتا «ناس» و«إنسان» من أصل واحد، وليس بينهما اختلاف كبير. كل ما في الأمر، من حيث النظرة اللغوية، إنهم يقولون إن «إنسان» اسم جنس، و«ناس» اسم جمع، أي عندما نقول «إنسان» نعني النوع الإنساني، ولكن إذا قلنا «ناس» فالمقصود جمعهم، مثل كلمة «قوم». فالخطاب إذن، لجميع بني البشر. بقي الآن أن نوضح ما يلي:

١ ـ سورة البقرة: ٢١ ـ ٢٢.

٢ ـ سورة البقرة: ٢١.

٣ ـ سورة آل عمران: ٩٧.

لكل مدرسة من مدارس العقيدة جوانب أربعة مرتبطة بعضها ببعض:

١ـ من الذين تتوجه إليهم هذه المدرسة بالخطاب؟ أي لمن وجدت هذه المدرسة؟ أهي لجميع الناس، أم لجماعة منهم خاصة؟ وإذا كانت لجماعة خاصة، فمن هم هؤلاء؟

٢ـ ما هدف هذه المدرسة؟

٣ـ كيف تنظر هذه المدرسة إلىٰ العالم؟

٤ـ ما هو محتوى هذه المدرسة؟ والمقصود بالمحتوىٰ هو مجموعة تعاليمها وقوانينها.

هذه الأمور الأربعة مترابطة، أي إن وجهة نظر المدرسة إلىٰ العالم مبنية علىٰ نوع المخاطبين، وبالعكس، نوع المخاطبين يعين وجهة نظر المدرسة، وهذان مرتبطان بالهدف الذي ترمي إليه المدرسة، وكل ذلك مرتبط بمحتوىٰ المدرسة، أي الرسالة التي تحملها إلىٰ الذين تريد مخاطبتهم.

إن الآية تبحث في المخاطبين، وفي رسالة واحدة، رسالة التوحيد، أهم رسالة من رسالات الإسلام والقرآن.

مخاطبو القرآن

لابد لنا أن نشير، بهذا الخصوص، إلىٰ أن كل المدارس، والمذاهب، والعقائد سواء الألهية منها والوضعية، تتوجه برسالتها إلىٰ الذين تخاطبهم، وهم مختلفون.

من ذلك، مثلاً، قد تكون مدرسة ما ذات لون قومي، كما هي حال معظم الأحزاب القومية، والتي هدفها (حسبما تدعي في الأقل) تحرير شعوبها وإسعادها، وعلىٰ ذلك، فإنها تخاطب شعوبها، ولا تخاطب الشعوب الأخرىٰ. ففي

بريطانيا يخاطب حزبا العمال والمحافظين الشعب البريطاني.

وقد تصطبغ احدىٰ المدارس بصبغة العنصر والدم، ويكون هدفها تحرير ذاك العنصر ذاته، لذلك فهي تخاطب أفراد ذلك العنصر فحسب، كانتفاضات السود ضد البيض، فهي تخاطب السود فقط.

وقد تظهر مدرسة تستهدف إشباع البطون الجائعة، فتنادي باتحاد الجياع معاً، لأيجاد قوة تستطيع أن تنتزع خبزهم من بين براثن المعتدين علىٰ حقوقهم. فلا شك في أنها تخاطب الجائعين، كالماركسية التي تدعي بأنها قد وجدت لأسعاد طبقة العمال (البروليتاريا) وتحريرهم، فهي تخاطب العمال، ولا تقبل أن ينتمي إليها أحد من الرأسماليين.

فلننظر الآن من هم الذين يخاطبهم الإسلام؟ ومن الذي ينتمي إلىٰ عضويته؟ هل يخاطب الإسلام العرب فقط، لكونه قد ظهر بين ظهرانيهم؟ أم أنه يخاطب أهل مكة دون غيرهم، لأنه ظهر في مكة؟

عند الرجوع إلىٰ نداءات القرآن، تتضح لنا هذه الحقيقة، وهي إننا في كل نداءاته لانجد نداءات تقول: «يا أيها العرب» أو «يا أيها القريشيون» أو «يا أيها المكيون» أو «يا أيها المدنيون» أو «يا أيها الشاميون». بل نجد إن نداءات القرآن علىٰ نوعين: فمرة يكون النداء «يا أيها الناس» وهو نداء موجه إلىٰ كل البشر، ومرة أخرىٰ يكون النداء موجهاً إلىٰ المؤمنين، يوصل إليهم ما يريد من التعاليم، فيقول: «يا أيها الذين آمنوا».

وهنا يطرح سؤال نفسه، وهو: أيصح أن نخاطب جميع البشر؟ وهل هذا عملي أم لا؟

يقول بعض، بما أن الإنسان النوعي كائن انتزاعي، بحسب المصطلح الفلسفي،

فلا يمكن أن يكون مخاطباً لمدرسة واحدة.

ويقول آخرون إنه مادام الإنسان، كأنسان، خلواً من الوجدان، فإن المدرسة التي تخاطبه لاتقدر علىٰ خلق حركة ما.

من الممكن أن نخاطب الناس علىٰ أنهم عرب، أو عجم، أو ايرانيون، وعندئذ نكون قد خاطبنا وجدانهم القومي أو الوطني، ويمكن تحريكهم من هذا المنطلق. أي لنا أن ننادي: «أيها الأيراني» و«أيها المصري» و«أيها العربي» عليك أن تكون كذا وكذا، وهذه نداءات تستند إلىٰ الروح القومية أو الوطنية، ويمكن أن تستند إلىٰ الروح العنصرية، فنقول «أيها السود» أو «أيها الحمر» أو أن تستند إلىٰ الروح الطبقية، لأن للطبقية وجدانها فنقول «أيها المحتاجون»، «أيها العمال»، «أيها الفلاحون»، فههنا نستطيع إيجاد تحرك بالأستناد إلىٰ الروح الطبقية، ففي الخطاب الموجه إلىٰ العمال، يقول: «أيها العامل، لماذا يجب أن تكون ثروتك قليلة؟» وعندئذ يكون دافعه إلىٰ الحركة منافعه الخاصة، حيث يقول في نفسه: لماذا يأخذ غيري حقي؟ فانتم من هذا تشعرون بأن المصلحة هي دافعه.

ولكن إذا نادت مدرسة «يا أيها الناس» فعلىٰ من تستند؟

هذا هو الجانب المهم في المسألة التي سبق أن قلنا إن وجهة نظر أية مدرسة هي التي تعين نوع الذين تخاطبهم، وهما مسألتان مترابطتان.

الإسلام لاينظر إلىٰ الإنسان هذه النظرة، أي إنه لايرىٰ وجدان الإنسان في قوميته، ولا في عنصره، ولا في طبقته، إنما الإسلام يرىٰ في الإنسان (فطرته) «كل مولود يولد علىٰ الفطرة» وهذا ما سوف نبحثه في مكانه بالتفصيل.

وعلىٰ ذلك، وحسب ما تقدم، فإن الله تعالىٰ وهب الإنسان في بدء الخليقة وجداناً شريفاً وروحاً ملكوتية «ونفخت فيه من روحي». وهكذا نجد هذا

الوجدان الشريف في مكنون كل إنسان عند ولادته، بصرف النظر عن أبويه.

إن الروح القومية، والعنصرية، والطبقية، وغيرها، روح مكتسبة. إنما هذه الفطرة هي التي يتوجه إليها الإسلام بخطابه.

إي إنه يقول: أيها الإنسان، إنني أدعوك لأنك إنسان، ولم يقل: لأنك من المحرومين، ولم يقل: لأنك أسود اللون، الخ. فدعوة الإسلام تستند إلىٰ الروح الإنسانية، لا الروح القومية، ولا العنصرية، ولا النفعية.

وبعبارة أخرىٰ، إن الخطاب موجه إلىٰ الإنسان الذي ينشد العدالة، وليس لأن منافعه في العدالة، بل لأن العدالة من القيم الإنسانية.

يستفاد من نصوص القرآن أن أحد أهداف الإسلام الرئيسة هو العدالة. وما من شك في إنه إذا سادت العدالة، فالمتضررون هم المعتدون والظالمون، والمنتفعون هم المظلومون، ولكن الفرق كبير بين أن نقول: إن هدف الإسلام هو أن يمن علىٰ المستضعفين، وأن يحررهم، وأن نقول: إن الإسلام إنما يخاطب المستضعفين دون غيرهم، ليس الأمر كذلك. فالإسلام، وإن حرر المستضعفين، فإنه يوجه خطابه إلىٰ البشر كافة، بما فيهم أمثال فرعون، فهؤلاء من الذين يخاطبهم القرآن أيضاً، وذلك لأن القرآن يرىٰ في أعماق كل إنسان، حتىٰ وإن كان فرعوناً، ذلك الإنسان الأصيل الذي ولد علىٰ الفطرة، إنه يقول: فرعون هذا الذي يحكمكم الآن، وترونه جباراً، ظالماً، بعيداً عن الإنسانية، فيه بقية من الفطرة التي خلقه الله عليها، وذلك لأنه إنسان، ولذلك، فإن رسل الله، قبل أن يحاربوا الفراعنة، يسعون أولاً إلىٰ أن يستثيروا الإنسان الكامن فيهم، لعلهم يرعون:

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى

رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[١].

فيأمر الله موسىٰ بالذهاب إلىٰ فرعون، عله يستطيع إثارة روح الإنسانية فيه، فيحرر الإنسان الكامن في أعماقه، فإن لم يستطع، فليشن عليه حملته. أي إن عليه أن يشن حملته من الداخل أولاً، ومن الخارج بعد ذلك.

رسالة التوحيد

الجزء الثاني من هذه الآية هي أكثر رسالات القرآن أصالة، وهي الأساس لرسالاته الأخرىٰ. إنها رسالة التوحيد، وهي ليست مقصورة علىٰ خاتم الأنبياء، بل هي علىٰ رأس رسالات جميع الأنبياء.

ينظر القرآن إلىٰ هذا الموضوع بهذا الشكل: إنه لا يقول للناس: إن عليكم أولاً أن تعبدوا أحداً، وثانياً أن يكون هذا الذي تبعدونه هو الله. كلاً، فالإنسان لا يستطيع العيش بدون عبادة. كل الناس يعبدون بشكل ما، وهذه العبادة جزء من غريزة الإنسان وفطرته، أي إن الإنسان عابد بالفطرة يريد أن يقدس شيئاً، فينزهه ويسعىٰ للتقرب إليه.

هذه الفطرة موجودة في كل البشر، بما فيهم الماديون، وهذا كارل ماركس يقول: «نريد أن نحرر الإنسان من عبادة غير الإنسان، لكي يعبد الإنسان نفسه».

فهذا أيضاً يلاحظ إن علىٰ الإنسان أن يعبد شيئاً، ولكنه، يريد أن يكشف للإنسان معبوده الحقيقي، علىٰ ما يقول.

أما رسالة القرآن فهي: أيها الإنسان، اعبد ربك، الذي خلقك وسواك، ذلك

---

١ ـ سورة طه، الآية: ٢٤.

الذي بيده وجودك وكيانك، والذي إذا غفل عن الكون لحظة انقلب عاليه سافله.

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[١]

سبق لنا في سورة الفاتحة أن بحثنا موضوع العبادة، وقلنا إن مفهوم العبادة في القرآن مفهوم واسع، وعلىٰ درجات، ومن درجاته العليا السجود أمام المعبود، ولكننا إذا تجاوزنا تلك المرحلة، نرىٰ إن القرآن يعتبر كل إطاعة عبادة، ومن ذلك قوله إن من يطيع أهواءه فقد عبد نفسه.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[٢].

ولعل مصطلح «عبادة الذات» المعروفة في اللغة الفارسية «خُود پرستى» قد جاء من القرآن.

وطبيعي إن عبادة النفس لاتعني أن يسجد الإنسان لنفسه، وإنما القصد هو اتباع الهوىٰ وإطاعته.

الشرك والتوحيد

ينبغي أن نذكر هنا أن الشرك نقيض التوحيد. فالشرك من المشاركة، كما جاء في القرآن علىٰ لسان موسىٰ وهو يطلب من ربه «وأشركه في أمري» أي اجعل هارون شريكاً لي في تبليغ الرسالة.

فلنر إن كان الشرك يعني بالضرورة أن يشرك الإنسان إلهاً آخر مع الله، أي أن

---

١ ـ سورة البقرة: ٢١.

٢ ـ سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

يعبد إلهين في آنٍ واحد، وأنه إذا عبد إلهاً غير الله، فلا يكون هذا شركاً.

لقد جاء في القرآن، على لسان الهدهد مخاطباً سليمان:

﴿جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾[١].

هؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس، ولم يكونوا يعبدون غيرها، هل هم مشركون؟

الشرك في لغة القرآن لايعني الثنائية في العقيدة، بل يعني اتخاذ إله غير الله.

فكل المخلوقات، في منطق القرآن، تعبد الله. فإذا وضع أحد غير الله في موضع الله، يكون قد جعل لله شريكاً في العبادة، علىٰ الرغم من أنه لايعبد سوىٰ إلهه الذي إصطنعه لنفسه، وعلىٰ هذا، فالذين يعبدون الشمس مشركون أيضاً.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢]

فيما يتعلق بالتقوىٰ، بحثنا ذلك في محاضرات سابقة مطبوعة[٣] وبصورة مفصلة، ولكننا نورد ما يتعلق بهذه الآية. فالتقوىٰ هنا نتيجة التوحيد، فكيف هذا؟

التقوىٰ من مادة «وقىٰ» بمعنىٰ الصيانة والحفظ والتطهر، وقد سبق أن قلنا إن للتقوىٰ ـ حسبما جاء في القرآن وفي الروايات عن أهل البيت ـ درجات ومراتب، مثل الإيمان.

كل عقيدة نظيفة تحتاج إلىٰ جو نظيف، فكما أننا عندما نبذر القمح، يجب أن

---

١ ـ سورة النمل، الآيات: ٢٢ ـ ٢٥.

٢ ـ سورة البقرة: ٢١.

٣ ـ رنجش هر كسى زيك چيز است رنجش من زنيم ديوانه است

نطهر الأرض من الآفات والتلوثات، حتىٰ ينمو الزرع، كذلك الأفكار والآراء الصحيحة، تحتاج إلىٰ روح نقية ونفس سليمة، حتىٰ تنمو وتزدهر. فإذا دخلت فكرة طاهرة نفساً غير طاهرة، وقعت الحرب بينهما إلىٰ أن يستسلم أحد الجانبين، فاما أن تتطهر النفس، وإما أن تطرد الفكرة بعيداً.

لقد جاء في بداية سورة البقرة أن القرآن جاء هدىً للمتقين، والمقصود بالتقوىٰ هنا هو التقوىٰ الفطرية الأولىٰ التي تولد مع كل مولود، فإذا حافظ الإنسان علىٰ ذلك المقدار من التقوىٰ، فإن هداية القرآن تشمله، ولكن الذين تلوثوا لن يستمعوا إلىٰ كلام الله.

في هذه الآية يقول القرآن إذا عبد الإنسان الله، تزداد روحه قوة، ونفسه طهارة، ويزداد تقبله للعقائد النظيفة، وتصدر عنه أعمال طاهرة.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً﴾(١)

كيف لايعبد الإنسان هذا الله علىٰ كثرة مظاهر ربوبيته التي نشاهدها فيما حولنا، فهذه الأرض التي نستريح عليها، أهي معلولة المصادفات، أم هي معلولة الربوبية؟ وهذه السماء التي هي بمثابة السقف، تتدلىٰ منها القناديل، وتغمز النجوم فيها، ترىٰ كيف وجدت؟ إنكم ترون غيمة تمر في السماء، ثم تنزل مطراً علىٰ الأرض، فينمو زرعكم، وينضج ثمركم، بألوان مختلفة، فهل يحصل كل هذا ذاتياً؟ فإذا كان الأمر كذلك، فلابد من عبادة خالق لايصدر عنه إلّا الخير والرحمة، لا أن نعبد حجراً لاينفع ولا يضر، ولا أن نعبد إنساناً فنكون في أسره.

---

١ ـ سورة البقرة: ٢٢.

إن الذي عبادته هي الحرية والتحرر هو (الله). بهذا المعنىٰ يقول حافظ الشيرازي:

«لا قدر لحافظ أن يتحرر من تلك الخصلة الجعدة

إذ المقيدون بشباكها هم الناجون»[١]

***

١ ـ بگذار بر من و تووزد باد مهرگان آنگه شود پديد كه نامرد ومرد كيست

﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَاتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾[2]

يتناول القرآن في هذه الآيات موضوع الأعجاز، وكون القرآن معجزة، داعياً الناس إلىٰ معارضته قائلاً: إذا كنتم ترون هذا الكتاب كأي من كتب البشر، فتعالوا وهاتوا بكتاب مثله.

في هذه الآية يخاطب القرآن العرب ويطالبهم بمعارضته، ولكنه في سورة الأسراء يعرض الموضوع بشكل آخر، فهو لا يخاطب المعاصرين للرسول وحدهم، سواء من العرب أو العجم، بل كل الناس علىٰ وجه الأرض، وفي كل الأزمان، يدعوهم إلىٰ المبارزة، بل إنه يتجاوز الناس إلىٰ الجن ويجعلهم ضمن المخاطبين.

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[3].

---

١ ـ سورة البقرة: ٢٣ ـ ٢٤.

٢ ـ سورة البقرة: ٢٣.

٣ ـ سورة الأسراء، الآية: ٨٨.

هذه الآية وأمثالها تبين حقيقتين: الأولىٰ هي أن المعجزة موجودة في العالم، والثانية هي أن القرآن معجزة. وهذان أمران لاريب فيهما من منظور القرآن.

إنكار معجزة القرآن إنكار للقرآن نفسه

هنالك أشخاص، نجد نماذج لهم في وقتنا الحاضر أيضاً، لايدركون سر المعجزة، مع أنهم يريدون أن يتقبلوا القرآن بنحو من الأنحاء، ولكنهم ينكرون كونه معجزة، أو أنهم ينكرون وجود المعاجز أصلاً، ويؤولون جميع المعاجز التي وردت في القرآن، مثل انفلاق البحر لموسىٰ، وتحول عصاه إلىٰ حية، تأويلات طبيعية، ويوجهونها توجيهات باردة. وهذا يعني إنكار القرآن ذاته.

يشير القرآن المجيد في كثير من آياته إلىٰ معاجز الأنبياء السابقين. وفي هذه الآيات التي نحن بصددها، يثبت القرآن أصل وجود المعجزة أولاً، ويثبت كذلك أن القرآن معجزة إلهية. وما فتئ القرآن يدعو الناس من ذوي الحجى والوجدان للنظر والتفكير، فعلينا نحن أن نستجيب، فنفكر في المواضيع الخليقة بالتدبر والتعقل، ومنها موضوع كون القرآن معجزة، فنتفهم أسراره، وهي من أسرار المعارف الإسلاميّة الكبيرة، ولنبدأ بجانب من جوانب هذه المعجزة، وهي لغة القرآن.

لغة القرآن

المعجزة من مادة (عجز)، والعجز يعني عدم القدرة، والمعجزة هي ما يبقىٰ الآخرون عاجزين أمامه، وهي مالا يستطيع أحد القيام به.

قد يعبر أحياناً عن المعجزة بعبارة (خارق للعادة)، ولكن هذا التعبير هو من

تلك التفاسير التي يقول بها الأشاعرة لمعنىٰ المعجزة، وهو ليس من المعاني الجديدة.

والحقيقة إن القرآن لم يستعمل كلمة «معجزة» ولا عبارة «خارق العادة»، فكلتاهما من اصطلاحات علماء الإسلام.

كلمة «معجزة» شائعة الأستعمال عند عموم المسلمين، ولعلها كانت مستعملة منذ أيام الأئمة الأطهار.

ولكن عبارة (خارق للعادة) ليست كتلك، ولعل جماعة معينة من المسلمين قد استعملتها، كالأشاعرة مثلاً، إذ هم كانوا يعتقدون إن المعجزة إن هي إلّا خرق للعادة.

يختار القرآن لفظة أخرىٰ، وهي كلمة «الآية»، وهي تبدو أكثر ملاءمة من التعبيرين المذكورين.

فلماذا يعبر القرآن عن المعجزة بكلمة آية؟ إن الآية تعني العلامة، أو الدليل القاطع، وهذا الدليل هو ما يحتاجه رجل يدعي إنه رسول الله، وإن الله قد أرسله، وإنه يوحي إليه، وإن علىٰ الناس أن يصدقوه، بدليل إن ما ينطق به ليس من كلامه، بل من كلام الله، فهل ينبغي علىٰ الناس أن يصدقوه بلا جدال؟ هنالك في هذه الحالة ثلاثة احتمالات: الأول هو أن يكون هذا الشخص صادقاً في ادعائه بأنه رسول الله، والثاني هو أن يكون كاذباً دجالاً، عالماً بكذبه ودجله، والثالث هو أن يكون هو نفسه مخدوعاً، كأن تنتابه حالات باطنية أو نفسية تثير فيه انفعالات وإحساسات تتجسد في خياله، فيحسبها وحياً ويؤمن بها أيضاً.

هذا الاحتمال الثالث كثير الوقوع لبعض الناس، فهناك أشخاص لم يكذبوا، ولا يريدون أن يكذبوا ولكنهم علىٰ صدقهم يتوهمون أشياء، وتختلط عليهم الأمور.

إن ما كان يحدو بكفار قريش إلىٰ أن يصفوا الرسول ﷺ بالمجنون هو أنه كانت له سوابق حسنة بين الناس، بحيث لو أنهم وصفوه بالكذاب لما صدق ذلك أحد، ولذلك، كانوا يعمدون في دحض دعوته إلىٰ أن يقولوا للذين آمنوا به، إن هذا الرجل صريع الأوهام والخيالات النفسية.

بناء علىٰ ذلك، ينبغي علىٰ من يدعي النبوة أن يثبت ذلك بالدليل القاطع، وإذا ما طالبه الناس بهذا الدليل كان طلبهم معقولاً، وإلا فإن قبولهم لدعوة كهذه بدون دليل يعد حماقة.

فالمعجزة هي ذلك الدليل القاطع الذي يثبت ادعاء النبوة، وهي لذلك تسمىٰ بالآية أيضاً.

ولزيادة إيضاح هذا الموضوع، نبادر ببحث المواضيع التالية علىٰ التناوب:

١ـ ما المعجزة؟

٢ـ هل المعجزة ممكنة؟

٣ـ هل تقع المعجزة؟

٤ـ كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها؟

٥ـ رسول الإسلام والمعجزة.

٦ـ إعجاز القرآن.

١ـ ما المعجزة؟

يرىٰ بعضهم أن القضية ليست قضية معجزة، بل هي قضية القبول بوجود الله أو عدم القبول بوجوده. أي إنهم يقولون: إذا نحن قبلنا بوجود الله، فلا حاجة بنا إلىٰ الدخول في قضية المعجزة. إذن إن الله الذي نقبل به مطلق القدرة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾، فهو قادر علىٰ إحياء الميت، وإحالة العصا إلىٰ حية، ونقل الرسول في لحظة من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، بل والسير به في السماوات.

ولكن الأمر بخلاف هذا الظن، وليس بهذه البساطة التي تقول إن القبول بوجود الله يحل جميع المسائل.

ولتوضيح ذلك نقول:

١ـ يتصور بعضهم إن المعجزة هي وقوع أمر بغير سبب. إلا أن هذا التعريف بعيد عن الصحة كثيراً، ولعل الماديين والذين ينكرون المعجزة هم الذين عزفوا علىٰ هذه النغمة أولاً، ومن ثم شاعت علىٰ الألسن.

وذلك لأن الذين يؤيدون المعجزة يريدون منها أن تكون دليلاً علىٰ شيء، فإذا حصلت المعجزة بدون علة، فلن تكن ذات دلالة علىٰ أمرٍ أبداً.

ولنفرض فرض المستحيل أن أمراً قد وقع بدون علة، عندئذ لايمكن إثبات أي شيء في العالم، ولن يبقىٰ أي قانون علمي أو طبيعي، ولا شيء من الفلسفة وعلم الكلام، بل سوف يتزلزل حتىٰ بحث إثبات وجود الله.

فنحن نعرف الله بكونه علة العالم، فإذا افترضنا أن ليس للعالم نظام، وأن الشيء يمكن أن يحصل بدون علة، فلن نستطيع رد قول القائلين بأن العالم قد تكّون بطريق المصادفة وبدون علة. لذلك فهذا الحديث لايصلح للمعجزة البتة[1].

٢ـ وقد يقول آخرون إن المعجزة لا تعني حدوث أمر بغير سبب، إنها ليست شذوذاً عن قانون العليّة، ولكنها بدلاً من أن تكون لها علة واقعية، تكون لها علة بديلة، أي إن المعجزة هي استبدال علة بأخرىٰ.

١ ـ انظر المحاضرتين ١ و ٢ من كتاب «محاضرات في الدين والاجتماع».

فمثلاً، العلة الواقعية لظهور الإنسان هي الأمتزاج بين الذكر والأنثىٰ، فإذا أزيحت هذه العلة الحقيقة وأتىٰ بعلة أخرىٰ بمكانها، فظهر إنسان بغير امتزاج بين الذكر والأنثىٰ، فتلك هي المعجزة.

هذا القول ناشئ أيضاً عن عدم الأطلاع علىٰ العلوم العقلية، وذلك إننا إذا قبلنا بمبدأ العلة والمعلول، وأنه هو السائد في العالم، فلا يمكن نقضه أو تغييره وتبديله، إذ إنه ليس عقداً تعاقدياً، إنما هو حقيقة واقعية لا تخلف فيها.

ففي الطبيعة إذا كان (أ) علة وجود (ب)، فهناك بين (أ و ب) رابط واقعي وحقيقي، بحيث إن إياً منهما ليست له رابطة مماثلة مع طرف ثالث، وليس لأي منهما وجود بغير الآخر. الخلاصة إن العلة الحقيقة لأمر ما هي علة واحدة فقط، والأمر الواحد لايمكن أن يرتبط برابط العلية والمعلولية بشيئين اثنين.

لذلك، في المثال السابق، لايمكن أن يكون (ج) بمكان (أ)، ولا أن يصبح (د) معلولاً (أ) بدلاً من (ب)[١].

٣ـ هنالك بازاء هذين التعريفين تعريف ثالث للمعجزة، يجيب علىٰ جميع الأعتراضات العقلية السابقة، وهو أن نقول: إن المعجزة لاتلغي قانون العلة والمعلول، ولا هي تنقضه، ولا هي استثناء منه. بل هي خرق لقوانين الطبيعة.

هنالك فرق بين خرق قانون العلة والمعلول، وخرق قوانين الطبيعة. فالمعجزة لاتعني حدوث أمر عن غير طريق العلة والمعلول الأصلي، إنما المعجزة هي التي تحدث بخلاف المسير العادي والجريان الطبيعي للأمور.

وبعبارة أوضح:

---

١ ـ خلاص حافظ از آن زلف تابدار مباد كه بستگان كمند تو رستگارانند

المعجزة خروج أمر عن المجرىٰ العادي إلىٰ الحد الذي يظهر فيه تدخل ما وراء الطبيعة ظهوراً واضحاً.

ففي هذه الحالة لاتكون علة قد أخذت مكان أخرىٰ، إذ إن الرابط بين العلة والمعلول، وهو رابط أصيل، موجود ومقبول. أما المعجزة فيمكن توجيهها هكذا:

إن العلل الواقعية للأشياء، والتي يريد الإنسان أن يصل إليها عن طريق التجربة والعلم، ما زالت مجهولة، والله وحده يعلم العلل الحقيقة للأشياء، والإنسان إنما يصل بتجاربه واختباراته إلىٰ سلسلة من المقارنات والعلاقات فقط، ويحسب أنها هي العلاقات العليّة.

وعلىٰ ذلك فالمعجزة هي ما يحدث عن غير الطريق المألوف الذي يظن الناس إنه يحدث به عادة وسوف نوضح هذا مرة أخرىٰ.

٢ـ هل المعجزة ممكنة؟

لقد اتضح جواب هذا السؤال إلىٰ حد ما في الفصل السابق، حيث قلنا إن إمكان حدوث المعجزة أو استحالتها يرتبطان بتعريف المعجزة وكيفية تناولنا لها.

فإذا قلنا إن المعجزة هي ما يحدث بدون علة، فتكون عندئذ مستحيلة بالبداهة، كذلك الأمر إذا قلنا إن المعجزة نقض قانون العلية، إي تبادل الأمكنة بين العلل.

أما إذا نظرنا إلىٰ الأمر من خلال التعريف الثالث، أي أنها خروج الطبيعة عن مجراها العادي، عندئذ تكون المعجزة ممكنة، وليست مستحيلة. وعلينا هنا أن نستزيد شيئاً من التوضيح.

يورد «هيغل»، الفيلسوف الألماني المعروف، بعض المبادئ التي يبني عليها

مسائل كثيرة من فلسفته.

يقول: هنالك سلسلة من المسائل تعتبر من الضرورات العقلية، ولا يجوز خلافها، أي إنها لا نقيض لها. مثل المسائل الرياضية التي يسميها «القضايا التحليلية».

تقول في الرياضيات إن مجموع زوايا المثلث ١٨٠ درجة أو قائمتان. هذا الحكم من أحكام العقل الضرورية، أي إذااستطاع العقل أن يدرك ما هو المثلث، فهو يدرك فوراً بأن الضرورة تقتضي بأن يكون مجموع زواياه ١٨٠ درجة، ويستحيل أن يكون غير ذلك، حتىٰ بجزء من الدرجة.

والقضايا التي تعتبر في الفلسفة والمنطق من القضايا الضرورية تشبه هذه، مثل اجتماع النقيضين وارتفاع النقيضين.

إلا أن هناك مسائل أخرىٰ هي مسائل تجريبية، أي المسائل التي لايدرك فيها العقل أية ضرورة وإنما تقول إنها هكذا لأننا وجدناها هكذا.

والمثال الذي يضربه «هيغل» للمسائل التجريبية هو قوله: إننا بحسب تجاربنا الكثيرة لاحظنا أن الماء يتحول إلىٰ بخار في درجة حرارة ١٠٠، ونطلق علىٰ هذا اسم «العلة» فنقول إن الحرارة هي «علة» تبخر الماء. وإذا رأينا الماء يتجمد في برودة تحت الصفر، نقول إن البرودة هي «علة» تجمد الماء.

يقول «هيغل» إن إياً من هذين ليس ضرورة عقلية، إنما نحن وجدنا الأمر هكذا فحكمنا به هكذا، ولو أننا منذ ولادتنا كنا قد رأينا خلاف ذلك، أي إذا رأينا أن الحرارة هي التي تجمد الماء، وأن البرودة تحيله إلىٰ بخار، لما قام في عقلنا أي اعتراض، أي إن الأنجماد بسبب البرودة، والتبخر بسبب الحرارة ليستا مما يوجب العقل ضرورتها، بل هما من القضايا الوجودية الصرفة، فهي موجودة في العالم

هكذا، وليس خلافها ضروري أيضاً.

هذا القول، إلىٰ هذا الحد قول معقول، وهو يشبه ما توصل إليه ابن سينا وأمثاله الذين كانوا يتساءلون: ماذا بشأن العلوم الطبيعية التي تستند دائماً إلىٰ التجربة، والتجربة لاتؤدي إلىٰ القول بضرورتها؟ وكيف ننظر، من هذا المنظور، إلىٰ العلوم الطبيعية وقوانينها؟ فهل يمكن درج قوانين التجربة تحت قانون العلة والمعلول الفلسفي؟

يقولون إنه في الموارد التي تكشف فيها التجربة عن علاقة ما، مثل الحرارة التي تكون سبب تبخر الماء والبرودة التي تكون سبب انجماد الماء، لابد أن تكون هناك (علة) حقيقية لهذا، وأن تلك العلة الحقيقة لايمكن أن تترك مكانها لعلة أخرىٰ؛ ولكن القول بأن العلة هي ما نحسه بحواسنا في التجربة ويكشفه لنا الأختبار، فأمر مشكوك فيه. ولهذا نجد، إن العلوم التجريبية تتغير كل يوم، فينسخ قانون قانوناً قبله، ويقوم مقامه.

فمثلاً عندما اكتشف الإنسان إن الحجر يسقط إلىٰ الأرض إذا رمي من أعلىٰ، قالوا إن في الحجر قوة جاذبة تميل إلىٰ الأقتراب من مركز الأرض.

وكان هذا حكماً أصدروه علىٰ إثر القيام بتجارب كثيرة، واتفقوا عليه؛ ولكن علىٰ إثر مجيء (نيوتن) تغير الحال، وقالوا: لا، ليس الحجر هو الذي يميل إلىٰ الأقتراب من مركز الأرض، بل إن قوة الجاذبية في الأرض هي التي تجذب الحجر إليها.

ومن ثم ظهرت النظرية النسبية، وأعيد النظر في النظرية السابقة.

فالشيء الثابت من كل ذلك هو إن الحوادث لاتحدث بدون علة، ولكن ترىٰ هل يكتشف العلم تلك العلل أم لا؟ وهل إننا بمجرد أن نكتشف علاقة ما، يصح أن

نقول إننا قد اكتشفنا العلة؟ كلا، هذا غير صحيح، فهذه ليست العلل الحقيقة، فلا الحرارة علة التبخر، ولا البرودة علة الإنجماد، ولا الجاذبية علة سقوط الحجر، فهذه العلائق كثيراً ما تتبدل.

هنا يتضح بجلاء الفرق بين (ناموس الطبيعة) وقانون العلة والمعلول، فمن حيث الناموس الطبيعي نجد إن كل حالات الولادة الإنسانية لها طريق واحد فقط، فلابد من الذكر والأُنثىٰ، ولابد من انعقاد النطفة، حتىٰ يكون الإنسان، ولكن هل قانون العلة الأصيل هو الحاكم هنا؟ هل غير هذا مستحيل؟ أفلا يمكن أن تتولد في وقت ما في رحم المرأة خلية ذات استعداد خاص، فتجمع بين عمل بويضة المرأة وعمل حيمن الرجل؟

والعقل لاينكر هذا، إنما يقول: هذا ما وجدناه وما نراه، ولكن قد يحدث بشكل آخر لانعرف سره حتىٰ الآن، كأن بويضة المرأة حيمن الذكورة. فإذا حصل هذا فإن قانون العليّة لاينتقض، بل الذي ينتقض هو الأساس الطبيعي. وهذا هو المعجزة.

فالمعجزة، إذن خرق لنواميس الطبيعة، وهي، بهذا المعنىٰ، ممكنة الحدوث.

نعود إلىٰ «هيغل» مرة أخرىٰ. إذا ادعىٰ أحد النبوة وقال إن معجزته هي أنه يستطيع رسم مثلث مجموع زواياه ١٩٠ درجة، فيجب تكذيبه فوراً، لأن هذا مستحيل؛ الأدعاء نفسه دليل علىٰ كذب المدعي.

أو قد يزعم مدعي النبوة إنه قادر علىٰ إحداث حدث بدون علة، فيكون كاذباً أيضاً، لأن ذلك يناقض الضرورة العقلية.

ولكن إذا ادعىٰ أحد إنه يستطيع أن يخرق النواميس الطبيعية، كتلك الأعمال التي يقول عنها «هيغل» إننا لا نملك دليلاً عليها، وإنما وجدناها هكذا دائماً، فإننا

نتقبل ذلك.

وبعبارة أخرىٰ، إن القوانين العقلية مطلقة، غير مشروطة، أي ليس فيها «إذا»؛ ولكن القوانين الطبيعية مشروطة، أي عندما نقول إن مجموع زوايا مثلث يساوي قائمتين، فلا يصح أن نضيف: إذا لم يحل دون ذلك مانع؛ ولكن في القوانين الطبيعية نستطيع أن نقول إن قانون الجاذبية يقضي بأن يجذب الجسم الكبير جسماً أصغر منه، إذا لم يحل مانع دون ذلك، أي إذا أنت وضعت يدك لتحول دون سقوط الجسم، فإن قانون الجاذبية يتوقف عن العمل.

يتضح من ذلك إن اكتشاف العلل الحقيقية ليس في طاقة البشر، فهي خافية عليه، وإن كل الذي يستطيع أن يتوصل البشر إلىٰ معرفته هو سلسلة من العلائق فحسب. إن الله وحده هو العليم بتلك العلل.

جاء في سورة «الطلاق»: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾[1]، أي لا حاجة له بأي علة من العلل الظاهرة، ثم يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**﴾[2].

ولكنه، لكي لايظن الناس أن ليس في نظام العالم علة ومعلول، وإن الله قد يقوم أحياناً بأعمال علىٰ خلاف نظرية العلية، يقول: ﴿**قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**﴾[3] أي إنه وضع لكل شيء حداً أو مقداراً وعلاقة، ولكنها علاقة يعلمها الله وحده.

أما كون الله إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، بحيث لايرىٰ البشر لها سبباً من الأسباب التي يعرفها، فلأن هذه هي الظواهر، وليست العلل الحققية، فهذه علمها عند الله وحده.

---

١ ـ ٣ ـ سورة الطلاق: الآية ٣.

واذا أراد الله فإنه يكشف لبعض الناس عن أسرار العلة والمعلول، وإذاما تلقىٰ أحد هذه الأسرار من الله، يكون بمقدوره أن يتصرف في أعمال العالم كما يشاء، بغير أن يتدخل في نظام العلة والمعلول.

وهذا هو معنىٰ الحديث الذي جاء فيه أن العبد قد يقترب من ربه إلىٰ الحد الذي يكون الله عيناً له يبصر بها، وأذناً يسمع بها، ويداً يعمل بها.

٣ـ هل تقع المعجزة؟

جواب هذا السؤال سهل يسير، فاننا بعد معرفتنا أن المعجزة ليست خرقاً لنظام العلة والمعلول نجد الكثير من حوادث خرق نواميس الطبيعة قد وقعت، وتقع.

ينقل عن ابن سينا أنه قال: إذا سمعت أن (عارفاً) من الناس قد بقي شهراً دون طعام ولم يمت، فلا يأخذك العجب، فهو قد عمل بخلاف قانون الطبيعة، وليس بخلاف الوجود الكلي. فإن القول بأنه إذا لم يأكل الإنسان مدة ثمانٍ وأربعين ساعة، مات، قول صحيح، لأن عملية هضم الطعام المألوفة تقتضي أن يصل إلىٰ المعدة طعام خلال تلك المدة.

إلا أن بعض الناس يستطيع، بتقوية إرادته، أن يسخر جسمه بحيث إنه يستطيع أن يسيطر حتىٰ علىٰ حركة قلبه، وأن يكون تنفسه علىٰ وفق إرادته، وأن يتحكم في هضم الطعام وفي فعاليات معدته.

هنالك نماذج عديدة لأمثال هؤلاء الناس بين المرتاضين، ومنهم من كان يستطيع أن يحبس أنفاسه مدة طويلة، فلا يتنفس، مع إن الأفراد العاديين قد لايستطيعون ذلك حتىٰ لدقيقة واحدة.

هذا ينتج من تقوية الروح وترويضها، أي إننا نقوي الروح بحيث تصبح هي المسيطرة علىٰ فعاليات الجسم.

يقال إن بعض الزعماء الروس الذين زاروا الهند في وقت ما، أثارت أعمال من هذا القبيل حيرتهم ودهشتهم، بحيث أنهم عندما عادوا إلىٰ بلدهم طلبوا أن تدرس هذه الأمور في جامعاتهم، وكأنها علم من العلوم.

لقد رأىٰ هولاء، من بين ما رأوا، إن رجلاً قد أدخل في تابوت، ودفن في قبر بدون أن يكون هناك منفذ للهواء وللتنفس، ثم بعد أن أخرجوه بعد مدة، أخذ يتنفس كالعادة، وكان واضحاً أنه عند دفنه قد قطع تنفسه باختياره.

علىٰ كل حال، أمثال هذه الأعمال كثيرة، وعمادها تقوية الأرادة عن طريق التمرين، وبعضها غير شرعي.

وعلىٰ ذلك، فإن المعجزة، كما قلنا، عمل يجري علىٰ خلاف القوانين الطبيعية، مع ملاحظة أن الأنبياء كانوا يتمتعون بعناية الله، ويمثلون النماذج للإنسان الكامل، وللروح القوية، وللأرادة المتينة، فتعليل المعجزة ليس من الأمور الصعبة.

٤ـ كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها؟

يقول المناطقة إن هناك ثلاثة أنواع من الأدلة:

١ـ الدليل الوضعي.

٢ـ الدليل الطبيعي.

٣ـ الدليل العقلي.

الدليل الوضعي:

وهو أن نضع علامة لتدل علىٰ شيء معين بحيث لو اختلف الشيء لوجب اختلاف الدلالة، كدلالة الألفاظ علىٰ المعاني، فلفظة (الخبز) وضعت لتدل علىٰ هذا الطعام المعروف، والماء لهذا الذي نشربه، ولو كان الأمر معكوساً، أي لو وضع الخبز لما نشربه، والماء لما نأكله، لما اختلف الأمر ولما حصل إلتباس، أي ليست هناك أية رابطة ذاتية بين الأسم والمسمىٰ في أي من المثالين المذكورين.

ومثال آخر إشارات المرور، فقد تواضعوا علىٰ أن يكون الضوء الأخضر إشارة للعبور الحر، وهذا دليل وضعي، فلو كانوا قد تواضعوا علىٰ أن يكون الأخضر علامة الوقوف لدلّ علىٰ ذلك أيضاً.

فهل دلالة المعجزة علىٰ صدق النبوة كتلك أيضاً؟ هل تواضع الله مع الناس من قبل علىٰ أنهم إذا رأوا من أحدٍ أعمالاً معينة عليهم أن يعلموا أنه مرسل من الله وأنه يصدقهم القول؟

ليس الأمر كذلك، لأن ما يريد الله إيصاله إلىٰ الناس يرسله بواسطة أنبيائه، ونحن الأن بصدد إثبات الأنبياء أنفسهم.

الدليل الطبيعي:

وهي الدلالة التجريبية، كأن يدل السعال علىٰ ألم الصدر، أو تدل سرعة النبض علىٰ الحمىٰ. هذه علائم طبيعية عرفت بالتجربة.

لا شك إن المعجزة ليست من هذه الدلالات، إذ أنها ليست ضمن تجارب البشر.

الدليل العقلي:

وهو الدليل الإستدلالي، مثل دلالة المعلول علىٰ العلة. عندما يلاحظ العقل حدوث الحدث، يعرف إنه يستحيل حدوثه بدون علة، فيحاول معرفة علة ذلك المعلول. وهذا ما يحتاج إلىٰ الوضع أو التجربة.

دليل المعجزة من هذا النوع، ولتوضيح ذلك نقول:

هنا لك طريقتان لتبيان دلالة المعجزة. يقول أصحاب علم الكلام إن المعجزة نوع من الأدلة العقلية، بصورة عملية، كأن يدرك العقل رضا شخص ما من سلوكه، أو أنه يستشف رضاه من سكوته، ومن هذا القبيل اعتبار تقرير العصمة حجة، كما جاء في الفقه، أي إذا كان المعصوم يقرر طريقة الوضوء أو يتوضأ عملياً ليتعلم الآخرون، فذلك في نظرنا حجة، وكذلك إذا توضأ أحد أمام المعصوم ولم يعترض عليه، فندرك بالدليل العقلي علىٰ إن طريقة الوضوء هي تلك، مستدلين علىٰ ذلك بأنه لو لم يكن كذلك لاعترض المعصوم، وبما إنه لم يعترض، فلا شك إن طريقة الوضوء صحيحة في نظره، فإذا سأل أحد لماذا يعترض المعصوم إذا لم تكن الطريقة صحيحة؟ نقول، إذن لكان سكوته إغراءً بالجهل، أي إنه يحمل الناس علىٰ الجهل بطريقة الوضوء الصحيحة، وهذا عمل قبيح غير مقبول، والمعصوم لا يرتكب مثل هذا العمل.

وهؤلاء يقولون إن دلالة المعجزة علىٰ النبوة تعتبر من هذا القبيل، وذلك حينما يأتي شخص ويقول: أيها الناس، أنا رسول الله إليكم (مع العلم بأن الله عارف بكل أعمال البشر)، يكون هذا الزعم قد أعلن في حضور الله، فعندما يقوم بأعمال خارقة للعادة، سواء أنسبها إلىٰ نفسه أم إلىٰ الله، تكون هذه حتماً دليلاً علىٰ

صدقه، إذ لو كان كاذباً علىٰ الله أن يحول دون حدوث المعجزة، فلو تركها تحدث لكأنه أيد الكاذب، وأغرىٰ الناس بالجهل.

كان هذا ملخص ما يورده المتكلمون بخصوص المعجزة.

إلا أن هناك عدداً من العلماء يعتقدون بأن المتكلمين لم يدركوا حقيقة المعجزة لكونهم حسبوها عملاً يحققه الله مباشرة علىٰ يد النبي، بدون أن يتدخل النبي في إجراءاتها، وأنه لم يكن سوىٰ الواجهة الظاهرية، وأن الله هو الذي يقوم بالمعجزة علىٰ يد النبي، كأن يجلس عيسىٰ عند الميت، ولكن الله هو الذي يحييه، أي ليس لعيسىٰ أي دور في إحيائه، إنما هو مجرد وسيلة. أي إن العمل عمل الله بصورة مباشرة، وكما إننا، أنا وأنت، لم يكن لنا إي تأثير في تحقيق المعجزة، كذلك ليس للأنبياء يد في تحقيقها.

كلا، ليس الأمر كذلك، بل هو أرفع من ذلك بكثير. إن بين المعجزة وصاحبها علاقة واقعية بحيث لايمكن حدوثها علىٰ يد شخص آخر.

المعجزة إعلان عن الكمال الروحي والمعنوي الذي بلغه «ولي» الله. عندما يحقق ولي الله إعجازاً، تكون قواه البشرية في اتصال بقوىٰ الله، أي إن الله يمنحه إرادة وقدرة فوق ما للبشر.

يتضح مما سبق ذكره، إنه بسبب قيام ولي الله بإطاعة الله إطاعة كاملة وبسبب الرياضيات العملية التي يقوم بها، يبلغ مرحلة تكون له فيه إرادة من القوة بحيث إنها تقهر الطبيعة. وبعبارة أخرىٰ، يستطيع البشر في ظل الطاعة والعبادة، أن يبلغ من الله قرباً يصبح معه نموذجاً لله في الأرض.

وعليه، فإن قيام أولياء الله بأعمال خارقة للطبيعة يكون من عملهم أنفسهم، إنما بطاقة تفوق طاقة البشر.

وهذا نفسه قد ورد علىٰ لسان علي بن أبي طالب، إذ أنه عندما أقتلع باب خيبر بمفرده، الباب الذي كان يجد أربعون أو خمسون رجلاً صعوبة في زحزمته، وقذف به بعيداً، قال:

«والله ما قَلَعْتُ بابَ خَيْبَرَ بِقوةٍ جَسَدانيَّة، بَلْ بِقُوّةٍ إلهية».

أي إن ساعدي البشريتين ما كانتا قادرتين علىٰ ذلك، إنما أعانتهما علىٰ ذلك قوة إلهية، بحيث لو كان الباب أثقل من ذلك عشر مرات لكان قادراً علىٰ اقتلاعه.

إذن يقول علي عليه السلام: قلعت. أي إنه هو الذي قلع الباب، لا أنه أمسك بالباب، فاقتلعه الله وقذف به بعيداً. إنه قلع الباب ولكن بالقوة التي وهبها الله له. فالمعجزة تعني، إذن، أنه إذا احيا عيسىٰ الموتىٰ، فإنه لم يحيهم بقوته البشرية، ولا الله أحياها مباشرة بدون تدخل الإنسان، وإنما عيسىٰ أحياها بقوة ربانية.

يتضح من ذلك إن دلالة المعجزة علىٰ صدق النبوة دلالة عقلية، ولكن ليست كتلك الدلالة العقلية التي يقول بها المتكلمون، بل دلالة عقلية منطقية مئة بالمئة.

٥ـ رسول الإسلام والمعجزة:

اعترض بعض المستشرقين ورجال الدين المسيحين علىٰ القرآن وعلىٰ الرسول، في معرض طرحهم موضوعاً، تابعهم فيه بعض الكتاب المسلمين بشكل آخر، فأيدوا مزاعمهم وقبلوها. ذلك الموضوع هو معاجز رسول الإسلام.

طرح المسيحيون الموضوع هكذا: يستنبط من القرآن أن النبي كان يمتنع عن الأتيان بمعجزة إذا ما طالبوه بها، وفي القرآن ما يدل دلالة صريحة علىٰ ذلك، حتىٰ إنه ينكر ذلك أشد الأنكار، ثم يستشهدون علىٰ ذلك بإيراد بعض الآيات، التي سوف نوردها فيما بعد.

أما بعض الكتاب المسلمين المحدثين فقد عرضوا الموضوع هكذا:

ترتبط المعجزة من حيث الأساس بادوار طفولية البشر، أي الأدوار التي كان البشر ما يزال في مرحلة التوحش، لم يصل بعد إلىٰ مرحلة العلم والعقل والمنطق. ولذلك لما لم يكن بالأمكان عرض المسائل علىٰ الناس بطريق العلم والمنطق، كان علىٰ الأنبياء أن يأتوا بالمعجزات.

وبعبارة أخرىٰ، كان الإنسان طفلاً، والطفل لايفهم كلام المنطق والإستدلال، علىٰ حد قول الشاعر:

«إذا اضطررت للتعامل مع طفل فعليك أن تنطق بلسان الطفولة»[1]

فالمعجزة لغة الطفولة للأطفال، أي إنسان العصور السحيقة؛ ولكن ما ان بلغ البشر مرحلة البلوغ الفكري التي يمكن فيها أن تخاطبه بلغة العلم والمنطق والإستدلال، حتىٰ لم تعد ثمة حاجة إلىٰ المعجزة. بل يتقبل البشر قول الرسول المبعوث الذي يضع الخطط والقوانين الأصلاحية والتقدم بالإنسان نحو التكامل ويؤمن به بلا تردد.

إن اختلاف رسول الإسلام عن الرسل الذين أتوا قبله، هو إن ظهوره اقترن

---

١ ـ لقد بحثنا هذا الموضوع بحثاً مسهباً في كتاب (العدل الألهي)، وقلنا إنه لباطل أن يظن أحد أننا إنما نقوم بالأعمال عن طريق العلة والمعلول، أو السبب والمسبب، لكوننا عاجزين، وإن الله لكونه قادراً علىٰ كل شيء فلا حاجة له إلىٰ العلة والمعلول.

كلا، ليس الأمر كذلك، فقد ثبت عند الحكماء أن قدسية ذات الله وكماله تقتضي أن تجري الأعمال ضمن نظام العلة والمعلول، وبعبارة أخرىٰ نظام العلة والمعلول هو نظام فعل الله.

هناك عدد من الآيات في القرآن الكريم تخص هذا الموضوع، يتضح فيها أن الله، عن طريق الأسباب، يحقق أوامره، سواء أكانت أسباباً طبيعية، مثل نزول المطر، ونمو النباتات، وأمثالها أم أسباباً غير طبيعية مما وراء الطبيعة، مثل الملائكة، وجنود الله غير المرئيين.

تاريخياً بمرحلة تحول البشر من التوحش إلىٰ التفكر.

وفي ذلك يقول إقبال اللاهوري: إن رسول الإسلام يقع ضمن مقطع تاريخي يرتبط ماضيه بمرحلة طفولة البشر وتوحشه، ويرتبط مستقبله بمرحلة العلم والمنطق.

وعلىٰ هذا، يختلف الوحي الذي نزل علىٰ نبينا في آخر الزمان عن الوحي الذي نزل علىٰ سابقيه، بل إنما جاء رسولنا ليحمل الناس إلىٰ مرحلة العقل والمنطق.

ويستطرد إقبال اللاهوري، فيقول: إن الرسول ينتمي، من حيث منشأ علمه ـ وهو الوحي ـ إلىٰ مرحلة سابقة، ومن حيث روح رسالته ـ وهي الدعوة إلىٰ العقل والمنطق والعلم والتجربة والأختبار والأعتبار بالتاريخ ـ إلىٰ المستقبل.

وهذه، في نظر إقبال هي فلسفة اختتام النبوة بالرسول، أي إن ذكر الماضي يؤدي إلىٰ نتيجتين اثنتين: الأولىٰ اختتام النبوة، والثانية الأستغناء عن المعجزة. أي بمجيء رسالة هي خاتمة الرسالات، لن تكون الظروف بعد ذلك مهيأة لنبوة أخرىٰ، ولن تكون حاجة إلىٰ المعجزة، لأن المعجزة تتعلق بالمراحل السابقة.

هذا هو الطرح الذي يراه اقبال، وقد تبعه في ذلك بعض الكتاب المسلمين.

إننا الآن لسنا في مقام بحث هذا الموضوع بحثاً مسهباً، ولكننا نقول قولاً مجملاً، وهو إن هؤلاء في هذه الفلسفة التي يوردونها عن اختتام النبوة يقعون في خطأ جسيم.

طبعاً لا أقصد أن أقول إن إقبال ينكر انتهاء النبوة (حسبما ظنه بعضهم)، بالعكس، فاقبال يقبل بختم النبوة، إنما توجيهه لهذا الأمر غير صحيح.

إن الفلسفة التي يذكرها تؤدي إلىٰ نتيجة هي عكس ما يريد إثباته تماماً،

وذلك لأننا إذا اعتبرنا توجيهاته صحيحة، لكانت النتيجة «ختم الدين» لا «ختم النبوة».

إننا الآن لسنا بصدد هذا، بل نحن نبحث في المعجزة. إن أقوال الكتاب المذكورين تشير إلىٰ مسألتين: المسألة الأولىٰ تقول إن مرحلة البلوغ الفكري لاتتطلب المعجزة. والمسألة الثانية هي إن الإسلام يمتنع عن الأتيان بأية معجزة، كما ورد في عدد من آيات القرآن. فلابد من بحث هذين الموضوعين.

أما فيما يتعلق بموضوع انتفاء الحاجة إلىٰ المعجزة في مرحلة البلوغ الفكري عند البشر، فإنه غير صحيح، وذلك لأن القرآن، كما قلنا من قبل، يستعمل تعبير «آية» ولا يستعمل تعبير «معجزة».

فالآية هي الدليل، والدليل يعني هنا إن ما يقوله هذا الشخص ليس من عنده، إنما هو من عند الله.

قد يستعمل نبي كلاماً منطقياً، كلاماً يمكن إثباته بما يثبتون به المسائل العلمية كالبرهان والتجربة والأختبار، فيكون هذا في هذه الحالة مجرد حكيم أو عالم كبير، ولكن ثمة فرق كبير بين الحكيم العالم الفيلسوف والنبي، فكلام الحكيم الفيلسوف يقع في مستوىٰ كلام البشر، ولكن الرسول يريد أن يقول شيئاً أكثر من هذا.

فبالأضافة إلىٰ أن كلام الرسل منطقي وعقلاني، فإن لهم كلاماً آخر، وهو إن هذا الكلام ليس كلامهم، إنما هو قد بلّغ إليهم، وهم يبلغونه.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[1].

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ١١٠.

أي إن هذا الذي أقوله ما كان بسبب إني أمضيت الليل أفكر فيه لأن لي دماغاً أكبر من الأدمغة، كلا، بل هو كلام الله قد أوحي إلي.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ﴾[1].

إن لي لساناً واحداً وهو متوجه نحوكم، ولكن لروحي في الباطن اتصال بمكان آخر، ومن هناك يأتيني البلاغ، فأبلغكم به.

إنني، أصلاً، رسول، أحمل رسالة الله إليكم، لا كلامي أنا، والموضوع كله يدور حول حمل الرسالة، فأنا رسول نبي، أحمل إليكم رسالة من غيري.

إذا فرضنا إن السيد سقراط قال يوماً إن له فلسفة كهذه في الأخلاق. فإذا وجدنا كلامه منطقياً، قبلناه.

ولكن إذا قال سقراط إن كلامه ليس من عنده، بل من عند الله، وإنه مجرد حامل لكلام الله إلينا، عندئذ نقول له: عليك أن تثبت لنا هذا، فعلىٰ الرغم من أن كلامك منطقي، لكنه لا يكون دليلاً علىٰ إنه من عند الله، فكون الكلام منطقياً شيء، وكونه ليس للقائل، بل من كلام الله، وإن اطاعته تنيل الثواب، والكفر به كفر بالله، شيء آخر.

كثيرون هم الذين يتكلمون كلاماً منطقياً، ولكننا إن لم نطعهم فلا بأس علينا؛ ولكن الذي يقول هذا ليس كلامي، بل هو كلام الله، فإن لم نطعه نكون قد تمردنا علىٰ الله، وإن أطعناه نكون قد عبدنا الله.

وعليه، يصح القول بأن الرسول يستطيع، في مرحلة البلوغ الفكري، أن يثبت أقواله بالدليل المنطقي، كأن يقول: أيها الناس، فكروا واعقلوا، وادركوا صحة

---

١ ـ سورة الشعراء، الآية: ١٩٣ ـ ١٩٤.

أقوالي؛ ولكن صحة أقواله شيء وكونها من عند الله شيء آخر.

قد يأتي نبي الإسلام فيقول: لاتشربوا الخمر، فالخمرة تضركم، إنها رجس وشر. ثم يقول: حسن، أنتم تريدون الدليل الآن، أنظروا إلىٰ الذين اعتادوا علىٰ شرب الخمر أزماناً طويلة، لتروا ماذا يحدث لهم، ولأعصابهم، ولجهازهم الهضمي، ولأكبادهم. إذهبوا أو جربوا أولئك الذين يشربون الخمر ويسكرون، كم يسببون للمجتمع من مصائب. ولا تجربة خير من هذه. فالأحصائيات عن الجرائم الناشئة عن تعاطي الخمور دليل علىٰ شرورها.

فالناس الذين يلتزمون العقل والمنطق، يفهمون جيداً إن هذا الطلب منطقي، فلا ينبغي لهم أن يقربوا الخمر.

ولكن القول، مرة أخرىٰ، بأن هذا بلاغ من الله، يكون شيئاً آخر. لذلك فاننا، في مرحلة البلوغ، حتىٰ لو أدركنا صحة جميع أقوال الرسول بالبراهين العلمية والعقلية، فإننا، في موضع تصديق نبوته، نحتاج إلىٰ المعجزة.

إلىٰ هنا كان البحث يتعلق بالطرح الأول. ونأتي الآن إلىٰ الطرح الثاني، القائل بأن الرسول، بشهادة القرآن، كان يمتنع عن القيام بمعجزة، وإنه لذلك لم تكن له معجزة. ويستشهد هؤلاء بآيات عديدة، أوضحها ما جاء في سورة الأسراء:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلا بَشَراً رَسُولاً﴾[1].

---

١ ـ سورة الأسراء، الآيات: ٩٠ ـ ٩٣.

تقع مكة في أرض قاحلة جرداء، لا ماء فيها ولا زرع، ولم يكن في مكة يومئذ ماء جار، والموجود منه في الوقت الحاضر ويستفاد منه في منىٰ وعرفات، يأتي معظمه من نهر الطائف، والطائف تقع علىٰ بعد اثني عشر فرسخاً إلىٰ جنوب مكة، حيث أمرت زبيدة، زوجة هارون الرشيد الخليفة المقتدر، فخصص مال وافر ـ وهي التي كان تحت تصرفها بيت مال المسلمين ـ لحفر جبل الطائف وإيصال نهر منه إلىٰ مكة. أما في عصر النبي، فلم يكن في مكة ماء سوىٰ ماء زمزم، وهذا أيضاً لم يكن بالوفرة الموجودة حالياً، لأنهم وسعوا في حفر البئر بعد ذلك فازداد ماؤها.

قال كفار قريش ومخالفو النبي، انهم لن يؤمنوا حتىٰ:

١ ـ يفجر لهم الماء من الأرض.

٢ ـ لما كانت مكة خالية من كل زرع أو بستان، فقد طلبوا أن تكون له بستان فيها أشجار العنب وأنهار تجري.

٣ ـ إذا كان يظن كما يقول، أن العالم سوف يختلف في يوم القيامة، وأن السماء والأرض تتداخلان، فليعمل شيئاً الآن لتنزل السماء قطعاً.

٤ ـ يأتي بالله وبالملائكة من السماء لتأييده.

٥ ـ أو أن تكون له دار مليئة بالمال.

٦ ـ أو أن يصعد إلىٰ السماء ليأتي منها برسالة يقرأونها، تؤيد نبوته.

هذه هي الشروط التي أوردوها للأقرار به؛ ولكنه رد عليهم بأنه بشر عادي، يحمل إليهم رسالة.

بهذه الآية يتشبث المعترضون قائلين إن الكفار طلبوا من الرسول ستة أنواع من المعاجز، فرد الرسول: سبحان الله! ما هذا الذي تطلبون؟ كيف تطلبون المعاجز، وأنا لا قدرة لي علىٰ الأتيان بها؟

وهذه الآية هي نفسها التي استدل بها[١] المسيحيون علىٰ أن النبي لم تكن له معاجز وكذلك استند عليها عدد من المتنورين الذين قالوا إن المعجزة تنفع في عصر طفولة البشر، ولما كان النبي، في عصر بلوغ الفكر، كان يمتنع عن الأتيان بمعجزة.

كلاهما قد جانبا الصواب، وها نحن نكشف عن الأمر.

سبق أن قلنا إن المعجزة ليست مستحيلة، علىٰ اعتبار أن المستحيل هو كل مالا يمكن حدوثه عقلاً، وحتىٰ لمن كانت له قدرة غير متناهية، يبقىٰ المستحيل، مستحيلاً ليس لأنه غير قادر عليه، بل لأن الأمر غير ممكن الوجود، إنه العدم بذاته، الفراغ نفسه، فالأمر الذي حقيقته عدم الوجود، لايمكن أن يتحقق له وجود.

وعليه، فإن طلب المعجزة يختلف عن طلب المستحيل، لأن المعجزة، كما قلنا، هي وقوع أمر علىٰ خلاف الناموس الطبيعي الجاري، ولكنه بذاته ممكن الوقوع بقدرة خارقة للطبيعة. هذه ناحية، والناحية الأخرىٰ هي إننا قلنا إن علىٰ جميع الأنبياء أن تكون لهم معاجز، علىٰ أنها آيات وأدلة علىٰ صحة دعاواهم بأنهم رسل من الله.. وهذا يكفي، ولكن هل الأنبياء ملزمون أن يحققوا للناس كل ما يطلبون؟ لو كان الأمر كذلك لأصبحوا من المشعوذين والسحرة اللاعبين بالثعابين.

يأتي الناس وقتما ما يشتهون ويجلسون أمام النبي، ويقولون: إذا كنت نبياً افعل لنا الشيء الفلاني الذي نطلبه منك، ثم تأتي جماعة أخرىٰ، وهكذا. هذا استهزاء!

---

١ ـ في الأصل «استدل منها». (المصحح)

إن الرسول يأتي من المعاجز بالقدر الذي يثبت إنه رسول من الله، وما أن يلقي عليهم الحجة حتىٰ ينتهي الأمر، ولن يرضخ لهم وإن ألحوا إلحاحاً شديداً.

وعلىٰ حد تعبير العلماء، فإن الأنبياء غير ملزمين أن يعملوا علىٰ وفق اقتراحات الناس، أي إن الأمر ليس كما لو كان طفل يبكي، فتحمله أمه إلىٰ رسول الله وتقول: ما دمت نبياً قادراً علىٰ المعاجز، فحبذا لو قمت بمعجزة صغيرة تسكت بها هذا الطفل.

كلا، المعجزة دليل يستطيع بها طالب الحقيقة أن يدرك الحقيقة أن يقبل بمن يأتيه فيقول: إذا أردتني أن أؤمن فاعطني كذا مقداراً من المال.

لقد جاء[1] الرسول لكي يؤمن الناس، والإيمان والمساومة لا يجتمعان، بل إنهم يحثون الناس علىٰ البذل والعطاء، أي إنهم يطالبون الناس بأن ينفقوا في سبيل الله.

وإن مما يلفت النظر هو أنه علىٰ الرغم من أنهم يدعون الناس إلىٰ الإنفاق وإلىٰ الجهاد، فأنهم لا يتقبلون كل أنواع الإنفاق، فعندما يأتيهم من يقول: أريد أن أنفق مالاً فيما تأمرني به، فإذا أحسوا أن إنفاقه هذا يقصد منه التبجح فلن يقبلوا منه ذلك، أو إذا جاء أحدهم وقال إني أريد أن أكون من جند الإسلام يسأل عن دافعه للأنخراط في سلك الجندية، فيقول لأني أحب أن يذكر التاريخ اسمي، فإنهم يطردونه قائلين له: ما هاجرت إلىٰ الله، أي إنك تفتقر إلىٰ الأخلاص والإيمان.

وعلىٰ ذلك، يتضح معنىٰ الآيات جلياً، فالآية الأولىٰ تقول:

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾[2].

---

١ ـ في الأصل «أتت». (المصحح)

٢ ـ سورة الأسراء، الآية: ٩١.

ثمة فرق بين القول «لن نؤمن لك» و«لن نؤمن بك». فالثانية تعني: نؤمن بك والأولىٰ تعني: نؤمن من أجلك.

فهؤلاء لم يقولوا: لن نؤمن بك، بل قالوا: لن نؤمن لك، أي إننا لن نؤمن من أجلك وبعبارة أُخرىٰ، يقولون: إذا كنت تريد أن نصبح من أتباعك، وهذا طبعاً في مصلحتك، فعليك أنت أيضاً أن تفعل شيئاً لمصلحتنا.

«حتىٰ تفجر لنا» اللام تفيد الملكية المصلحية، فمن الواضح إنهم كانوا يريدون جريان العين لمنفعتهم، وليس هذا طلباً لمعجزة، بل طلب لمعاملة مقايضة.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً﴾[١].

لا شك في إنه لو كان للنبي في مكة بستان ذات نخيل وأعناب، لما وزع ثمارها علىٰ الملائكة، بل علىٰ أهل مكة. فهذا أيضاً ليس طلباً لمعجزة بل هو طلب مصلحي، أي إنهم كانوا يريدون من النبي أن يحيل مكة إلىٰ الطائف، مكة التي لم يكن فيها ماء ولا بستان، تتحول إلىٰ مدينة مثل الطائف مليئة بالبساتين والأشجار والمياه.

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾[٢].

لو جاء أحد فطلب معجزة قائلاً: إذا كنت صاحب معاجز، فلتكن معجزتك أن تقتلني! أفهذا طلب معجزة؟ كلا، إذن ما نفع المعجزة بعد أن يكون قد قتل؟

يقول كفار قريش: إنك تقول إن السماء تسقط يوم القيامة علىٰ الأرض، فإذا كنت صادقاً فافعل ذلك الآن، فلو حقق لهم النبي هذه المعجزة، فاحترقوا جميعاً، فما كان نفع ذلك لهم؟

---

١ ـ ٢ ـ سورة الأسراء: الآية ٩٢.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾[١].

وهذا أيضاً طلب المستحيل، إذ ليس من الممكن أن يتكلم الله عبيده مباشرة. بل لو كان الله مثل البشر بحيث يراه الناس بأعينهم ويسمعونه بآذانهم، لما بقيت حاجة إلىٰ إرسال رسول.

إن الله الذي يعرفنا علىٰ رسوله، وله المشرق والمغرب «أينا تولوا فثم وجه الله» هو الأول والآخر والظاهر والباطن، ليس جسماً، ولا هو في السماء حتىٰ ينقلوه إلىٰ الأرض.

إنهم يطلبون أن يتحول الله بشراً، وهذا أيضاً مستحيل، وكذلك الأمر مع الملائكة الذين ليسوا من جسم مادي، فلا يرون، وإن كانوا أحياناً يظهرون في صورة أفرادٍ من البشر، فيراهم بعض الناس، فهم ليسوا من جنس البشر، ولا من جنس المادة حتىٰ يمكن للجميع أن يروهم، فهذا أيضاً طلب غير معقول.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾[٢].

هذا أيضاً طلب مادي جنوني محض، لقد كانوا من عبيد المال إلىٰ درجة لم يكونوا يفهمون شيئاً غيره.

والطلب الأخير واضح أيضاً، ولا يعدو أن يكون ذريعة، إذ لو فرضنا أن الرسول جاء برسالة من السماء، لعادوا يقولون: إنك أنت الذي كتبتها.

علىٰ كل حال، بعض هذه الطلبات جنونية، وبعضها من باب الحمق وليس فيها ما يدل علىٰ طلب الحقيقة.

---

١ ـ سورة الأسراء: الآية ٩٢.

٢ ـ سورة الأسراء: الآية ٩٣.

ولهذا يرد عليهم الرسول بأنه ليس سوىٰ بشر مرسل إليهم. وما يطلب من الرسول ينبغي أن لايكون جنونياً ولا أحمق.

إذن ليس الأمر كما يقول أولئك الكتاب، بأن هذه الطلبات تشبه طلبات الأمم السابقة من أنبيائها، وأن نبي الإسلام كان يمتنع عن الأتيان بمعجزة، كلا إذ لو كان طلب هؤلاء معقولاً وباحثاً عن الحق، لما ردهم رسول الله.

وإذا ما تغضينا عن كل ذلك، نرىٰ أن القرآن يذكر العديد من معاجز الأنبياء السابقين، كنوح، ولوط، وهود، وصالح، وموسىٰ، وإبراهيم، وعيسىٰ، وغيرهم. يورد لهم معاجز متنوعة لايعتورها الشك والتردد.

فهل يعقل أن يعدد القرآن هذه المعاجز للأنبياء، ثم عندما يطلب من الرسول معجزة يقول إنه مجرد رسول فحسب؟ فلو كان الأمر كذلك، لكان من حقهم أن يسألوا: أو لم يكن الذين ذكرت معاجزهم أنبياءً مثلك؟ أو ليست تلك معاجزهم؟

إذن يتضح إن معنىٰ الآية هو إن ما تريدونه ليس من نوع تلك المعاجز، فلو كانت لحققتها لكم.

ثم علىٰ الرغم من أن القرآن هو نفسه معجزة، وسوف نبحث في ذلك قريباً، وهو منصوص عليه في القرآن، أفلم تكن للرسول معجزة أخرىٰ؟

إن القرآن نفسه يشير إلىٰ عدد من معجزات نبي الإسلام بصورة صريحة، منها:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

---

١ ـ سورة الأسراء، الآية: ١.

هذا قول صريح عن رحلة جسمانية غير عادية قام بها الرسول الكريم. أفليست هذه معجزة؟

ففي الوقت الذي كانت فيه واسطة النقل هي البعير، فلا طائرات (جت) ولا (جامبو)، يسافر الرسول من المسجد الحرام إلىٰ فلسطين في ليلة واحدة. فكيف يمكن تعليل هذا بغير المعجزة؟

عندما نزلت هذه الآية قال كفار قريش، ما دليلك علىٰ ما تقول؟ فرد عليهم الرسول بأن وصف لهم القافلة التي كانت في الطريق إلىٰ مكة من الشام، وأنهم قد أطرقوا في المكان الفلاني، وقالوا كيت وكيت. فادركت قريش إنه مر بالقافلة.

ثم قصة انشقاق القمر: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**﴾[1].

٦ـ إعجاز القرآن

نعرف إن نبينا خاتم الأنبياء، وإن دينه خاتم الأديان وخالد، بل إن الرسل السابقين كانوا مقدمات، ومراحل أولية، إذ كان الإنسان أيضاً يمر بمراحل ويخلف مراحل، حتىٰ يتهيأ للمرحلة النهائية، وعند مجيء خاتم الأنبياء، لن يكون نبي بعده، ويبقىٰ دينه خالداً إلىٰ الأبد.

فلننظر ما سرّ ختم النبوة، ولكيلا ندخل في تفاصيل هذا الموضوع، أصدرنا رسالة صغيرة تحت عنوان (ختم النبوة) إلا أننا نشير هنا إلىٰ نقطة واحدة بهذا الخصوص.

---

١ ـ سورة القمر، الآيتان: ١ ـ ٢.

إن الدين الخاتم للأديان يختلف عن الأديان الأخرىٰ في كثير من سماته. ومنها خصوصية معجزة الدين الخاتم للأديان، أقصد معجزته الأصيلة.

معاجز الأنبياء السابقين كانت من المعاجز الطبيعية، مثل إحياء الموتىٰ، تحول العصا إلىٰ حية، وانفلاق البحر، وأمثالها...

هذه كلها حوادث موقتة، أي إنها تحدث في لحظة معينة ومكان معين، ولا تبقىٰ طويلاً.

فإذا تم إحياء ميت، فإن ذلك يتم في لحظة واحدة، وقد يبقىٰ حياً بضعة أيام، ولكنه يموت في النهاية وينتهي كل شيء.

وإذا انقلبت العصا حية، فهي تنقلب في بعض ساعة، ثم تعود إلىٰ ما كانت عليه.

إن معاجز الأنبياء السابقين من هذا القبيل، بل إن بعض معاجز النبي أيضاً من هذا القبيل، مثل الأسراء، وانشقاق القمر، فهي تحدث في ليلة وتنتهي.

ولكن بالنسبة لدين خالد يريد أن يبقىٰ قروناً طويلة بين الناس لن تكفيه معاجز موقتة قصيرة العمر. إن ديناً هذا شأنه ينبغي أن تكون له معجزة خالدة أيضاً.

لذلك فإن معجزة خاتم الأنبياء الأصيلة جاءت علىٰ هيئة كتاب. كان للأنبياء الآخرين كتب ومعاجز، إلا أن كتبهم لم تكن معاجز، ومعاجزهم لم تكن كتباً.

كان التوراة كتاب موسىٰ، ولكنه كان يقول إن كتابه ليس معجزة، وإن معجزته غير التوراة.

ولكن معجزة رسول الإسلام كتابه علىٰ التخصيص، ولا يعني هذا أنه لم تكن له معاجز أخرىٰ، بل يعني أن كتابه أيضاً معجزة، وهذا من مستلزمات خلود خاتم الأديان.

ثمة نقطة أخرىٰ هي الدين الخاتم للأديان، ويعد أحد أسرار الختم، فهو بالنسبة إلىٰ المراحل السابقة يعد بمثابة مرحلة التخصص النهائي لمراحل إبتدائية، أي إنها المرحلة التي يكون للإنسان فيها وجهة نظر.

فالطالب في مرحلتي الأبتدائية والثانوية يستمع لكل ما يقال له ويتعلم، ولكنه عندما يبلغ مرحلة الجامعة، ويبدأ باختيار مراحل التخصص، أي مرحلة الليسانس ومرحلة الدكتوراة، عند ذلك يكون في مرحلة تكوين وجهة نظره، والأجتهاد في فنه.

فمرحلة ختم الأديان ـ من حيث النظرة العامة للبشر، لا من حيث النظرة الخاصة للفرد ـ هي مرحلة تكوين وجهة النظر.

وفي هذه المرحلة يكون للبشر شأن في المسائل الدينية والأجتهاد. هل كان هناك مجتهدون في الأدوار السابقة؟ كلا، فكل ما يوجد في القرآن من تعابير عن الفقه والتفقه لم يكن له وجود في السابق بأي شكل من الأشكال.

إن ما يقوم به المجتهد اليوم بقوة العلم والإستدلال والأجتهاد، كان من عمل الأنبياء في السابق، ولكن لا بقوة الأجتهاد، بل بقوة الوحي والنبوة.

في الحقيقة، لم تكن في تلك الأديان أرضية للأجتهاد، لأن الدين هو الذي عليه أن يهيء أرضية الأجتهاد، أي إن الدين يجب أن يبين الأصول والضوابط الكلية، لكي يتمكن عدد من المتخصصين من الأستناد إلىٰ تلك الأصول والضوابط الكلية، ويُعملون أفكارهم فيها لأكتشاف المسائل الجزئية.

ولما كانت الأديان السابقة بمثابة دروس أولية، لم تكن تستطيع تبيان الأصول والكليات وشرحها لأن البشر لم يكن قد تهيأ بعد لتقبلها.

ثمة مقولة ترىٰ إن هناك أنبياء مرسلين وغير مرسلين، الأنبياء المرسلون

أولوا الشرائع والقوانين، مثل إبراهيم وموسىٰ، وعيسىٰ، والأنبياء غير المرسلين هم التابعون الذين كانوا يبلغون شرائع أصحاب الشرائع، إذ إنهم لم يكونوا أنفسهم من أصحاب الشرائع.

إن ما يقوم به المجتهدون اليوم هو ما كان يقوم به الأنبياء غير المرسلين. طبيعي إن عمل المجتهد لاينحصر بهذا فحسب، فهو بالأضافة إلىٰ كونه مجتهداً، فإنه حاكم شرعي، وقائد للأمة، وآمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر بين الناس، والمصلح بينهم، لأنه المسؤول عن إصلاح المفاسد.

وهذا ما كان يضطلع به الأنبياء السابقون. أما في هذا الدين الخاتم للأديان، فلن يبعث رسول جديد ليضطلع بهذا الأمر، وإنما هو قد ألقىٰ علىٰ عاتق المجتهدين.

ولهذا قال الرسول الكريم: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، والمقصود طبعاً أولئك الأنبياء الذين كان عملهم يقتصر علىٰ التبليغ والتفهيم والتعليم والترويج لشريعة موسىٰ.

لذلك نحن نقول إن الأدوار السابقة كانت أدوار الوحي، أي إنه كان علىٰ الأنبياء أن يقوموا أيضاً بالتبليغ والترويج، ولكن في مرحلة الدين الخاتم للأديان، يقوم العلماء، وليس الأنبياء، بالتبليغ والترويج واستنباط الكليات من الجزئيات.

فالعلماء، إذن، من هذا المنظور، وفي هذه الحدود لا أكثر، هم خلفاء الأنبياء، لا كل الأنبياء، بل خلفاء الأنبياء المرسلين.

وجوه إعجاز القرآن

يكمن إعجاز القرآن، عموماً في جانبي القرآن اللفظي والمعنوي، أي الجانب

الجمالي والفني، والجانب العلمي والفكري.

وبما إن مقولة الفن والجمال تختلف عن مقولة العلم والفكر، فالجمال يرتبط بالفن، والعلم بالأكتشاف، فالعلم هو ما يكتشف للإنسان حقيقة من الحقائق، والفن هو ما يخلق الجميل البديع.

لاشك إن للفن والجمال موضوعاتهما ومقولاتهما، وواحدة من تلك الموضوعات هو الكلام، والحقيقة إن الإنسان لايسحره موضوع من مواضيع الفن بأشد مما يسحره الكلام الجميل.

لنا أن نقسم الجمال إلىٰ قسمين: الجمال الحسي، والجمال الذهني. والأول ينقسم أيضاً إلىٰ سمعي وبصري.

فجمال الورد والحدائق يدخل ضمن الجمال البصري، وجمال الصوت في المغني من الجمال السمعي.

فهل جمال الكلام من هذا النوع الأخير؟ كلا، إذ أن جمال الكلام ليس من الجمال الحسي، أصلاً، بل هو من الجمال الذهني القادم عن طريق الحس.

ما أشد تأثير قصيدة رائعة أو قطعة نثر بديعة! خذوا مثلاً نثر سعدي وشعره، وهو يمازج بينهما في كثير من الأحيان، فتراهما وقد احتضن كل منهما الآخر في تآلف جميل ووصف بديع بحيث إن «گلستان» سعدي ما يزال يحتفظ برونقه وبهائه، علىٰ الرغم من مضي سبعة قرون علىٰ موت مؤلفه.

فكيف حصل هذا؟ إنه الجمال، جمال الفصاحة والبلاغة.

هنالك شاعر آخر اسمه (القاآني) من معاصري سعدي نفسه، ومن شيراز نفسها، أراد أن ينافس سعدي في شعره، بل كتب ديواناً مثل «گلستان» سعدي، ولكنه لم يبلغ شأنه.

يقال إنه في إحدى الليالي الشتائية كان نفر من الخلان قد اجتمعوا في دار أحدهم بشيراز متحلقين حول النار يستدفئون وينشدون الشعر، فقرأ أحدهم قصيدة للشاعر سعدي، حتىٰ وصل إلىٰ هذا البيت:

«أيتها السماء اغلقي لحظة نافذة الصبح

بوجه الشمس، فما اطيب الليلة مع قمري»[١]

وكان «القاآني» الشاعر حاضراً، فانتشىٰ وطرب وقال: هذا الرجل لم يبق موضعاً لشاعر! وقذف بديوانه شعره في النار فاحترق، وقال: إذا كان هذا هو الشعر، فليس لنا نحن أي موضع فيه.

وعليه، قد يكون بعض الشعر علىٰ درجة من العذوبة والجمال، بحيث إن شاعراً مثل «القاآني» وهو نفسه من أساتذة الكلام، يقع تحت تأثير شعر يحمله علىٰ الأعتراف بعلو منزلة ذلك الشعر، وبتدني منزلة شعره هو. هذا هو تأثير الكلام.

ما الذي أبقىٰ علىٰ شعر حافظ، وشعر مولوي؟ إنه جمال شعرهما، إذ أن جمال الكلام، أو كما يقول العلماء: الفصاحة، والبلاغة، والوضوح، والأيصال، والأبداع، والجاذبية، والسحر أمور لا يمكن إنكارها.

يتفق علماء اللغة، والمطلعون علىٰ لغة القرآن، وحتىٰ الأجانب الذين درسوا اللغة العربية علىٰ أن القرآن لا مثيل له من حيث الفصاحة والبلاغة والجمال.

فالقرآن يمتاز بصياغة خاصة، فلا هو بالشعر، ولا هو بالنثر، مع إن كلام العرب إما أن يكون شعراً أو نثراً. وكون القرآن ليس شعراً، واضح لأنه يخلو من

---

١ ـ اما عن نوع الرباط بين العلة والمعلول، ولماذا لا يمكن الحصول من علة واحدة علىٰ أكثر من معلول واحد، ولا أن يكون الشيء معلولاً لعلتين، فقد ورد تفصيل ذلك في ألحاق المجلد الثالث من كتاب (أصول الفلسفة).

الوزن والقافية المعروفين في الشعر القديم.

وبالإضافة إلىٰ خلو القرآن من الوزن والقافية، فإنه خلو أيضاً من أحد أركان الشعر الأخرىٰ، وهو الخيال، إذ إنه يشرح الأمور بغير أن يستعمل تعابير خيالية. ونقصد بالخيال تلك التشبيهات المبالغ فيها التي ترد في الشعر كثيراً، حتىٰ قيل: أحسن الشعر أكذبه، فكلما ازداد فيه الكذب ازداد جمالاً، كما يقول الشاعر فردوسي:

«من حوافر الخيل في ذلك الوادي الفسيح

غدت الأرض ستة والسماء ثمانية»(١)

كل من يسمع هذا يقول: أحسن وأجاد؛ ولكن ما أكذبه! أبالأمكان قول كذبة أكبر؟ أيمكن بمجرد أن يركض عدد من الخيل في مكان ضيق، ويعلو الغبار، تزداد طبقات السماء السبع فتصبح ثمانية، أو تقل طبقات الأرض السبع إلىٰ ست؟

إنها لكذبة كبيرة، ولكن الشعر لذلك جميل.

وثمة شاعر آخر يقول:

«يارب، ما عين الحب هذه التي أنا

منها شربت قطرة ماء فبكيت بحراً(٢)

وقام طوفان نوح حياً من دمع عيني

مع أني في حزني عليك بكيت علىٰ حذر»(٣)

عذب وجميل هذا، ولكنه عذب بهذا الكذب، وطبيعي إن هذا ليس كذباً منهياً

---

١ ـ چونكه با كودك سر و كارت فتادپس زبان كودكى بايد گشاد

٢ ـ يارب چه چشمه ايست محبت كه من از آن يك قطره آب خوردم و دريا گريستم

٣ ـ طوفان نوح زنده شد از آب چشم من با آنكه در غمت بمدارا گريستم

عنه شرعاً، ولكنه فن ولون من ألوان الوشي في الكلام؛ ولكن القرآن لم يقرب هذا اللون من القول.

ثم إن هذا الضرب من المحسنات الكلامية يلائم أنواعاً خاصة من المواضيع: في الحب، في الحماسة، في المدح، في الهجاء، أما في المواضيع المعنوية فليس بإمكان أي شاعر أن يظهر فنه، وإذا حاول بعض منهم ذلك، فسوف يضطر إلىٰ إلباس المعنىٰ لبوس المادة فيجسمه، ويتحدث عنه.

فمثلا، إذا أرادوا الكلام علىٰ المعرفة، جسموها في زي «الخمر» أو إذا أرادوا القول في الله سبحانه، عبروا عنه بخصلة الشعر، أو في الغناء في الله والتقرب إليه، يقولون:

الخرقة رهينة في مكان، والدفتر في مكان آخر، وأمثالها.

ولكن القرآن يتناول المعنويات بكل يسر وسهولة كالماء الرائق، ويشرحها.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ـ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ـ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ـ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ـ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ....﴾(١).

لاريب إن كل مسلم يكرر هذه الآيات عشر مرات، في الأقل، يومياً وطول حياته، ولكنه لن يضجر منها ولا يملّها لما فيها من العذوبة والرقة.

فالقرآن، إذن ليس شعراً، لأنه يخلو من الوزن والقافية، بل بينت فيها الأمور بصراحة، وبغير توسل بالخيال.

ولا هو نثر، لأن النثر لايمكن تلحينه، وما أعجب ألحان القرآن!

أفهل رأيتم كتاباً، دينياً أو غير ديني، يقرؤه الناس بألحان مختلفة؟

---

١ ـ سورة الحمد.

إن الكتاب الوحيد الذي يمكن أن نقرأه باللحن هو القرآن، وهذا ما يعتبر الآن فرعاً من فروع العلم. فالآيات المختلفة تصلح لألحان مختلفة، أي إن هناك ألحاناً مختلفة لمعاني تناسبها. فإذا كانت الآية للتخويف مثلاً، اتخذ لها لحن يرعب القلب، وإذا كانت الآية تشويقاً وترغيباً، وضع لها لحن يمنح الهدوء والأطمئنان.

إذهبوا إلىٰ دنيا المسيحية، بعظمتها واتساعها، وإلىٰ اليهود الذين يحتلون فلسطين، فهي وإن كانت رقعة صغيرة، إلا إن اليهود متسلطون علىٰ معظم إذاعات العالم ووكالات أنبائه، هل تسمعون الأنجيل والتوراة يرتلان ترتيلاً من وراء المذياع؟ لئن قرأوهما باللحن لكانا مدعاة للسخرية، ولا يطيقهما أحد. أو يمكن قراءة نثر سعدي باللحن؟

هذا من مميزات القرآن، لم تسبق لغيره باللغة العربية ولا من بعده.

من الأمور اللافتة للنظر هو إن جميع الذين حفظوا القرآن، وعشقوه، وهم أنفسهم كانوا من فصحاء زمانهم، لم يستطيعوا تقليده حتىٰ بسطرين اثنين.

لقد تقبلت الدنيا علياًعليه السلام فصيحاً بليغاً. وهذا ما تطرقت إليه في كتابي (جولة في نهج البلاغة) وقلت: كيف إن خمسين وثلاثمائة وألفاً من السنين تمضي علىٰ عليعليه السلام وخطبه - مع إن أكبر الأدباء والفصحاء والخطباء كانوا في عصره وجاءوا بعده وذهبوا - وهي ما تزال باقية علىٰ عظمتها وروعتها.

إن الآية الأولىٰ التي نزلت من القرآن «إقرأ باسم ربك الذي خلق» سمعها عليعليه السلام وهو في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، قبل أن ترتسم في ذهنه آية أفكار أخرىٰ، فكان استعداده للتلقي موفوراً، وظل يستأنس بالقرآن طيلة حياته. لو كان أحد قادراً علىٰ الكلام مثل القرآن لكان علي بن أبي طالبعليه السلام أجدر الناس بذلك، ولكننا مع ذلك، عندما نضع نهج البلاغة إلىٰ جانب القرآن نجدهما مختلفين.

إني ما زلت أتذكر أواخر أيام دراستي يوم كنت قد تعرفت علىٰ القرآن وعلىٰ نهج البلاغة. ففي لحظة خاطفة تكشف لي الأختلاف الشاسع بينهما.

كنت قد قرأت نهج البلاغة. كانت إحدىٰ الخطب تضم الكثير من التشبيه والإستعارة، وهي من أبلغ خطب البشر وأفصحها. وهي خطبة كلها وعظ وتذكير بالموت وباليوم الآخر. إنها خطبة مثيرة حقاً، يقول:

«دار بِالبَلاء مَحْفُوفةٌ، وَبِالغَدرِ مَعروفةٌ، لاتَدومُ أحوالُها، ولا يَسلَمُ نـزّالهـا، أحوالٌ مختلفةٌ، وتارات متصرفة، العِيشُ فيها مذمومٌ، والأمانُ منها معدومٌ، إنما أهلها فيها أغراض مستهدفة تَرميهِم بِسِهامِها..»[1].

وفي آية واحدة من القرآن نقرأ:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللّهِ مَوْلاهُمُ الحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[2].

علىٰ الرغم من إن كلام علي عليه السلام يبلغ القمة من البلاغة، ولكنك إذ ترىٰ هذه الآية وسط كلامه، تحس وكأن ماءً قد أريق علىٰ ما حولها من كلام، فتبدو هي كالنجمة في ظلام الليل.

إن الأسلوب مختلف أصلاً، وإن ما يحس به الإنسان يستعصي علىٰ البيان، فالآية تجسم يوم القيامة إلىٰ حد الجلاء الكامل، وكيف إن العبد يعود إلىٰ سيده الحق، من بين هذه الكثرة الكاثرة من الأسياد الباطلين.

كان عصر القرآن عصر الفصاحة والبلاغة، أي إن كل فنون الناس كانت

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٧.

٢ ـ سورة يونس، الآية: ٣٠.

منحصرة في الفصاحة والبلاغة. وقصة سوق عكاظ معروفة، حيث كانت العرب تقصدها في الأشهر الحرم، يعرضون فنونهم من شعر وغيره. كان الشعراء يقدمون من مختلف القبائل، ينشدون خير ما عندهم من شعر، وما كان ينتخب كأحسن العشر كان يعلق علىٰ ظهر الكعبة. فالمعلقات السبع المشهورة كانت تعتبر من أروع الشعر عند العرب، وظلت طويلاً معلقة، لأن أحداً لم يأت بخير منها. ثم عندما نزل القرآن، جاءوا هم بأنفسهم ورفعوها عن جدار الكعبة.

كان لبيد بن زياد من مشاهير شعراء العرب، ولكنه كف عن نظم الشعر بالمرة بعد أن نزل القرآن وأسلم، وعكف علىٰ قراءة القرآن.

قيل له لماذا لِمْ تنظم الشعر بعد إسلامك؟

فقال: لا أستطيع قول الشعر. إذا كان هذا هو القول، فإن كل ما قلناه كان كلاماً فارغاً. إن لذتي بقراءة القرآن لا تفوقها لذة.

في هذه الآية التي نحن بصددها، يدعو القرآن الناس إلىٰ أن يأتوا بسورة مثل سِوَرِه، وفي آية أخرىٰ يقول «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ» ويشمل الآية الواحدة أيضاً. أي إنه يقول: إن كنتم قادرين فهاتوا بآية واحدة من مثله.

ولكن علىٰ الرغم من أعداء القرآن الكثر، سواء الذين كانوا في عصره، أم الذين جاءوا بعده، فإن أحداً منهم لم يستطع قبول هذا التحدي. بل حتىٰ الذين جاءوا في أيامنا هذه ونسجوا أقوالاً يعارضون بها القرآن، فإنهم عندما عرضوها علىٰ القرآن استبان خطل مايدعون.

إذن فاحدىٰ وجوه إعجاز القرآن هو وجهه الفني، وهو ما يصطلح عليه بالفصاحة والبلاغة. إلا إن هذا التعبير يقصر عن إيصال الحقيقة، لأن الفصاحة تعني الوضوح، والبلاغة تعني الأبلاغ، إلا أنها لاتفي بأيصال المقصود، فيجب أن تضاف

إليهما الجاذبية التي تحكي سحر القرآن، لأن القرآن كان ينفذ إلىٰ القلوب علىٰ نحو خاص عجيب، بحيث كان تأثيره سريع الظهور، فيجذبهم نحو الإيمان.

لقد كان الكفار ينعتون النبي بالساحر، وهذا بحد ذاته اعتراف ضمني بعجزهم عن الأتيان بآية مثل آيات القرآن، وهو دليل علىٰ سحره. فقد كانوا يرون شخصاً لا يحمل أية عقيدة، ما ان يستمع إلىٰ القرآن مرة أو مرتين، حتىٰ يقع صريع حبه والإيمان به. ولهذا كانوا يقولون إنه السحر.

عندما كانت الأعراب تدخل مكة من البادية، كانت تطوف بـالكعبة حسب عاداتها، فكان المشركون يوصونهم أن يضعوا قطناً في آذانهم، لكيلا يسـحرهم الرجل الذي يخرج السحر في كلامه، وكانوا يهيئون لهم القطن، لكي يصموا آذانهم عن سماع القرآن.

واتفق أن جاء أحد زعماء المدينة يزور مكة، فعرض له أحد المكيين يحذره من سحر محمد. يقول هذا الرجل: لقد حشوت أذني بالقطن حتىٰ لم أكن لأسمع الطبول لو ضربت بقربي. ثم دخلت المسجد الحرام وأخذت أطوف. فرأيت رجلاً يتعبد، لفتت ملامحه نظري، ولاحظت شفتيه تتحركات، ولكني لم أكن أسمع مـا يقول.

وفجأة رحت أتساءل: ما هذا الذي قاله الرجل عن السحر؟ ولماذا أصدقهم؟ خير لي أن أنتزع القطن لأسمع ما يقول هذا المتعبد، فإذا كان معقولاً في كـلامه قبلته، وإلا رفضته. فأخرجت القطن من اذني، ودنوت منه ورحت أصغي لما يقول. كان يقرأ آيات من القرآن بصوت خفيض، وكنت أصغي وأحس قلبي يلين حتىٰ عشقت الرجل.

ويدخل الرجل الإسلام ويصبح واحداً من كبار المؤمنين في الإسلام. ويهيء

الأمور لهجرة الرسول إلىٰ المدينة. بل إن بذر بذرة الإسلام في المدينة وهجرة الرسول إليها يبدأن من هذه الجلسة[١].

هذا التأثير هو السحر، أو هو فن القرآن الجميل.

يتضح من تاريخ الأدب إنه كلما تقادم الزمن ازداد نفوذ القرآن المعنوي في الأدب الأسلامي. أقصد إن الأدب العربي في صدر الإسلام، أي في القرنين الأول والثاني، كان موجوداً، ولكن لم يكن للقرآن فيه ذلك النفوذ المطلوب، ولكننا نجد هذا التاريخ يقع تحت سلطة القرآن بمضىٰ الزمن.

من ذلك مثلاً تأثير القرآن في الشعر الفارسي الأسلامي. فالشاعر «رودكي»[٢] كان من شعراء القرن الثالث. وقد نظم كل شعره باللغة الفارسية. أي إننا لا نلحظ تأثر شعره بالقرآن كثيراً. ولكننا إذ نتقدم شيئاً فشيئاً إلىٰ عصر فردوسي[٣] وبعده نلاحظ تأثير القرآن بصورة أوضح.

وفي القرن السادس والسابع، أي في عصر مولوي[٤]، نجد إن هذا لا حديث له إلا القرآن، وكل ما يقوله تفسير للقرآن، ولكن من منظور صوفي.

---

١ ـ هذه قصة أسعد بن زرارة وذكوان الخزرجي اللذين كانا قد قدما المدينة مبعوثين عن قبيلتهما ليعقدا حلفاً لمحاربة الأوس، ولكنهما رجعا بقلبين مليئين بالإيمان بالله وأعدا العدة لهجرة الرسول.

٢ ـ رودكى: هو «ابو عبدالله جعفر بن محمد الرودكى» شاعر ايراني (القرن الثالث الهجرى). (المحقق)

٣ ـ «ابو القاسم حسن بن على الطوسى الفردوسى» شاعر ايرانى شهير عاش في القرن الرابع الهجرى. (المحقق)

٤ ـ هو «مولانا جلال الدين محمد بن بهاء الدين البلخي» عارف و شاعر ايراني (٦٠٤ إلى ٦٧٢ هـ). (المحقق)

لقد كان ينتظر أن يكون هذا معكوساً، أي إن تأثير أي أثر أدبي في عصره يجب أن يكون أكبر من تأثيره في آداب القرون التالية.

كان هذا بحثاً قصيراً في فصاحة القرآن وبلاغته، أما القسم الثاني من إعجاز القرآن، فيتعلق بجانبه المعنوي، أي بمحتواه.

إذا نظرنا إلىٰ المباحث الإلهية في القرآن، وإلىٰ ما يقوله القرآن بشأن يوم القيامة والأنبياء السابقين، وإلىٰ رأي القرآن في فلسفة التاريخ وفلسفة الأخلاق، لتجلت لنا عظمته.

تلك هي قضايا من صلب رسالة القرآن، لأن القرآن ليس كتاباً طبياً، ولا هو كتاب هندسة للبناء والطرق، إنما هو كتاب رسالته أن يهدي الناس.

ان للقرآن وجوهاً أخرىٰ من الأعجاز، مثل الأخبار بالغيب، أو التنبؤ بالمستقبل، وانسجامه وعدم وجود أي اختلاف فيه. وكل واحدة من هذه جديرة بالأسهاب والتفصيل، ولعل العمر يمهلنا لكي نبحث فيها في جلسات تاليات[1].

---

١ ـ أرىٰ إن هذا لم يتحقق، مع الأسف الشديد، فقد تصاعت الثورة الإسلاميّة في ايران، وأمضىٰ الشهيد كل وقته في إسناد الثورة وإدامتها، حتىٰ بلغ أخيراً مراده بالشهادة في سبيل الله. ونعم المراد.

ختم النبوّة

ختم النبوّة

ترجمة:

عبدالكريم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان ظهور الدين الإسلامي متزامناً مع اعلان خلوده، ومع إغلاق سجل النبوة، وكان المسلمون دوماً يعتبرون ختم النبوة أمراً واقعاً، فلم يطرحوا على انفسهم في أي من الأحوال سؤالاً حول هل أنه سيأتي بعد محمدﷺ نبي آخر أم لا؟ وحيث أن القرآن الكريم أعلن بصراحة انتهاء النبوة وكرر النبي هذا الكلام مرات كثيرة، فقد بات التفكير بظهور نبي آخر ـ لدى المسلمين ـ مخالفاً للايمان بالإسلام، كما هو الحال في إنكار وحدانية الله وإنكار يوم القيامة.

وكانت محاولات علماء الإسلام ومساعيهم في هذا المجال منحصرة في أنهم كانوا يريدون التعمق في هذه الفكرة واكتشاف سر ختم النبوة.

إننا لن ندخل في بحث ماهية الوحي والنبوة، فمن المسلم به أن الوحي هو تلقي التوجيه وتسلّم عن طريق اتصال الضمير بالغيب والملكوت، والنبي وسيلة للاتصال بين سائر الناس والعالم الآخر، وهو في الحقيقة جسر بين عالم الإنسانية وعالم الغيب.

والنبوة من الناحية الشخصية والفردية مظهر لاتساع أفق الشخصية الروحية لفرد من الناس وارتقائها، ومن الناحية العامة رسالة إلهية إلى الناس لقيادتهم تنقل إليهم بواسطة شخص منهم.

وهنا تواجهنا فكرة ختم النبوة بالتساؤلات التالية:

هل إن ختم النبوة وعدم ظهور نبي آخر بعد خاتم النبيين يعني تضاؤل الاستعدادات المعنوية للبشرية وهبوطها من الناحية الروحية؟ وهل أن الدنيا قد عجزت عن إنجاب أبناء ذوي صفات ملكوتية وقادرين على الاتصال بالغيب والملكوت؟ وأن اعلان ختم النبوة يعني أعلان عقم الطبيعة تجاه ابناء كهؤلاء؟

ولما كانت النبوة تلبية لحاجة البشرية إلى الرسالة الإلهية حيث جددت هذه الرسالة في الماضي وفقاً لمقتضيات المراحل والأزمنة، فكان تعاقب ظهور الأنبياء والتجديد المستمر للشرائع والنسخ العديدة للكتب السماوية، كل ذلك كان بسبب تغير حاجات البشر مرحلة بعد أخرىٰ فكانوا في كل مرحلة بحاجة إلى رسالة جديدة ورسول جديد، مع هذا كله كيف يمكن الافتراض أنه بإعلان ختم النبوة تقطع هذه العلاقة تماماً ويدمر الجسر الذي يربط عالم البشرية بعالم الغيب ولن تصل بعد ذلك أية رسالة إلى البشر ويتركون سدى؟

إضافة إلى كل ما تقدم، فقط ظهر ـ كما نعرف ـ في الفترة التي تفصل بين الانبياء أصحاب الشرائع أمثال نوح وابراهيم وموسى وعيسى، مجموعة من الأنبياء الآخرين كانوا يبلغون ويرجعون للشريعة السابقة عليهم حيث جاء آلاف الأنبياء بعد نوح مبلغين ومروجين لشريعته وكذلك بعد إبراهيم وغيره، فلو قبلنا ـ فرضاً ـ انقطاع النبوة التشريعية بعد الإسلام؟ لماذا ظهر كل هؤلاء الأنبياء بعد كل شريعة مبلغين ومروجين لها ومحافظين عليها، ولم يظهر بعد الإسلام ولو نبي واحد من هذا القبيل؟

تلك هي التساؤلات التي تنشأ عن فكرة ختم النبوة، والإسلام، الذي عرض هذه الفكرة قد أعطى جواب هذه التساؤلات، حيث طرح فكرة ختم النبوة

وجسدها بشكل لم يقض فقط على أي إبهام وتردد بشأنها بل أخرجها على شكل فلسفة عظيمة.

فليست فكرة ختم النبوة ـ من وجهة نظر الإسلام ـ دليلاً على انحطاط البشرية وتضاؤل استعداداتها وعقم الدنيا ولا هي تدل على استغناء البشر عن الرسالة الإلهية، ولا هي غير متوافقة مع تلبية حاجات البشر المتغيرة في مختلف المراحل والأزمنة، بل أن لها سبباً آخر وفلسفة أخرىٰ.

ويجب قبل كل شيء أن نتعرف على حقيقة ختم النبوة كما رسمها الإسلام وندرسها ثم نحصل على أجوبة تساؤلاتنا.

إننا نقرأ في سورة الأحزاب، الآية (٤٠) ما يلي:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[1].

وهذه الآية وصفت محمداً صلى الله عليه وآله رسمياً بصفته خاتم النبيين.

وكلمة (خاتم) في تركيبها من حيث اللغة العربية تعني الشيء الذي ينهون به شيئاً ما، فالختم الذي تختم به الرسالة بعد غلقها كان يسمى (خاتماً) حسب هذه القاعدة، وحيث أنهم كانوا يكتبون على ظهر الخاتم أسمائهم أو شعاراتهم وبعد ذلك يختمون بها الرسائل لذا سموا الخاتم بهذا الإسم.

---

١ ـ كان (التبنّي) من عادات العرب وبعض الشعوب الاخرىٰ وقد نسخ الإسلام هذه العادة التي كان الولد المتبنىٰ يعامل ـ بموجبها ـ في الإرث والعلاقات العائلية كالابن الحقيقي، وقد كان لرسول الله غلام اسمه «زيد بن حارثة» كانوا يعدونه ابناً لرسول الله بالتبني وكانوا يتوقّعون ـ كالعادة ـ أن يتصرف النبي الأكرم مع ولده المتبنىٰ كالولد الحقيقي كما كانوا يفعلون هم وهذه الآية تقول: لاتنادوا محمداً أبا أحد من رجالكم ـ زيد بن حارثة أو غيره ـ بل اعتبروه فقط رسول الله وخاتم النبيين.

وفي القرآن، وأينما استعمل مصدر (الختم) وبأي شكل كان، فإنه يعطي مفهوماً عن الإنتهاء أو الاغلاق فمثلاً نقرأ في الآية ٦٥ من سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾..

لهجة الآية ـ موضع بحثنا ـ توحي بأن انتهاء النبوة بمحمد كان لدىٰ المسلمين أمراً معروفاً قبل نزول هذه الآية فكما كان المسلمون يعتبرون محمداً رسول الله كانوا يعرفونه أيضاً خاتماً للنبيين، وهذه الآية تذكرهم فقط أن لا يعتبروه أباً لأحد بل ينادونه بصفته الحقيقية أي رسول الله وخاتم النبيين، فهي تشير فقط إلى جوهر فكرة ختم النبوة ونواتها المركزية ولا تضيف إليها شيئاً.

جاء في الآية (٩) من سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

في هذه الآية جاء الحديث حاسماً بشكل يقل نظيره، عن بقاء القرآن محفوظاً من التحريف والتغيير والفناء.

من أسباب تجديد الرسالة وظهور الأنبياء الجدد التبديلات والتحريفات التي كانت تحدث لتعليمات الأنبياء وكتبهم المقدسة ولهذا كانت تلك الكتب والتعليمات تفقد صلاحيتها في هداية الناس، فكان الأنبياء يحيون السنن المنسية ويصلحون التعليمات المحرفة لمن سبقهم.

وفضلاً عن الأنبياء الذين لم يكونوا أصحاب كتب وشرائع وقوانين، بل تابعين لأنبياء أصحاب كتب وشرائع (مثال ذلك جميع الأنبياء الذين جاءوا بعد ابراهيم وحتى زمان موسى وجميع الأنبياء من زمن موسى إلى زمن عيسى) فإن الأنبياء أصحاب القوانين والشرائع كانوا أيضاً يؤيدون أكثر مقررات الأنبياء السابقين لهم، ولم يكن تتابع ظهور الأنبياء نتيجة لتكامل الظروف الحياتية للبشر وحاجتهم إلى الرسالة الجديدد والموجه الجديد فحسب، بل كان غالباً ـ نتيجة

لفناء الكتب والتعليمات السماوية وتبديلها.

لقد كان البشر قبل بضعة آلاف من السنين عاجزين عن حفظ ميراثهم العلمي والديني، ولا يمكننا انتظار شيء غير هذا منهم، فعندما يبلغ البشر مرحلة من التكامل تمكنهم من الحفاظ على ميراثهم الديني سالماً فعند ذاك ينتفي السبب الرئيس لتجديد الرسالة وظهور النبي الجديد، فيتوفر الشرط اللازم (وليس الشرط الكافي) لبقاء الدين خالداً.

والآية ـ أعلاه ـ تشير إلى انتفاء أهم سبب لتجديد النبوة والرسالة منذ نزول القرآن، وهي في الحقيقة تعلن عن تحقق أحد أركان ختم النبوة.

إن القرآن كما نعلم جيداً هو الكتاب الوحيد من بين الكتب السماوية في العالم الذي بقي سالماً وصحيحاً بالتمام والكمال، وبالاضافة إلى ذلك فإن مقداراً عظيماً من سنة الرسول بقي بأيدينا ـ بشكل مؤكد لا يقبل الشك محفوظاً من آفات العصور والأيام، وسوف نوضح ـ طبعاً ـ فيما بعد أن الوسيلة الإلهية لبقاء كتاب المسلمين السماوي محفوظاً، هي نمو البشر وقابليتهم في هذه المرحلة مما يدل على نوع من البلوغ الإجتماعي لإنسان هذا العصر.

والحقيقة أن من أركان الخاتمية البلوغ الإجتماعي للبشر بدرجة تمكنهم من الحفاظ على ميراثهم العلمي والديني ويبادرون بأنفسهم إلى نشره وتبليغه وتعليمه وتفسيره، وسنبحث هذا الموضوع فيما بعد.

هناك إصرار عجيب ـ في القرآن كله ـ على ان الدين، منذ ابتدأ العالم وحتىٰ ينتهي، واحد لا أكثر وان جميع الأنبياء قد دعوا البشر إلى دين واحد، حيث جاء في الآية (١٣) من سورة الشورىٰ: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى**﴾.

والقرآن يسمى ـ في كل حين ـ هذا الدين الذي دعا الأنبياء من آدم وحتىٰ الخاتم ـ الناس إليه «الإسلام» وليس المقصود من ذلك انه كان يسمى في كل الأزمنة بهذا الإسم، وإنما المقصود ان الدين ذو ماهية وحقيقة، أفضل معرف لها كلمة «الإسلام».

يقول الله تعالى في الآية (٦٧) من سورة آل عمران حول إبراهيم: **﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً﴾**.

ويقول في الآية (١٣٢) من سورة البقرة حول يعقوب وابنائه: **﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾**.

وآيات القرآن كثيرة في هذا المجال، لا حاجة لذكرها جميعاً.

وبطبيعة الحال اختلف الأنبياء مع بعضهم في أجزاء من القوانين والشرائع، وحيث يعتبر القرآن الدين واحداً فإنه في الوقت نفسه يتقبل اختلاف الشرائع والقوانين في بعض المسائل حيث يقول في الآية (٤٨) من سورة المائدة: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾**.

ولكن من حيث أن المبادئ الفكرية والعلمية التي دعا الأنبياء إليها كانت واحدة وتدعو جميعها الناس إلى طريق واحد وهدف واحد، لذلك لم يكن لاختلاف الشرائع والقوانين جزئياً تأثير علىٰ جوهر الطريق وماهيته والذي سمي في منطق القرآن بـ«الإسلام».

وتفاوت تعليمات الأنبياء واختلافها فيما بينها من نوع الإختلاف بين المدارس الفلسفية أو السياسية أو الإجتماعية التي لاتحوي افكاراً متناقضة، فالأنبياء جميعاً يتبعون مدرسة واحدة ويعتمدون منهجاً واحداً.

وتفاوت تعليمات الأنبياء فيما بينها هو إما من نوع التفاوت بين دروس الصفوف العليا والدنيا، أو من نوع التفاوت في تنفيذ مبدأ واحد في ظروف وأوضاع مختلفة.

إننا نعلم ان التلميذ في الصفوف العليا لايواجه أبداً مسائل لم يواجهها من قبل، بل أن تصوره حول المسائل التي تعلمها سابقاً وجسدها بشكل معين في ذهنه الطفولي، ينقلب في بعض الأحيان، وتعليمات الأنبياء أيضاً بهذه الصورة.

التوحيد يمثل المبدأ والحجر الأساس لبناء كان الأنبياء يعملون لإقامته ولكن هذا التوحيد نفسه ذو درجات ومراتب، فما يجسده العاصي في ذهنه حول الإله الواحد ليس ما يتجلىٰ في قلب العارف، وحتىٰ العارفين لايستوون في درجاتهم.

«لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله»[1].

وبديهي أن الآيات الأولىٰ من سورة الحديد والأخيرة من الحشر وسورة (قل هو الله أحد) لم يكن يستوعبها الناس قبل بضعة آلاف من السنين بل حتىٰ قبل ألف سنة، ان افراداً معدودين من أهل التوحيد يقربون أنفسهم إلىٰ عمق هذه الآيات، وقد ورد في (الآثار) الإسلامية:

إنّ الله عزوجل علم أنه سيكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى «قل هو الله أحد» والآيات من سورة الحديد إلىٰ قوله: «وهو عليم بذات الصدور»[2].

---

١ ـ سفينة البحار، كلمة ذر.

٢ ـ أُصول الكافي: ج ١، ص ٩١.

الشكل التنفيذي لمبدأ عام يتفاوت في الظروف المختلفة، وقد كان كثير من اختلاف الأنبياء اختلافاً في شكل التنفيذ وليس في روح القانون، وهذا موضوع سوف نتحدث عنه فيما بعد.

القرآن الكريم لم يورد أبداً كلمة (الدين) بصيغة الجمع (أديان)، فالدين في القرآن مفرد دائماً لأن الذي كان له وجود ولا يزال كذلك هو الدين وليس الأديان.

بالإضافة إلى ذلك فإن القرآن يصرح أن الدين من مقتضيات الفطرة ونداء الطبيعة الروحية للبشر: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(١).

ترىٰ كم نوع من الفطرة والطبيعة يمكن للبشر أن يمتلكوه؟ إن موضوع وحدانية الدين منذ بداية العالم وحتىٰ نهايته وتبعيته لفطرة البشر وطبيعتهم التي هي أيضاً لا يمكنها أن تزيد عن واحدة تحمل في داخلها سراً كبيراً وفلسفة عظيمة، وتعطينا تصوراً خاصاً حول التكامل، إننا نعرف جميعاً حكمة التكامل، فالحديث في كل حين عن التكامل، تكامل العالم، تكامل الأحياء، وتكامل الإنسان والجميع.

ما هو هذا (التكامل) وكيف يحدث؟ هل هو مجموعة من الأسباب التصادفية التي تؤدي إلى التكامل؟ أم أن في طبيعة ذلك الشيء الذي يتكامل ميلاً وانجذاباً نحو التكامل، حيث اختار طريقه وعينه سلفاً؟ هل أن الحركة التكاملية تسير على خط معين ومشخص نحو هدف معروف؟ أم أن هذه الحركة تتأثر بالأسباب

---

١ ـ الروم: ٣٠.

التصادفية فتسير كل مرة على خط معين وتغير اتجاهها باستمرار ولا تملك أي هدف ومقصد؟

ان مسيرة تكامل الكون والإنسان والمجتمع ـ في نظر القرآن مسيرة موجهة وهادفة وتسير على خط يسمىٰ الصراط المستقيم وهي معلومة المبدأ والمسير والمنتهىٰ.

فالإنسان والمجتمع متغيران ومتكاملان ولكن الطريق وخط المسير واحد ومستقيم ومعروف.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[1].

خط واحد بدءاً وانتهاءاً وخلق الله عليه مسافرون

ولايتخذ تكامل الإنسان شكلاً يتأثر في كل زمان بمجموعة من الأسباب ـ صناعية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية ـ فيتحرك في طريق معين ويغير مسيره واتجاهه دائماً.

ان اصرار القرآن الشديد على أن الدين واحد واعترافه بطريق واحد فقط، ونظرته إلى اختلاف الشرائع والقوانين علىٰ أنه متعلق بالخطوط الفرعية، تستند جميعاً إلى هذا المبدأ الفلسفي.

والبشر في مسيرهم التكاملي كالقافلة التي تتحرك في طريق معين نحو مقصد معلوم ولكنها لا تعرف الطريق فتصادف في كل فترة شخصاً يعرف الطريق، وبعد ان تستدل منه عليه تطوىٰ من الطريق عشرات الكيلومترات حتىٰ تصل

---

١ ـ الأنعام: ١٥٣.

مكاناً تحتاج فيه مجدداً إلى دليل جديد، وبعد أن تأخذ توجيهات منه يضاء أمامها أُفق جديد فتطوىٰ عشرات أُخرىٰ من الكيلومترات بما أخذته من توجيهات، وهكذا حتىٰ تخلق لديها تدريجياً قابلية أكبر في التعلم فتصل إلى شخص تأخذ منه «الخارطة الشاملة» فتستغني دوماً بتلك الخارطة عن دليل جديد.

وحيث وضح القرآن أن طريق البشر مستقيم ومعلوم، وأن جميع الأنبياء يهدون إلى هدف واحد وطريق واحد بجميع اختلافاتهم في التوجيه واعطاء المعالم حسب وضعهم وموقعهم الزماني والمكاني فقد عبد طريق ختم النبوة وأوضح ركناً آخر من أركانه، لأن ختم النبوة معقول وقابل للتصور حين يكون خط سير هذا الإنسان المتغير المتكامل مستقيماً وقابلاً للتشخيص، أما إذا كان الإنسان نفسه مضطرباً يعيش كل لحظة في نقطة معينة، بحيث يكون دائماً قابلاً للتغيير والتبديل ولا تعرف نهايته ولا مقصده ومسيره، ويسير في كل فترة على طريق مختلف، فمن البديهي أن لا يكون ختم النبوة ـ باعتباره تسلم خطة وخارطة شاملتين ودائمتين ـ معقولاً وقابلاً للتصور.

جاء في الآية (١٤٣) من سورة البقرة: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾.

أمة الإسلام الحقيقة ـ في نظر القرآن ـ أمة وسط ومعتدلة، وبديهي أن الأمة الوسط والمعتدلة المتوازنة قد ربتها التعاليم الوسط والمعتدلة، فهذه الآية تبين ميزة الأمة الخاتمة والتعاليم الخاتمة وخصوصيتها في كلمة واحدة وهي: الوسطية والتعادل.

وهنا يبرز سؤال يقول: ألم يكن سائر الأنبياء أصحاب تعليمات متوازنة؟ ولجواب هذا السؤال لابد من أن نذكر ما يلي:

ليس الإنسان المخلوق الوحيد على وجه الأرض، ولا هو المخلوق الوحيد الذي يعايش حياة اجتماعية، بل هناك مخلوقات أخرىٰ تعايش حياة اجتماعية وتمتلك مجموعة من المقررات والأنظمة والتشكيلات الدقيقة، ولم تمر حياة هذه المخلوقات بأدوار من قبيل عصر الغاب، العصر الحجري، العصر الحديدي، عصر الذرة، وغير ذلك، فمنذ أن وجد نوعها كانت تمتلك هذه التشكيلات والأنظمة التي تمتلكها الآن، فالإنسان وحده الذي بدأت حياته من الصفر وتسير إلى اللانهاية وفقاً للآية: ﴿وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفاً﴾[1].

الإنسان ابن الطبيعة الرشيد والبالغ ولذا فهو حر ومختار ولا حاجة له بالقيمومة والاشراف المباشر والتوجيه الإجباري لقوة غامضة تدعىٰ الغريزة، فما يفعله سائر الأحياء بقوة الغريزة التي لايمكنها التمرد عليها، يفعله الإنسان في جو العقل الحر والقوانين المتفق عليها: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[2].

ويكمن سر وجود الإنحراف والسقوط والتوقف والانحطاط لدىٰ الإنسان وعدم وجوده لدىٰ سائر الأحياء في هذه النقطة.

أو خلافاً لسائر الأحياء التي هي ساكنة في مكانها ولا تستطيع أن تقدم نفسها نحو الإمام أو تسحب نفسها إلى الخلف أو تنحرف يميناً أو شمالاً، أو تسرع في حركتها أو تبطئ، فإن الإنسان قادر على التقدم نحو الإمام أو العودة إلى الوراء والإنحراف نحو اليمين أو الشمال، وقادر على أن يسرع أو يبطئ وفي النهاية قادر

---

١ ـ النساء: ٢٨.

٢ ـ الدهر: ٣.

علىٰ أن يكون عبداً شاكراً أو متمرداً كافراً وعليه فهو دائماً في تردد بين الإفراط وتفريط.

والمجتمع الإنساني نراه أحياناً جامداً وساكناً وأسير العادات التي تقيد الأيدي وتكبل الأرجل إلى درجة يحتاج فيها إلى قوة تفك عنه القيود وتحركه، وأحياناً أُخرىٰ تبلغ عنده الرغبة في التجديد درجة ينسىٰ فيها سنن الخلق ونواميسه، وأحياناً يغرق في الغرور والتكبر وحب الذات فتبرز ضرورة وجود قوة تسوقه نحو الزهد وترويض النفس وعدم الاستئثار بنفسه ومراعاة حدوده وحقوق الآخرين، ويتخذ أحياناً طبيعة اللامبالاة وعدم الإلتزام حتىٰ لا يبقىٰ سبيل غير احياء همته وشخصيته واحساسه بمراعاة الحقوق، وبديهي أن لكل من سرعة الحركة وبطئها أو الإنحراف نحو اليمين أو اليسار برنامجاً خاصاً به، ففي المجتمع المنحرف نحو اليمين نحتاج إلى قوة مصلحة مائلة نحو اليسار والعكس بالعكس.

ولهذا كان دواء زمان معين وقوم ما و مرحلة خاصة، داءاً وبلاءاً مزمناً لزمان آخر وقوم آخرين، وهذا سر كون الرسالات تبدو مختلفة وأحياناً متناقضة في الظاهر فيكون أحد الرسل للحرب وآخّرهم للسلم، أحدهم رسول المحبة والآخر رسول العنف والصلابة، احدهم رسول ثوري والآخر محافظ، أحدهم مبك والآخر مضحك، وهذا أيضاً سر كون تعليمات مثل هؤلاء الأنبياء مؤقتة، ومن البديهي أنه مع جميع ما بين هذه الرسائل من تناقض في الأسلوب، لا وجود للتناقض والإختلاف بينها في الهدف، فالهدف واحد وهو العودة إلى التوازن والوصول إلى الطريق الرئيس.

والقرآن الكريم ـ في إيراده قصص الأنبياء ـ يبين تماماً أن كلاً منهم، ومع

اشتراكهم في تعليماتهم حول المبدأ والمعاد، كان يستند على نقطة خاصة يصر عليها وكان مأموراً بتنفيذ برنامج معين، ويتضح هذا الموضوع جيداً بعد مطالعة القصص القرآني.

الخطر الذي يسببه المصلحون الإجتماعيون يأتي غالباً من أنهم يظهرون في مجتمع متطرف أو محافظ أو مائل نحو اليمين أو الشمال فيبدأون عملهم المقدس ولكنهم ينسون أن خطة معينة قابلة للتنفيذ لمدة محدودة فقط، ويجب العمل مع المجتمع المتطرف أو المحافظ أو اليساري أو اليميني بقدر يعيده إلى توازنه وإلا فسوف يكون في ذاته موجباً لسقوط المجتمع وانحرافه من ناحية أخرىٰ.

بعد هذا التوضيح يمكننا التقرب من مفهوم الآية موضع البحث.

تختلف رسالة نبي الإسلام عن جميع الرسالات الأخرىٰ في أنها قانون وليست خطة، فهي دستور للبشرية ولا تختص بمجتمع متطرف أو محافظ أو يميني أو يساري.

الإسلام خطة شاملة وجامعة وكلية ومعتدلة ومتوازنة تحوي جميع الخطط الجزئية والقابلة للتطبيق في جميع الأحوال، فما كان يعمله الأنبياء في السابق حيث كانوا يأتون بخطة خاصة لمجتمع معين من قبل الله، يجب في مرحلة الإسلام أن يفعله العلماء وقادة الأُمة مع فارق واحد هو أن العلماء والمصلحين يخططون البرامج الخاصة ويضعونها قيد التنفيذ بالإستفادة من مصادر الوحي التي لاتنفد.

القرآن كتاب يحمل في طياته روح جميع التعليمات المؤقتة والمحدودة للكتب السماوية الأخرىٰ والمتمثلة في النضال ضد انواع الإنحراف والعودة إلى التوازن، ولذا يعرف القرآن نفسه مهيمناً وحافظاً وحارساً لسائر الكتب السماوية:

﴿وَأنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[١].

يستنتج من النصوص الإسلامية أن جميع الأنبياء ـ ولكونهم ممهدين لظهور النبوة الشاملة والخاتمة والدستور الإلهي الواحد.

كانوا مأمورين أن يبشروا أممهم بإكمال الدين وإتمامه في مرحلة الخاتمية، وقد أخذ الله عهداً ـ كهذا من جميع الأنبياء، وفي نهج البلاغة الخطبة الأُولىٰ بيان رائع بهذا الصدد:

(ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة، رسل لاتقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق مسمىٰ له من بعده أو غابر عرفه من قبله، علىٰ ذلك نسلت القرون ومضت الدهور وسلفت الآباء وخلفت الأبناء إلىٰ أن بعث الله محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله لانجاز عدته وتمام نبوته، مأخوذاً علىٰ النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده).

وقد ورد في هذا المجال عن النبي الأكرم حديثان لطيفان حيث قال: **(نحن الآخرون السابقون يوم القيامة)**[٢].

وقال: **(آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة)**[٣].

وسبب هذا السبق والتقدم يوم القيامة وكون جميع الأنبياء في ذلك العالم تحت لواء هذا النبي هو أنهم جميعاً مقدمات وهذا نتيجة، فوحي أولئك كان مؤقتاً في حدود برنامج واحد ووحي هذا النبي بمستوىٰ دستور شامل ودائم، وقد قال عظماء الإسلام بهذا الصدد أقوالاً بديعة وجميلة وفقاً لهاتين العبارتين مستلهمين

---

١ ـ المائدة: ٤٨.

٢ ـ البحار: ج ٦، ص ١٦٦، صحيح مسلم: ج ٣، ص ٧.

٣ ـ علم اليقين للفيض، ص ٥، سفينة البحار باب «لواء»، جامع الصغير، ج ١، ص ١٠٧.

من مبدأ آخر من مبادئ المعرفة الإسلامية وهو أن ما يظهر في العالم الآخر هو الظهور الملكوتي لحقائق هذا العالم.

يقول ابن الفارض المصري مشيراً إلى مضموني هذين الحديثين:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة   فلي فيه معنى شاهد بأبوتي
وكلهم عن سبق معناي دائر   بدائرتي أو وارد من شريعتي
وما منهم إلا وقد كان داعياً   به قومه للحق عن تبعيتي
وقبل فصالي دون تكليف ظاهري   ختمت بشرعي الموضحي كل شرعة

ويقول المولوي في هذا المضمون:

الغصن ـ في الظاهر ـ اصل الثمر
ومن أجله ـ في الباطن ـ وجد
إن لم تكن تأمل وترغب الثمر
متى غرست ـ أيها البستاني ـ الشجر؟
ففي المعنىٰ ولد من الثمر ذاك الشجر

ولو كان في الشكل وجد من شجر المصطفى الذي قال: «**آدم والأنبياء كلهم خلفي الذي خلفي تحت اللواء**»[1] وهنا يختفي الرمز ذو الفنون لقوله: نحن الآخرون السابقون إن كنت في الشكل من آدم ولدت ففي المعنىٰ انا جد الجدود وفي المعنىٰ مني أبي قد ولد وإذن ولد الشجر في المعنىٰ من ثمر، فكر كان أولاً وأخيراً صار عمل الفكر الذي هو وصف الأزل.

ويقول الشبستري:

١ ـ بحار الانوار: ج ٣٩، ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

خط واحد بدءاً وانتهاءاً وخلق الله عليه مسافرون
وفيه الأنبياء كرعاة الإبل أولاء يوجهون القافلة
ومنهم صار سيدنا أميراً فهو الأول في ذلك والآخر
أحد تجلى في ميم أحمد «وهنا جاء الأول كالآخر
بين أحمد وأحد ميم فقط وفي هذا الميم يكمن العالم
وقد وجب عليه ختم هذا الطريق فاول منزل له «ادعو إلى الله»
فمقامه الواسع يجمع الجموع وجماله المنعش جمع الشموع
فهو المتقدم والقلوب تتبعه قد ملك الأرواح حجرة

وقد تحدث القرآن الكريم عن المبدأ الذي يقضي بأن يبشر الأنبياء السابقون بالذين يأتون من بعدهم ويؤمنوا بهم ويسلموا بذلك (وخاصة خاتم الأنبياء) وأنه يجب عليهم تبليغ أممهم بذلك وأعدادهم لتعليمات الأنبياء القادمين، وكذلك مبدأ تصديقه الأنبياء اللاحقين بالسابقين، وإن الله قد أخذ عهداً شديداً من الأنبياء على هذا التبشير والتسليم والتأييد والتصديق، هكذا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(١).

ان الآصرة الموجودة بين النبوات واتصالها ببعضها يدلان على أن النبوة تسير سيراً تدريجياً نحو التكامل وإن آخر حلقة من حلقات النبوة تمثل أعلىٰ قمة فيها، يقول العارفون المسلمون: (الخاتم من ختم المراتب بأسرها) أي أن النبي

١ ـ آل عمران: ٨١.

الخاتم هو الذي اجتاز جميع المراحل ولم يبق وحيه طريقاً إلا سلكه ولا بقعة إلا كشفها، ولو افترضننا أن جميع المسائل المختصة بعلم من العلوم قد اكتشفت فلن يبقى بعد ذلك مجال للتحقيق جديد واكتشاف جديد، وهكذا هي المسائل المتعلقة بالوحي فبكشف آخر الأواصر الإلهية لايبقىٰ مجال لكشف جديد ونبي جـديد، فمكاشفة الرسالة المحمدية أكمل مكاشفة يمكن أن يقوم بها انسان وهـي آخـر مراحلها وبديهي أن أية مكاشفة أُخرىٰ بعد تلك المكاشفة، لن تكون جديدة وهي كالسير في أرض سير عليها من قبل، ولن تحتوي على كلام جـديد ومـوضوع جديد فآخر الكلام هو الذي ورد وفي تلك المكاشفة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾(١).

ينقل المرحوم الفيض في علم اليقين صفحة (١٠٥) عن أحد الرجال العظام: «إن الهدف في فطرة الناس هو الوصول إلى مقام القرب الإلهي ولن يتحقق ذلك إلا بتوجيهات الأنبياء ولهذا تعتبر النبوة جزءاً من نظام الوجود، وطبيعي أن المقصود هنا هو الدرجة العليا وآخر درجات النبوة وليس أولها، فالنبوة تكتمل تدريجياً طبقاً لسنة الله كما تبنىٰ عمارة تدريجياً. كما إن السلالم والجدران ليست الهدف في بناء العمارة بل الهدف هو الشكل الكامل للبناء، فإن النبوة كذلك أيضاً والهدف فيها صورتها الكاملة حيث تختم وتنتهي ولا يزاد عليها لأن الزيادة على الكمال نقص، فالأصبع الإضافي يبقىٰ بلا عمل وقد أشار النبي الأكرم في حديث معروف إلى هذا المعنىٰ قائلاً: إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنىٰ داراً فأكملها وحسنها إلا موضع لبنة فكان من دخل فيها فنظر إليها قال ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة،

---

١ ـ الأنعام: ١١٥.

فأنا موضع هذه اللبنة ختم بي الأنبياء»[1].

حديثنا السابق يمكنه ان يرسم صورة عن فكرة ختم النبوة كواحدة من الأفكار الإسلامية ويبين أسسها وأركانها.

قد عرف أن فكرة ختم النبوة تقوم علىٰ:

أولاً: ان أساس الدين موضوع في طبيعة البشر، فطبيعة جميع الناس واحدة والمسيرة التكاملية للبشر مسيرة ذات هدف تسير على خط واحد مستقيم ومعلوم، وعليه فإن حقيقة الدين واحدة لا أكثر تمثل الرغبات الفطرية وتوجه البشر نحو الطريق القويم.

ثانياً: ان خطة معينة ـ شريطة أن تكون فطرية وجامعة وشاملة ومصونة من التحريف والتبديل ومقرونة بحسن التشخيص والتطبيق في مرحلة التنفيذ ـ يمكنها أن تكون على الدوام دليلاً مفيداً ومولدة لجميع المشاريع والخطط والقوانين الجزئية اللامتناهية، والبحوث القادمة سوف توضح هذا الموضوع أكثر.

والآن نبحث التساؤلات التي اشير إليها في بداية الحديث ونجيب عليها.

---

١ ـ هكذا ورد الحديث في مجمع البيان بعد الآية (٤٠) من سورة الأحزاب نقلاً عن صحيحي البخاري ومسلم.

أبواب السماء

أول سؤال ينتج عن فكرة ختم النبوة يتعلق بعلاقة الإنسان بعالم الغيب، إذ كيف أمكن للإنسان الأول مع بدويته وبساطته أن يتصل بعالم الغيب عن طريق الوحي والإلهام وتفتح بوجهه أبواب السماء في حين حرم الإنسان المتقدم المتكامل الحديث عن هذه الموهبة وأغلقت بوجهه تلك الأبواب؟

هل هبطت استعدادت البشر المعنوية والروحية حقاً؟ وأصيبت البشرية بالإنحطاط من هذه الناحية؟

لقد جاءت هذه الشبهة من الظن أن الإرتباط والاتصال بعالم الغيب يقتصر على الأنبياء وأنه يجب مع انقطاع النبوة قطع أي نوع من العلاقة المعنوية والروحية بين عالم الغيب وعالم الإنسانية.

ولكن هذا الظن لا أساس له مطلقاً، فالقرآن الكريم لايشترط اقتراناً بين الاتصال بالغيب والملكوت وبين مقام النبوة كما أنه لا يعترف بدلالة فرق العادة وحده على النبوة، فالقرآن الكريم يذكر اشخاصاً كانوا يحيون حياة معنوية عالية فكانوا يكلمون الملائكة وتصدر منهم أمور خارقة دون أن يكونوا انبياء وأفضل مثال على ذلك مريم بنت عمران أم عيسى المسيح التي نقل عنها القرآن قصة مدهشة، وكذلك يقول القرآن عن أم موسىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾[1].

ونحن نعرف أن أم عيسىٰ لم تكن نبية ولا أم موسى كانت كذلك.

---

١ ـ القصص: ٧.

والواقع أن الاتصال بالغيب وشهادة حقائق الملكوت وسماع ملائكة الغيب وبالنتيجة معرفة أخبار الغيب ليست من النبوة، فالنبوة هي «التنبؤ» وليس «كل من أخبر تنبأ».

والقرآن يذكر أن باب الإشراق والإلهام مفتوح أمام كل من يطهر باطنه حيث يقول: ﴿**إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً**﴾(١) ويقول: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾(٢) ولأجل أن نعطي نموذجاً للحياة المعنوية والعرفانية في منطق الإسلام يكفي أن نذكر جانباً من إحدىٰ خطب نهج البلاغة، إذ جاء في الخطبة (٢٢٠) منه:

(إن الله تعالىٰ جعل الذكر جلاءاً للقلوب، تسمع به بعد الوقرة وتبصر به بعد العشوة تنقاد به بعد المعاندة، وما برح لله عزت آلاؤه في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم).

وروى عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: (**إن لله عباداً ليسوا بأنبياء يغبطهم النبوة**)(٣).

أما وجهة نظر الشيعة فإنهم وإن كانوا يعتقدون بأمامة الأئمة الأطهار عليهم السلام وولايتهم الباطنة فإنهم لا يعتبرونهم أنبياء والمسألة محلولة لديهم من هذا الجانب.

وقد قسم العارفون الإسلاميون المسيرة والسلوك المعنويين من حيث الاصطلاحات العرفانية إلى أربع مراحل وامتناعاً عن إطالة الحديث نشير إلى مرحلتين منها فقط:

---

١ ـ الأنفال: ٢٩.

٢ ـ العنكبوت: ٨٩.

٣ ـ ينقل صدر المتألهين هذا الحديث في مفاتيح الغيب ويقول: هذا الحديث مما رواه المعتبرون من أهل الحديث في طريقتنا وطريقة غيرنا (أي من الشيعة والسنة)، ويراجع أيضاً في ذلك الفصل الأخير من كتاب الشواهد الربوبية.

١ـ الرحيل من الخلق نحو الحق.

٢ـ الرحيل من الحق نحو الخلق.

والرحيل من الخلق نحو الحق لايختص بالأنبياء فقط، بل أن الأنبياء بعثوا لكي يعينوا البشر علىٰ هذا الرحيل، والذي يختص به الأنبياء هو الرحيل من الحق نحو الخلق، أي أنهم أمروا بإرشاد الخلق وهدايتهم والأخذ بأيديهم، والنبوة هي الرجوع إلى الكثرة من أجل قيادتهم نحو الوحدة.

يقول صدر المتألهين في صفحة (١٣) من مفاتيح الغيب:

«اعلم أن باب الهداية إذا انقطع وباب الرسالة إذا أنسد استغنىٰ الناس عن الرسول وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة وإكمال الدين كما قال الله تعالىٰ، اليوم أكملت لكم دينكم، وأما باب الإلهام فلا يسد ومدد نور الهداية لاينقطع».

ويقول في مكان آخر من الكتاب نفسه:

«الوحي الخاص بالرسول والنبي من نزول الملك على إذنه وقلبه»[1].

وقد ذكرت أقوال كثيرة في هذا المجال يستوجب نقلها إطالة الحديث.

ومن علماء عصرنا هناك قول جميل لإقبال اللاهوري في هذا الموضوع إذ يقول في الفرق بين النبيّ والعارف (أو حسب تعبيره الرجل الباطني):

«إن الرجل الباطني لايريد بعد الهدوء والاطمئنان اللذين يحصل عليهما بالتجربة الاتحادية ـ الوصول إلى الحق ـ الرجوع إلى الحياة في هذا العالم، وعند ذاك حيث يرجع بسبب الضرورة فإن رجوعه ليس ذا فائدة تذكر للبشرية، ولكن

---

١ ـ حين مراجعة المصدر المذكور لم نوفق لإيجاد ما يطابق تماماً ما ترجمه الشهيد المطهري إلى الفارسية لذا نقلنا هذه النصوص.

رجوع النبي ذو بعد خلاق ومثمر فهو يرجع ويدخل مجرىٰ الزمان من أجل أن يضبط مجرىٰ التأريخ ويخلق من هذا الطريق عالماً جديداً من الكمالات المطلوبة، والسكينة الناتجة من التجربة الاتحادية هي المرحلة النهائية لدىٰ الرجل الباطني، أما النبي فإن استيقاظ قوىٰ معرفة النفس لديه هي التي تحرك العالم، وتلك القوة محسوبة لدرجة تغير عالم البشرية تغييراً كاملاً... ويمكن تعريف النبوة كنوع من المعرفة الباطنية للنفس تميل التجربة الاتحادية فيها نحو اجتياز حدود نفسها وتبحث عن فرص توجه فيها طاقات الحياة الإجتماعية توجيهاً جديداً أو تعطيها شكلاً جديداً»[1].

فانقطاع النبوة يعني إذن انقطاع المهمة الإلهية للإرشاد والهداية وليس انقطاع الفيض المعنوي تجاه السائرين والسالكين إلى الله.

وإنه لخطأ كبير أن نظن أن الإسلام قد انكر الحياة المعنوية بإعلانه ختم النبوة.

---

١ ـ إحياء الفكر الديني في الإسلام، ترجمة احمد ارام، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

النبوة التبليغية

السؤال الآخر هو: لما كان الأنبياء جميعاً يؤدون واجبين، أحدهما أنهم كانوا يأتون من الله بقانون وبرنامج عملي للبشرية، والثاني أنهم كانوا يدعون الناس إلى الله وإلى تطبيق البرامج الإلهية لعصرهم وزمانهم ويبلغونهم إياها، وغالباً ما كانوا يؤدون الواجب الثاني وإن عدداً قليلاً جداً من الأنبياء يسميهم القرآن أولي العزم جاءوا بقانون وبرنامج عملي، وبعبارة أُخرىٰ كان هناك نوعان من النبوة: النبوة التشريعية والنبوة التبليغية، والأنبياء التشريعيون الذين كان عددهم قليل جداً[١] كانوا أصحاب قوانين وشرائع في الوقت الذي كان الأنبياء التبليغيون يعلّمون الناس ويبلغونهم ويرشدونهم إلى تعليمات الأنبياء أصحاب الشرائع، والإسلام إذ اعلن ختم النبوة لم يختم النبوة التشريعية فحسب بل ختم النبوة التبليغية أيضاً، فلماذا ياترىٰ أصبح الأمر هكذا؟ لماذا بقيت أمة محمد وأمة الإسلام محرومة من توجيه أنبياء كهؤلاء وإرشادهم ولو قبلنا فرضاً أن الإسلام ختم النبوة التشريعية لكماله وتمامه وكليته وشموله، فبأية معادلة وبأية فلسفة يمكن تبرير انتهاء النبوة التبليغية؟

الحقيقة أن الواجب الأساس للنبوة والهداية والوحي هو الواجب الأول أما التبليغ والتعليم والدعوة فهي واجب نصفه بشري ونصفه الآخر إلهي.

فالوحي والنبوة تعني الاتصال الغامض بجذر الوجود ثم تسلم مهمة إرشاد

---

١ ـ في الأصل «قليلاً جداً». (المصحح)

الخلق وهي مظهر من مظاهره «الهداية» الحاكمة على جميع أنحاء الوجود.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[١].

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[٢].

ان الموجودات بارتقائها سلم الوجود تستفيد من الهداية بدرجة تتناسب مع درجة الكمال التي تبلغها، أي أن خصوصية الهداية وشكلها يتفاوتان وفقاً لمراحل الوجود المختلفة، وقد أثبت العلماء ان الحيوانات كلما كانت أكثر ضعفاً وعجزاً من حيث التركيب والأدوات الطبيعية فهي أقوىٰ من حيث توجيه القوة الغامضة للغريزة التي تمثل نوعاً من الحماية والإشراف المباشر للطبيعة، فكلما كانت مجهزة أكثر بالأدوات الطبيعية والقوى الحسية وقوى الخيال والتوهم والعقل وكلما ارتقت سلم الوجود، قلت هدايتها الغريزية، وشأنها في ذلك يشبه تماماً شأن طفل يخضع في مراحل طفولته الأُولىٰ لحماية الأبوين واشرافهما المباشر والكامل وكلما تقدم في النمو خرج من تحت حماية الوالدين المباشرة وأوكل أمره إلى نفسه.

ان صعود الأحياء سلم الوجود وتزودها بالأدوات العضوية وأعضاء الحس والخيال والوهم والذكاء والعقل يزيد في قدراتها واستقلالها ويقلل بالنسبة نفسها من هدايتها الغريزية.

يقولون إن الحشرات أكثر الحيوانات تزوداً بقوىٰ الغريزة في الوقت الذي هي في الدرجة السفلىٰ من حيث مراحل التكامل، وإن الإنسان الذي بلغ أعلىٰ

---

١ ـ طه: ٥٠.

٢ ـ الأعلىٰ: ٢ ـ ٣.

درجات سلم التكامل أعجز الجميع من حيث الغريزة.

الوحي أعلىٰ مظاهر الهداية وأرقىٰ مراتبها وله دلالات تستعصي علىٰ الحس والخيال والعقل والعلم والفلسفة فلا شيء من هذه يحل محله، ولكن الوحي الذي يملك هذه الخاصية هو الوحي التشريعي وليس التبليغي، فالوحي التبليغي علىٰ عكس ذلك.

وحاجة البشر إلى الوحي التبليغي باقية إلى وقت لم يبلغ فيه العقل والعلم والتمدن درجة يستطيع فيها أن يتعهد بنفسه الدعوة والتعليم والتبليغ والإجتهاد في أمر دينه، فظهور العلم والعقل وبعبارة أخرىٰ نمو الإنسانية وبلوغها يختم بنفسه الوحي التبليغي فيحل العلماء محل هؤلاء الأنبياء (التبليغيون).

ونحن نجد أن القرآن يتحدث في أول آية نزلت عن القراءة والكتابة والقلم والعلم: ﴿اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(١).

وهذه الآيات تعلن أن عصر القرآن هو عصر القراءة والكتابة والتعليم والعلم والعقل، وهي تفهمنا بصورة تلميحية أن واجب التعليم والتبليغ وحفظ الآيات السماوية قد انتقل في عصر القرآن إلى العلماء فهم من هذه الناحية خلفاء الأنبياء، فهذه الآيات تمثل إعلاناً ببلوغ البشرية واستقلالها من هذه الناحية، والقرآن يدعو البشر ـ في جميع آياته ـ إلى التعقل والإستدلال ومشاهدة الطبيعية بشكل عيني وتجريبي ومطالعة التاريخ والتفقه والفهم العميق، وهذه جميعاً دلائل ختم النبوة وحلول العقل والعلم محل الوحي التبليغي.

---

١ ـ العلق: ١ ـ ٥.

ترىٰ لأي من الكتب السماوية عُمل بمقدار ما عُمل للقرآن؟ فما أن نزل القرآن حتىٰ برز آلاف من حفاظه، ولم يمض نصف قرن حتى دُوّن لأجل القرآن علم النحو والصرف وجمعت مفردات اللغة العربية أو ابتكر علم المعاني والبيان والبديع، وظهرت آلاف التفاسير والمفسرين وحوزات التفسير، وأخذوا يدققون في كلمات القرآن ويتفحصونها واحدة بعد الأُخرىٰ، وغالباً ما كانت هذه الأعمال تصدر من أناس غرباء على اللغة العربية، وكانت الرغبة والتعلق بالقرآن هي السبب الوحيد في ايجاد مثل هذا الهيجان والغليان فلماذا لم تصدر مثل هذه الأعمال تجاه التوراة والإنجيل والأوستا[1]؟ أليس هذا بنفسه دليلاً على نمو البشرية وبلوغها وقابليتها علىٰ حفظ كتابها السماوي وتعليمه وتبليغه؟ أليس هذا في ذاته دليلاً على حلول المعرفة محل النبوة التبليغية؟

لقد كان البشر في المراحل السابقة كطفل في المدرسة يعطونه كتاباً ليقرأه فيمزقه بعد أيام، وإن البشر في المرحلة الإسلامية كعالم كبير السن يحفظ كتبه بدقة متناهية مع أنه يراجعها بشكل مكرر.

وعادة ما يقسمون حياة البشر إلى العصر التاريخي وعصر ما قبل التاريخ، فالعصر التاريخي يبدأ منذ أن استطاع البشر أن يحفظوا ذكرياتهم علىٰ شكل كتب أو أشياء مكتوبة وهذه (الذكريات) هي التي يحكم بها اليوم حول الحياة في تلك الأيام، أما عصر ما قبل التاريخ فلم يبق منه أي أثر يكون مقياساً يحكم بموجبه.

ولكننا نعرف أيضاً أن آثار العصر التاريخي مبعثرة ومتفرقة فالمرحلة التي حفظ فيها البشر تاريخهم بشكل منظم جيلاً بعد جيل ونقلوها إلى الجيل الذي جاء

---

١ ـ «الاوستا» هو الكتاب المقدس لدىٰ الزرادشتيين. (المصحح)

بعدهم اقترنت بظهور الإسلام فضلاً عن أن الإسلام نفسه يعد عاملاً من عوامل هذا النمو العقلي، ففي مرحلة الإسلام حافظ المسلمون علىٰ آثارهم الخاصة ومنعوا اندراسها وفناءها وأيضاً حافظوا شيئاً ما علىٰ آثار الشعوب السابقة فنقولها للأجيال التي جاءت من بعدهم، أي أن البشر أبدوا لياقتهم في الحفاظ علىٰ ميراثهم العلمي والديني في عهد يقترن تقريباً مع عهد ختم النبوة، الواقع أن المرحلة التاريخية الحقيقية اقترنت بظهور الإسلام أما في المراحل السابقة فكانت الآثار العلمية والفلسفية والدينية النفيسة تظهر من جهة وتلتهمها المياه والنيران من جهة أُخرىٰ، والتاريخ يذكر الكثير من هذه الوقائع المؤلمة.

فالحوزة العلمية الهائلة في الاسكندرية حلت بعد نفوذ المسيحية في حوزة امبراطورية الروم الشرقية وابتلعت النيران مكتبتها التاريخية علىٰ أيدي المتعصبين المسيحيين[1].

ان طلوع العلم وظهوره وبلوغ البشر حداً يجعلهم قادرين وحدهم على حفظ دينهم السماوي والدعوة إليه وتبليغه قد ختمت النبوة التبليغية طوعاً أو كرهاً، ولهذا السبب يجعل النبي الأكرم علماء هذه الأمة كأنبياء بني اسرائيل أو أفضل منهم.

---

١ ـ لقد أشيع لفترة طويلة أن المسلمين أحرقوا هذه المكتبة حين فتحوا مصر وقد اشتدت هذه الشائعة إلى درجة جعلت المتأخرين المسلمين يذكرونها في كتبهم. وفضلاً عن أنه لم تثبت هذه المسألة في أي من الوثائق المعتبرة، فقد أثبت المحققون مؤخراً أن هذه المكتبة قد أحرقها المتعصبون المسيحيون من قبل وأن شائعة اتهام المسلمين بذلك صدرت من أحد المتحدثين المسيحيين كان يفصله قرنان عن ذلك الزمان، يراجع في ذلك الجزء الحادي عشر من ترجمة تاريخ الحضارة تأليف ويل دورانت ص ٢١٩ ورسالة شبلي النعماني الموسومة «مكتبة الاسكندرية» والتي كتبت في هذا الموضوع.

وهنا أيضاً كلام جميل لاقبال اللاهوري يقول فيه: «لقد وقف نبي الإسلام بين العالم القديم والعالم الجديد فعندما يكون الحديث عن مصدر إلهامه فهو يتعلق بالعالم القديم وعندما يكون الأمر مختصاً بروح إلهامه فهو يخص العالم الجديد، فالحياة فيه تكتشف مصادر أُخرىٰ للمعرفة جديرة بخط مسيره الجديد، وظهور الإسلام وولادته تعتبر ولادة العقل البرهاني الاستقرائي، والرسالة بلغت حد الكمال بظهور الإسلام نتيجة اكتشاف ضرورة انتهائها، مما يستلزم في نفسه الإدراك الذكي لحقيقة تنص علىٰ أن الحياة لايمكنها أن تستمر دائماً علىٰ شكل مرحلة الطفولة مقودة من الخارج، أما الغاء الكهنوت والملكية الوراثية في الإسلام والتوجه الدائم نحو العقل والتجربة في القرآن والأهمية التي يوليها هذا الكتاب المبين للطبيعة والتاريخ باعتبارهما مصدري المعرفة البشرية، فهي جميعاً تمثل مظاهر مختلفة لفكرة ختم الرسالة... ولاينبغي حمل فكرة الخاتمية علىٰ معنىٰ أن مصير الحياة النهائي يتمثل في الإحلال الكامل للعقل محل العاطفة، فإن شيئاً كهذا ليس ممكناً ولا مطلوباً»[1].

---

١ ـ إحياء الفكر الديني في الإسلام، ص ١٤٥.

الدين الخالد

لقد أعلن الدين الإسلامي عن خلوده مع إعلان ختم النبوة: **(حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة)**[١].

وإن أكثر الأسئلة والإشكالات ضجيجاً تدور هذا الموضوع فهم يقولون: هل من الممكن أن يبقىٰ شيء ما خالداً؟ فكل شيء في العالم ضد الخلود وإن أرسخ مبادئ هذا العالم هو مبدأ التغيير والتحول، وشيء واحد فقط يبقىٰ خالداً وهو أنه لا شيء يبقىٰ خالداً.

ومنكروا الخلود يضفون أحياناً علىٰ أحاديثهم لوناً فلسفياً ويأتون بقانون التغيير والتحول الذي هو قانون الطبيعة العام كدليل علىٰ ما يقولون.

ولو نظرنا إلى المسألة من هذه الناحية فقط فجواب الإشكال واضح وهو: إن ما يتغير ويتحول دائماً هو المادة والتركيبات المادية للعالم أما القوانين والأنظمة ـ سواء الأنظمة الطبيعية أو الأنظمة الإجتماعية المستندة علىٰ النواميس الطبيعية ـ فلا يشملها هذا القانون، فالنجوم والمنظومات الشمسية تظهر وبعد فترة تنفىٰ وتزول ولكن قانون الجاذبية لايزال قائماً، وتولد النباتات والحيوانات وتحيا ولكن قوانين علم الأحياء لا تزال حية وباقية.

وهكذا هو حال الناس وقانون حياتهم فهم يموتون وكذلك شخص النبي ولكن قانونه السماوي يبقى حياً، وعدت المصطفىٰ الطاف الحق ان مت أنت لن تموت التعاليم.

---

١ ـ أُصول الكافي: ج ٢، ص ١٧.

وفي الطبيعية، فالظواهر هي التي تتغير وليس القانون، والإسلام قانون وليس ظاهرة وهو محكوم عليه بالموت لو لم يكن متناسقاً مع قوانين الطبيعة، أما لو كان ـ كما يدعي هو ـ يستقي من الفطرة ومن طبيعة الإنسان والمجتمع ومتناسقاً مع الطبيعة وقوانينها فلماذا يموت إذن؟

ولكنهم أحياناً يوردون إشكالاً من الناحية الإجتماعية فيقولون: إن القوانين الإجتماعية هي عبارة عن مجموعة من القوانين المتفق عليها توضع علىٰ أساس الحاجات الإجتماعية تتغير بشكل يوازي توسع عوامل الحضارة وتكاملها، فحاجات كل عصر تتفاوت مع حاجات العصر الآخر حيث أن حاجات البشر في عصر الصاروخ والطائرة والكهرباء والتلفزيون قد اختلفت تماماً عن حاجات عصر الحصان والحمار والبعير، فكيف يمكن أن تكون قوانين حياة البشر في هذا العصر قوانين عصر الحصان والحمار والبعير نفسها؟ وبعبارة أخرىٰ أن توسع عوامل الحضارة وتقدمها تأتي بشكل لازم وجبري بمقتضيات جديدة، فلا يمكن الوقوف بوجه «الجبر التاريخي» وإيقاف الزمن في حالة معينة ولا يمكن عدم التناسق مع مقتضيات الزمان وإن التقيد بمقررات ثابتة ذات وتيرة واحدة يمنع الإنعطاف والتطابق مع مقتضيات الزمن ومواكبة قافلة الحضارة.

ولا شك أن أهم مسألة تواجه الأديان والإسلام بشكل خاص في هذا العصر هي هذه المسألة، فالجيل الجديد لايفكر إلا بالتطور والتغيير والتجديد وتفهم مقتضيات الزمن، وحين نوجه هذا الجيل فإن أول كلام نسمعه هو هذا الكلام، والدين والتجديد ظاهرتان متناقضتان في نظر متطرفي هذا الجيل (فهم يقولون) إن صفة التجديد التحرك وترك الماضي وصفة الدين الجمود والسكون والإهتمام بالماضي والمحافظة علىٰ الوضع كما هو.

ويجب علىٰ الإسلام أكثر من أي دين آخر أن يشمر عن ساعده مع هذه المجموعة لأنه من جهة يدعىٰ الخلود الذي هو ثقيل علىٰ أسماع هؤلاء ومن جهة أخرىٰ يتدخل في جميع شؤون الحياة ابتداءاً بعلاقة الفرد بالله ومروراً بالعلاقات الإجتماعية للأفراد والعلاقات الأسرية وعلاقة الفرد بالمجتمع وعلاقة الإنسان بالكون، ولو أن الإسلام اقتنع بمجموعة من المراسم العبادية والتعليمات الأخلاقية الجافة ـ شأنه في ذلك شأن الأديان الأخرىٰ ـ لما كانت هناك مشكلة تذكر، أما مع جميع هذه المقررات والقوانين المدنية والجزائية والسياسية والإجتماعية والعائلية فماذا يمكن عمله ياترىٰ؟

كما نرىٰ قد ورد الحديث في هذا الإشكال حول «الجبر التاريخي» و«تغير الحاجات» و «وجوب مراعات مقتضيات الزمان»، ولهذا لزم أن نبحث قليلاً حول هذه المواضيع الثلاثة التي تشكل العنصر الأساس لهذا الإشكال، ثم نبين طريق الحل من وجهة نظر الإسلام.

ولا ندعي في قولنا هذا أنه يمكننا في هذه الصفحات المحدودة التعرض لجميع جوانب الموضوع بالتفصيل لأن البحث في هذه المسألة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة والفقه والتاريخ وعلم الإجتماع يليق بكتاب كبير تنتجه سنوات من المطالعة، إن هذه المقالة تأمل أن تعطي ملامح عن حل هذه المشكلة.

الجبر التاريخي

وهي كلمة مركبة من جزئين: الجبر والتاريخ.

فالجبر يعني الحتمية التي لابد منها وفي اصطلاح الفلاسفة الضرورة والوجوب، فعندما نقول مثلاً أن ٥ × ٥ تساوي ضرورة وجبراً (٢٥) فاننا نعني أن المسألة هكذا حتماً ولا يمكن خلاف ذلك، وبديهي أن الجبر في هذا الاصطلاح الذي هو مفهوم فلسفي ليس الجبر بالمفهوم الحقوقي والفقهي والعرفي الذي يعني الإكراه والإجبار بالقوة و ٥ × ٥ تساوي بحكم طبيعتها الذاتية (٢٥) وليس بحكم قوة جبرية قاهرة.

أما التاريخ: فهو يعني مجموعة الحوادث التي تشكل سيرة البشر، وسيرة البشر تطوي مسيراً وهناك قوىٰ تديرها وتسيرها، فكما أن عجلة يدوية تدور بقوة اليد أو أن مصنعاً يدار بالبخار كذلك التاريخ يدور بعوامل وقوىٰ وينعطف بها ويرقىٰ.

فالجبر التاريخي إذاً يعني حتمية سيرة البشر وعدم إمكانية اجتنابها، ولو قلنا أن حركة التاريخ جبرية فهذا يعني أن العوامل المؤثرة في حياة البشر الإجتماعية ذات تأثيرات قطعية لايمكن مخالفتها، وإن تأثير هذه العوامل ضروري وحتمي ولابدّ منه.

وقد اكتسبت كلمة «الجبر التاريخي» في عصرنا قيمة واعتباراً كبيرين، فهذه الكلمة تلعب في الوقت الحاضر الدور نفسه الذي كانت تلعبه في الماضي كلمة «القضاء والقدر» فهي:

قناع نستر به استسلامنا للأحداث، وعذر نعتذر به في تقصيرنا

فالسباع الضارية التي لا مفر منها إلا التسليم والرضا كانت في الماضي قضاءاً مقدراً وهي في وقتنا هذا جبر تاريخي.

والحقيقة أن كلاً من القضاء والقدر والجبر التأريخي ذو مفهوم فلسفي صحيح، وقد استوجب عدم ادراك مفهومها ادراكاً حقيقياً سوء التعبير، وإننا قد بحثنا في كتاب «الإنسان والمصير» حول القضاء والقدر أما الجبر التاريخي:

لا نقاس في أن سيرة حياة البشر شأنها شأن جميع حوادث العالم ذات قانون ثابت وان العوامل التاريخية ذات تأثيرات قطعية وضرورية كجميع القوانين الأخرىٰ، فالقرآن الكريم قد أيد ذلك بلغته الخاصة مسمياً إياها «سنة الله»، ولكن النقاس في شكل تأثير هذه العوامل وفي هل أن التأثير الجبري لعوامل التاريخ بشكل يجعل كل شيء موقتاً ومحدوداً ومحكوماً بالزوال أم بشكل آخر؟

من البديهي أن الأمر مرتبط بنوع العامل، فإن كانت العوامل التي تحرك التاريخ ثابتة ومستقرة، فسوف تكون نتيجة تأثيرها أن تستمر في تحريك تيار معين، وإن كانت علىٰ عكس ذلك غير مستقرة فسوف تكون نتائجها وآثارها غير مستقرة أيضاً، ومن العوامل التاريخية العامل العائلي والجنسي فهذا العامل عامل ثابت ومستقر وهو يميل دائماً نحو تشكيل العائلة واختيار الزوجة وإنجاب الأولاد، وعلىٰ طول تاريخ البشرية حدثت حركات ضد الحياة العائلية ولكنها منيت جميعاً بالفشل، لماذا؟ لأنها كانت علىٰ خلاف الجبر التاريخي الذي كان يستوجب بقاء هذه الحياة، وعامل آخر من العوامل التاريخية هو العامل الديني حيث يوجد في طبيعة البشر ميل للعبادة ـ وبأي شكل وبأية صورة كانت ـ وقد لعب هذا العامل دوره في جميع المراحل ولم يسمح بنسيان الإهتمام بالدين.

فمن الخطأ المحض أن نعتبر الجبر التاريخي مساوياً للتحديد والتوقيت ودليلاً علىٰ عدم ثبوت أي قانون وأية قاعدة.

فالجبر التاريخي ينتج عدم الثبوت حينما يكون العامل الذي نتحدث عنه كعامل الإنتاج الإقتصادي غير ثابت ويأخذ مكانه عامل آخر، إذاً يجب أن نبحث في الإنسان وحاجاته والعوامل المحركة للتاريخ ودائرة تأثير كل عامل في داخل المجتمع كي تتوضح لنا حدودها وأي منها ثابت ومستقر وأيها غير ثابت وغير مستقر؟

الحقيقة أن فرضية مساواة الجبر التاريخي لعدم ثبوت جميع شؤون حياة الإنسان وليد فرضية «أحادية بعد الإنسان» فطبقاً لهذه الفرضية لا يملك الإنسان أكثر من بُعد أصيل واحد وأن تحول التاريخ هو تحول ذو جانب واحد، وفي وجهة نظر انصار هذه الفرضية فإن العامل الأساس والأصلي للتاريخ في كل عصر هو الاقتصاد، فطريقة انتاج الثروة وتوزيعها وعلاقات الأفراد الاقتصادية كعلاقات العامل ورب العمل والفلاح وصاحب الأرض وغيرها التي هي بالتأكيد علاقات متغيرة وغير ثابتة هي التي تعين جوانب الحياة الأُخرىٰ كالدين والعلم والفلسفة والقانون والأخلاق والفن، وقد أثارت هذه الفرضية في البداية ضجة كبيرة في العالم ولكنها الآن فقدت قيمتها واعتبارها السابق وحتىٰ أن الكثير من المحللين الماديين للعالم والتاريخ قد أداروا ظهورهم الآن لهذه الفرضية.

ومع أنه لا يمكن لنا لحد الآن ـ من الناحية العلمية ـ ابداء وجهة نظرنا حول عدد ابعاد الإنسان «هذا الكائن المجهول» وبكم بُعد يمكن افتراض تاريخ الإنسان ولكنه من المسلم به أن الإنسان ليس ذا بُعد واحد وإن فرضية أحادية بُعد الإنسان وأحادية خط مسير تاريخه من أكثر الفرضيات افتقاداً للأساس.

الحاجات:

هل صحيح أن جميع حاجات البشر متغيرة وبتغيرها تتغير القوانين والمقررات المتعلقة بها؟

الجواب أنه لا جميع الحاجات متغيرة ولا أن تغييرها مشروط بتغير مبادئ الحياة وقواعد الأساس.

أما شرح الجزء الأول (من العبارة السابقة) فهو: إن الحاجات علىٰ نوعين، حاجات أولية وحاجات ثانوية، فالحاجات الأولية تنبع من عمق بناء البشر الجسمي والنفسي ومن طبيعة الحياة الإجتماعية موجودة، وهذه الحاجات أما جسمية أو نفسية أو اجتماعية، فالحاجات الجسمية هي من قبيل الحاجة إلىٰ الغذاء والملبس والمسكن والزوجة وغير ذلك والحاجات النفسية هي من قبيل العلم والجمال والحسن والعبادة والإحترام والتربية، أما الحاجات الإجتماعية فهي من قبيل: المعاشرة والمبادلة والتعاون والعدالة والحرية والمساواة.

والحاجات الثانوية هي حاجات تنشأ من الحاجات الأولية، فالحاجة إلىٰ آلات المعيشة وأدواتها التي تختلف من عصر لعصر ومن زمان لآخر، هي من هذا النوع.

الحاجات الأولية تحرك البشر نحو التوسع والكمال في الحياة أما الحاجات الثانوية فهي تنشأ عن توسع الحياة وكمالها وهي في الوقت نفسه تحرك نحو التوسع الأكثر والكمال الأعلىٰ.

وتغير الحاجات وتجددها وتعتقها تحدث جميعاً في الحاجات الثانوية،

فالحاجات الأولية لاتبلىٰ ولا تفنىٰ وهي دائماً حية وجديدة، وأن بعضاً من الحاجات الثانوية بهذه الصورة أيضاً ومن هذه الحاجات الحاجة إلى القانون، فالحاجة إلى القانون تنشأ عن الحاجة إلى الحياة الإجتماعية وهي في الوقت نفسه دائمة وباقية، ولن يستغني البشر عن القانون في أي زمان كان.

وأما شرح الجزء الثاني فهو: صحيح أن توسع عوامل الحضارة يولد حاجات جديدة وأحياناً تستوجب وضع مجموعة من الاتفاقات والقوانين الفرعية فمثلاً وسائل النقل الآلية تستوجب وضع مجموعة من المقررات الدولية بين الدول والتي لم تكن هنالك حاجة إليها في الماضي، ولكن توسع عوامل الحضارة لا يستوجبه تبديل القوانين الحقوقية والجزائية والمدنية التي تتعلق بالبيع والشراء والوكالة والغصب والضمان والإرث والزواج وأمثال ذلك إذا كانت تستند إلى العدالة والحقوق الفطرية الحقيقية، فضلاً عن القوانين المتعلقة بعلاقة الإنسان بالله أو علاقته بالطبيعة.

القانون يشخص الطريق العادل والشريف لتأمين الحاجات. فالتغيير والتبديل في الوسائل والأدوات التي نحتاج إليها لا يتسبب في تبديل طريقة الحصول عليها والإستعادة منها وتبادلها بشكل عادل إلا إذا افترضنا أنه كما تتغير أسباب الحياة ووسائلها وأدواتها وتتكامل فإن مفاهيم الحق والعدل والأخلاق تتغير أيضاً، وبعبارة أخرىٰ نفترض أن الحق والعدل والأخلاق مجموعة من المفاهيم النسبية، فالذي هو حق أو عدل أو أخلاق في زمان معين هو في زمان آخر مضاد للحق أو العدل أو الأخلاق.

وهذه الفرضية تطرح كثيراً في عصرنا، ولكنه لا مجال في هذه المقالة لطرح هذه المسألة وبحثها ونكتفي بالقول أن عدم تفهم المفهوم الحقيقي للحق والعدل

والأخلاق كان وحده سبباً في طرح هذه الفرضية، فما يتغير من الحق والعدل والأخلاق هو شكلها التنفيذي ومظهرها العملي وليس حقيقتها وماهيتها.

إن دستوراً معيناً لو كان له أساس حقوقي وفطري، ويتمتع بديناميكية حية، ويرسم خطوط الحياة الأصلية ويهتم بشكل الحياة وصورتها التي ترتبط بدرجة الحضارة، فبإمكانه مواكبة تغيرات الحياة بل أن يكون موجهاً لها.

ان التناقض بين القانون والحاجات المتجددة ينشأ حينما يهتم القانون بتثبيت شكل الحياة وظاهرها بدل أن يعين خط المسير كأن يريد التثبيت الدائم للوسائل والأدوات الخاصة المرتبطة ارتباطاً تاماً بمستوىٰ الثقافة والحضارة.

لو قال القانون أنه يجب إلزاماً الاستعمال الدائم لليد في الكتابة والحصان والحمار في الركوب، والمصباح الزيتي في الإضاءة، والمنسوجات اليدوية في الملبس و... فإن قانوناً كهذا قد وجد للصراع مع تقدم العلم والحضارة والحاجات الناشئة عن ذلك، وبديهي أن الجبر التاريخي سوف يبدل هذا القانون.

فكلما كان القانون جزئياً ومادياً بمعنىٰ أن يقيد نفسه بمواد والوان واشكال خاصة، كان أقل حظاً في البقاء والاستمرار، وكلما كان كلياً ومعنوياً ولم يهتم بالأشكال الظاهرية للأشياء بل بالعلاقات بين الأشياء أو الأشخاص كان أكثر حظاً في البقاء والاستمرار.

مقتضيات الزمان

المقصود بمقتضيات الزمان ما تقتضيه البيئة والمجتمع والمعيشة، فالإنسان وبحكم تزوده بقوىٰ العقل والابتكار والاختيار ولأنه يرغب في أن يعيش حياة أفضل، يدخل إلى حياته بشكل مستمر أفكاراً وعوامل ووسائل أفضل لرفع احتياجاته الاقتصادية والإجتماعية والمعنوية، وأن دخول العوامل والوسائل الأكمل والأفضل يسبب في أن تترك العوامل القديمة والناقصة مكانها لهذه ويصبح الإنسان تابعاً للعوامل الجديدة والحاجات الخاصة بها، وتبعية البشر لمجموعة من الحاجات المادية والمعنوية والتغيير الدائم للوسائل والعوامل التي تلبي هذه الحاجات واكتمالها وتحسنها الدائمين اللذين يؤديان بدورهما إلى بروز مجموعة من الحاجات الجديدة، هذه الأشياء جميعاً تكون سبباً في تغير مقتضيات البيئة والمجتمع والحياة في كل عصر وزمان وأن يطابق الإنسان بين نفسه وبين المقتضيات الجديدة، ومع هذه المقتضيات لاينبغي الصراع ولا يمكن ذلك.

ولكن جميع الظواهر الجديدة التي تبرز مع الزمن ليست ـ مع الأسف من نوع الأفكار الأفضل والعوامل والوسائل الأكمل لحياة أكثر سعادة، فالزمان والبيئة والمجتمع من صنع البشر الذي لم يكن أبداً معصوماً عن الخطأ، وعليه فإنه ليس واجب الإنسان الوحيد الانطباق مع الزمن وأفكاره وعاداته ومرغوباته واتباعها بل أن من واجبه أيضاً مراقبة الزمن واصلاحه، ولو كان ينبغي على الإنسان أن يطابق نفسه مع الزمن فمع ماذا ينبغي له مطابقة الزمن؟

و«مقتضيات الزمان» من وجهة نظر ذوي التفكير الواطئ تعني الأمزجة والمتطلبات الرائجة للعصر، فعبارة «عالمنا اليوم لا يوافق ذلك» أكثر تأثيراً في تحطيم شخصية هؤلاء واستسلامهم غير المشروط من أي منطق نظري أو عملي أو صوري أو مادي أو قياسي أو تجريبي أو استقرائي، ويكفي في نظر هؤلاء أن يصدر شيء من المزاج اليومي ـ خاصة في العالم الغربي ـ لكي نحكم أن «مقتضيات الزمن» قد تغيرت فهو (في نظرهم) «جبر تاريخي» و«شيء لابد منه» و«شرط للرقي والتقدم» في الوقت الذي نعرف أن الإنسان هو الذي يصنع الزمان والبيئة والعوامل الإجتماعية وهو الذي لم يأت من العالم القدسي فالإنسان ـ مهما كان غريباً ـ قابل للخطأ.

فكما أن الإنسان يملك العقل والعلم فهو يملك الشهوة وهوىٰ النفس وكما يخطو نحو مصلحته ونحو الحياة الأفضل فهو ينحرف أحياناً أيضاً، وعليه فإن الزمان أيضاً قابل للتقدم وقابل للإنحراف، فمع تقدم الزمان يجب التقدم ومع انحرافه يجب الصراع.

«مقتضيات الزمان» هي كالحرية من الكلمات التي كان لها مصير أسود ـ خاصة في بلاد الشرق ـ وهي الآن اصبحت تماماً بشكل أداة استعمارية لأجل ضرب الثقافة الشرقية الأصيلة وفرض الروح الغربية وكم من السفسطات تحدث تحت هذا الاسم؟ وكم من التعاسات فرضت مع هذه اللافتة الجميلة.

يقولون إنه عصر العلم، ونقول لهم صحيح ولكن هل جفت جميع المنابع في وجود البشر إلا منبع العلم؟ وكلما يظهر هو الوليد المشروع للعلم وحده؟ في أي عصر كان للعلم والمعرفة هذه القوة والقدرة والاتساع الذي نجده في عصرنا، وفي أي عصر فقد (العلم) حريته وقهره شبح الشهوة وثعبان حب الذات وحب الجاه

وعبادة المال والاستخدام والاستغلال كما حدث له في هذا العصر؟

الذين يدَّعون أن مقتضيات الزمان المتغيرة تستوجب عدم خلود أي قانون يجب عليهم أولاً أن يفصلوا بين الموضوعين السابقين كي يكون معلوماً أن لا وجود في الإسلام لأي شيء يخالف التقدم نحو حياة أفضل.

مشكلة عصرنا أن البشر أقل نجاحاً في الفصل بين هذين الموضوعين فهم إما يصابون بالجمود فيتحالفون مع ما هو قديم ويصطرعون مع كل ما هو جديد، أو يصابون بالجهل فيبررون كل ظاهرة حديثة الظهور تحت اسم مقتضيات الزمان.

التحرك والانعطاف:

ان طرح مسائل من قبيل: الجبر التاريخي وتغير الحاجات ومقتضيات الزمان يكون مفيداً بالقدر الذي يجعلنا ندرك أنه لايمكن اتخاذ هذه الأمور مبررات للتنديد الأعمىٰ بأي قانون وإنكار خلوده.

ولكنه من البديهي أن طرح هذه المسائل لايكفي وحده لحل مشكلة الخلود إذ من المسلم به أنه لو أراد قانون خالد الاحاطة بجميع صور الحياة المتغيرة وأن يعطي حل جميع المشاكل وأن يحل كل مشكلة بشكل خاص فيجب أن يتمتع بنوع من الديناميكية والتحرك ونوع من الانعطاف ولا يكون جافاً وجامداً وغير قابل للانعطاف، ولنرىٰ الآن كيف أن الإسلام أعطىٰ الحلول المختلفة لصور الحياة المختلفة مع محافظته علىٰ مبدأ: (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة).

من المسلم به أنه لابدّ هناك من سر ورمز كامنين في نظام التشريع الإسلامي لكي يكون قادراً على التفوق على هذه المشكلة الكبرىٰ.

ان مولد جميع الأسرار والرموز ومصدرها روح الإسلام المنطقية وتبعيتها الكاملة لفطرة الإنسان والمجتمع والكون وطبيعة كل منها.

والإسلام قد أعلن رسمياً في وضعه لقوانينه ومقرراته احترامه للفطرة واتباعه للقوانين الفطرية، وهذه الناحية هي التي أعطت لقوانين الإسلام امكانية الخلود.

ويمكن معرفة استناد الإسلام واتباعه الفطرة من الصفات التالية:

١ـ قبول العقل وإدخاله مجال الدين، فلم يكن لأي دين علاقة قوية بالعقل ولم يعطه هذا الحق كما فعل الإسلام، فأي دين يمكن أن نجده قد جعل العقل واحداً من مصادر أحكامه، وفقهاء الإسلام اعتبروا مصادر الأحكام ومستنداتها أربعة أشياء: الكتاب والسنة والإجماع والعقل، وهم يرون بوجود علاقة لاتنفصل بين العقل والشرع ويسمونها قاعدة الملازمة فهم يقولون:

(كل ما حكم به العقل حكم به الشرع وكل ما حكم به الشرع حكم به العقل).

العقل في الفقه الإسلامي يمكنه أن يكون مكتشفاً للقانون وأن يقيد قانوناً ويحدده أو يعممه ويمكنه أيضاً أن يكون عاملاً مساعداً جيداً في الاستنباط من سائر المصادر والوثائق.

وقد برز حق العقل في التدخل من كون المقررات الإسلامية تهتم بواقع الحياة، فالإسلام لم يجعل لتعليماته رموزاً سماوية مجهولة وغير قابلة للحل.

٢ـ الشمول، وتعبير القرآن «الوسطية»، فأحادية بُعد قانون ما أو مدرسة معينة تحمل معها سبب نسخ هذا القانون أو المدرسة، فالعوامل المؤثرة والمتحكمة في حياة الإنسان كثيرة وغض النظر عن أي منها ينتج بنفسه عدم التوازن، وأهم ركن من أركان الخلود الاهتمام بجميع الجوانب المادية والروحية والفردية والإجتماعية، فشمول التعليمات الإسلامية وتعدد أبعادها يعترف به الذين يعرفون الإسلام، وبحث هذه الموضوع تفصيلاً خارج عن مسؤولية هذه المقالة.

٣ـ لم يتوجه الإسلام أبداً إلى شكل الحياة وصورتها وظاهرها فالتعليمات الإسلامية تتوجه جميعاً نحو الروح والمعنىٰ وهي طريق يوصل البشر إلى تلك الأهداف والمعاني، والإسلام قد جعل تحت نفوذه الأهداف والمعاني واعطاء طريقة الوصول إلى تلك الأهداف والمعاني ترك البشر أحراراً في غير ذلك وبهذا

منع أي تصادم مع تقدم الحضارة والثقافة.

ولا يمكن في الإسلام العثور على أية وسيلة مادية وشكل ظاهري يتخذ طابع القدسية بشكل يجعل المسلم يشعر أن من واجبه الحفاظ علىٰ ذلك الشكل والمظهر، ولهذا فإن الامتناع من التصادم مع مظاهر التقدم العلمي والحضاري من الأمور التي سهلت عملية انطباق هذا الدين مع مقتضيات الزمان وترفع أكبر مانع للخلود.

٤ـ الرمز الآخر لخاتمية هذا الدين وخلوده والذي هو أيضاً يستقي من التنسيق مع القوانين الفطرية، هو أنه وضع قوانين ثابتة وغير قابلة للتغيير من أجل تلبية الاحتياجات الثابتة والدائمة للبشر وتوقع لأوضاعهم وأحوالهم المتغيرة وضعاً متغيراً.

لقد قلنا سابقاً أن جزءاً من حاجات البشر ـ سواءً في الأمور الفردية أو الاجتماعية ـ ذو وضع ثابت وهي متساوية في جميع الأزمنة فالنظام الذي يجب على الإنسان أن يضعه لغرائزه يسمى «الأخلاق» والنظام الذي يجب أن يضعه لمجتمعه يدعي «العدالة» والعلاقة التي يجب أن تربطه بخالقه وتجدد إيمانه وتكمله تسمىٰ «العبادة»، هي جميعاً من هذا القبيل.

وجزء آخر من حاجات البشر متغير ويوجب من الناحية القانونية وضعاً متغيراً، والإسلام قد خصص لهذه الحاجات المتغيرة وضعاً متغيراً حيث ربط هذه الأوضاع المتغيرة بالمبادئ الثابتة وغير القابلة للتغيير والتي تنتج في كل وضع جديد ومتغير قانوناً فرعياً ومناسباً خاصاً لذلك الوضع.

ونكتفي هنا بذكر مثالين لما نقول:

في الإسلام مبدأ اجتماعي بهذا الشكل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[1].

أي أعدوا القوة وكونوا أقوياء أمام العدو حتىٰ آخر حد ممكن، وهذا المبدأ يعلمنا إياه «الكتاب» أي القرآن ومن جهة أخرىٰ وردت في السنة مجموعة من التعاليم تعرف في الفقه باسم «السبق والرماية» فقد وردت تعليمات تقول:

علموا أنفسكم وأبناءكم فن ركوب الخيل والرماية إلى حد المهارة الكاملة، وقد كان سباق الخيل والرماية من الفنون العسكرية لذلك العصر من أفضل الوسائل لأعداد القوة والشدة أمام العدو، ولكن جذور قانون «السبق والرماية» وأساسه هو مبدأ «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة» بمعنىٰ أن الأصالة في الإسلام ليست للسهام والسيوف والرماح والخيول التي هي أيضاً ليست من الأهداف الإسلامية بل الأصالة في أنه يجب علىٰ المسلمين في كل عصر زمان أن يكونوا أمام أعدائهم أقوياء من حيث القوة العسكرية والدفاعية إلى آخر حد ممكن.

والواقع أن وجوب المهارة في الرماية وسباق الخيل بمثابة ثوب ألبس به وجوب الشدة أمام العدو، وبعبارة أخرىٰ كانت المهارة في الرماية الشكل التنفيذي للقوة في ذلك العصر والزمان، فوجوب الشجاعة أمام العدو قانون ثابت ينبع من حاجة ثابتة ودائمة، أما وجوب المهارة في الرماية وسباق الخيل فهو مظهر حاجة مؤقتة ويتغير بتغير مقتضيات الزمان وتوسع العوامل الثقافية والفنية فتحل محله أمور أخرىٰ من قبيل وجوب المهارة في استعمال أسلحة هذا اليوم.

---

١ ـ الانفال: ٦٠.

المثال الآخر: قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**»(١).

وقد أثبت العلماء المسلمون أن وجوب تحصيل العلم في نظر الإسلام في أمرين: أحدهما حين يكون اكتساب الإيمان تابعاً للعلم والآخر حين تكون تأدية واجب معين متوقفة عليه.

وفي الحالة الثانية يقولون إن وجوب طلب العلم هو نوع من التهيؤ أي من أجل أن يعد الإنسان للعمل وتأدية الواجب.

ومن هنا أصبح تحصيل العلوم من حيث الوجوب وعدم الوجوب متفاوتاً حسب مقتضيات الزمان، ففي بعض الأزمنة ليس لتأدية التكاليف الإسلامية وحتى التكاليف الإجتماعية كالتجارة والصناعة والسياسة وغيرها حاجة تذكر إلى تحصيل العلم فالتجارب العادية كافية لهذا الغرض، ولكن في أزمنة أخرىٰ كزماننا فإن تأدية هذه الواجبات معقدة وصعبة إلى درجة تستوجب فيها سنين من الدراسة والتخصص حتىٰ يمكن تأدية التكاليف الإجتماعية الإسلامية (الواجبات الكفائية)، ولهذا فإن تحصيل العلوم السياسية والاقتصادية والفنية وغيرها الذي لم يكن واجباً في عصر ما يصبح واجباً في عصر آخر، لماذا؟ لأن تنفيذ مبدأ وجوب حفظ كرامة المجتمع الإسلامي وعزته واستقلاله والذي هو مبدأ ثابت ودائم لايحصل في ظروف هذا الزمان الا بتحصيل العلم وإكماله، فانجاز هذا التكليف في الظروف والأزمنة المختلفة لايتم بصورة واحدة.

ويمكن أن نجد الكثير من هذا النوع من الأمثلة.

---

١ ـ الكافي: ج ١، ص ٣٠.

٥ ـ من الأمور الأخرىٰ التي تدل علىٰ تناسق التعليمات الإسلامية مع الطبيعة والفطرة وتعطيها إمكانية الخلود العلاقة السببية بين الأحكام الإسلامية وبين المصالح والمفاسد الحقيقية وتصنيف الأحكام حسب هذه الصفة.

قد أعلن في الإسلام ان الأحكام تتبع مجموعة من المصالح والمفاسد الحقيقية وأعلن أن هذه المصالح والمفاسد ليست بدرجة واحدة.

وهذا الأمر أدىٰ إلى فتح باب خاص في الفقه الإسلامي باسم باب «التزاحم» أو «الأهم والمهم» ليسهل عمل الفقهاء والخبراء المسلمين في المواضع المتضاربة واجتماع المصالح والمفاسد المختلفة، وقد أجاز الإسلام نفسه لعلماء الأمة في هذه المواضع أن يقيسوا درجة أهمية المصالح مسترشدين بتوجيهات الإسلام الخاصة ويرجحوا المصالح الأهم علىٰ المصالح الأقل أهمية فيخرجوا من الطريق المسدود.

روي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إذا اجتمعت حرمتان طرحت الصغرىٰ للكبرىٰ**»[١] ينقل ابن الأثير في «النهاية» هذا الحديث ويقول: أي إذا كان أمر فيه منفعة للناس ومضرة علىٰ الخاصة قدمت منفعة العامة. وما قاله ابن الأثير هو أحد موارد تقدم المصلحة الأهم على المصلحة الأصغر فنص الحديث لاينحصر بهذا المورد.

يعتبر تشريح الميت الذي أصبح في عصرنا ضرورياً بتقدم العلم واحداً من مصاديق باب «التزاحم»، فكما نعرف قد أوجب الإسلام احترام جسد المسلم والاسراع في مراسم تجهيز الميت، ومن جهة أخرىٰ يتوقف جزء من التحقيقات

---

١ ـ غريب الحديث، لابن قتيبة: ج ٢، ص ٣٤٤.

والتعليمات الطبية في عصرنا علىٰ التشريح، وهنا مصلحتان وقفتا متخالفتين، ومن البديهي أن مصلحة التحقيقات والتعليمات الطبية مرجحة علىٰ مصلحة الاسراع في تجهيز الميت واحترام جنازته ففي حالة انحصار الأمر بالميت المسلم وعدم كفاية غير المسلم، أو تقدم الميت المجهول علىٰ المعلوم ومراعاة بعض الخصوصيات الأخرىٰ يرفع منع تشريح جثة الميت المسلم بحكم قاعدة «الأهم والمهم».

ولهذه القاعدة أيضاً أمثلة كثيرة.

٦ـ الشيء الآخر الذي منح المقررات الإسلامية صفة الانعطاف والتحرك والتطابق ويحفظها خالدة وجود مجموعة من القواعد الضابطة التي تكمن في نص المقررات الإسلامية والتي أسماها الفقهاء اسماً جميلاً جداً حيث يسمونها القواعد «الحاكمة» يعني القواعد التي تتحكم بجميع الأحكام والمقررات الإسلامية وتتسلط عليها، وهذه القواعد تراقب الأحكام والمقررات كمجموعة من المفتشين وتضبطها، فقاعدة «الحرج» وقاعدة «لا ضرر» من هذا النوع، وفي الحقيقة اعطىٰ الإسلام لهذه القواعد حق «الفيتو» ولهذه القواعد أيضاً قصة مفصلة ورائعة.

٧ـ شيء آخر هو الصلاحيات التي منحها الإسلام للحكومة الإسلامية وبعبارة أخرىٰ للمجتمع الإسلامي، وهذه الصلاحيات تختص بالدرجة الأولىٰ بحكومة شخص النبي وتنتقل منه لحكومة الإمام ومنه لأية حكومة شرعية أخرىٰ، يقول القرآن الكريم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[1].

ومجال هذه الصلاحيات واسع، فالحكومة الإسلامية تستطيع في الظروف

---

١ ـ الاحزاب: ٦.

الجديدة والحاجات الجديدة وبالاستناد إلى المبادئ والأسس الإسلامية أن تضع مجموعة من المقررات التي كانت في الماضي منتفية موضوعياً[١]، وصلاحيات السلطة الإسلامية الحاكمة تعتبر شرطاً لازماً لحسن تنفيذ القوانين السماوية وحسن التطابق مع مقتضيات الزمان لحسن تنظيم البرامج الخاصة لكل مرحلة، ولهذه الصلاحيات حدود وشروط لا مجال للحديث عنها الآن.

---

١ ـ راجع «تنبيه الأمة» للمرحوم آية الله النائيني، ص ٩٧ ـ ١٠٢، ومقالة «الولاية والزعامة» بقلم العلامة الطباطبائي في كتاب «المرجعية والعلماء» ط ٢، ص ٨٢ ـ ٨٤.

انتقال المسؤولية:

الحديث السابق بين أن بلوغ البشر العقلي والعلمي وظهور مرحلة قدرتهم علىٰ تلقي الحقائق الكلية للمعارف والقوانين الإلهية وعلىٰ حفظ الميراث الديني ومقاومة أنواع التحريف والبدع والدعوة إلى الدين وتبليغه ونشره، يمثل الأرضية المناسبة لانتهاء الرسالة، فالقسم الأعظم من الواجبات التي كان يؤديها الوحي مضطراً في مرحلة البشر، تؤديه في مرحلة الرشد والبلوغ العقلي والعلمي، القوة العلمية والعقلية فيصبح العلماء ورثة الأنبياء.

ومع أن الإسلام ـ وخلافاً للأعراف الدينية الشائعة ـ لم يعط أي نوع من الامتياز للعلماء يؤدي إلى نوع من الامتياز الطبقي، فقد أوكل إليهم أعظم الأدوار ـ الدينية، فلم يكن للعلماء في أي دين ما لهم في الإسلام من دور أصيل ومؤثر، وهذا ينشأ من صفة الخاتمية التي تخص هذا الدين.

وأول «منصب» ينتقل في مرحلة الخاتمية من الأنبياء إلى العلماء هو منصب الدعوة والتبليغ والارشاد ومقاومة التحريف والبدع.

فجماهير البشر تحتاج في جميع المراحل إلى الدعوة والإرشاد والقرآن أوكل بصراحة كاملة هذا الواجب إلى مجموعة من الأمة نفسها: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾[١].

وإضافة إلى ذلك فإن الأسباب التي تؤدي إلىٰ التحريف والبدعة كانت

---

١ ـ آل عمران: ١٠٤.

موجودة في كل وقت وستظل موجودة ومن واجب العلماء أيضاً مقاومة أنواع التحريف والبدع، يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: **(إذا ظهرت البدع فعلىٰ العالم أن يظهر علمه ومن لم يفعل فعليه لعنة الله)**[١].

إن ما يجعل هذه المقاومة ممكنة ويسهل عملها هو بقاء المقياس الأصيل أي القرآن محفوظاً، وقد أكد الرسول الأكرم بشكل خاص علىٰ الإستفادة من القرآن للحكم علىٰ صحة ما ينقل عن لسانه وسقمه.

وحفظ النصوص الأصلية من تلاعب الأحداث، واستنباط الفروع من الأُصول وتطبيق الكليات علىٰ الجزئيات، وطرح المسائل الجديدة التي يأتي بها كل عصر واكتشافها والوقوف بوجه التطرف، ومقاومة الجمود علىٰ الأشكال والظواهر والعادات وفصل الأحكام الأصلية والثابتة والأم عن المقررات الفرعية والناتجة، وتشخيص الأهم والمهم ثم ترجيح الأهم، وتعيين حدود صلاحيات الحكومة ووضع القوانين المؤقتة، وفي النهاية تنظيم البرامج المناسبة لحاجات العصر، من أهم واجبات علماء الأُمة في مرحلة الخاتمية.

فعلماء الأمة الإسلامية وطبقاً للواجب والمسؤولية التي يتحملونها سوف يكونون أعلم الناس بزمانهم، لأن تشخيص مقتضيات الزمان الحقيقية من مقتضيات الإنحرافات الأخلاقية والإنحطاطات الروحية للناس، لايمكن تحقيقه دون معرفة روح العصر والعوامل المؤثرة في تركيبه ووجهة سير تلك العوامل.

---

١ ـ أُصول الكافي: ج ١، ص ٥٤.

الإجتهاد:

الإجتهاد هو أهم واجبات علماء الأُمة ومسؤولياتهم، فالإجتهاد يعني السعي بعلم وبطريقة صحيحة لإدراك مقررات الإسلام بالإستفادة من المصادر: الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

وقد وردت كلمة الإجتهاد لأول مرة في الأحاديث النبوية وبعد ذلك شاعت بين المسلمين، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن، والكلمة التي ترادف في روح المعنىٰ هذه الكلمة ووردت في القرآن هي كلمة «التفقه»، فالقرآن قد دعا بصراحة إلىٰ التفقه والفهم العميق للدين.

وعلىٰ الإجتهاد أو التفقه في مرحلة الخاتمية واجب حساس جداً وأساس وهو من شروط بقاء الإسلام خالداً، وقد أسموه بحق الطاقة المحركة للإسلام وابن سينا الفيلسوف الإسلامي الكبير يطرح هذه المسألة بنظرة واضحة فيقول: «الكليات الإسلامية ثابتة ومحدودة ولا تتغير أما الحوادث والمسائل فهي متغيرة وغير محدودة، ولكل زمان مقتضياته ومسائله الخاصة، ولهذا فمن الضروري أن يتعهد في كل عصر وزمان نفر من المتخصصين والعارفين بكليات الإسلام ومسائل الزمان وحوادثه، بالإجتهاد واستنباط أحكام المسائل الجديدة من كليات الإسلام»[١].

في المراحل المضيئة للحضارة الإسلامية التي توسع فيها المجتمع البدوي

---

١ ـ آخر إلهيات الشفاء.

البسيط بسرعة فسيطر علىٰ آسيا وأجزاء من أوربا وأفريقيا وحكم الشعوب والأقوام المختلفة التي كان لكل منها ماضي وثقافة خاصة به مما أوجد آلاف المسائل الجديدة، تحمل علماء الإسلام الواجب الذي أوكل إليهم جيداً وأثاروا إعجاب العالم واثبتوا أن المصادر الإسلامية لو اقترنت بحسن التشخيص والإستنباط فهي قادرة علىٰ التقدم مع مجتمع متحول ومتكامل وتوجيهه، وأثبتوا أن الحقوق الإسلامية حية وقابلة للتنسيق مع المقتضيات الناشئة عن تقدم الزمان والاستجابة لحاجات كل عصر.

ويعترف المستشرقون والحقوقيون الذين طالعوا تاريخ الفقه الإسلامي لذلك العصر بهذه الحقيقة ويرون أن الحقوق الإسلامية مدرسة حقوقية مستقلة وحية.

كان حق الإجتهاد محفوظاً وبابه مفتوحاً حتىٰ القرن السابع الهجري، وفي هذا القرن سلبوا هذا الحق من العلماء ولأسباب تاريخية خاصة وبشورىٰ وإجماع مصطنعين وأجبر العلماء أن يتبعوا إلىٰ الأبد آراء علماء القرن الثاني والثالث الهجري ومن هنا برزت مسألة حصر المذاهب الفقهية بالمذاهب الأربعة المعروفة.

ويعتبر غلق باب الإجتهاد مصيبة كبرىٰ في العالم الإسلامي وربما كان إلى حدّ ما رد فعل لمجموعة من الإجتهادات المتطرفة، علىٰ كل حال أن أنواع الجمود والركود في الفقه الإسلامي بدأت منذ ذلك الوقت.

وقد حدث غلق باب الإجتهاد عند أهل السنة ولم تكن له علاقة مباشرة بالعالم الشيعي، ولكنه ترك طوعاً أو كرهاً تأثيراً غير مطلوب في العالم الشيعي، فقد برزت بعد القرن السابع في فقه الشيعة أفكار ورؤىٰ عميقة وفي بعض الأجزاء حدثت تحولات عظيمة ولكنه لايمكن في الوقت نفسه إنكار أن في هذه النظام الفقهي أيضاً نرىٰ بشكل واضح ميلاً إلىٰ طرح المسائل بطريقة ما قبل سبعة قرون

والهروب من المواجهة مع المسائل التي تحتاج إليها اليوم وعدم الميل إلى كشف الطرق الأحدث والأعمق.

ظهرت في القرون الأخيرة ـ مع كل أسف ـ بين الشباب وما تسمىٰ بالطبقة المثقفة المسلمة ميول نحو التغرب ونبذ الأصالة الشرقية والإسلامية والاستسلام والتقليد الأعمىٰ لكل «ازم»(١) غربية ولسوء الحظ أن هذه الميول تسير نحو الازدياد، ولكن لحسن الحظ هناك احساس بظهور طلائع نهضة ووعي أمام هذه الميول العمياء الغارقة في النوم.

ويكمن جذر هذه الضلالة النائمة في التصور الخاطئ الذي تحمله هذه المجموعة في اذهانها حول المقررات الإسلامية من ناحية ما يسمىٰ بـ«الدغماتية» وقد ساعد عدم تحرك الإجتهاد علىٰ مر القرون علىٰ هذه التصورات الخاطئة، وأنه لمن واجب مسؤولي القوم وهداتهم الوقوف في أسرع ما يكون وبشكل منطقي أمام هذه الميول غير الصائبة.

ولا تخفىٰ أسباب هذه الحالة وعواملها علىٰ أحد، ومما لا ينبغي كتمانه أن الجمود والركود الفكريين اللذين حكما العالم الإسلامي خلال القرون الأخيرة وخاصة توقف الفقه الإسلامي عن التحرك، وظهور روح الميل والنظر إلى الماضي، والامتناع عن مواجهة روح العصر، تعد من أسباب هذه الهزيمة، واليوم فالعالم الإسلامي بحاجة ـ أكثر من أي وقت ـ إلى نهضة تشريعية تنبع بنظرة جديدة وواسعة وشاملة من أعماق التعليمات الإسلامية لأجل أن نفك حبال الاستعمار الفكري الغربي عن أيدي المسلمين وأرجلهم.

---

١ ـ لاحقة تلحق بالكلمات الأجنبية مثل (امبرياليزم).

الرؤىٰ الجديدة:

من أعجب الموضوعات في تاريخ العلوم والفلسفة الإسلامية، الاستعداد اللامنتهي للمصادر الإسلامية وخاصة القرآن الكريم للتحقيق والإكتشاف والاستنباط، ولايختص هذا الأمر بالمسائل الفقهية والحقوقية فهو هكذا في جميع الأجزاء، فكل كتاب بشري ومهما كان عظيماً له استعداد محدود وقابل للإنتهاء، في التحقيق والمطالعة ويكفي عمل عدة أشخاص متخصصين لتوضيح جميع جوانبه، ولكن القرآن أظهر خلال أربعة عشر قرناً ومع العمل المستمر عليه من قبل مئات المتخصصين أن له من حيث التحقيق والإجتهاد استعداداً غير قابل للإنتهاء والقرآن من هذه الناحية كالطبيعة التي كلما توسعت الرؤىٰ وتعمقت وازدادت التحقيقات والمطالعات فإنها تأتي بسر جديد، وإن مطالعة دقيقة حول المسائل المتعلقة بالمبدأ والمعاد والحقوق والفقه والأخلاق والقصص التاريخية والطبيعيات والتي وردت في القرآن ومقارنة ذلك بالآراء التي ظهرت خلال أربعة عشر قرناً وأصبحت قديمة اليوم، يوضح هذه الحقيقة.

وكلما تقدمت الآراء أكثر وتوسعت وتعمقت وجدت نفسها أكثر تجانساً مع القرآن، وإن كتاباً سماوياً يكون في الوقت نفسه جالباً معه معجزته الباقية يجب أن يكون حقاً هكذا.

إن أكبر اعداء القرآن الجحود والتوقف في الرؤية الخاصة بزمان معين ومرحلة خاصة كما كان أكبر مانع في معرفة الطبيعة قصور العلماء، أن معرفة الطبيعة هي ما كان يفعله في الماضي أشخاص كأرسطو وأفلاطون وغيرهم.

وقد كان منذ البداية قائد الإسلام العظيم يؤكد علىٰ أن القرآن الكريم وحتىٰ الكلمات الشاملة للرسول الأكرم نفسه ذات قابلية لا متناهية للبحث والتحقيق ولاينبغي للرؤىٰ أن تحدد، وكان يبين ذلك لأصحابه، وقد أشار الرسول الأكرم مراراً في كلماته إلى وجوب عدم تحديد القرآن بالرؤية الخاصة بعصر وزمان محدود حيث قال: «**ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلىٰ تخومه تخوم، لا تحصىٰ عجائبه، ولا تبلىٰ غرائبه**»(١).

وسأل الإمام الصادق عليه السلام: «**ما بال القرآن لايزيد بالنشر والدراسة إلا غضاضة؟**» قال عليه السلام: «**لأنه لم ينزل لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، ولذلك ففي كل زمان جديد، وعند كل ناس غض**»(٢).

وكان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يؤكد علىٰ: «**نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وبلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»(٣).

وقد أشهر التاريخ أن الذين جاؤوا في العصور اللاحقة أبرزوا فهماً أعمق ونظرة أوسع في ادراك معاني أقوال الرسول ومفاهيمها.

---

١ ـ أُصول الكافي: ج ٢، ص ٥٩٩.

٢ ـ عيون أخبار الرضا، الطبعة الحجرية، ص ٢٣٩.

٣ ـ أُصول الكافي: ج ١، ص ٤٠٣.

النسبية في الإجتهاد:

ليس تأثير الآراء المتتالية والمتكاملة في أي حال محسوساً ومشهوداً كما هو الحال في المسائل الفقهية، وقد مر الفقه الإسلامي بمراحل وأطوار كانت تحكم في كل منها طريقة تفكير خاصة ونظرة معينة، فأُصول الاستنباط وقواعده تختلف اليوم عما كانت عليه قبل ألف أو سبعمائة سنة، وعلماء ما قبل ألف سنة مثل الشيخ الطوسي كانوا بالتأكيد من المجتهدين البارزين وكان الناس حقاً يقلدونهم ويتبعونهم، وطراز تفكيرهم وطبيعة نظرتهم واضحة تماماً من الكتب التي ألفوها في الفقه وخاصة في الأُصول، فكتاب العدة للشيخ الطوسي الذي كتبه في الأُصول توضح طريقة تفكيره وطبيعة نظرته موجود تحت أيدينا، ولكن ذلك النوع من النظرة وتلك الطريقة في التفكير منسوختان في نظر فقهاء العصور المتأخرة لظهور آراء أحدث وأعمق وأوسع وأكثر واقعية منها واشغالها مكانها، كما أن تقدم العلوم الحقوقية والنفسية والإجتماعية في العصر الحالي أمكن من التعمق أكثر في المسائل الفقهية.

لو سأل سائل: هل أن علماء ذلك العهد وذلك العصر كانوا مع تلك النظرة وتلك الطريقة في التفكير مجتهدين يحق للناس تقليدهم واتباعهم واعتبار نظرتهم مقياساً في تشخيص المقررات الإسلامية؟ فالجواب بالإيجاب.

ثم لو سأل، لو أراد طالب أن يتجاهل جميع الكتب والتأليفات والآثار التي تخص ما بعد القرن الرابع والخامس ويفترض نفسه موجوداً في القرن الخامس ويؤدي المطالعات نفسها التي كان يؤديها العلماء في عصر الشيخ الطوسي فيكون

عنده النظرة نفسها وطريقة التفكير نفسها التي كانت عند أولئك، فهل أن شخصاً كهذا مجتهد حقيقة ويحق لجماهير الناس أن يقلدوه ويتبعوه؟ فالجواب سلبي، لماذا؟ ما الفرق بين هذا الشخص وبين الناس في القرن الخامس الفرق في أن أولئك كانوا يعيشون في عصر كانت فيه تلك النظرة، هي النظرة الوحيدة، وهذا الشخص يعيش في عصر حلت فيه نظرات أكمل محل ذلك النوع من النظرة وتلك الطريقة في التفكير فأصبح ذلك النوع من النظرة، وتلك الطريقة من التفكير منسوختين.

من هنا يمكننا أن نفهم جيداً أن الإجتهاد مفهوم «نسبي» ومتطور ومتكامل، وإن كل عصر وزمان يستوجب نظرة وادراكاً خاصاً، وهذه النسبية تنشأ من أمرين، القابلية اللامتناهية للمصادر الإسلامية للكشف والتحقيق، والتكامل الطبيعي للعلوم والأفكار البشرية، وهنا يكمن سر الخاتمية العظيم.

الإمام علي عليه السلام

في قوّتيه الجاذبة والدافعة

الإمام علي عليه السلام

في قوّتيه الجاذبة والدافعة

ترجمة:

صادق الخليلي

تقديم

إن شخصية الإمام علي عليه السلام العظيمة الرحبة لأوسع وأشمل من أن يستطيع فرد بمفرده أن يجول فيها بفكره ليحيط بها من جميع الجوانب والأطراف. إن أقصى ما يستطيعه المرء هو أن يقنع بتناول جانب واحد أو عدد محدود من جوانب شخصيته بالمطالعة والدرس.

ومن جوانب هذه الشخصية العظيمة ذلك الجانب الذي يكشف عن تأثيره في الناس تأثيراً موجباً أو سالباً. وبعبارة أخرىٰ: هو ما في الامام من قوة «الجذب والدفع» الكبيرة التي ما زالت تعمل عملها حتىٰ الآن، وهي ماسوف يتناوله هذا الكتاب بالبحث.

من البديهي أن يتباين الناس من حيث ما يثيرونه من ردود الفعل عندالآخرين. وكلما كانت الشخصية أضعف كان انشغال الآخرين بها أقل وما تثيره في القلوب من التهيج والإثارة أدنى. وكلما كانت الشخصية أعظم وأقوى كانت أقدر علىٰ استثارة المشاعر وإبراز ردود الفعل، سواء كانت مؤيدة أم مخالفة.

إن الشخصيات التي تثير الخواطر وتستدعي ردود الفعل تلهج بذكرها الألسنة كثيراً، وتكون موضع جدل ونقاش وخصام، وتتخذ أغراضاً للشعر والرسم والفنون الاخرى، وأبطالاً للروايات والقصص. هذه أمور نجدها كلها قدتحققت

في حدودها العليا بشأن علي عليه السلام ولم ينافسه في ذلك أحد، أو نافسه أفراد معدودون.

يقال إن محمدبن شهر آشوب المازندراني ـ الذي كان من أكابر علماء الامامية في القرن السابع ـ عندما أقدم علىٰ تأليف كتابه المعروف «المناقب» كان في مكتبته ألف كتاب باسم «المناقب» كتبت كلها في علي عليه السلام.

هذا نموذج واحد يدل علىٰ مدى انشغال الخواطر بهذه الشخصية العظيمة السامية علىٰ امتداد التاريخ.

إن الميزة الرئيسة التي يمتاز بها علي عليه السلام وسائر الذين استضاءوا[١] بنور الحق، هي أنهم ـ فضلاً عن اشغالهم الخواطر والافكار ـ كانوا يفيضون على القلوب والارواح النور والحرارة والحب والنشاط والإيمان والثبات.

ان فلاسفة مثل سقراط وافلاطون وارسطو وابن سينا وديكارت مازالوا يستحوذون على افكار الناس وخواطرهم.

وان قادة الثورات الاجتماعية ـ وعلى الاخص في هذا القرن ـ أثاروا في مؤيديهم ضرباً من التعصب.

ورجال التصوف استطاعوا أن يحملوا أتباعهم على الرضوخ لحالة «التسليم» بحيث لو أن «صاحب الحانة أومأ لهم لصبغوا السجادة بالخمر».[٢]

إلا أننا لانرى في أي من أولئك تلك الحرارة المصحوبة باللیونة واللطافة والصفاء والرقة التي يدور فيها الكلام على علي عليه السلام في التاريخ. فالصفويون الذين

١ ـ في الأصل «اضاءوا». (المصحح)

٢ ـ هذا تضمين لأحد أبيات الشاعر حافظ الشيرازي ـ المترجم

أنشأوا من الدراويش جيشاً جراراً من المجاهدين، إنما أنشأوه باسم علي لا بأسمائهم.

إن الحسن والجمال المعنويين الَّذين يخلقان المحبة والخلوص ينشآن من مقولة واحدة... بينماالسلطة والمنفعة والمصلحة الحياتية اللتان هما(١) بضاعة القادة الاجتماعيين، أو التعقل والتفلسف اللذان(٢) هما بضاعة الفلاسفة، أو إثبات السلطة والاقتدار اللذان هما(٣) بضاعة المتصوفة ... من مقولة أخرى.

لقد جاء أن أحد تلامذة ابن سينا كان يقول له: لو أنك بهذا الذكاء والفهم الخارق للعادة ادعيت النبوة لالتف حولك الناس. إلا أن ابن سينا لم يكن يرد عليه بشيء. حتىٰ جمعتهما سفرة في أيام شتاء. وعندالفجر من احدى الليالي أيقظ ابن سينا تلميذه وطلب منه ان يأتيه بقليل من الماء لارواء عطشه. فراح التلميذ يتعلل وينحت الاعذار لكيلا يغادر فراشه الدافيء في تلك الليلة الباردة على الرغم من كثرة إلحاح أستاذه عليه. وفي تلك اللحظة ارتفع صوت المؤذن من المئذنة (الله أكبر. أشهد أن لا اله الا الله. أشهد أن محمداً رسول الله) فاغتنم ابن سينا الفرصة وقال لتلميذه: ألم تكن تحرضني على ادعاء النبوة وتقول: ان الناس سوف يؤمنون بي ويتبعونني؟ ولكنك ـ وأنت تلميذى منذ سنوات، وقداستفدت من دروسي ـ لم يكن لي عليك ذلك النفوذ الذي يخرجك من فراشك دقائق معدودة لتأتيني بالماء؛ ولكن هذا المؤذن يصدع بأمر نبيه بعد أربعمائة سنة فينهض من نومه الهنيء وفراشه الدافيء ليصعد المئذنة ليشهد بوحدانية الله وبرسالة

---

١ ـ في الأصل «التي هي». (المصحح)

٢ ـ في الأصل «اللذين». (المصحح)

٣ ـ في الأصل «الذي هو». (المصحح)

محمد ﷺ، فانظر ما أبعد الاختلاف!.

نعم.. إن الفلاسفة يصنعون التلاميذ لا الأتباع، والقادة الاجتماعيون يصنعون الاتباع المتعصبين، لاالناس المهذبين، وأقطاب التصوف ومشايخ العرفان يصنعون المستسلمين، لا المؤمنين المجاهدين النشطين.

ولكن في علي عليه السلام اجتمع فعل الفيلسوف، وفعل القائد الثوري، وفعل شيخ الطريقة وفعل يشبه فعل الانبياء.. مدرسته مدرسة العقل والفكر، ومدرسة الثورة، ومدرسة التسليم والانضباط، ومدرسة الحسن والجمال والانجذاب والحركة.

إن علياً عليه السلام قبل أن يكون إماماً عادلاً للناس ويحكم بينهم بالعدل، كان انساناً متعادلاً متوازناً في ذاته، يجمع فيها الكمالات الانسانية كلها.. كان إلى جانب عمق تفكيره وبعد نظره يتمتع بمشاعر عاطفية رقيقة. جمع كمال الجسم إلى كمال النفس. كان في الليل ينقطع عن كل امر للتعبد، وفي النهار ينشط في كل عمل اجتماعي. كانت عيون الناس ترى منه في النهار التضحية والمواساة، وتسمع منه آذانهم النصيحة والموعظة والحكمة. وفي الليل كانت عيون الانجم ترى دموع تعبده، وتسمع آذان السماء مناجاته الوالهة. كان المفتي والحكيم، وكان الصوفي والقائد الاجتماعي، وكان الزاهد والجندي، وكان القاضي والعامل، وكان الخطيب والكاتب ـ لقد كان الإنسان الكامل بكل ما فيه من حسن وجمال.

❊ ❊ ❊

هذاالكتاب يتألف من أربع محاضرات ألقيت في (حسينية إرشاد) من ١٨ حتى ٢١ من شهر رمضان المبارك في سنة ١٣٨٨ هـ وقد أقيم الكتاب على مقدمة وفصلين:

في المقدمة جرى بحث كلي بشأن الجذب والدفع عموماً، وبشأن جذب

الإنسان ودفعه خصوصاً.

وفي الفصل الاول يجري الكلام على قوة جاذبية علي عليه السلام التي جذبت - ولم تزل تجذب - القلوب إليه، وفلسفة ذلك، وفائدته وأثره.

وفي الفصل الثاني نتناول قوة دفع الإمام عليه السلام وكيف كان يطرد بها بعض العناصر بكل مشقة. فقد ثبت أن علياً عليه السلام كان ذاقدرتين، وأن على من يرغب أن يتربى في مدرسته أن يكون ذاقدرتين أيضاً.

ولما لم يكن يكفي أن يكون المرء مزدوج القدرة فحسب لكي ينتمي إلى مدرسة الإمام علي عليه السلام، فقد سعينا جهدنا في هذاالكتاب أن نبين من أي طراز هم أولئك الذين تجذبهم قوة جاذبية الإمام، وأي نوع من الناس تطردهم قوة دفعه. وما أكثر الذين يدّعون أنهم من أتباع مدرسته ولكنهم يعملون على دفع الذين كان علي عليه السلام يجذبهم، وجذب الذين كان يدفعهم.

عندالكلام على قوة دفع علي عليه السلام اكتفينا ببحث ظاهرة الخوارج، على الرغم من وجود طبقات أخرى تشملهم قوة دفع علي عليه السلام، ولعلنا نوفق إلى معالجة هذاالتقصير مثل غيره مما في هذاالكتاب، في وقت آخر، أو في الطبعة الاخرى لهذا الكتاب.

لقد تحمل متاعب اصلاح هذه المحاضرات واكمالها الأخ الفاضل حضرة السيد فتح الله الاميدي، إذ نصف[1] الكتاب بقلمه، فبعد أن نقله، من أشرطه التسجيل على الورق، عاد فكتبه بقلمه أو أصلحه وأكمله. أما النصف الآخر فقد أمليته بنفسي، أوقمت بإضافة بعض الأمور بعد ان قام الاخ الفاضل بإعداده واصلاحه.

---

١ ـ في الأصل «فنصف». (المصحح)

واني لأرجو أن يكون للكتاب بمجموعه أثر تعليمي نـافع، سـائلاً الله تـعالى ان يجعلنا من اتباع علي عليه السلام الحقيقيين.

طهران ـ ٤/محرام الحرام/١٣٩١ هـ. ق

مرتضى مطهري

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

سورة التوبة الآية ٧١.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾.

سورة التوبة: الآية ٦٧.

المقدمة

- قانون الجذب والدفع.
- الجذب والدفع في عالم الإنسان.
- اختلاف الناس في الجذب والدفع.
- عليّ ـ الشخصية ذات القوتين.

قانون الجذب والدفع

قانون الجذب والدفع قانون عام يسود سائر أجزاء نظام الخلق. فالعلوم المعاصرة ترى أن كل ذرة من ذرات عالم الوجود تقع ضمن دائرة حكم الجاذبية العامة ولاتخرج عنه ذرة واحدة. فالأجسام ـ أكبرها وأصغرها ـ تملك هذه الطاقة الغامضة التي تسمى الجاذبية ـ أو قوة الجذب ـ و تقع تحت تأثيرها أيضاً.

لم يكتشف الإنسان في عهوده السابقة قانون الجاذبية العام في العالم، ولكنه عرف بوجود هذه الحالة في بعض الأجسام. وكان يرى في بعضها نماذج لذلك، مثل المغناطيس والكهرباء. ومع ذلك فهو لم يعرف مدىٰ تأثير جذبها على جميع الأجسام، بل أدرك علاقة التجاذب التي تربط ـ مثلاً ـ بين المغناطيس والحديد، أو بين الكهرباء والقش.

فإذا تغاضينا عن كل ذلك، نجد أنهم لم يقولوا بوجود هذه الطاقة في سائر الأشياء، سوى الأرض التي فسروا وقوفها في الفضاء بكونها هدفاً للجذب من جميع الجهات بدرجة متساوية، ولذلك فهي متعلقة في الفضاء من غير أن تميل إلى جهة من الجهات. وكان بعضهم يعتقدون أن السماء لاتجذب الأرض بل تدفعها، ولكون قوة الدفع تصل إلى الأرض من جميع الجهات بمقادير متساوية، ولذا فإنها

تظل ساكنة في نقطة معينة ولا تغير مكانها.

الجميع يقولون أيضاً بوجود قوة الجذب والدفع في النباتات والحيوانات، وذلك يعنى عندهم أنها تملك القوى الأصلية الثلاث: قوة التغذية، وقوة النمو، وقوة التوالد. وكانوا يقولون بأن لقوة التغذية فروعاً أخرى، مثل القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة والماسكة. وأن في المعدة قوة جاذبة تجذب الغذاء نحوها، واذا لم تجد الغذاء مناسباً دفعته بعيداً. وأن في الكبد قوة جاذبة تجذب إليه الماء.(١)

١ ـ أما اليوم فيتعبرون بنية الجسم كالماكنة، ويرون عملية الدفع كعمل المضخة.

الجذب والدفع في عالم الإنسان

ليس المقصود من الجذب والدفع هنا ذلك الجذب والدفع الجنسي، وان كان هذا ـ أيضاً ـ ضرباً من الجذب والدفع الذي يعتبر موضوعاً قائماً بذاته، انما المقصود هو ذاك الجذب والدفع اللذان يقعان بين الناس في الحياة الاجتماعية. ولا نعني بذلك التعاون القائم بين الناس على تبادل المنافع، فهذا ـ أيضاً ـ ليس موضوع بحثنا.

ان جانباً كبيراً من الصداقة والمحبة، أو من العداء والكره، يعتبر من مظاهر جذب الإنسان ودفعه. وهو قائم على أساس من التماثل والتشابه، أو على أساس من التضاد والتنافر. وفي الواقع ينبغي البحث عن أسباب الجذب والدفع في السنخية والتنافر، مثلما يقال في الفلسفة: إن التماثل علة الانضمام.

قدنلاحظ شخصين ينجذب أحدهما للآخر، ويحبان أن يبقيا معاً صديقين. إن لهذا دلالته، وهى ليس إلّا التماثل، إذ لولا وجود التشابه بينهما لما انجذب أحدهما إلى الآخر ولما رغبا في أن يكونا رفيقين. وعليه، فإن التقارب بينهما دليل على أن هناك ضرباً من التشابه والتماثل بينهما.

في الكتاب الثاني من المثنوي حكاية طريفة:

رأىٰ حكيم غراباً ولقلقاً قدعقدا بينهما عهد صداقة، فيحطان معاً ويطيران معاً! هذان الطائران، من نوعين مختلفين، فالغراب .. لا لونه ولاشكله يشابهان اللقلق، فأخذه العجب: لماذا الغراب واللقلق؟! فاقترب منهما فرأى أنهم أعرجان.

إن اشتراك هذين النوعين المختلفين من الطيور في هذه العاهة هو الذي جعل

أحدهما يأنس بالآخر. كذلك الإنسان لا يألف انساناً آخر بغير علة، ولا هو يعاديه بغير علة أيضاً.

يرى بعضهم أن أصل هذا الجذب والدفع هو الحاجة ورفع الحاجة. الإنسان كائن محتاج، فقد خلق محتاجاً، فيسعى بمحاولاته لكي يملأ فراغاته ويسد حاجاته. إلا أن هذا غير ممكن مالم ينضم إلى جماعة ويبتعد عن جماعة، فينتفع بهذا الانضمام من جماعة، ويدرأ عن نفسه ضرر جماعة أخرى، فلست ترى فيه نزوعاً ولا عزوفاً إلا وهو نابع من مصلحته.

وعليه فإن الضرورات الحياتية وبناءه الفطري قد أوجدتا فيه قوتي الجذب والدفع لكي يلتئم مع ما يحس فيه بالمنفعة، ويبتعد عما لا يجد في نفسه منفعة فيه[1]... وأن يظل عديم الإحساس إزاء ماهو ليس من ذلك، فلا هو بنافع ولاهو بضار.

في الحقيقة، إن الجذب والدفع من الأركان الأساسية في حياة الإنسان، وبقدر إصابتهما بالضعف يصاب نظام حياته بالخلل، ومن كانت له القدرة على ملء الفراغات استطاع أن يجذب الآخرين نحوه. أما الذي هو فضلاً عن كونه لا يستطيع ملىء الفراغات، بل يزيد من عددها، فإنه يدفع الناس ويبعدهم عنه وكذلك اللاأباليون.

---

١ ـ في الأصل «ميلاً إليه». (المصحح)

اختلاف الناس في الجذب والدفع

إن الافراد ليسوا متساوين من حيث قواهم الجاذبة والدافعة بالنسبة للآخرين، ويمكن تصنيفهم إلى عدة أصناف:

١ ـ صنف لا جذب فيهم ولادفع. لايحبهم أحد ولا يبغضهم أحد، فلا هم يستثيرون حب أحد وميله إليهم ولا عداوته أو حسده وحقده ونفوره. يمشون بين الناس لايبالون بشيء، فهم أشبه بقطعة حجر تتحرك بين الناس.

وهذا كائن مهمل ولا أثر له. إن امرءاً ليس فيه أي تأثير إيجابي (ليس المقصود بالايجابي الفضيلة وحدها، بل الرذيلة مقصودة أيضاً) ليس سوى حيوان يأكل وينام ويتحرك بين الناس. إنه كالشاة التي لاتحب أحداً ولاتعادي أحداً، فإذا ما عني بها من حيث تقديم العلف والماء كان ذلك لكي يستفاد من لحمها. إنه لايثير موجة تأييد ولاموجة معارضة .. هذا وأمثاله صنف يمثل كائنات لاقيمة لها، قشوراً فارغة، فالانسان يريد أن يحب ويريد أن يكون محبوباً .. بل قديريد أن يعادي وأن يعادىٰ أيضاً.

٢ ـ وهناك من يملك قوة الجذب ولكنه يفتقر إلى قوة الدفع. إنه يأتلف مع الجميع ويحتضنهم جميعاً ويحمل الناس من مختلف الطبقات على التعلق به. إنه محبوب الجميع في المجتمع ولايستنكره أحد. وإن مات غسله المسلمون بماء زمزم إن كان مسلماً، وأحرق جسده الهندوس إن كان هندوسياً. يقول الشاعر الفارسي ماترجمته:

(كن حسن الخلق ـ يا عرفي ـ مع الصالح والطالح، فعند موتك يغسلك

المسلمون بماء زمزم ويحرق الهندوس جسدك).[١]

فهذا الشاعر يرى أنك إن عشت في مجتمع نصفه من المسلمين الذين يغسلون موتاهم، وان احترموهم فيغسلوهم بماء زمزم، ونصفه الآخر من الهندوس الذين يحرقون موتاهم ويذرون رماد أجسادهم في الريح، أن تتخلق بأخلاق يراك فيها المسلمون واحداً منهم فيهرعون لغسلك بماء زمزم عند موتك، ويراك فيها الهندوس واحداً منهم فيسعون لحرق جسدك بعد موتك احتراماً لك.

يرى الناس ـ في الأعم الأغلب ـ أن حسن الخلق وطيب المعاشرة، أو بحسب التعبير المعاصر «أن يكون المرء اجتماعياً» هو أن يفوز المرء بحب الجميع.

إلا أن هذا غير ممكن للشخص الذي يعمل من أجل هدف معين ويسير في المجتمع بحسب سلوك معين، ووفق فكرة خاصة، ويتطلع إلى مثال بعينه، وليس همه السعي وراء منفعته الذاتية. إن إنساناً هذا شأنه لابد أن يكون ذا وجه واحد حاسماً وصريحاً، شاء ذلك أم أبى، مالم يكن منافقاً مزدوج الشخصية.

وذلك لأن الناس لايفكرون بطريقة واحدة، ولايتشابهون في مشاعرهم، ولا في رغباتهم وأهوائهم .. ان فيهم العادل، وفيهم الظالم. فيهم الصالح، وفيهم الطالح، كما أن في المجتمع المنصف، والمعتدي، والعادل، والفاسق. فليس من الممكن أن يجتمع هؤلاء على حب شخص بعينه، وهو يسعى للوصول إلى هدف لايستهوي الجميع فيصطدم ـ حتماً ـ مع مصالح بعض دون بعض.

إن الشخص الوحيد القادر على جذب حب الناس جميعاً ـ على اختلاف

---

١ ـ عرفي شاعر إيراني عاش في القرن العاشر كان يختلف إلى بلاط الامبراطور أكبر في الهند.

طبقاتهم ومثلهم واتجاهاتهم ـ هو المرائـي الكـذاب الذي يـظهر لكـل شـخص مايحب أن يسمع ويرى.

أما إذا كان المرء ذا وجه واحد وسلوك واحد، فلا شك في أن جمعاً من الناس سيكونون من أصدقائه، بينما سوف يعاديه جمع آخر. فالذين يـتجهون وجـهته سينجذبون إليه، والذين يختلفون معه في وجهة نظره سوف يطردونه ويحاربونه.

بعض المسيحيين الذين يقولون عن أنـفسهم وعـن ديـنهم: إنـهم يـبشرون بالمحبة، يزعمون أن الإنسان الكامل لايملك سوى المحبة، ولاشيء غيرها. أي إن فيهم قوة الجذب فقط. ولعل بعض الهندوس يدعي الشيء نفسه.

إن ما يلفت النظر كثيراً في الفلسفات المسيحية والهندية هـو المـحبة. إنّـهم يقولون: إن على المرء أن يميل إلى كل شيء وأن يظهر حبه له. فإذا نحن أحببنا الجميع لايكون هناك ما يمنع من أن يحبنا الجميع، بما فيهم الأشرار الذين لم يروا منا غير الحب.

إلا أن على هؤلاء أن يدركوا أن مجرد كون المرء من أهل المحبة لايكفي، إذ عليه أن يكون ذا مسلك أيضاً. وقول غاندي «هذا هو مذهبي» يعني أن المـحبة يجب أن تصاحب الحقيقة، فإذا صاحبت الحقيقة، لابد أن تكون وفق سلوك معين، وكونك ذا سلوك معين سوف يخلق لك الأعداء شئت أم أبيت، وهذا في الواقع هو قوة الدفع التي تحمل عدداً من الناس على الاعتراض والمعارضة وتطرد عـدداً آخر.

الإسلام ـ أيضاً ـ قانون المحبة، وهذا القرآن يقدم النبي الكريم ﷺ على أنه رحمة للعالمين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.(١)

أي إنّك رحمة حتىٰ على أعدائك.(٢)

بيد أن الحب الذي يقول به القرآن لا يعني أن نعامل كل شخص على وفق هواه ورغبته، فلا نفعل إلا ما يحوز رضاه ويجذبه حتماً نحونا. ليست المحبة أن نترك كل امرىء حراً فيما يشاء ويهوى ونؤيده في ذلك. ليس هذا من المحبة في شيء، بل هو النفاق والازدواجية.

المحبة تصاحب الحق وتوصل الخير، بل قد يكون إيصال الخير بطريقة لاتستجلب رضا الطرف الآخر ومحبته. ما أكثر الذين يوصل الإنسان لهم الخير عن هذا الطريق، إلّا أنهم إذ يرونه يخالف رغباتهم يعادونه بدل أن يحبوه.

ثم إن المحبة المنطقية والعقلائية هي التي يكون فيها خير المجتمع وصلاحه، لا خير فرد واحد، أو طبقة بعينها. فكثير من المحبة التي تولى للأفراد والخير الذي يوصل إليهم يكون سبباً في إيصال الشر والضر إلى المجتمع.

في التاريخ مصلحون عظام سعوا إلى اصلاح شؤون المجتمع وتحملوا في سبيل ذلك أنواع العذاب، ولكنهم لقاء ذلك لم يجدوا من الناس سوى الإيذاء والحقد.

---

١ ـ سورة الأنبياء، الآية ١٠٧

٢ ـ بل لقد شمل حبه كل شيء، حتىٰ الحيوانات والجمادات، لذلك نرى في سيرته أن لكل ممتلكاته أسماء خاصة بها: خيوله وسيوفه وعمائمه إلخ. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على وجود علاقة بينه وبين الكائنات الأخرى وهي كلها موضع حبه، وكأنه كان يرى لكل شيء شخصية قائمة بذاتها. إن التاريخ لايذكر عن وجود مثل هذا السلوك في شخص آخر. والحقيقة أن هذا السلوك يحكي عن كونه كان رمز الحب والمحبة الانسانية. مرّ يوماً بجبل أحد فنظر إليه بعينيه المشعتين المليئتين بالمحبة وقال: «جبل يحبنا ونحبه». هذا إنسان يفيض حبه حتىٰ على الحجر والجبل.

وعليه فالمحبة لاتعني الجذب دائماً، فقد تظهر المحبة أحياناً بصورة قوة دافعة عظيمة تثير الجماعات ضد الإنسان.

كان عبدالرحمن بن ملجم المرادى من أعدى أعداء علي عليه السلام وكان علي على علم تام بما يحمله له هذا الإنسان من عداء وخطر، وكان بعض أصحاب علي عليه السلام يقولون له، أيضاً: إنه انسان خطر، فتخلص منه. إلا أن علياً كان يقول: أقصاص قبل الجناية؟ إذا كان هذا قاتلي، فإني لاأستطيع أن أقتله. إنه هو قاتلي ولست أنا قاتله. ولقد قال عنه يوماً: «أريد حياته ويريد قتلي»[1] فأنا أتمنى أن يبقى حياً، وأحب أن يكون سعيداً، ولكنه يريد قتلي.. إنني أكن له المحبة والود، وهو يكن لي العداوة والحقد.

ثم إن المحبة وحدها لاتكون دواءاً لعلاج البشر، ففي بعض الألسنة والأمزجة لابد من شيء من الخشونة والمحاربة والدفع والطرد. الإسلام دين جذب ومحبة، كما هو دين دفع ونقمة[2]؟.

---

١ ـ بحار الأنوار، الطبعة الحديثة، ج ٤٢ ص ١٩٢ و١٩٤.

٢ ـ يمكن القول بأن النقمة ـ أيضاً ـ مظهر من مظاهر المحبة. فنحن نقرأ في الدعاء: «يا من سبقت رحمته غضبه» أي إنك إذ شئت الرحمة غضبت، فلولا رحمتك ومحبتك ما غضبت. كالأب الذي يغضب على ابنه لأنه يحبه ويتطلع إلى مستقبله. فهو يغضب إذا رآه ارتكب جرماً، وقديعاقبه، ولكنه قدلايهتم كثيراً إذا رأى أبناء الآخرين يرتكبون الجرم نفسه. لقد غضب على ابنه لأنه يحبه، ولم يغضب على الآخرين لأنه لايحبهم.

ولكن قدتكون بعض العواطف كاذبة، أي إنها مجرد أحاسيس لايتحكم فيها العقل. وقدجاء في القرآن الكريم: ﴿ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ (٢٤ / ٢) وذلك لأن الإسلام يعنى بالأفراد كما يعنى بالمجتمع. ولقد قال الإمام علي عليه السلام:

﴿أشد الذنوب ما استهان به صاحبه﴾ (نهج البلاغه: ح ٣٤٠) إن شيوع الذنوب هو الذي يسقط

⇦

٣ ـ وهناك من يملك القوة الدافعة دون القوة الجاذبة. انه يصنع الأعداء ولايصنع الأصدقاء. هؤلاء أناس ناقصون أيضاً. وهذا دليل على أنه يفتقر إلى الخصال الإنسانية الإيجابية. إذ لو كان متمتعاً بجميع الخصال الإنسانية، لوجدنا له ولو عدداً ضئيلاً من المحبين والأصدقاء، فالمجتمع لايخلوا من الناس الطيبين، وإن قل عددهم. ولو كان جميع الناس فاسدين ظالمين لكانت هذه العداوات دليل الحق والعدالة؛ ولكن الناس ليسوا كلهم رديئين دائماً وليسوا كلهم طيبين دائماً. لذلك لاشك في أن الشخص الذي يجد كل الناس أعداءً له، إنما يكون هو السبب في ذلك، إذ كيف يمكن أن توجد في إنسان خصال طيبة، ثم لا نجد له صديقاً ولا محباً واحداً؟ إن امثال هؤلاء تخلو شخصياتهم من الخصال الإيجابية، فهم حتىٰ في خصالهم السيّئة لايستسيغهم أحد. انهم كالمرارة في الأفواه، لايخالطها شيء من الحلاوة أبداً.

يقول الإمام علي عليه السلام: «أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم».(١)

⇦ أهميتها من الأعين ويظهرها تافهة في نظر المرء.

لذلك يقول الإسلام إنه إذا ارتكب ذنب ولم يكن ذلك في خفاء كامل بحيث أن بعضهم اطلع عليه، فينبغي أن ينال المذنب عقابه من حد أو تعزير، فقد جاء في الفقه الإسلامي عموماً أن ترك أي واجب واقتراف أي محرم ـ إذا لم يكن له حد معين ـ يستوجب التعزير (والتعزير عقاب أدنى من الحد يقرره القاضي). فعند ارتكاب أحدهم ذنباً واشاعته يقترب المجتمع خطوة نحو الإثم، وهذا من أخطر الأمور على المجتمع. لذلك يجب أن يعاقب المذنب عقاباً يتناسب وجرمه، لكي يعود المجتمع إلى طريقة السوي، ولا تسقط أهمية الذنوب من عينه، وعليه فإن النقمة والعقاب ضرب من المحبة نحو المجتمع.

١ ـ نهج البلاغة: الحكمة ١١.

٤ ـ وهناك الذين وهبوا القوتين الجاذبة والدافعة. أناس لهم مسيرة خاصة، وهم نشطون في اتباع عقيدتهم ومسلكهم، فيجذبون جماعات نحوهم، ويدخلون القلوب محبوبين، كما يدفعون عنهم جماعات أخرى ويطردونهم. إنهم يصنعون الأصدقاء ويصنعون الأعداء. يربون المؤيدين ويربون المعاندين.

ترى كيف هم هؤلاء؟ ان قوتي الجذب والدفع قدتكونان شديدتين، وقدتكونان ضعيفتين، وقدتكونان متباينتين.

إن الذين لهم شخصيات قوية هم الذين قويت فيهم قوتا الجذب والدفع، وهذا يعتمد على مدى قوة الأسس الموجبة والسالبة في أرواحهم. لاشك في أن للقوة درجات ومراتب بحيث أنها قدتصل أحياناً بالمحبين المجذوبين إلى أن يضحوا بأنفسهم في سبيل من اجتذبهم إليه، كما قديصل الأمر بالأعداء المبغضين إلى حيث يضحون بدمائهم على مذبح عدائهم. وقدتشتد تلك القوة بحيث أنها تمتد حتى إلى مابعد موت صاحبها، فيبقى أثر جذبه ودفعه قروناً عديدة فاعلاً في النفوس ويشمل ساحة واسعة جداً. إن هذا الجذب والدفع ذا الأبعاد الثلاثة يختص به الأولياء، مثلما أن الرسالات ذوات الأبعاد الثلاثة يختص بها الأنبياء.[1]

ثم ينبغي علينا أن نتعرف على الذين يجذبونهم وعلى الذين يدفعونهم، فمثلاً، قدنراهم أحياناً يجذبون ذوي العقول ويطردون الجهلاء، وقديكون الأمر معكوساً. وقديجذبون العناصر الشريفة النجيبة ويدفعون العناصر الدنيئة الخبيثة، وقديكون العكس. ولذلك فإن محبي كل امرىء ومبغضيه يمكن أن نعتبرهم[2] دليلاً قاطعاً

---

١ - أنظر مقدمة الجزء الاول من كتابنا «ختم النبوّة» ص ١١ و١٢.

٢ ـ في الأصل «يعتبرون». (المصحح)

على ماهية ذلك الشخص.

إن مجرد امتلاك المرء لقوتى الجذب والدفع، حتىٰ وإن كانتا شديدتين، لايكفي لاعتباره جديراً بالمدح والثناء، وانما تتحقق الجدارة بأصل شخصيته. وشخصية المرء لاتكون دليلاً على طيب طينته. إن جميع قادة الدنيا وزعمائها، حتى المجرمين المحترفين منهم، مثل جنكيز خان والحجاج ومعاوية، كانوا أشخاصاً من ذوي القوى الجاذبة والدافعة. فلولا وجود نقاط إيجابية في نفس شخص ما لايمكنه أن يجعل الآلاف من الجنود طوع أمره وإرادته. ولولا وجود روح قيادية في المرء لما كان بإمكانه أن يجمع جموع الناس من حوله.

كان نادر شاه من هؤلاء .. ما أكثر الرؤوس التي أطاح بها والعيون التي سملها![1] إلا أن شخصيته كانت قوية جداً، فقد أخرج ايران المندحرة في أواخر العهد الصفوي من حالتها المتدهورة باجتذابه الجيوش الجرارة حول قيادته ـ كما يجذب المغناطيس برادة الحديد ـ وعمد علىٰ تكوين جيش، لم يحرر به البلاد من نير الدخلاء فحسب، بل طاردهم حتىٰ أقصىٰ نقاط الهند، مضيفاً أراضي جديدة إلى الأرض الإيرانية.

وعليه فإن كل شخصية تجتذب إليها مثيلاتها، وتطرد عنها من لايماثلها. فالشخصية العادلة المحبة للخير، تجتذب شخصيات عادلة محبة للخير مثلها، وتطرد عباد الهوى والمال والمنافقين. والشخصية المجرمة تجذب المجرمين حولها وتبعد الصلحاء عنها.

والاختلاف الآخر ـ كما قلنا ـ هو التباين في درجة قوة الجذب. فمثلما هم

---

١ ـ في الأصل «سحلها». (المصحح)

يقولون عن قانون جاذبية نيوتن: انها تتناسب طردياً مع كتلة الجسم وقصر المسافة مع الارض، كذلك.. الأمر مختلف في الأشخاص من حيث قوة جذبهم للآخرين.

علي عليه السلام شخصية ذات قوتين

علي عليه السلام من الرجال الذين يمتلكون القوتين الجاذبة والدافعة، وكلتا القوتين أشد ما تكونان فيه. ولعلنا لانعثر على مدى القرون والعصور من بلغت فيه هاتان القوتان شدتهما في علي عليه السلام. فأتباعه من أعجب الاتباع، مضحون، صابرون، يلتهبون حباً له كبيدر مشتعل، ويشعون ضياء، يرون التضحية بأرواحهم في سبيله أمنية وفخراً، ينسون كل شيء في غمرة حبهم له. لقد مضت على موت علي عليه السلام قرون، ومازالت جاذبيته تشع وتتلألأ، فتنجذب إليها العيون حيرى والهة.

في حياته تمحورت حوله عناصر شريفة، ونجيبة، تعبد الله، مضحية، لايداخلها الطمع، أناس صابرون، رحماء، عادلون، يخدمون الناس، لكل واحد منهم تاريخ وعبرة.

وبعد موته في خلافة معاوية والامويين، عذبت جماعات كثيرة بتهمة الولاء له أشد تعذيب، ولكنها لم تنكص بسبب ذلك خطوة واحدة على أعقابها عن حبه، بل صمدت حتىٰ الموت.

سائر شخصيات العالم يموت كل شيء عنهم بموتهم ويختفي مع أجسادهم تحت التراب. غير أن رجال الحقيقية يموتون وتبقى مدارس أفكارهم ويظل الحب الذي أشعلوا فتيلة سراجه على مر الدهور يزداد تلألؤاً وإشراقاً.

إننا نقرأ في التاريخ أنه بعد مضي قرون على وفاة علي عليه السلام مايزال هناك اشخاص يستقبلون سهام أعدائه بصدورهم.

نقرأ، فيما نقرأ عن عشاق عليّ والمنجذبين إليه، عن مثيم التمار، الذي راح

يتحدث عن فضائله وسجاياه الانسانية، وهو على عون المشنقة. ففي ذلك العهد الذي غرقت فيه البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أدناها في بحر من الكبت والتضييق، حيث أُهدرت الحريات وخنقت الانفاس في الصدور، وران صمت كصمت القبور على الملامح والوجوه، أخذ هو (ميثم) من أعلى المشنقة ينادي بأعلى صوته: تعالوا أحدثكم عن علي. فهجم الناس من جميع الاطراف يريدون ان يسمعوا حديث ميثم. واذ ترى الحكومة الاموية أن مصالحها في خطر، تأمر بإلجام فمه، وبعد أيام تقتله.

إن تواريخ أمثال هؤلاء العشاق يدور كثيراً حول عليّ.

هذا الجذب لايختص بعصر دون عصر، ففي جميع العصور تجد تجليات من هذا الجذب الطاغي الذي فعل فعله العميق.

هنالك شخص باسم (ابن السكّيت) من كبار علماء العرب وأدبائهم، ومايزال اسمه يتردد كلما تردد اسم سيبويه وأضرابه. عاش هذا الرجل في عصر الخليفة المتوكل العباسي. وكان متهماً بالتشيع لعليّ بعد موت عليّ بمائتي سنة، ولكن لفضله وسعة علمه اتخذه المتوكل معلماً لولديه .. في أحد الأيام دخل علىٰ المتوكل ولداه بحضور ابن السكيت، فأبدى المتوكل رضاه عنهما لتفوقهما في أداء الامتحان، وخطر له ـ استناداً إلى ما كان يشاع عن ابن السكيت من تشيع لعليّ ـ أن يسأله:

أتراك تحب ولدي هذين أكثر أم الحسنين ولدي عليّ؟

فاستفزت هذه المقارنة ابن السكيت فغضب لها أشد الغضب، وقال في نفسه: أبلغت الجرأة بهذا المغرور أن يقارن ولديه بالحسنين؟ إنني أنا المقصر لكوني قبلت تعليمهما. ثم قال للمتوكل:

«والله ان قنبر مولى علي لأحب إلي مرات من هذين وأبيهما».

فغضب المتوكل، وأمر به فقطعوا لسانه من اصله.

إن التاريخ يعرف الكثيرين ممن لاشهرة لهم ضحّوا بأرواحهم في سبيل حب علي عليه السلام.. فأين تجد هذه الجاذبية في العالم؟ لا أحسب أن لها شبيهاً.

وإن لعليّ كذلك من الأعداء من ينقلب حاله عند سماع اسمه. لقد مضى عليّ كفرد، وبقي كمدرسة تجتذب إليها جماعات وتطرد عنها جماعات.

نعم، عليّ هو الشخصية ذات القوتين!.

(١)

قوة جاذبة علي عليه السلام

- الجواذب القوية
- التشيع مدرسة المحبة والعشق
- إكسير المحبة
- تحطيم الحدود
- الحب بنّاء أم مخرب؟
- حب الاولياء
- قوة الحب في المجتمع
- الوسيلة الفضلى لتهذيب النفس
- نماذج من التاريخ الإسلامي
- دور قوة المحبة في تقدم الإسلام
- حب عليّ في القرآن والسنّة
- سر حبّ عليّ

الجواذب القوية

جاء في مقدمة الجزء الأول من «خاتم الانبياء» وبشأن «الرسالات» ما يلي:

«إن الرسالات التي ظهرت بين الناس لم تكن على منوال واحد، كما لم يكن شعاع تأثيرها متساوياً.

بعض الدعوات والأنظمة الفكرية كان ذابعد واحد، تقدم باتجاه واحد، وقد عمّ في بداية ظهوره شرائح واسعة من الناس ويتبعه الملايين منهم؛ ولكن ما أن أنتهى زمانه حتىٰ طوي بساط وجوده وأسلم إلى النسيان.

وبعض آخر كان ذابعدين، بعث شعاعه إلى اتجاهين، وشمل طبقات واسعة من الناس وتقدم في عصور عديدة، ولم يقتصر على البعد المكاني بل تعداه إلى البعد الزماني أيضاً.

وثمة دعوة تقدمت في اتجاهات مختلفة، وضمت جماعات من البشر واسعة تحت نفوذها، بحيث أننا نرى آثارها في كل قارة من القارات، وكان لها بعد زماني أيضاً، أي إنها لم تكن خاصة بزمان وعصر معينين، بل حكمت بكل اقتدار خلال قرون طويلة، وتعمقت جذورها في دخائل النفوس واستولت على ضمائر الناس وهيمنت على قلوبهم وأمسكت بزمام مشاعرهم. ان دعوات كهذه هي الدعوات

ذوات الأبعاد الثلاثة التي اضطلع بها الانبياء.

فأين يمكن العثور على مدرسة فكرية وفلسفية استطاعت ـ مثل الاديان العظيمة ـ أن تحكم ملايين الناس مدة ثلاثين قرناً أو عشرين قرناً أو أربعة عشر قرناً كحد أدني، وأن تستولي على جماع مشاعر أتباعها وما في أعماقهم؟».

كذلك هي القوة الجاذبة، فبعض ذات بعد واحد، وبعض ذات بعدين، وبعض ذات ثلاثة ابعاد.

جاذبة علي من النوع الاخير، فهي قدجذبت مجاميع واسعة من البشر، وليست مقصورة على قرن واحد أو قرنين اثنين، بل استمرت خلال القرون الماضية كلها واستمرت ... إنها حقيقة مازالت تتلألأ على ملامح القرون والعصور، وقدغارت حتىٰ أعماق القلوب، بحيث أن الناس بعد قرون إذا ذكروه وذكروا أخلاقه وسجاياه انهمرت دموع الشوق من عيونهم وبكوا على مصائبه، الأمر الذي أثر حتىٰ في نفوس الاعداء واستذرف دموعهم، وهذه أشد الجاذبات قوة.

من هنا يمكن أن ندرك أن صلة الإنسان بالدين ليست من الصلات المادية، بل هي ارتباط مختلف لا يشبه أي ارتباط بين الإنسان وبين أي شيء آخر.

ولو لم يصطبغ عليّ بصبغة الله ولم يكن من رجال الله لكان قدطواه النسيان. ان في تاريخ البشر أبطالاً كثيرين: ابطالاً في القول، وابطالاً في العلم والفلسفة، وأبطالاً في القوة والسلطة، وابطالاً في ميادين الحروب .؛ ولكن الإنسان قدنسيهم جميعاً، أو أنه لم يعرفهم اصلاً. غير أن علياً لم يمت بموته وانما ازداد حياة ـ ان صح التعبير ـ وهو نفسه يقول:

«هلك خزان الاموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم

مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة».[١]

ويقول عن نفسه:

«غداً ترون أيامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلو مكاني، وقيام غيري مقامي».[٢]

في الحقيقة، علي أشبه بقوانين الفطرة التي تظل خالدة[٣] أبداً. إنه منبع فياض لاينضب، بل يزداد فيضه علىٰ مرّ الأيام. وهو ـ كما يقول عنه جبران خليل جبرانَ: «شخصية ولدت قبل زمانها».

بعض الناس يصل إلى مركز القيادة في زمانه، وبعض يستمر في قيادته قليلاً بعد زمانه حتىٰ ينساه الناس. أما عليّ، وبعض آخرون من الناس، فهم من الهداة والقادة دائماً وأبداً.

---

١ ـ نهج البلاغة، الحكمة ١٣٩

٢ ـ المصدر نفسه، الحكمة ١٤٩

٣ ـ في الأصل «خالية». (المصحح)

التشيع مدرسة المحبة والعشق

من أهم ميزات الشيعة علىٰ سائر المذاهب الاخرى هو أن أساس مذهبهم المحبة. فمنذ عهد النبي الذي وضع فيه حجر الأساس لهذا المذهب، كان الكلام يدور على المحبة والموالاة، حتىٰ أننا إذ نسمع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: «علي وشيعته هم الفائزون»[1] نجد جمعاً من الناس قد تجمّعوا حول علي وقد جذبهم إليه واستغرقهم حباً. ولهذا نرى التشيع مذهب الحب والوله. ان لعنصر المحبة في التشيع أهمية كبيرة، وتاريخ التشيع يقترن بأسماء مجموعة من العشاق والمضحين الوالهين[2] في الحب.

علي هو ذلك الذي وان كان يقيم الحدود الإلهيّة على الناس ويجلدهم ويقطع يد سارقهم بموجب الشرع، فإنهم لم يلووا عنه كشحاً ولم تنقص محبتهم له أبداً. وهو في هذا يقول:

«لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني. أو لو صببت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنه قضي

---

١ ـ ينقل جلال الدين السيوطي في (الدر المنثور) في شرح الآية السابقة من سورة البينة، عن ابن عساكر عن جابر بن عبدالله الانصاري قوله: «كنت في حضرة النبى صلى الله عليه وآله إذ دخل علي عليه السلام، فقال صلى الله عليه وآله: «والذي نفسى بيده، ان هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة». وقدورد مضمون هذاالحديث بأسلوب آخر في (كنوز الحقائق) للمناوي في روايتين، وفي (مجمع الزوائد) للهيثمي، وفي (الصواعق المحرقة) لابن حجر.

٢ ـ في الأصل «المدلهين». (المصحح)

فانقضى على لسان النبي الامي ﷺ أنه قال: يا علي لايبغضك مؤمن ولا يحبك منافق». (١)

ان عليّاً ميزان توزن به الفطرة والطينة. فمن كان ذا فطرة سليمة وطينة طاهرة لايبغضه حتىٰ لو ضرب خيشومه. ومن كان ذا فطرة ملوثة لايحبه حتى لو أحسن إليه كل الاحسان، لأنّ عليّاً ليس سوى الحق متجسداً.

هاهو رجل من محبي علي اميرالمؤمنين، ذوفضيلة وايمان، ولكن مما يؤسف له أنه قدزلت قدمه، فكان لابد من اجراء الحد عليه. قطع علي اصابعه اليمنى، فأمسك بها بيده اليسرى ومضى وقطرات الدم تنزف منه. فأراد ابن الكواء أن يستغل هذا الحدث لمصلحة أصحابه الخوارج وضد علي عليه السلام، فتقدم نحوه وقد ارتدىٰ ملامح التعطف والترحم وسأله: «من قطع يمينك»؟

فقال: «قطع يميني سيد الوصيين، وقائد الغر المحجلين وأولى الناس بالمؤمنين، علي بن أبي طالب، إمام الهدىٰ ... السابق إلى جنات النعيم، مصادم الابطال، المنتقم من الجهال، معطي الزكاة... الهادي إلى الرشاد، والناطق بالسداد، شجاع مكي، جحجاح وفي ...».

فقال ابن الكواء: «الويل لك! يقطع يمينك وتثني عليه!».

فقال: «كيف لاأثني عليه وقدخالط حبه لحمي ودمي! والله ماقطع يدي الا بما انزله الله». (٢)

هذه النماذج من العشق والوله، التي نراها في تاريخ علي وأصحابه تجرنا إلىٰ مسألة المحبة والحب وآثارهما.

---

١ ـ نهج البلاغه، الحكمة ٤٢

٢ ـ بحار الانوار، ج ٤٠ ص ٢٨١ و٢٨٢ الطبعة الحديثه. والتفسير الكبير لفخر الدين الرازي، ذيل الآية ٩ من سورة الكهف.

إكسير المحبة

يطلق شعراء الفرس على العشق لفظة(إكسير). وكان أصحاب الكيمياء يعتقدون أن في العالم مادة أسموها «الإكسير»[١] أو «الكيمياء» تستطيع أن تحيل المادة إلى مادة أخرى، فراحوا يبحثون عن هذه المادة قروناً طويلة.

وقداستعمل الشعراء هذا المصطلح وقالوا: ان الاكسير الحقيقي القادر على التغيير والتحويل هو الحب، فالحب هو القادر على قلب الماهيات. العشق هو الاكسير وله خصائص الكيمياء، أي إنه يبدل المعدن معدناً آخر، والناس معادن.

«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة». الحب هوالذي يجعل القلب قلباً، فلولا الحب لكان القلب مجرد ماء وطين.

ومن آثار الحب القوة والقدرة. إنه يخلق القوة ويحيل الجبان شجاعاً.

ان الدجاجة مادامت وحيدة تطبق جناحيها وتدرج في هدوء وقدتمد رقبتها لتلقط دودة، وتفزع هاربة من أتفه صوت، ولاتبدي أية مقاومة حتىٰ أمام الطفل الضعيف. الا أن هذه الدجاجة نفسها إذا صارت أمّاً، وتمكن الحب من حنايا كيانها، تغير حالها، فتراها وقدأنزلت جناحيها في حالة التهيؤ للدفاع، وتتخذ هيئة

---

١ ـ جاء في (البرهان القاطع) عن الاكسير أنه جوهر مذيب ومازج ومكمل، وهو يحوّل النحاس إلى ذهب. كما أنهم يطلقون هذه الكلمة على العقاقير النافعة، وعلى رأي المرشد الكامل، من باب المجاز. وهذه الخصائص الثلاثة ـ في الحقيقة ـ موجودة في الحب، فهو يذيب ويمزج ويكمل. إلا أن وجه الشبه المعروف هو هذه الخصيصة الاخيرة، أي التغيير التكميلي. ولذلك فالشعراء قديسمّون الحب بالطبيب والدواء وأفلاطون وجالينوس .. إلخ..

المحارب، وحتى صوتها يمتلىء قوة وشجاعة.. كانت من قبل تهرب عند استشعار الخطر، أما الآن فإنّها تهجم عند استشعار الخطر، وتهجم بكل جرأة، إنه الحب الذي أحال هذه الدجاجة الجبانة إلى حيوان جريء وشجاع!...

ان الحب يحيل الثقيل الكسول إلى خفيف سريع الحركة، بل انه يحيل الاحمق إلى ذكي حادّ الذهن.

هذا الفتى وهذه الفتاة اللذين لم‌يكونا يفكران ـ وهما خليلين ـ الا فيما يخصهما وحدهما، أصبحا ـ بعد أن ارتبطا برباط الزواج وتكوين العائلة ـ لا يفكران الا فيما يخص الطرف الاخر، فتتداخل أشعة مطاليبهما، وما أن يرزقا بالوليد حتىٰ يتغيران كل التغير. فذاك الفتى المتثاقل الكسول غدا سريعاً كثير الحركة، وتلك الفتاة التي لم‌تكن تغادر الفراش الا بعناء، أمست الآن كالبرق الخاطف انطلاقاً إذا سمعت صوت طفلها النائم في المهد. ترى ما تلك القدرة التي أزالت ذلك الكسل والتراخي واستبدلته بكل هذا النشاط والحركة؟ إنّه الحب ليس غير!..

إنّه الحب الذي يحيل البخيل كريماً، والعجول صبوراً!..

إنّه الحب الذي يجعل من الدجاجة الانانية التي لم‌تكن تفكر الا في نفسها، وتلتقط الحب لحياتها، حيواناً جواداً إذا وجدت حبة نادت فراخها. وانه الحب الذي يجعل من الأم التي كانت بالامس القريب انانية، مغرورة، كسولة تستعجل الأمور ثائرة الأعصاب، ضعيفة الصبر، قليلة التحمل، امرأة عجيبة في صبرها وتحملها ورضاها بالجوع والعطش والتعب وقلة النوم وانعدام الاناقة وتحمل مشاق الامومة.

ان من آثار الحب الرقة واللطف وتجنب الخشونة والفظاظة، ومن آثاره

تلطيف العواطف والاحاسيس، وكذلك التوحيد والتوحد والتركيز، والقضاء على التشتت والتفرق ومن بلوغ القوة الحاصلة من الاتحاد والتجمع.

أما في الشعر و الأدب فإنّنا نصادف اثراً واحداً من آثار الحب، وهو فيض الوحي والالهام، يقول حافظ الشيرازي ما ترجمته:

(البلبل من فيض الورد تعلم الكلام، وإلّا ما كان
كل هذا القول والغزل معبأ في منقاره)[١]

فعلىٰ الرغم من أن المعنى الظاهرى لكلمة «فيض» أمر خارج عن وجود البلبل، الا أنه ليس في الحقيقة سوى قدرة الحب.

(لاتظنن مجنوناً اصيب بالجنون جزافاً
فهو «مجذوب» ليلى من قرنه إلى قدمه)[٢]

إن الحب يوقظ القوى النائمة ويطلق الطاقات المفيدة. مثل ذلك انفلاق الذرة وانطلاق طاقاتها.

إنه يلهم، ويصنع الابطال. وما أكثر الشعراء والفلاسفة والفنانين الذين خلقهم حب قوي!.

الحب يوصل النفس إلى كمالها ويظهر المواهب الكامنة المحيرة. إنه يلهم القوى المدركة، ويقوي مشاعر الارادة والعزيمة. واذا ماتسامى في العلى صنع الكرامات وخوارق العادات.

إنه يطهّر الروح من الاخلاط والشوائب. فالحب، بعبارة أخرى، يصفّي. انه

---

١ ـ «لسان الغيب» حافظ الشيرازي.

٢ ـ للعلامة الطباطبايي.

يمحوالصفات الرذيلة الناشئة من الانانية أو من البرود وانعدام الحرارة، كالبخل، والتقتير، والجبن، والكسل، والتكبر والعجب. إنه يزيل الحقد والحسد، وان قيل إن الحرمان والاخفاق في الحب يمكن أن يخلقا بدورهما الحقد والعقد.

(بالحب يحوّل كل مرّ حـلواً[١] بالحب يصبح النحاس ذهباً)[٢]

أثر الحب على الروح إعمار وبناء، وعلى الجسم تذويب وتخريب. إن أثره في الجسم عكس تأثيره في الروح، فهو في الجسم باعث على خرابه واصفراره ونحوله وسقمه واختلال هامته وأعصابه، وغير ذلك من صور الهدم والتخريب... ولكنه في الروح ليس كذلك، بحسب موضوع الحب، وما يريده المحب منه. فإذا تجاوزنا آثار الحب الاجتماعية، فإنه من حيث آثاره الروحية الفردية تكميلي، لأنّه يولد القوة والرقة والصفاء والاتحاد والهمة، ويقضى على الضعف والجبن والكراهية والتفرق والبلادة، وينقي الروح من الشوائب التي هي «الدسّ» بتعبير القرآن، ويزيل الغش ويجعل العيار خالصاً.

١ ـ كلمة «حلواً» لا توجد في الأصل. (المصحح)

٢ ـ المثنوي المعنوي. ترجمة.

تحطيم الحدود

إن الحب، بصرف النظر عن نوعيته، حيوانياً جنسياً كان أم حيوانياً أو إنسانياً نسلياً، وبصرف النظر عن مزايا الحبيب وصفاته من شجاعة وبطولة وفن وعلم، أو كان ذا أخلاق وآداب وصفات خاصة، يخرج المرء من الفردية والانانية. الانانية تقييد وتحديد، والحب يحطم هذه القيود والحدود. وما لم يخرج الإنسان من ذاته يكون ضعيفاً، خائفاً، بخيلاً، حسوداً، شريراً، عجولاً، محباً لذاته، متكبراً، كليل الروح، فاتر الهمة والنشاط، منطفئاً دائم البرود. ولكنه ما ان يضع قدمه خارج «ذاته» ويحطم ما أحاط نفسه به من حدود، حتىٰ تتلاشى كل تلك الصفات الرذيلة.

ان الانانية بذلك المفهوم القبيح الذي ينبغي التخلص منه ليست تلك الحالة الوجودية أو العلاقة الوجودية التي تربط الإنسان بذاته وكينونته. إذ لامعنى لأن يسعى المرء كيلا يحب نفسه. ان «حب الذات» الذي جبل عليه الإنسان لم يخلق عبثاً لكي يحاول اجتثاثه من دخيلته. ان صلاح الإنسان وبلوغه الكمال لا يعني أن هناك مجموعة من الأمور الزائدة قدعبئت في ذاته، فعليه أن يسعىٰ لازالة تلك الأمور الزائدة المذمومة المضرة، وبعبارة اخرىٰ: تكامل الإنسان لايكون بالحذف منه، بل بالاضافة إليه. ان الواجب الملقىٰ على كاهل الإنسان هو السير نحو الاكتمال، وهذا يكون بالاستزادة، لا بالانتقاص.

أما الصراع مع «حب الذات» فهو الصراع مع «محدودية الذات» وضيقها. فالذات ينبغي أن تزداد سعة، وهذا الحصار الذي ضربته حول نفسها ـ ذلك

الحصار الذي يجعلها لاترى الا ما يخصها هي بالذات ويبعدها عن رؤية ما للآخرين ـ يجب أن يتحطم، لتتسع شخصية الإنسان فتسع الآخرين بل تسع العالم كله. إذن ... فالنضال ضد «حب الذات» يقصد به النضال ضد هذا الحصار، ضد الحدود والقيود التي تحد ذات الإنسان. فالمقصود بحب الذات هنا ليس سوى محدودية الفكر وضيقه. ويأتي الحب ليحول ميول المرء ورغباته من داخل ذاته إلى خارجها، ويوسع من حدود كيانه ويغير من طبيعة وجوده. وعلى هذا فالحب من العوامل الكبيرة في التربية الاخلاقية، إذا ما وجد الهداية الصحيحة واستغل الاستغلال النافع.

الحب .. يبني أم يخرب؟

إن التعلق بشخص أو بشيء، إذا بلغ أوج شدته بحيث أنه يكتسح وجود الإنسان ويسخره ويصبح الحاكم المطلق عليه، يكون هو الحب أو العشق، وهو القمة من المشاعر والعواطف.

الا أننا ينبغي الآنظن ان هذا الذي اطلقنا عليه اسم (الحب) نوع واحد. كلا، انه نوعان مختلفان كل الاختلاف. ان الآثار الحسنة التي سبق ذكرها تختص بأحد النوعين. أما آثار النوع الآخر فهدامة مخربة، على النقيض من الاول.

ان لمشاعر الإنسان مراتب ودرجات. بعضها ينطوي تحت مقولة الشهوات، وعلى الاخص الشهوة الجنسية، وهذا مما يشترك فيه الإنسان والحيوان، الا انها في الإنسان تصل إلى درجة الغليان احياناً لاسباب لا مجال لذكرها الآن، فيطلق عليها ـ لذلك ـ اسم الحب، ولكنها ليست بهذه الصورة في الحيوان أبداً. ولكنها على كل حال ليست سوى فوران الشهوة وطغيانها، بادئة بالغريزة الجنسية ومنتهية بها. وانما يرتبط ارتفاعها وانخفاضها إلى حد كبير بالنشاط الفزيولوجي في اعضاء التناسل وبقوة الحيوية في الشباب، وضعفها التدريجي في الشيوخ.

إن الشاب الذي يرتجف كلما رأى وجهاً مليحاً وشعراً جعداً، ويتلوى علىٰ نفسه كلما لمس يداً ناعمة ظريفة، فليعلم ان الأمر ليس سوى الجريان المادي الحيواني.. هذا النوع من الحب سريع المجيء سريع الذهاب، لايعتمد عليه، ولايقبل نصيحة. انه خطر يقتل الفضيلة، ولا يمكن درء خطره الا بالعفاف والتقوى وعدم الاستسلام. أي ان قوة هذا الحب لاتسوق الإنسان نحو أية فضيلة.

ولكنه إذا نفذ إلى كيان المرء ووقف وجهاً لوجه مع العفاف والتقوى، واستطاعت النفس أن تتحمل ضغطه دون أن تستسلم، فهو عندئذ يمنح الروح قوة وكمالاً.

في الإنسان نوع آخر من المشاعر تختلف في حقيقتها وماهيتها عن الشهوة، ولنا ان نطلق عليه اسم «العاطفة» أو، كما يسميه القرآن «المودة» و«الرحمة».

عندما يكون الإنسان تحت تأثير شهواته، لايكون قدخرج من ذاته، فهو يرغب في الشخص أو الشيء ويريده لنفسه ويلح في طلبه. فاذا فكر في الحبيب فانما يفكر كيف ينال وصاله ويبلغ أقصى المتعة منه. بديهي أن هذه الحالة لايمكن أن تكمل الإنسان وتربي روحه وتهذبها.

الا أن الإنسان قديقع تحت تأثير عواطفه الانسانية السامية، فيصبح المحبوب والمعشوق في نظره شيئاً عظيماً محترماً يتمنى له السعادة، ويفتدي رغباته بنفسه. هذه العواطف تخلق في المرء مشاعر الصفاء والحميمية واللطف والرقة ونكران الذات، بخلاف النوع الاول الذي يقوم على الغلظة والحيوانية والاجرام. انّ من أمثلة النوع الأخير محبة الأم لأطفالها.

إنّ هذا النوع[١] من العواطف هو الذي إذا بلغ أوج قوته وكماله أوجد تلك الآثار الطيبة التي ذكرناها. وهذا النوع هوالذي يمنح النفس جلالها وعظمتها وشخصيتها، بخلاف النوع الاول الذي يجعل صاحبه وضيعاً حقيراً. ان هذا النوع هو الحب المكين الذي يزداد بالوصال شدة وحدة، بخلاف النوع الاول الذي يكون سريع الانهيار، وفي الوصال نهايته.

---

١ ـ في الأصل «هذه الانواع». (المصحح)

يصف القرآن الكريم العلاقة بين الزوجين بالمودة والرحمة: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.[1] وفي هذا شيء كثير من السمو، فهو يشير إلى الجانب الانساني المترفع عن الحيوانية في الحياة الزوجية، وإلى أن عامل الشهوة ليس الرابط الطبيعي الوحيد فيها، بل ان الرابط الاصيل فيها هو الصفاء والحميمية واتحاد الروحين وبعبارة أخرى: إن ما يجمع الزوجين ويوحد بينهما هو حرارة المحبة والمودة والصفاء، لأنّ تلك الشهوة الموجودة في الحيوانات ايضاً.

ان الفلاسفة الماديين لم يستطيعوا انكار هذه الحالة الروحية التي لها جوانبها غيرالمادية والتي لايرونها تنسجم مع مادية الإنسان.

يقول برتراند راسل في كتابه(الزواج والاخلاق):

«إن العمل الذي لايستهدف الا الربح لن تكون له نتائج مفيدة فلبلوغ هذه النتائج يلزم اختيارعمل ينطوي على الإيمان بفرد أو بشيء. كذلك الحب، فهو إذا استهدف وصال الحبيب فحسب كان على مستوى العمل طلباً للربح نفسه، ولم يزد شيئاً في كمال شخصيتنا. وللوصول إلى هذه الغاية ينبغي على المحب ان يرى «الانا» في الحبيب مثل «الانا» في ذاته أهمية، وأن يعتبر مشاعر الحبيب ورغباته مشاعره هو ورغباته.»

ثمة نقطة أخرى جديرة بالتذكر، وهي ماقلناه عن انه حتىٰ الحب الشهواني قديكون ذافائدة ولايكون ذلك الا إذا صاحبته التقوى والعفاف، فالنأى والحرمان من جهة، والعفاف والطهارة من جهة أخرى، تسبب العذاب والضغط والالم

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٢١

للروح، فتكون لها آثار نافعة.

وفي هذا يقول المتصوفون: ان الحب المجازي يتحول إلى حب حقيقي، إلى حب الله ذاته. وفي هذا ـ ايضاً ـ يُروىٰ أن «من عشق، وكتم، وعف، ومات، مات شهيداً».

ولكن ينبغي أن لايغرب عن بالنا أن هذا النوع من الحب ـ على الرغم مما قديكون فيه من فائدة ـ ليس مما يمكن تحبيذه. إنّه لوادٍ ذي خطر، ويشبه في هذاالمصيبة التي تحيق بالمرء، فإن واجهها بالصبر والرضى، كانت مكملة لشخصه ومطهرة لنفسه، فتنضج الغِر، وتصفي الكدر، ومع ذلك فالمصيبة لايمكن تحبيذها، اذ ليس من المعقول أن يستنزل المرء على نفسه المصائب، ولا على غيره بهدف الوصول عن طريقها إلى تلك الفوائد.

ان لبرتراند راسل في هذا ايضاً قول جميل:

«العذاب يملأ الناس بالطاقة كالثقل الثمين. إن من يجد نفسه سعيداً كل السعادة لن يبذل أي جهد للاستزادة منها. الا أنني لا ارى في هذا عذراً مقبولاً يدفعنا إلى تعذيب الاخرين لحملهم على التقدم نحو الخير، لأن ذلك في اغلب الاحيان يؤدي إلىٰ عكس المطلوب ويحطم الإنسان. وعليه فالافضل ان نستسلم لما يصادفنا في منعطفات مسيرة الحياة».(١)

إن الإسلام ـ كما نعلم ـ يذكر كثيراً آثار البلايا وفوائدها، وأنها من الطاف الله تعالى، الا أنه لايجيز لأحد اتخاذ ذلك ذريعة لخلق المصائب للنفس أو للآخرين.

ثم ان هناك اختلافاً بين الحب والمصيبة، وهو أن الحب من أشد العوامل

---

١ ـ برتراندراسل (زناشوئى واخلاق) ص ١٣٤

الاخرى «مجانبة للعقل»، فحيثما وضع الحب قدمه انزل العقل عن عرش سلطانه. ولهذا نجد الأدب الصوفي يشير إلى العشق والعقل كرقيبين. ومن هنا ـ أيضاً ـ جاء التضاد بين الفلاسفة والمتصوفة، فاولئك يعتمدون العقل هادياً، وهؤلاء يتخذون الحب مرشداً.

والمتصوفة في أدبهم يجعلون العقل محكوماً عليه ومغلوباً في ميدان التنافس مع العقل. هذا سعدي يقول ما ترجمته:

(ينصحني الذين يريدون لي الخير: صنع اللَّبن فوق البحر لاجدوى فيه)

(ان قوة الشوق تغلب الصبر ودعوى العقل على العشق باطلة)

ويقول آخر ما ترجمته:

(قارنت حكمة العقل في طريق الحب

فكان كقطر الندى يرسم على مياه البحر)

إن طاقة تكون بهذه القوة وتأخذ زمام الاختيار من يد الإنسان، وكما يقول مولوي: «تجعل المرء كريشة في مهب الرياح» أو كما يقول برتراند راسل: «هي أقرب إلى الفوضى» كيف يمكن الدعوة لها والايصاء بها؟

ومهما يكن، فكون الأمر مفيداً شيء، وتجويزه والايصاء به شيء آخر.

وعليه، فليس هناك مايدعو لقبول اعتراض بعض المتشرعين على بعض فلاسفة الإسلام[١] لتطرقهم في بحث الإلهيات إلى آثار الحب وفوائده، وذلك لأنّهم اعتقدوا ان أولئك الفلاسفة يعتبرون الايصاء بالحب جائز، مع أنهم قصدوا إلىٰ ذكر فوائده في جو من التقوىٰ والتعفف، ولم يقولوا بجوازه أو الايصاء به، كما هي الحال مع المصائب والبلايا تماماً.

---

١ ـ مثل ابن سينا في (رسالة العشق) وصدر المتألهين في السفر الثالث من أسفاره.

حب الاولياء

قلنا: ان الحب لايقتصر على الحب الحيواني الجنسي، ولاالحب الحيواني النسلي، بل ان هناك نوعاً آخراً ينمو في جو أعلى وأرفع، خارج حدود الماديات، ويستمد وجوده مما وراء غريزة بقاء النوع. وهو ـ في الحقيقة ـ الحد الفاصل بين عالم الإنسان وعالم الحيوان. إنه الحب المعنوي الانساني. إنه تعشق فضائل الإنسان ومافيه من خير، والولوع بالسجايا الانسانية وجمال الحقيقة.

وهذا الحب هوالذي يرد كثيراً في القرآن تحت ألفاظ «المحبة» وأحياناً «الود» أو «المودة». ويمكن تقسيم الآيات الخاصة بهذا في القرآن إلى عدة اقسام، فمنها:

١ ـ الآيات التي وردت في وصف المؤمنين وتتحدث عن حبهم العميق لله أو للمؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ﴾.(١)

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.(٢)

٢ ـ الآيات التي تتحدث عن حب الله للمؤمنين:

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٣)

---

١ ـ البقرة : ١٦٥.

٢ ـ الحشر: ٩.

٣ ـ سورة البقرة: ٢٢٢.

﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمحْسِنِينَ﴾.[١]

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.[٢]

﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.[٣]

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.[٤]

٣ ـ الآيات التي تتضمن الحب المتبادل بين الطرفين، حب الله للمؤمنين وحب المؤمنين لله، وحب المؤمنين بعضهم بعضاً:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.[٥]

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.[٦]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾.[٧]

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.[٨]

وهذا هو الحب الذي أراده ابراهيم لذريته،[٩] وما طلبه نبينا ﷺ لاهله بأمر من الله[١٠].

---

١ ـ المائدة: ١٣ و آل عمران: ١٤٨.

٢ ـ التوبة: ٤ ـ ٧.

٣ ـ التوبة: ١٠٨.

٤ ـ الحجرات: ٩ و الممتحنة: ٨.

٥ ـ آل عمران: ٣١.

٦ ـ المائدة: ٥٤.

٧ ـ مريم: ٩٦.

٨ ـ الروم: ٢١.

٩ ـ سورة ابراهيم، الآية ٣٧

١٠ ـ سورة الشورى، الآية ٢٣

ويستفاد من الروايات أن روح الدين وجوهره ليس سوى الحب والمحبة.

يقول بريد العجلي:

كنت في حضرة الإمام الباقر عليه السلام فدخل عليه مسافر من خراسان كان قدقطع تلك المسافة الطويلة للتشرف برؤية الإمام، فعندما نزع نعليه رأيت الشقوق في قدميه. قال: والله لم يأت بي آت من حيث جئت سوى حبكم أهل البيت فقال الإمام عليه السلام: والله لو أحبنا حجر لحشره الله معنا. «وهل الدين إلا الحب».[1]

قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: إننا نسمي أبناءنا بأسمائكم وأسماء آبائكم. أينفعنا هذا في شيء؟ فقال الإمام: «نعم والله. وهل الدين إلا بالحب. ثم تلا الآية الشريفة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾.[2]

إنه الحب الذي يحمل على الطاعة، فالعاشق لن يتأتّىٰ له أن يتقاعس عن تحقيق ارادة المعشوق. إننا نرى هذا بأعيننا، فهذا الشاب العاشق يضحي بكل شيء ويتنازل عن كل شيء في سبيل معشوقته.

إن اطاعة الله وعبادته تكون بمقدار حب الإنسان للّه تعالىٰ. قال الإمام الصادق عليه السلام:

تعصي الأله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... ان المحب لمن يحب مطيع

---

١ ـ (سفينة البحار) ج ١ ص ٢٠١ مادة «حب».

٢ ـ المصدر نفسه ص ٦٦٢ مادة «سما».

قوة الحب في المجتمع

الحب في المجتمع قوة عظيمة ومؤثرة. خير المجتمعات تلك التي تدار بقوة الحب: حب الزعيم والحاكم للناس، وحب الناس وتعلقهم بزعيمهم وقائدهم.

ان حب الحاكم عامل عظيم في استقرار الحكومة ودوامها. فبغير عامل الحب لا يستطيع قائد أن يقود، واذا استطاع فبصعوبة بالغة، بحيث يربي أفراد الناس على الانضباط والتزام القانون، حتىٰ وإن أقام العدل والمساواة بينهم، وفي هذه الحالة سيلتزم الناس القانون، ومن هذا المنطلق سوف يتوقعون أن يروا في قائدهم أمارات الحب، وهذا الحب هو الذي يحمل الناس على الطاعة والتسليم.

وها هوالقرآن يخاطب رسول الله ﷺ بقوله:

﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنْ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.(١)

فالقرآن يرىٰ سبب حبّ الناس للنبي ﷺ هو الحب الذي يبديه رسول الله ﷺ نحوهم. ومع ذلك فإنّه يوصيه بأن يعفو عنهم ويستغفر لهم ويستشيرهم في أمورهم. كل ذلك من آثار المحبة والمودة، كما أن الرفق والحلم والصبر جميعاً من شؤون الحب أيضاً.

ويقول القرآن ايضاً:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٥٩

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.(١)

الإمام علي أميرالمؤمنين عليه السلام يوصي مالكاً الاشتر عند توليته مصر بقوله:

«وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ... فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه».(٢)

قلب الحاكم يجب أن يكون منبع العطف علىٰ الأمة والمحبة لها، فالقوة والعنف لايكفيان، فبهذين يمكن سوق الامة سوق الأغنام، ولكن لايمكن بهما ايقاظ ما في داخلهم من طاقات كامنة للعمل. لاالقوة والعنف وحدهما، بل إن العدالة الجافة لاتكفي معهما أيضاً... ان على الحاكم أن يحب الناس حباً أبوياً بمجامع(٣) قلبه، وأن يظهر لهم مودته وعطفه، ولابد ان يكون ذا شخصية جذابة تصنع المحبين، لكي يستطيع أن يضع ارادتهم وهمتهم وطاقاتهم الانسانية العظيمة الخلاقة في خدمة هدفه المقدس.

---

١ ـ سورة فصلت، الآية ٣٤

٢ ـ نهج البلاغة.

٣ ـ في الأصل (بجماع). (المصحّح)

الوسيلة الفضلى لتهذيب النفس

كان البحث السابق في الحب وآثاره مقدمة للتوصل إلى النتائج التي سوف نتناولها بالبحث فيما يلي:

إن أهم بحث من بحوثنا ـ وهو بحثنا الاصل في الواقع ـ هو معرفة ما إذا كان حب الاولياء والصالحين يعتبر هدفاً بحد ذاته والوسيلة الفضلى لتهذيب النفس واصلاح الاخلاق وكسب السجايا والفضائل الانسانية.

في الحب الحيواني، يتوجه كل اهتمام العاشق وعنايته إلى صورة الحبيبة وتناسق اعضائها وجمال ملامحها وطراوة بشرتها، وفي هذا الحب تكون الغريزة هى التي تجذب الإنسان وتلهب فيه الرغبة ولكن بعد ان يشبع شهوته يخبو ذلك اللهيب وتبرد حرارته وتنطفيء شعلته.

اما الحب الانساني، فهو الحياة وهو الذي يصنع الاتباع الطائعين، كما قلنا.. ان الحب هو الذي يشاكل بين العاشق والمعشوق، فيسعى المحب لأن يكون مظهراً من مظاهر الحبيب ونسخة من سلوكه، كما يقول الخواجة نصيرالدين الطوسي في شرح (اشارات) ابن سينا:

«والنفساني هوالذي يكون مبدؤه مشاكلة نفس العاشق لنفس المعشوق في الجوهر، ويكون أكثر إعجاباً بشمائل المعشوق لأنّها آثار صادرة عن نفسه... وهو يجعل النفس لينة شيقة ذات وجد ورقة، منقطعة عن الشواغل الدنيوية».(١)

١ ـ (شرح الاشارات) ج ٣ ص ٣٨٣ الطبعة الجديدة.

فالحب يسوق الإنسان نحو المشابهة والمشاكلة، ومافيه من قدرة تجعل المحب يكون بشكل المحبوب. الحب كأسلاك الكهرباء التي تصل بين المحبوب والحب. فتنقل إليه صفات المحبوب. ولهذا كان لاختيار المحبوب أهمية بالغة.

ولذلك أولى الإسلام اهتماماً كبيراً بموضوع اختيار الاحبة والاصدقاء، وقدوردت في ذلك آيات وروايات كثيرة، لأن الصداقة تصطنع الصبغة وتصطنع الجمال، وتصطنع الغفلة، فحيثما ألقت بأشعتها قلبت العيوب فنوناً، وأحالت الاشواك ورداً وريحاناً.(١)

---

١ ـ إن في الحب عيوباً، منها أن العاشق ـ وقداستغرقه حسن المعشوق ـ يغفل عن رؤية مافيه من عيوب، فحب الشيء يعمي ويصم، و«من عشق شيئاً أعشى بصره وأمرض قلبه» كما يقول الإمام علي عليه السلام. وهذا لايتنافي مع ما قلناه من أن الحب يجعل الذكاء حاداً والادراك أعمق، ويحيل القوة إلى الفعليّة. كما أن تأثير الحب السيىء ليس أن يحيل المرء إلى أبله، بل تنتابه الغفله، والبلاهة والغفلة مختلفتان. فكثيراً مايستطيع القليل الذكاء الابتعاد عن الغفلة بحفظ تعادل مشاعره.

الحب يحد الذكاء، ولكنه يوجه النظرة والتوجه إلى اتجاه واحد، لذلك فقد قيل: ان أثر العشق التوحد، ومن هذا التوحد والتمركز يحصل العيب فيغفل الإنسان عن الالتفات إلى الأمور الاخرى.

والاكثر من ذلك هو ان الحب لايغطى العيوب فحسب، بل انه يقلب القبيح حسناً، إذ أن من خصال الحب انه حيثما شع نوره ظهر الجمال، فالذرة من الحسن تبدو كالشمس، بل يبدو الاسود ابيض والظلام ضياء.

والظاهر ان السبب هو ان الحب ليس كالعلم الذي يعتمد على المعرفة كلياً. فالحب جانبه الباطني النفساني أقوى وأشد من جانبه الخارجي العيني، أي ان مقدار الحب لايتبع مقدار الحسن بل هو أكثر ما يتبع مقدار الاستعداد لتقبله.. ان في العاشق ـ في الواقع ـ جوهراً، مادة، أو إنه النار تحت الرماد، تبحث عن العذر والموضوع. وعندما يصادف يوماً هذا الموضوع ويحصل

⇦

وهناك آيات وأحاديث تحذر بشدة من مصاحبة رفاق السوء وتبادل الود معهم، وفي أخرى حث على مصادقة الاخيار الاطهار.

قال ابن عباس: كنا في حضرة الرسول ﷺ فسألوه: من خير جليس؟ فقال ﷺ:

«من ذكّركم بالله رؤيته، وزادكم في عملكم منطقه، وذكركم بالآخرة عمله.»[١]

ما أحوج الإنسان إلى إكسير حب الصالحين والاطهار، إلى أن يحبهم ويصطبغ بصبغتهم!.

هنالك عدة طرق لتهذيب النفس واصلاح الاخلاق، كما أن هناك مدارس مختلفة لذلك، منها مدرسة سقراط التي ترى أن على المرء أن يعتمد العقل في اصلاح نفسه، فيلزمه أولاً أن يدرك فوائد تزكية النفس ومضار اختلال الاخلاق، ثم يقوم بواسطة آلة العقل بالبحث عن الصفات المذمومة واحدة واحدة فيقتلعها كما يقتلع المرء الشعيرات من داخل أنفه واحدة واحدة، أو كالزارع الذي يقتلع الحشائش الضارة من أرضه، أو ينظف قمحه مما فيه من أحجار وصخيرات بيده، وبذلك يكون قدنظف بيدر حياته من الشوائب.

وعلى وفق هذا الاسلوب لابد من التزام الصبر والجلد والدقة في الحساب والتفكير لكي يمكن بالتدريج ازالة المفاسد الاخلاقية وتنقية ذهب الوجود من

⇦ التوافق - وهذا مالم يعرف سره حتىٰ الآن، ولذلك يقال: إن الحب لايحتاج إلى سبب - تظهر تلك القوة الباطنية وتصطنع الجمال بقدر ما تستطيع، لا بالقدر الموجود فعلاً في المعشوق. وهذا هو معنى القول: ان الود يقلب العيوب فنوناً والاشواك ورداً وريحاناً.

١ - (بحار الانوار) ج ١٥ كتاب العشرة، ص ٥١ الطبعة القديمة.

أوشابه، ولربما أمكن القول بأن ذلك غير متيسر للعقل أن يضطلع به.

الفلاسفة يريدون اصلاح الاخلاق من العقل والفكر والتفكير. فهم يقولون، مثلاً: إن العفة والقناعة في نظر الناس همااللذان يؤديان إلى عزة الإنسان وشخصيته، وإن الطمع والجشع هما باعثا الذلة والضعة.

أو يقولون: إن العلم سبب القوة والقدرة، وانه كذا وكذا، وانه «خاتم ملك سليمان» وإنه سراج في طريق الإنسان ينير له الطريق ويكشف المهاوي.

أو يقولون: الحسد وإرادة السوء للناس دليل مرض نفسي له عواقب اجتماعية سيئة، وما إلى ذلك من أقوال.

لاشك في أن هذا طريق صحيح، وأن هذه وسيلة جيدة؛ ولكن الكلام يدور على قيمة هذه الوسيلة بالقياس إلى وسيلة أخرى، كالقول بأن السيارة وسيلة جيدة، ولكن ينبغي معرفة درجة جودتها بالنسبة للطائرة مثلاً.

نحن ـ قبل كل شيء ـ لانجادل في قيمة العقل من حيث عمله الارشادي، أي إلىٰ أي مدىٰ تكون الإستدلالات العقيلة قادرة على اظهار الواقع في القضايا الاخلاقية ومدى صحتها وعدم صحتها؛ ولكن الذي نريد أن نقوله هو أن المدارس الفلسفية الاخلاقية والتربوية لاتعد ولا تحصى، وما زالت هذه القضايا الاستدلالية تدور ضمن حدود البحث واختلافات وجهات النظر، وفي هذا يقول أهل التصوف:

(قوائم الاستدلال خشبية   والقوائم الخشبية جد غير مكينة)

إننا لانبحث هذا في الوقت الحاضر، وانما نبحث في المدى الذي يبلغه.

إن رجال العرفان والسير والسلوك قالوا باستبدال طريق العقل والاستدلال بطريق المحبة والولاء. يقولون: ابحث عن الإنسان الكامل، ثم ضع حبل حبه

والولاء له في عنق قلبك، فذلك أقل خطراً من الاستدلال وأسرع في بلوغ المرام.

من حيث المقارنة بين هاتين الوسيلتين فإنهما تكونان كالمكائن اليدوية القديمة والمكائن الآلية الحديثة. إن تأثير قوة الحب والولاء في ازالة الرذائل الاخلاقية من القلب أشبه بتأثير المواد الكيماوية على المعادن فصانع (الكلايش) مثلاً يزيل أطراف الحروف الطباعية بالتيزاب، لابظفره أو بالسكين؛ ولكن تأثير قوة العقل في اصلاح المفاسد الاخلاقية أشبه بمن يريد أن يفصل ذرات الحديد عن التراب باليد، فكم سيكون عناؤه وتعبه في هذا السبيل؟! إذ لو كان بيده مغناطيس قوي لاستطاع بإدارة المغناطيس دورة واحدة في التراب أن يجتذب كل ذرات الحديد مرة واحدة.

إن قوة المحبة والولاء هي المغناطيس الذي يجمع الصفات الرذيلة ويلقي بها بعيداً.

يرى أهل العرفان أن حب الاطهار والكاملين والولاء لهم يعمل كالجهاز الآلي الذي يجمع الرذائل ويطرحها جانباً. فلو أصبح المرء مجذوباً بحق لكان في أحسن حال من الصفاء والنبوغ.

نعم، ان الذين سلكوا هذا الطريق طلبوا إصلاح الأخلاق من قوة الحب واعتمدوا في ذلك على قدرة العشق والولاء. ولقد دلت التجارب على أن مطالعة مئات الكتب الاخلاقية لم تؤثر بقدر أثر مصاحبة الصالحين وحبهم ومتابعتهم في الروح.

يرمز (مولوي) بالناي إلى رسالة الحب، فيقول:

(من رأى كالناي سماً وترياقاً معاً؟

من رأى كالناى جليساً وعاشقاً معاً؟)

(إن مــــن قُــدّ بـــالحب قـــميصه
طـــهر مـــن الجشــع والعــيوب كــلها)
(فمرحـا لك أيـها الحب ذوالتـعامل الحسن
ويــــا طــيبيب عــللنا كـــلها)

نرى أحياناً بعض العظماء الذين يقلدهم أتباعهم حتىٰ فـي طـراز مشـيتهم وملابسهم وتعاملهم وطريقة حديثهم. ان هذا التقليد ليس اختياراً، بل هو طبيعي يحدث بغير وعي وبتأثير قوة الحب و الولاء التي تؤثر في جميع أركان وجـود المحب، فتعمل على أن تجعله في جميع الاحوال أشبه بالحبيب.

ولهذا فعلى كل امرىء يريد اصلاح نفسه أن يبحث عن أحد رجال الحقيقة فيمحضه حبه لكي يستطيع أن يصلح نفسه حقاً.

(إذا كان في رأسك هوىٰ الوصال ـ يا حـافظ ـ
فعليك أن تصبح تـراب أعـتاب أهـل الخـبرة)

ان الإنسان الذي كان من قبل يتهاون كلما أراد أن يؤدى عبادة أو يعمل عملاً صالحاً. أصبح بعد أن وافاه الحب والولاء وقد زايله ذلك الإهـمال والتـراخـي، فرسخ عزمه وقويت همته:

(حب الطيبين أخذ من الجميع قلوبهم ودينهم بغير وجل
والرخ في الشطرنج لم يأخذ مـا أخـذه وجـه الجـميل)
(لاتـــظنن مـــجنوناً أصـــيب بـــالجنون جـزافاً
فـــهو «مـجذوب» ليـلى مـن قـرنه إلى قـدمه)
(انـــني لم أبـلغ الشـــمس رفـــعة بـــنفسي
فـــقد كـــنت ذرة صـعد بـي حـبك إلى العـلى)

(انــــهما قـــوسا حـــاجبيك وكـــفك الســـماوية

التي جالت في هذا المجلس وذهبت بقلب المجنون)[١]

يشير التأريخ إلى رجال عظام أثار حب الكاملين والولاء لهـم ـ فـي نـظر المحبين في الاقل ـ ثورة في أرواحهم ونفوسهم. والشاعر (رومي) واحـد مـن أولئك، إذ أنه لم يكن منذ البداية بهذه الحرقة والثورة. كان عالماً هادئاً منصرفاً إلى التدريس في زاوية من مدينته. ولكنه منذ اليوم الذي التقى فيه (شمس) التبريزي، وهب له قلبه وروحه وولاءه، فأحاله هذا إلى شخص مختلف وأشعل فـي قـلبه النيران كالشرر إذ يصيب مخزناً للبارود. إنه في الظاهر كان من الاشاعرة، إلّا أن ديوانه (مثنوي) يعد من أعظم دواوين الدنيا. لقد نظم (ديوان شمس) في ذكرىٰ حبيبه ومراده، ويذكره في (مثنوي) كثيراً أيضاً، حيث نراه في هذا الديوان يرمي إلى أن يقول شيئاً، ولكنه ما إن يتذكر (شمساً) حتىٰ يضطرم في داخـله طـوفان عارم وتتلاطم فيه أمواج صاخبة، فينقلب هو موضوع الكلام.

(مـــاذا أقـول وليس فــي عـرق مـدرك

فــي وصــف ذاك الحــبيب الذي لانـظير له)

(شـــرح هـــذا الهـجران وهــذا العــذاب

أتـــركه فـــي هـــذا الوقت إلى وقت آخـر)

(لاتبحث عن الفتنة والاضطراب واراقة الدمـاء

فلاتتحدث أكثر من هذا عن شمس التـبريزي)

---

١ ـ هذه الآبيات للعلامة الطباطبائي باللغة الفارسية وفيها الكثير من المحسنات البديعية، ومنها التورية في «رخ» الشطرنج و«رخ» بمعنى الوجه أو الخد ـ المترجم.

وهذا مصداق قول حافظ:

(البلبل من فيض الورد تـعلم الكـلام، والا مـاكـان

كـل هـذاالقـول والغـزل مـعبأ فـي منقاره)

نماذج من التأريخ الإسلامي

في التأريخ الإسلامي نشاهد نماذج بارزة لم يسبق لها مثيل من حب المسلمين وتعلقهم بشخص رسول الله ﷺ. وهذا في الحقيقة واحد من الاختلافات بين مدرسة الانبياء ومدرسة الفلاسفة، ففي هذه يكون الطلاب متعلمين فحسب، بغير أن يكون للاساتذة الفلاسفة أي تأثير في نفوس طلابهم أكثر من تأثير أي معلم في تلميذه.

أما الانبياء فنفوذهم من قبيل نفوذ الحبيب، ذلك الحبيب الذي يكون قد نفذ إلى اعماق قلب محبه واستولىٰ علىٰ جماع حياته ووجوده.

ومن بين الذين تولّهوا في حب النبي ﷺ أبوذر الغفاري.

أمر رسول الله ﷺ بالتحرك يوماً إلى تبوك (على بعد حوالي مائة فرسخ شمال المدينة المنورة عند الحدود السورية). فاعتذر بعضهم بمختلف الاعذار، وقف المنافقون حجر عثرة في طريق ذلك.. ولكن تهيأ في النهاية جيش جرار.

كانت تعوزهم التجهيزات العسكرية، ولم يكن معهم من الطعام الا النزر اليسير بحيث كان بعضهم يسد جوعه بتمرات معدودات. إلّا أنهم جميعاً كانوا أشد ما يكونون حيوية ونشاطاً، فقد كان الحب ينفث فيهم القوة، وجاذبة رسول الله ﷺ تزيدهم قدرة.

كان أبوذر ـ أيضاً ـ بين هذا الجيش المتجه إلى تبوك. وفي خلال الطريق تأخر ثلاثة أشخاص واحداً بعد واحد، فكانوا يخبرون رسول الله ﷺ بذلك، فكان في كل مرة يقول:

«اذا كان فيه خير فسيرجعه الله، واذا لم يكن فيه خير فخيراً فعل».

وكان أبوذر يركب جملاً ضعيفاً نحيفاً لايقوى على السير، فتأخر به عن الركب، فقيل لرسول الله: ان أباذر قدتخلف أيضاً. فكرر رسول الله ﷺ جملته تلك:

«اذا كان فيه خير فسيرجعه الله، واذا لم يكن فيه خير فخيراً فعل».

ويواصل الجيش مسيره وابوذر متخلف عن لحاق الركب، لخور مطيته، ولم ينفع فيها ضرب ولاحث، فهجر البعير، وحمل متاعه على ظهره، وراح يمشي فوق الصخور المحرقة في ذلك الحر اللافح، وقدأوشك على الهلاك من شدة العطش. ووصل إلى صخرة في ظل جبل حيث كان ماء المطر قدتجمع في بركة صغيرة، فذاقه فاذا به عذب بارد، ولكنه امتنع عن الشرب قائلاً: والله لن أشرب حتى يشرب منه حبيبي رسول الله. وملأ قربته ووضعها على كتفه وأسرع خلف جيش المسلمين.

رأى الجيش شبحاً بعيداً مقبلاً عليهم، فقالوا: يا رسول الله: نرى شبحاً مقبلاً علينا، فأخبرهم الرسول ﷺ أنه لابد أن يكون أباذر. واذا اقترب عرفوه. نعم .. إنه أبوذر، ولكنه يكاد يقع على الارض تعباً وعطشاً. وما أن وصل إلى حيث رسول الله ﷺ حتىٰ وقع علىٰ الارض. فأمر رسول الله ﷺ أن يسرعوا إليه بالماء. فقال أبوذر بصوت ضعيف. ان معي ماءاً. فتبسم ﷺ وسأله: أمعك الماء وأنت تشرف على الهلاك عطشاً؟

فقال: يا رسول الله. عندما تذوقت الماء، أحزنني أن أشرب منه قبل أن يشرب منه حبيبي رسول الله.(١)

---

١ ـ (بحار الانوار) ج ٢١ ص ٢١٥ و٢١٦ الطبعة الجديدة.

ترى في أية مدرسة من مدارس العالم يمكن أن نعثر على مثل هـذا الوله والتشوق ونكران الذات؟

نموذج آخر:

بلال الحبشي نموذج آخر من الوالهين[١] بحب رسول الله ﷺ. كان طواغيت قريش في مكة يعذبونه أشد عذاب .. لايطيقه انسان. يرمونه على الرمال المحرقة في الصحراء الملتهبة، ويطلبون منه أن يذكر آلهتهم بخير وأن يذكر محمداً بسوء. كان أبوبكر ينصحه بكتمان اسلامه، ولكنه لم يكن يطيق الكتمان. وقدأبدع الشاعر (رومي) في الاشارة إلى ذلك في قصيدة وردت في الجزء السادس من ديوانـه (مثنوي).

نموذج آخر:

يذكر المؤرخون المسلمون حادثة شائعة معروفة من حوادث صدرالإسلام في غزوة الرجيع، ويوم الرجيع.

في السنة الثالثة من الهجرة جاء جمع من قبيلتي (عضل) و(القارة) ـ وهما تشتركان حسب الظاهر مع قريش في الأصول وتسكنان حوالي مكة ـ إلى رسول الله ﷺ وقالوا: «لقد أسلم جمع منّا، فنطلب ارسال عدد من المسلمين يشرحون لنا معنىٰ الدين ويعلموننا القرآن ويفقهوننا في اصول الدين وتعاليم الإسلام».

فأرسل معهم رسول الله ﷺ ستة من أصحابه لذلك، برئاسة رجل اسمه (مرثد بن ابي مرثد) وقيل إنه (عاصم بن ثابت).

---

١ ـ في الأصل «المدلهين» و «الدَلَهُ» هي السلوان من سلا، يعني نسىٰ. (المصحح)

وصل مبعوثوا رسول الله مع أولئك الأعراب الذين كانوا قد قدموا إلى المدينة لهذاالغرض، ووصلوا إلى مكان تقطنه قبيلة هذيل، فنزلوا ليلتهم هناك، وفيما كان رسل رسول الله ﷺ يغطون في نومهم، واذا بجمع من أفراد قبيلة هذيل تغير عليهم بسيوف مصلتة. واتضح أن الجمع الذي وفد إلىٰ المدينة كان يبيّت الخدعة منذ البداية، أو عند وصولهم إلىٰ هذه المنطقة استولىٰ عليهم الطمع فغيّروا رأيهم.

علىٰ كل حال، يبدو أن هؤلاء قداتفقوا مع قبيلة هذيل على أسر مبعوثي رسول الله ﷺ. وما إن أدرك الرسل جلية الأمر حتىٰ بادروا إلىٰ أسلحتهم وامتشقوا سيوفهم للدفاع عن انفسهم. الا أن الهذليين اقسموا بأنهم لاينوون قتلهم، وإنما يقصدون تسليمهم إلىٰ قريش في مكة لقاء مبلغ من المال، وأنهم يعاهدونهم علىٰ عدم قتلهم.

فقال ثلاثة من الستة، وكان منهم عاصم بن ثابت: إننا لن نقبل أبداً بعار قبول عهد من مشرك. وقاتلوهم حتىٰ قتلوا.

أما الثلاثة الآخرون، وهم: زيد بن دثنة، وخبيب بن عدي وعبدالله بن طارق، فقد أظهروا اللين واستسلموا.

فأوثق الهذليون وثاق هؤلاء الثلاثة وتوجهوا إلى مكة.

وقبيل وصولهم استطاع عبدالله بن طارق أن يحرر يديه من الوثاق وأن يصل إلىٰ سيفه، الا أن الاعداء لم يمهلوه بل قتلوه رجماً بالحجارة. واخذوا زيداً وخبيباً إلىٰ مكة وبادلوهما بأسيرين من هذيل كانا في مكة وعادوا من حيث أتوا.

فجاء صفوان بن أمية القرشي واشترىٰ زيداً ممن اشتراه، قاصداً قتله انتقاماً لدم أبيه الذي كان قدقتل في أحد أو في بدر. فأخذوه إلىٰ خارج مكة لقتله، واجتمع الناس لمشاهدة مايجري.

جيء بزيد إلىٰ موضع الاضاحي. فتقدم زيد بقدم ثابتة دون أن يظهر عليه أي تخاذل أو خوف، وكان أبوسفيان أحد الحاضرين، فأراد أن يستغل هذه اللحظات الاخيرة من حياة زيد لعله يستطيع أن ينتزع منه كلمة ندم أو أسف أو انكار لرسول الله ﷺ. فتقدم إليه وخاطبه قائلاً:

«أحلف بالله، ألا تحب الآن أن يقف محمد موقفك فنضرب عنقه ونعيدك سالماً إلىٰ زوجتك واطفالك؟».

فقال زيد: «أقسم بالله اني لا أحب حتىٰ أن تشاك قدم محمد بشوكة وأنا أقيم بين أهلي وعيالي».

ففغر أبوسفيان فاه عجباً، والتفت إلىٰ قريش وقال: «والله اني لم أر أصحاباً يحبون قائدهم كما يحب محمداً أصحابه».

وبعد فترة جاء دور خبيب بن عدي، فجاءوا به ليصلبوه خارج مكة. وهناك طلب أن يمهلوه حتىٰ يصلي ركعتين.

فسمحوا له.. فصلى ركعتين بكل خشوع وتضرع ثم خاطب الجمع قائلاً:

«والله لو لم أخش اتهامكم اياي بالخوف من الموت لصليت طويلاً».

واذ أوثقوا خبيباً إلىٰ أعواد المشنقة، رفع صوته الرخيم المؤثر الذي نفذ إلىٰ قلوب الحاضرين فألقى بعضهم أنفسهم علىٰ الارض من شدة الخوف وهم يستمعون إلىٰ خبيب بن عدي يناجي ربه:

«اللهم انا قدبلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة مايصنع بنا. اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولاتغادر منهم أحداً».(١)

---

١ ـ «سيرة ابن هشام» ج ٢ ص ١٦٩ ـ ١٧٣.

نموذج آخر:

نعرف من التاريخ أن حرب أحد انتهت بما كان فيه الحزن والأسىٰ للمسلمين، إذ استشهد فيها سبعون الفاً من المسلمين وعلىٰ رأسهم حمزة عم النبى ﷺ. فقد انتصر المسلمون أول الأمر، ولكنهم بعد ذلك هوجموا علىٰ أثر ترك المسلمين مرتفعاً كان رسول الله ﷺ قدأمرهم بحراسته وعدم التخلي عنه. فقتل بعض وتشتت بعض ولم يبق الا القليل حول رسول الله ﷺ يدافعون عنه، ثم تمكنوا من وقف المشركين من التقدم. ومرة أخرى استطاع ذاك النفر القليل من جمع شتات الجند وأوقفوا المشركين عند حدهم، وخاصة بعد شيوع خبر مقتل رسول الله ﷺ الذي أضعف من تماسك المسلمين. ولكنهم ما ان عرفوا أن النبي ﷺ ما يزال حياً حتىٰ عادت قوة الإيمان إلىٰ قلوبهم.

كان الجرحىٰ مجندلين علىٰ الأرض لايعلمون بما يجري من حولهم. كان سعد بن الربيع بين الجرحىٰ ويحمل في جسده اثني عشر جرحاً. وفي غضون ذلك مر به أحد المسلمين الفارين وقال له: سمعت أن النبي قدقتل، فقال سعد:

«أشهد أن محمداً قدبلغ رسالة ربه، فقاتل أنت عن دينك، فإن الله حي لا يموت».

وبعد أن جمع رسول الله جنده راح يتفقدهم واحداً واحداً ليعرف الحي من الميت منهم، فلم ير سعد بن الربيع، فقال: «أي رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع أفي الاحياء هو أم في الاموات؟ فقال رجل من الانصار: أنا أنظر يا رسول الله مافعل. فنظر فوجده جريحاً في رمقه الاخير. فأخبره أن النبي قد أرسله ليبحث عنه.

فقال سعد: فأبلغ رسول الله مني السلام وقل له: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك

الله خيراً عنا ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك السلام عني وقل لهم: ان سعد بن الربيع يقول لكم: لاعذر لكم عندالله ان يخلُص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف».(١)

إن صفحات تاريخ صدرالإسلام مليئة بنماذج من هذا الولع العجيب والولاء الجميل. ليس في تاريخ البشر كله انسان حظي بحب الرجال والنساء والاصحاب والكبار والصغار مثل ما حظي به النبي الاكرم ﷺ بحيث أنهم كانوا يحبونه إلى الحد الذي رأيت.

يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ما خلاصته:

«لم يكن أحد يسمع كلام رسول الله ﷺ إلّا ووقعت محبته في قلبه ومال إليه. لذلك فقد كان قريش يطلقون علىٰ المسلمين في مكة اسم (الصباة) وكانوا يقولون: نخاف أن يصبوا الوليد بن المغيرة إلىٰ دين محمد. ولئن صبا الوليد، وهو ريحانة قريش، لتصبونّ قريش بأجمعها. وكانوا يقولون: ان في كلام محمد لسحراً أشد فعلاً من الخمر. وكانوا ينهون أبنائهم عن مجالسته لئلا ينجذبوا إليه بسحر كلامه ويؤخذوا ببهاء طلعته.

عندما كان رسول الله ﷺ يجلس في حجر اسماعيل بزاوية الكعبة ويقرأ القرآن بصوت مرتفع، أو يذكرالله، كان المشركون يضعون أصابعهم في آذانهم لكيلا يسمعوه فيقعون تحت تأثير سحر كلامه وعذوبته فيميلون إليه. وكانوا يغطون رؤوسهم ووجوههم بأرديتهم حتىٰ لايؤخذوا بسيماه الجذاب. لذلك كان أكثر الناس يقبلون على الدخول في الإسلام بمجرد سماع كلامه ورؤية ملاحمه وتذوق حلاوة الفاظه».(٢)

---

١ ـ شرح ابن ابي الحديد، ط بيروت، ج ٣ ص ٥٧٤. سيرة ابن هشام، ج ٢ ص ٩٤

٢ ـ شرح نهج البلاغة، ج ٢ ص ٢٢٠

ان من بين حقائق الإسلام التاريخية، التي تثير اعجاب كل دارس للتاريخ وعالم بالانسان وبالمجتمع، ذلك الانقلاب الذي أحدثه الإسلام في حرب الجاهلية. فبموجب الموازين والحسابات العادية وبالطرق المألوفة في التربية والتعليم، يتطلب مجتمع كذاك إلى مضي زمان طويل حتىٰ ينقرض الجيل القديم الذي أَلِف الرذائل والفساد ويتربىٰ جيل جديد مختلف. ولكننا هنا ينبغي ألّا نغفل عن قوة الجذب والانجذاب التي قلنا: إنها مثل ألسنة اللهب تحرق المفاسد من جذورها.

كان أغلب أصحاب رسول الله ﷺ يعشقونه العشق كل العشق، وان مطية الحب التي ركبوها هي التي طوت لهم ذلك الزمن الطويل في فترة قصيرة، فغيروا مجتمعهم في أقصر وقت.

حبُّ عليٍّ في القرآن والسنة

أظهرت البحوث السابقة قيمة الحب واثره، واتضح من خلال ذلك أن حب الطيبين وسيلة لتهذيب النفس وليس هدفاً بذاته. فلننظر الآن ان كان الإسلام والقرآن قداختارا لنا حبيباً نمحضه الود، أم لا.

عندما يكرر القرآن أقوال الانبياء السابقين نرى أن كلاً منهم قدأعلن:

﴿وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ﴾.

ولكنه يأمر النبى ﷺ أن يقول:

﴿قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾.(١)

هنا يتبادر للذهن هذا السؤال: لماذا لم يطلب الانبياء السابقون أي أجر، وطلب نبينا ﷺ أجراً من الناس هو حب أقربائه الأدنين؟

القرآن نفسه يجيب على هذا السؤال بقوله:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾.

أي ان ماطلبته من أجر إنما يعود نفعه عليكم، إذ أن هذه المودة ليست سوى ذريعة تتوصلون بها إلىٰ اصلاح ذواتكم وإلىٰ التكامل الانساني. هذا هوالاجر، ولكنه في الحقيقة خير آخر أعرضه عليكم، وذلك لأن أهل البيت وذوي قربى رسول الله ﷺ أناس طاهرين غير ملوثين (حجور طابت وطهرت). فحبهم والتمسك بهم لايعني سوىٰ طاعة الله والتزام الفضائل. إن حبهم هو الاكسير الذي

١ ـ سورة الشورى، الآية ٢٣

يقلب الاحوال ويوصل إلى الكمال.

ومهما يكن المراد من لفظة «قربىٰ» فهي لاشك تشمل علياً.

يقول الفخر الرازي: «يروي الزمخشري في (كشافة): عندما نزلت هذه الآية، سئل النبي: يا رسول الله، من هم ذوو القربىٰ الذين يجب علينا حبهم؟ فقال ﷺ: علي وفاطمة وابنائهما. يتضح من هذه الرواية أن هؤلاء الأربعة هم أقرباء النبي الذين على الناس أن يمحضوهم الحب والولاء. وهذا ما يمكن اثباته من عدة طرق:

١ ـ آية ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾.

٢ ـ ما من شك في أن رسول الله ﷺ كان يحب فاطمة حباً جماً، وكان يقول: فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما يؤذيها.

وكذلك كان يحب علياً والحسنين، وقد وردت في هذا روايات كثيرة.

وعليه فإنّ حبهم فرض على الأمة أجمعين،[١] لأن القرآن يقول: ﴿واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.[٢] ويقول أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.[٣] كل هذا يدل علىٰ أن حب آل محمد ـ وهم علي وفاطمة والحسنان. واجب على المسلمين كافة».[٤]

---

١ ـ إنّ حبّ النبي لهم لم يكن حباً شخصياً فحسب، ولمجرد كونهم أبناءه وأنه لو كان آخرون غيرهم بمكانهم لأحبّهم النبي ايضاً. بل كان النبي يحبهم لكونهم كانوا نماذج متميزين يحبهم الله، فقد كان للنبي أبناء آخرون، ولكنه لم يكن يحبهم إلى هذا الحد، ولاكان حبهم فرضاً على الناس.

٢ ـ سورة الاعراف، الاية ١٥٨

٣ ـ سورة الاحزاب، الآية ٢١.

٤ ـ (التفسير الكبير) للرازي، طبعة مصر، ج ٢٧ ص ١٦٦

وهناك احاديث شريفة كثيرة بشأن حب علي عليه السلام:

١ ـ يذكر ابن الأثير أن النبي خاطب علياً بقوله: «يا علي، إنّ الله عزّوجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها، الزهد في الدنيا، فجعلك لاتنال من الدنيا شيئاً ولاتنال الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين ورضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً فطوبى لمن أحبك وصدّق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك، فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك فهم جيرانك في دارك ورفقاؤك في قصرك، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك فحق علىٰ الله أن يوقفهم مواقف الكذابين يوم القيامة».(١)

٢ ـ يروي السيوطي أن النبي صلى الله عليه وآله قال:

«يا علي، لايحبك إلّا مؤمن، ولايبغضك الا منافق».(٢)

٣ ـ يروي أبونعيم أن النبي صلى الله عليه وآله خاطب الانصار قائلاً:

«يا معشر الانصار، ألا أدلكم على ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده أبداً؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: هذا علي فأحبوه بحبي وأكرموه بكرامتي، فإن جبريل أمرني بالذي قلت لكم من الله عزوجل».(٣)

وثمة روايات أوردها أهل السنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنّ النظر إلى وجه علي عبادة، والحديث عن فضائل علي عبادة».

---

١ ـ (أسد الغابة) ج ٤ ص ٢٣.

٢ ـ (كنز العمال) و(جمع الجوامع) للسيوطى، ج ٦ ص ١٥٦

٣ ـ حلية الاولياء، ج ١ ص ٦٣. ومثل هذا روايات كثيرة. وقدصادفنا في كتب أهل السنة المعتبرة أكثر من تسعين رواية بهذا المعنى. أضف إلى ذلك ما ورد في كتب الشيعة.

١ ـ ينقل المحب الطبري عن عائشة أنها قالت: «رأيت أبي كثير النظر إلى وجه علي، فقلت له: أراك يا أبي كثير النظر لوجه عليّ. فقال: بنيتي، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: النظر إلى وجه عليّ عبادة».(١)

٢ ـ أخرج الديلمي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال:

«خير إخوتي علي، وخير أعمامي حمزة. وذكر علي عبادة».(٢)

لقد كان علي أحب الخلق عند الله ورسوله. ولا شك في هذا.

يقول أنس بن مالك:

«في كل يوم كان أحد أبناء الانصار يقوم على خدمة رسول الله ﷺ. وفي يوم نوبتي جاءت أم أيمن بطعام من دجاج محمر وقالت: يا رسول الله، لقد ابتعت هذه الدجاجة وطبختها بنفسي. فقال رسول الله: اللهم ابعث إليّ بأحب عبيدك ليشاركني في تناول هذا الطعام.

وفي تلك اللحظة طرق الباب. فقال رسول الله: يا انس افتح الباب. فقلت في نفسي: أدعوا الله أن يكون من الانصار. ولكني رأيت علياً عند الباب. فقلت: رسول الله مشغول. وعدت إلى حيث كنت.

فطرق الباب الثانية. فقال رسول الله: افتح الباب. فعدت أدعو الله إن يكون الطارق من الانصار. وفتحت الباب واذا بعلي. فقلت: إن النبي مشغول. وعدت إلىٰ مكاني.

---

١ ـ (الرياض النظرة) ج ٢ ص ٢١٩ وغيرها كثير صادفنا منها أكثر من ٢٠ رواية.

٢ ـ (الصواعق المحرقة) ص ٧٤. وهناك خمس روايات أخرى بهذا المعنى في كتب أهل السنة الموثقة.

فطرق الباب مرة أخرى. فقال رسول الله: يا أنس، افتح الباب وأْتِ به، فلستَ أنت أوّل من أحب قومه، ولكنه ليس من الانصار. ففتحت الباب وأدخلت علياً، فجلس يأكل مع رسول الله ﷺ.(١)

---

١ ـ (مستدرك الصحيحين) ج ٣ ص ١٣١. هذه الرواية نقلت بصور مختلفة في أكثر من ١٨ رواية في كتب أهل السنة.

سرّ حب عليّ

ما سبب وقوع حب علي في القلوب؟

سر الحب لم يكتشف لحد الآن، أي لا يمكن حصره ضمن قانون معين، بحيث يمكن القول انه إذا حصل كذا يحصل كذا، الا أن في الحب ـ ولاشك ـ سراً. فقد يكون في المحبوب شيء يغشى بصر المحب فيجذبه إليه. واذا ما اشتد هذا الجذب وارتفع الحب إلى أعلى الدرجات، قيل: انه العشق. ولقد كان علي محبوب القلوب ومعشوق الناس، فلماذا؟ وكيف؟

فيم امتياز علي بحيث أثار العشق فولهت به القلوب، فاصطبغ بصبغة الحياة الخالدة؟

لماذاترى القلوب أنها شديدة القرب منه، ولاتحسبه قدمات، بل تراه حياً يرزق؟

لاشك أن مبعث الحب فيه ليس جسمه، لأنّ جسمه لم يعد الآن بيننا وما كنا أحسسنا به. ان حبه ليس من قبيل حب الابطال الشائع في كل الامم .. كما نكون قدجانبنا الصواب ان قلنا: ان حبنا علياً تابع لحبنا الفضائل الاخلاقية والانسانية، وان حب علي هو حب الانسانية .. صحيح ان علياً كان تجسيداً للانسان الكامل، وصحيح ان الإنسان يحب مثل الانسانية السامية.

ولكن لو أن جميع الفضائل التي امتاز بها علي من الحكمة، والعلم، والتضحية، ونكران الذات، والتواضع، والأدب، والمحبة، والعطف، والأخذ بيد الضعيف، والعدالة والحرية، وحب الحرية، واحترام الإنسان، والايثار، والشجاعة،

والمروءة، والفتوة نحو العدو، والسخاء والجود والكرم.

أقول: لو أن كل ماتحلى به علي من الفضائل لم يكن مصطبغاً بالصبغة الإلهيّة، لما كان على هذا القدر الذي نراه عليه اليوم من استثارة للانفعال واجتذاب للحب. فعلي محبوب لكونه مرتبطاً بالله. إن قلوبنا ترتبط في اعماقها، وبغير وعي منا، بالله.

ولما كان عليّ آية الله العظمى ومظهر صفات الله في أعيننا، فقد عشقناه .. في الحقيقة إن سند حب علي هو ما يربط النفوس بالله، ذلك الرابط الذي كان في الفطرة دائماً. ولما كانت الفطرة خالدة، فحب علي خالد ايضاً.

سودة الهمدانية المحبة لعلي وقفت أمام معاوية تصف علياً فقالت:

صلى الاله على روح تضمنها قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قدحالف الحق لايبغي به بدلاً فصار بالحق والإيمان مقرونا

صعصعة بن صوحان العبدي واحد آخر من المولعين بعلي حباً. كان من القلة الذين حضروا دفن علي في ذلك الليل البهيم. وبعد أن تم الدفن وقف صعصعة على القبر واضعاً احدى يديه على فؤاده والاخرى قدأخذ بها التراب ويضرب به رأسه، ثم قال:

«بأبي أنت وامي ـ يا اميرالمؤمنين ـ هنيئاً لك يا أبا الحسن، فلقد طاب مولدك، وقوىٰ صبرك وعظم جهادك، وظفرت برأيك، وربحت تجارتك، وقدمت على خالقك، فتلقاك الله ببشارته، وحفتك ملائكته، واستقررت في جوار المصطفى، فأكرمك الله بجواره، ولحقت بدرجة أخيك المصطفى، وشربت بكأسه الاوفى، فاسأل الله أن يمنّ علينا باقتفائنا أثرك والعمل بسيرتك، والموالاة لاوليائك، والمعاداة لأعدائك، وأن يحشرنا في زمرة أولئك.

فقد نلت ما لم ينله أحد، وأدركت مالم يدركه احد، وجاهدت في سبيل ربك بين يدى اخيك المصطفىٰ حق جهاده، وقمت بدين الله حق القيام، حتىٰ أقمت السنن، وأبرت الفتن، واستقام الإسلام، وانتظم الايمان، فعليك مني أفضل الصلاة والسلام.

بك اشتد ظهر المؤمنين، واتضحت أعلام السبل، وأقيمت السنن، وما جُمع لأحد مناقبك وخصالك. سبقت إلىٰ إجابة النبى صلى الله عليه وآله مقدماً مؤثراً، وسارعت إلىٰ نصرته، ووقيته بنفسك، ورميت سيفك ذالفقار في مواطن الخوف والحذر، قصم الله بك كل جبار عنيد، وذل بك كل ذي بأسٍ شديد، وهدم بك حصون أهل الشرك والكفر والعدوان والردىٰ، وقتل بك أهل الضلال من العدىٰ.

فهنيئاً لك يا اميرالمؤمنين. كنت أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله قرباً وأوّلهم إسلاماً وأكثرهم علماً وفهماً، فهينئاً لك يا ابالحسن. لقد شرف الله مقامك، وكنت اقرب الناس إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله نسباً، وأولّهم اسلاماً، وأوفاهم يقيناً، وأشدهم قلباً، وأبذلهم لنفسه مجاهداً، وأعظمهم في الخير نصيباً.

فلا حرمنا الله أجرك، ولا أذلّنا بعدك، فوالله لقد كانت حياتك مفاتح للخير ومغالق للشر، وإن يومك هذا مفتاح كل شر ومغلاق كل خير. ولو أن النّاس قبلوا منك لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم، ولكنهم آثروا الدنيا على الآخرة». (١)

نعم، لقد اختاروا الدنيا لأنهم لم يستطيعوا الوقوف مع عدل علي واستقامته حتى ظهرت ايدي الجمود الفكرى من الاكمام وقتلت عليّاً.

ليس لعليّ عليه السلام نظير من حيث كونه موضع حب عارم من لدن أناس ضحوا

---

١ ـ (بحار الانوار) ج ٤٢ ص ٢٩٥ و٢٩٦ الطبعة الجديدة.

برؤوسهم في سبيل حبه، وارتقوا المشانق في سبيل الولاء له. إن الصفحات العجيبة التي كتبها هؤلاء في التاريخ لتثير الحيرة والدهشة، وهي مفخرة من مفاخر تاريخنا.

إن دماء هذه النخبة تلطخ بها أيدي مجرمين أرجاس مثل زياد بن أبيه وابنه عبيدالله والحجاج بن يوسف والمتوكل، وعلى رأسهم معاوية بن ابي سفيان.

(٢)

قوة دافعة علي عليه السلام

- علي يصنع الأعداء
- الناكثون والقاسطون والمارقون
- ظهور الخوارج
- اصول عقائد الخوارج
- الخوارج و الخلافة
- انقراض الخوارج
- أشعار أم روح؟
- الخوارج وديمقراطية علي
- قيام الخوارج وطغيانهم
- سمات الخوارج
- سياسة رفع القرآن على الرماح
- ضرورة مكافحة النفاق وأهميتها
- علي الإمام والقائد الحق

عليٌّ يصنع الأعداء

سوف نقصر بحثنا هذا على فترة خلافته التي امتدت أربع سنوات وبضعة أشهر. كان علي دائماً تلك الشخصية ذات القوتين، قوة الجذب وقوة الدفع. فمنذ صدر الإسلام نرى مجموعة من الناس يجتمعون حوله، ونرى آخرين ليسوا على وفاق تام معه، وقديعانون الأمرّين من وجوده.

ولكن زمن خلافته والأزمنة التي تلت استشهاده، تعتبر فترة ظهور علي تاريخياً وفيها تتجلى قوتا الجذب والدفع عنده، وهما يزدادان قوة كلما قوي احتكاكه بالناس، مثلما كانتا أضعف قبل خلافته.

كان عليّ من الذين يصطنعون الأعداء ويوجدون المتذمرين. وكان هذا من مفاخر عليّ الكبرى. إن كل امريء يسلك سلوكاً معيناً وله هدف يناضل من أجله، وعلىٰ الاخص إذا كان ثورياً يسعى لتحقيق اهدافه المقدسة ومن الذين يصفهم الله تعالى بقوله:

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾(١).

لابد أن يكون كذلك. لذلك فإن أعداءه ـ وعلى الأخص في فترة حياته ـ لم

---

١ ـ سورة المائدة، الآية ٥٤

يكونوا أقل عدداً من أصحابه، إن لم يكونوا أكثر.

واليوم، إذا أبرزت شخصية علي ـ بغير تحريف ـ على حقيقتها، فإن الكثيرين ممن يدعون محبته ينحازون إلى صفوف أعدائه.

بعث رسول الله ﷺ علياً على رأس جيش إلى اليمن. وعند العودة عزم على لقاء النبي في مكة. وعندما اقترب من مكة أسرع لملاقاة رسول الله ﷺ بعد أن أقام على العسكر رجلاً منهم.

فقام هذا بتوزيع الحلل التي كانت مع الجيش على الجنود لكي يدخلوا مكة في حلة قشيبة؛ ولكن علياً عند عودته اعترض على هذا العمل واعتبره منافياً للانضباط، لأنّ الواجب يقضي بالحصول على أوامر النبى ﷺ بشأن تلك الحلل قبل التصرف فيها. وكان ذلك ـ في الحقيقة ـ يعتبر في نظر عليّ تصرفاً في بيت المال قبل أخذ موافقة قائد المسلمين.

لذلك أمر عليّ الجند بخلع تلك الحلل وارجاعها إلى حيث كانت، حتىٰ يرى رسول الله ﷺ رأيه في توزيعها. إلّا أنّ هذا لم يرق لأفراد الجيش، وما إن وصلوا مكة واخذ رسول الله ﷺ يسألهم عن أحوالهم، حتىٰ شكوا إليه علياً وخشونته بشأن الحلل.

فوقف رسول الله ﷺ وخاطبهم بقوله:

«إيّها الناس لاتشكوا علياً، فوالله، إنّه لأخشن في ذات الله من أن يشكىٰ».(١)

لم يكن عليّ يحابي احداً في الله، بل إنّه كان إذا راعىٰ احداً أو داراه فإنّما

---

١ ـ (سيرة ابن هشام) ج ٤ ص ٢٥٠

كان ذلك في سبيل الله. وهذا ـ لاريب ـ يخلق الاعداء ويملأ بالالم قلوب الذين امتلأت قلوبهم بالطمع والجشع.

لم يكن بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من له محبون مضحون، كما لم يكن بينهم من له اعداء ألداء شديدوا الخطر مثلما كان لعليّ، كان عليّ رجلاً هاجمه أعداؤه حتى في جنازته وهو ميت.

وكان هو نفسه دارياً بكل هذا وقدتنبأ به. لذلك أوصى آن يُعَفّى على قبره حتى لايعرفه أحد غير أبنائه، إلى أن مضى على ذلك قرن من الزمان، وزال الأمويون، وانقرض الخوارج أو ضعف بأسهم، وضمرت مشاعر الحقد والانتقام في القلوب.. عند ذلك أعلن ابنه الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن مكان مدفنه الشريف.

الناكثون والقاسطون والمارقون

دفع علي أثناء خلافته ثلاث طوائف وطردهم وكافحهم.

أصحاب الجمل وقد أطلق عليهم اسم الناكثين.

وأصحاب صفين الذين قال عنهم: إنهم القاسطون.

وأصحاب النهروان، وهم الخوارج الذين وصفهم بأنهم المارقون[١]:

«فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون».[٢]

كان الناكثون ـ من حيث طبيعتهم ـ من محبي المال، من أصحاب المطامع وطالبي الامتيازات. فكلامه في العدل والمساواة موجه في أغلبه إلى هؤلاء.

أما القاسطون فكانوا من ذوي الميول السياسية من المنافقين. كانوا يسعون للاستيلاء على زمام الحكم للقضاء على حكومة الإمام عليّ وقيادته. عرض عليه بعضهم أن يجاريهم ويساويهم ويحقق بعض طلباتهم .. فرفض، لأنه لم يكن على تلك الشاكلة. كان قد اضطلع بالأمر لإحقاق الحق ومحق الظلم، لا لتأييد الظلم وترويجه. وكان معاوية وصحبه ـ من جهة أخرى ـ لا يرتضون الأسس التي أقام عليّ عليها حكمه. كانوا يريدون أن يكون لهم ـ وحدهم ـ كرسي الخلافة

---

١ ـ الواقع أن رسول الله ﷺ هو الذي أطلق عليهم تلك الاسماء، إذ قال له: ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين. هذه الرواية يذكرها ابن أبي الحديد في شرحه نهج البلاغة (ج ١ ص ٢٠١) ويقول: إن هذه الرواية احدى أدلة نبوة رسول الله ﷺ لأنّها إخبار صريح بالمستقبل وبالغيب.

٢ ـ نهج البلاغة، الشقشقية، خ ٣.

الإسلامية، فكانت مقاتلة علي هؤلاء بمثابة مقاتلة النفاق والرياء.

أما الطائفة الثالثة المارقة فقد كانوا شديدين في التعصب الديني الأعمى ومن الجهلة الخطرين.

هؤلاء، كلهم كانت دافعة علي شديدة عليهم بحيث ماكان يمكن أن يتساهل معهم ابداً.

إن من بعض مظاهر إنسانية علي الكاملة، هي أنه عندما بدأ بالعمل الايجابي واجه طوائف متعددة وانحرافات متنوعة، فحاربها كلها. فمرة نراه يقف بوجه عبدة المال ومحبي الدنيا، ومرة نراه يصارع محترفي السياسة ممن لهم عشرة أوجه ومائة وجه، ومرة يكون صراعه مع الجهلة المنحرفين من ذوي الظاهر المتدين.

نتعطف ببحثنا الآن علىٰ الفئة الاخيرة، الخوارج، فهؤلاء، وان كان أمرهم قدانتهى، إلّا أن لهم تاريخاً جديراً بالدرس وأخذ العبرة[1]، كما ان لأفكارهم جذوراً امتدت إلىٰ سائر المسلمين. فبعد هذه القرون الأربعة عشر الطويلة، وبعد زوال اشخاصهم وحتىٰ اسمائهم مازالت روحهم متفشية في هياكل هؤلاء المتدينين الجامدين الذين يقفون حجر عثرة في طريق تقدم الإسلام والمسلمين.

---

١ ـ في الأصل «الاستعبار». (المصحح)

ظهور الخوارج

كلمة (الخوارج) تعني المتمردين، وهي من (خرج)[1] التي تأتي مع حرف الجر (علىٰ). وقدظهر هؤلاء من بين أحداث صفين في آخر يوم كانت الحرب فيه قداتجهت لصالح الإمام عليّ، حيث قام معاوية ـ بعد استشارة عمرو بن العاص ـ بخدعة ماهرة. لقد أدرك يومذاك أن جميع محاولاته وآلامه قدانهارت بغير فائدة. ولم يبق بينه وبين الهزيمة الا خطوة واحدة، فرأى أنه بغير الحيلة لا يمكن أن ينجو. فأمر برفع المصاحف على رؤوس الرماح ـ اشارة إلى كونهم مسلمين ومن

١ ـ خرج فلان على فلان: برز لقتاله. وخرجت الرعية على الملك: تمردت. وتعبير (الخوارج) يقصد به المعنى الثاني، لأنّهم خرجوا على عليّ ابّان حكمه وتمردوا عليه. وبما أنهم أقاموا تمردهم ذاك على أساس ديني، فقد اصبحوا نحلة ولصق اسم الخوارج بهم ولم يطلق على الذين خرجوا بعدهم على سلطان زمانهم.

ولو لم يكن للخوارج مدرسة وعقائد خاصة لمضوا مثل سائر المتمردين بعدهم. الا أنهم كانت لهم معتقداتهم، وهذه غدت فيما بعد ذات موضوعاً قائماً بذاته، على الرغم من أنهم لم ينجحوا أبداً في تأسيس حكم وحكومة، ولكنهم نجحوا في تأسيس ميدان فقهي وأدبي لعقائدهم. (راجع «ضحى الإسلام» ج ٣ ص ٣٤٠ ـ ٣٤٧ ط ٦)

كان هناك آخرون ممن لم تتح لهم فرصة الخروج وان كانوا من الخوارج عقيدة، كالذي يقال عن عمرو بن عبيد وبعض آخر من المعتزلة. ان بعض المعتزلة الذين كانوا يعتقدون بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو في خلود مرتكب الكبائر ـ كما يعتقد الخوارج ـ كانوا يعبرون عنهم بأنهم «يرون رأي الخوارج» بل لقد كان هناك عدد من النسوة يؤمن بأفكار الخوارج، كما جاء في (الكامل) للمبرد، ج ٢ ص ١٥٤.

وعليه، فإن بين مفهوم كلمة (الخوارج) اللغوى ومفهومها الاصطلاحي عموم من وجه.

أهل القبلة والقرآن ـ مطالبين بوضع القرآن حكماً بينهم. لم يكن هذا شيئاً جديداً، فقد سبق للإمام علي أن اقترحه عليهم فرفضوه، وهم كانو مايزالون يرفضونه، الا انهم اتخذوه ذريعة ينجون بها من الهزيمة المنكرة.

وراح علي ينادي أن اضربوهم فهم يتخذون من صفحات القرآن ذريعة يدرأون بها عن نفسهم الهلاك، وبعد ذلك يبقون في غيهم سادرين. ان صفحات القرآن من حيث كونها ورقاً لاقيمة لها بازاء حقيقة القرآن. اننى أنا حقيقة القرآن ومظهره. وهؤلاء يرفعون ورقاً وخطاً لكي يقضوا على المعنى والحقيقة.

وتنادى عدد من جنود علي ممن جهلوا حقيقة الدين ـ ولم يكونوا قلة ـ ماذا يقول عليّ؟ أنحارب القرآن؟ إننا حاربنا لاحياء القرآن، وها هم يستسلمون له، فلماذا الحرب بعد ذلك؟ وقال عليّ: أنا أيضاً أقول حاربوا من أجل القرآن، ولكن هؤلاء لا شأن لهم بالقرآن، بل يتخذون لفظ القرآن وكتابته وسيلة لحفظ أرواحهم.

في كتاب الجهاد من الفقه الإسلامي موضوع تحت عنوان «تترس الكفار بالمسلمين». ويكون هذا في حالة حرب المسلمين مع الكفار، فيعمد الكفار إلى وضع أسرى المسلمين في الخطوط الامامية يتترسون بهم ويتقدمون بهم[1] إلى الإمام، بحيث ان المسلمين إذا أرادوا الدفاع عن انفسهم أو الهجوم على العدو لوقف تقدمه، سيكون عليهم بالضرورة أن يزيحوا من طريقهم اخوتهم المسلمين الاسرى. أي انهم لن يكونوا قادرين على الوصول إلى العدو المحارب الا بقتل أولئك المسلمين، فإن الإسلام يجيز هنا قتل المسلم في سبيل مصلحة الإسلام العليا وفي سبيل حفظ حياة بقية المسلمين.

---

١ ـ في الأصل «يتقدموا هم». (المصحح)

وأولئك أيضاً يعتبرون من الشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، الا أن على المسلمين ان يدفعوا دية دماءهم إلى ذويهم من بيت مال المسلمين.[١]

وهذا لا يختص به الفقه الإسلامي، بل هو من الأمور المسلم بها في القوانين الدولية التي تقول: إذا استخدم العدو القوى الداخلية لمصلحته، فيجوز القضاء على تلك القوى للتمكن من العدو واجباره على الانسحاب.

ففي الوقت الذي يقول فيه الإسلام: اضرب حتىٰ المسلم الحي ليتحقق النصر للإسلام، لا يكون ثمة داع للكلام على مجرد أوراق وصحائف .. ان احترام الورق وما كتب عليه يكون بسبب احترام المعنى والمحتوى. وكانت تلك الحرب في سبيل المحتوى، ولكن هؤلاء جعلوا الورق وسيلة لكي يزيلوا المعنى والمحتوى من الوجود.

إنّ الجهل[٢] والسذاجة حالا ـ كما يحول الستار السميك ـ دون رؤيتهم الحقيقة الواضحة، وقالوا: إننا فضلاً عن كوننا لا نحارب القرآن، فإن علينا ان نقف بوجه من يقدم على هذا المنكر وان ننهى عنه، فنقاتل من يقاتل القرآن.

لم يكن قدبقي على النصر النهائي الا ساعة، وكان مالك الاشتر، ذلك الجندي الشجاع المضحي، يوالي تقدمه نحو خيمة القيادة ليستولي عليها ويزيل آخر شوكة من طريق الإسلام. في تلك اللحظة ضغطت تلك الطائفة على عليّ وهددوا بانهم سوف يهجمون عليه من الخلف إذا لم يوقف الحرب. وكلما أصر عليّ على رأيه ازداد أولئك اصراراً على رأيهم.

---

١ ـ (اللمعة) ج ١، كتاب الجهاد، الفصل الاول. و(الشرائع) كتاب الجهاد.

٢ ـ في الأصل «ولكن الجهل». (المصحح)

أرسل عليّ إلى مالك أن اوقف الحرب وأترك الميدان. فرد عليه بأنه لو أجاز له الاستمرار بضع دقائق لأنهى الحرب وأنهى العدو معاً.

فشهروا السيوف قائلين سنقطّعك ارباً ارباً أو تأمره بالرجوع.

فعاد يرسل إليه انك ان شئت أن ترىٰ علياً حياً فاترك الحرب وعد. فرجع مالك، واستبد الفرح بالعدو لأن حيلته قد انطلت.

توقفت الحرب حتىٰ يحتكموا إلى القرآن، فيؤلفوا لجنة التحكيم ويحكم حكام الجانبين بما في القرآن والسنة مما يتفق عليه الجانبان، لتنتهي الخصومة، أو ليزيدوا الاختلافات اختلافاً آخر.

قال عليّ: فليعيّنوا حكمهم كي نعيّن ـ نحن أيضاً ـ حكمنا.

فعين أولئك بالاجماع عمرو بن العاص، عصارة الخديعة والمخاتلة.

واقترح على عبدالله بن عباس السياسي، أو مالكاً الاشتر المؤمن المضحي ذا البصيرة، أو أي رجل من أمثالهما.

الا أن أولئك الحمقى كانوا يفتشون عن ضريب لهم، فانتخبوا أبا موسى الاشعرى الذي كان قليل التدبير، كما لم يكن على وفاق تام مع عليّ عليه السلام. وكلّما حاول عليّ وأصحابه أن يبينوا لاولئك الناس أن أبا موسى لم يكن الرجل القادر على ذلك الأمر، أبوا وقالوا: لن نرضى عنه بديلاً. فقال: مادام الأمر كذلك، فافعلوا ما بدا لكم. فأرسلوه حكماً يمثل علياً وأصحابه إلى مجلس التحكيم.

وبعد التشاور، انتهى الأمر بعمرو بن العاص ان يقول لابي موسى الاشعري: ارى خير المسلمين في اقالة علي ومعاوية كليهما من الحكم، وننتخب ثالثاً، ولن يكون سوى عبدالله بن عمر، صهرك فقال ابوموسى: صدقت، فما العمل؟ فقال: تخلع أنت علياً من الخلافة، واخلع انا معاوية. وبعد ذلك سيختار المسلمون خليفة

لهم، ولن يكون غير صهرك عبدالله بن عمر، فتنام الفتنة وتقتلع جذورها.

وتم اتفاقهما على هذا الأمر، ونادى مناديهم في الناس ان اجتمعوا لتستمعوا إلى الحكم النهائي.

واجتمع الناس، والتفت ابوموسى إلى عمرو بن العاص وطلب إليه ان يصعد المنبر ليعلن رأيه. فقال عمرو: كيف أصعد المنبر قبلك وأنت الشيخ الوقور من أصحاب رسول الله ﷺ: حاش لله ان تبلغ بي الجرأة هذا الحد فأتكلم قبلك.

فنهض ابوموسى وارتقى المنبر، والقلوب تدق بعنف في الصدور، والعيون تكاد تخرج من محاجرها نحو الخطيب، والانفاس تكاد تتوقف مبهورة انتظاراً للنتيجة. وتكلم ابوموسى فقال: إننا بعد التشاور رأينا ان من صلاح الامة ان لا يبقى عليّ ولا معاوية. وان المسلمين لهم الخيار في اختيار من يشاؤون للخلافة. ثم خلع خاتمه من إصبع يده اليمنى وقال: انني اخلع علياً عن الخلافة كما أخلع خاتمي هذا من إصبعي. ونزل عن المنبر.

قام عمرو بن العاص وارتقى المنبر وقال: انكم سمعتم قول ابي موسى الاشعري في كونه خلع علياً عن الخلافة. أنا ايضاً اخلعه عن الخلافة كما خلع ابوموسى. ونزع خاتمه من يده اليمنى والبسه إصبع يده اليسرى وهو يقول: وانصب معاوية للخلافة مثلما اضع الخاتم في إصبعي هذا. ونزل عن المنبر.

هنا أدرك الخوارج ـ الذين أوجدوا هذا الأمر بأنفسهم ـ مدىٰ الخطأ فيما فعلوا. ولكنهم لم يكونوا يدركون أين كان موضع الخطأ. لم يقولوا: إن خطأنا يكمن في قبولنا الاستسلام لخديعة عمرو بن العاص وفي ايقافنا الحرب. كما أنهم لم يقولوا: إن خطأنا بعد القبول بالتحكيم كان في اختيار (الحكم) بجعلنا أبا موسى نداً لعمرو بن العاص. بل كانوا يقولون: إن جعلنا إنسانين حكمين في دين الله كان

كفراً ومخالفاً للشرع، فلا حكم إلا لله.

جاءوا إلى عليّ وقالوا: لقد أخطأنا وقبلنا بالتحكيم، فأصبحنا نحن وأنت من الكافرين. إننا تبنا إلى الله، فتب أنت ايضاً، فقد تضاعفت مصيبتنا.

فقال علي: التوبة خير ولابأس بها. أستغفرالله من كل ذنب.

فقالوا: هذا لايكفي، بل عليك ان تعترف بأن التحكيم كان اثماً وانك تتوب من هذا الاثم.

فقال: انني لم أقل بالتحكيم ولاطلبته. أنتم الذين أردتموه، وها أنتم تشاهدون النتيجة، ثم كيف أقول بحرمة شيء لم يحرمه الإسلام واعتبره اثماً، ثم اعترف بذنب لم‌ارتكبه؟!.

هنا بدأ نشاط هؤلاء كفرقة دينية. كانوا في البداية فرقة باغية متمردة، ولهذا أطلق عليهم اسم الخوارج، ولكنهم شيئاً فشيئاً وضعوا لعقائدهم اصولاً وقواعد، وانتظموا في حزب كان سياسياً اول الأمر ثم اصبح فرقة دينية ثم انتقل الخوارج إلى القيام بنشاطهم كأصحاب مذهب ديني وراحوا يدعون له.

ثم بعد ذلك فكروا في ضرورة اكتشاف جذور المفاسد في دنيا الإسلام، فتوصلوا إلى القول بأن عثمان وعلياً ومعاوية قداخطأوا وأثموا، وان عليهم ان يكافحوا الفساد الذي ظهر، وان يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر. وهكذا ظهر مذهب الخوارج باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ان في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرطين رئيسين، الاول: البصيرة في الدين، والثاني: البصيرة في العمل.

وقدجاء في الروايات ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع فقدان البصيرة في الدين، يكون ضرره أكثر من نفعه. اما البصيرة في العمل فهي لازمة

للشرطين الواردين في الفقه باسم «احتمال التأثير» و«عدم ترتب مفسدة» ومرجع الحكم في هذين يعود إلى العقل والمنطق.[١]

---

١ ـ أي ان القصد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الترويج «للمعروف» وازالة «المنكر». وعليه، فالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ينبغي القيام بهما عند وجود الاحتمال بترتب أثر على ذلك. فاذا قطعنا بعدم وجود أي احتمال بترتب أي أثر عليهما، فما وجه الوجوب في القيام بهما؟

ثم ان اصل تشريع هذه الفريضة هو القيام بما يؤدي إلى تحقق فائدة للمسلمين، فلابد من القيام بها حيث لاتؤدي إلى مفسدة اكبر من التي اريد النهي عنها. هذان الظرفان تلزمهما البصيرة في العمل. فالذي لايملك البصيرة في العمل لايستطيع ان يتنبأ بما إذا كان سيترتب على ذلك العمل اثر ام لا. من هنا جاء في الحديث ان الأمر بالمعروف من غير البصيرة افساده اعظم من اصلاحه.

ان احتمال ترتب الفائدة لم يشترط في الفروض الاخرى، وانه إذا وجد احتمال الاثر فليفعل والا فلا، على الرغم من ان في اداء كل فريضة نفعاً، الا ان تشخيص ذلك النفع ليس من مسؤولية المكلف.. ففي الصلاة لم يقل الشرع: انك إذا احتملت فيها فائدة فصل، وان لم تحتمل فلا تصل. كذلك الصوم، لم يقل احد: إذا احتملت فيه فائدة فصم، وان لم تحتمل فلاتصم، اللهم الا القول بخصوص الصوم: انك ان احتملت فيه الضرر فلاتصم.

إذن، لا وجود لشرط احتمال الاثر في الفروض الأخرى كالحج والزكاة والجهاد؛ ولكن هذا القيد موجود في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن الواجب معرفة مايحتمل ان يكون له من أثر ورد فعل، وما إذا كان في القيام به مصلحة للمسلمين وللإسلام ام لا؟ أي ان ادراك وجود الاثر يقع على عاتق المنفذ نفسه.

في القيام بهذه الفريضة، لكل فرد ـ بل من الواجب عليه ـ ان يشرك العقل والمنطق والبصيرة في العمل لمعرفة فائدته لأنّ هذه الفريضة ليست تعبدية.

ان وجود شرط اعمال البصيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متفق عليه باجماع الفرق الإسلامية، باستثناء الخوارج الذين ظلّوا على جمودهم الفكري وجفافهم وتعصبهم في القول بان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة تعبدية، وليس فيها شرط احتمال الاثر وعدم ترتب مفسدة، بل هي فريضة يجب القيام بها بغير جدل أو كلام. وهكذا كان هؤلاء يثورون أو

⇦

غير ان الخوارج كانوا يفتقرون إلىٰ البصيرتين الدينية والعملية. كانوا أنـاساً جهلة لابصيرة عندهم بشيء، بل كانوا يرون هذه الفريضة من الفرائض التعبدية، وكانوا يقولون: إنه يجب القيام بذلك قياماً أعمىٰ.

⇦ يغتالون الأشخاص استناداً إلى عقيدتهم هذه، على الرغم من معرفتهم بعدم جدوى ذلك، وبأن دماءهم تذهب هدراً.

اصول عقائد الخوارج

يرجع أصل فكرة الخوارج إلى الأمور التالية:

١ ـ تكفير عليّ وعثمان ومعاوية وأصحاب الجمل وأصحاب التحكيم ـ الذين يرتضون التحكيم عموماً ـ الا إذا تابوا عن رضاهم بالتحكيم.

٢ ـ تكفير الذين لايقولون بتكفير عليّ وعثمان ومعاوية والآخرين الذين ذكرناهم.

٣ ـ الإيمان ليس عقيدة قلبية فحسب، بل ان العمل بالاوامر وترك النواهى جزء من الإيمان، فالايمان مركب من الاعتقاد والعمل.

٤ ـ وجوب الثورة على الوالي والإمام الظالم دون قيد أو شرط يقولون ليس للقيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر أي شرط، وإن من الواجب القيام بذلك دائماً وبدون استثناء.(١)

لقد ظهر هؤلاء بهذه العقائد واعتبروا جميع الناس على وجه الارض كفاراً مخلدين في النار وأهدروا دماءهم.

---

١ ـ (ضحى الإسلام) ج ٣ ص ٣٣٠ نقلاً عن كتاب (الفرق بين الفرق).

الخوارج والخلافة

ان الفكرة الوحيدة عند الخوارج، والتي يرى المُحدَثون اليوم انها فكره لامعة، هي نظريتهم في الخلافة والتي كانت ذات صبغة ديمقراطية. كانوا يقولون: ان الخلافة يجب ان تتعين في انتخابات حرة، واجدر الناس بها من كان ذا تقوى وصلاح، سواء أكان من قريش ام لم يكن، وسواء أكان من احدى القبائل المرموقة أم من احدى القبائل الضائعة، وسواء أكان عربياً ام لم يكن.

ثم بعد انتخابه ومبايعته بالخلافة، إذا خالف مصلحة المجتمع الإسلامي فانه يعزل عن الخلافة، واذا رفض فلابد من مقاتلته وقتله.[١]

انهم في هذا يقفون في موقف التعارض مع الشيعة الذين يقولون: ان الخلافة أمر الهي، وان الخليفة يجب ان يعينه الله.

انهم ... كذلك يقفون موقف المعارض لاهل السنة الذين يقولون ان الخلافة يجب ان تكون في قريش ويتمسكون بمقولة: انما الائمة من قريش.

والظاهر ان نظريتهم هذه في الخلافة لم يتوصلوا إليها في اول ظهورهم، بل ان شعارهم المعروف «لاحكم الا لله» وما جاء في نهج البلاغة ايضاً[٢] يدل على انهم باديء الأمر كانوا يقولون بان الناس والمجتمع لاحاجة بهم إلى حكومة، بل على الناس ان يعملوا وفق كتاب الله.

---

١ ـ (ضحى الإسلام) ج ٣ ص ٣٣٢

٢ ـ (نهج البلاغة) الخطبة ٤٠ وشرح ابن ابي الحديد، ج ٢ ص ٣٠٨.

ولكنهم بعد ذلك رجعوا عن هذا القول وبايعوا عبدالله بن وهب الراسبي بالخلافة.(١)

١ ـ (الكامل) لابي الاثير، ج ٣، ٣٣٦.

الخوارج والخلفاء

كان الخوارج يعتبرون خلافة ابي بكر وعمر صحيحتين بالنظر لكونهما قداختيرا بالانتخاب الحر، ولانهما لم يخرجا عن المحجة الصالحة ولم يرتكبا ما يخالف الشريعة. كما انهم كانوا يرون صحة خلافة عثمان وعلي، ولكنهم يقولون: ان عثمان قدحاد عن المسير الصحيح في اواخر السنة السادسة من خلافته وتغاضى عن مصالح المسلمين، لذلك كان معزولاً عن الخلافة، وبما أنه استمر في الحكم فقد كفر ووجب قتله. أما عليّ، فبقبوله التحيكم بغير ان يتوب بعد ذلك فقد كفر أيضاً ووجب قتله. ولهذا فقد كانوا يتبرأون من خلافة عثمان منذ سنته السابعة، ومن خلافة على بعد قبوله التحكيم.(١)

كذلك ... كانوا على خلاف مع الخلفاء الآخرين وكانوا دائماً في حرب معهم.

---

١ ـ (الملل والنحل) للشهرستاني.

انقراض الخوارج

لقد ظهرت هذه الجماعة في اواخر العقد الرابع من القرن الاول الهجري على أثر خطأ خطير، ولم يدم أمرهم أكثر من قرن ونصف، فنتيجة لتهورهم وجرأتهم الجنونية أثاروا عليهم الخلفاء فتعقبهم هؤلاء حتىٰ أبادوهم وأبادوا مذهبهم معهم وانقرضوا نهائياً في اوائل تأسيس الدولة العباسية.

ان منطقهم الجاف العديم الروح، وجفاف سلوكهم وفظاظته، وبعده عن الحياة... وأخيراً فإن تهورهم الذي الغى حتىٰ «التقية» بمفهومها الصحيح المنطقي، ادى إلى زوالهم.

لم تكن مدرسة الخوارج مدرسة قادرة على البقاء فعلاً، ولكنها أبقت أثرها، فقد نفذت افكار الخوارج وعقائدهم في مختلف الفرق الإسلامية، فنحن مازلنا نرى حتىٰ الآن (نهروانيين) كثيرين لايقلّون خطراً على الإسلام ومعاداة له من الداخل عما كانوا عليه في زمان عليّ، بمثل ما أن هناك الكثيرين من أمثال معاوية وعمرو بن العاص كانوا موجودين وما زالوا، وهم يستغلون (النهروانيين) ـ اعدائهم ـ في الوقت المناسب.

أشعار أم روح؟

ان البحث في الخوارج وافكارهم باعتبارهم يمثلون فرقة ـ دينية ـ لاطائل تحته، لأنّ مذهبهم لم يعد له وجود اليوم. الا ان دراستهم ودراسة اعمالهم لاتخلو من نفع يعود علينا وعلى مجتمعنا، إذ أن مذهبهم وان كان قد انقرض إلّا أنّ روحه ظلت باقية وحلت في الكثيرين منا.

هنا لابد لنا من مقدمة قصيرة:

بعض المذاهب يمكن ان يموت من حيث كونه شعاراً، ولكن روحه تظل حية، كما ان العكس ممكن ايضاً، فقد يبقى مسلكاً من حيث كونه شعاراً، حياً، وتموت روحه. ولهذايمكن ان يتبع فرد أو افراد ـ من حيث الشعار ـ مذهباً من المذاهب، ومن حيث الروح لايتبعون ذلك المذهب. وقديكون العكس، فبعضهم قديتبعون روحياً مذهباً من المذاهب، مع انهم يرفضون شعاراته.

فنحن جميعاً نعلم ـ مثلاً ـ أن المسلمين افترقوا فرقتين بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله: السنة والشيعة، أولئك ينطوون ضمن اطار عقيدة معينة، وهؤلاء ينطوون ضمن اطار عقيدة معينة أخرى.

يقول الشيعة: ان الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله مباشرة هو عليّ بن ابي طالب عليه السلام، لأنّه صلى الله عليه وآله قدعيّنه خليفة بعده بأمر من الله سبحانه وتعالى. أي ان ذلك المنصب حق خاص له بعد النبي صلى الله عليه وآله.

والسنة يقولون: ان الإسلام في تعاليمه لم يقل بشيء خاص فيما يتعلق بالخلافة والامامة، بل عهد إلى الناس أنفسهم بأمر اختيار اميرهم وقائدهم، وانه ـ

في الاكثر ـ يجب ان يكون من قريش.

ان الشيعة يوجهون الانتقاد إلى عدد من أصحاب رسول الله ﷺ والشخصيات المعروفة، بينما يقف السنة ـ في هذا ـ في النقطة المقابلة للشيعة تماماً، فهم يحسنون الظن بكل من اتصف بصفة (الصحابي) بصورة مفرطة. يقولون: ان الصحابة جميعاً عادلون صادقون. التشيع يبنى على النقد والبحث والاعتراض و(استخراج الشعرة من العجين). والتسنن يبني على الحمل على الصحة والتسويغ و(ان شاء الله كانت قطة).

في هذا العصر والزمان الذي نعيش فيه، هل يكفي ان يقول احد: ان عليّاً هو خليفة رسول الله ﷺ مباشرة، حتىٰ نعتبره شيعياً بغير ان ننتظر منه أي شيء آخر، ومهما تكن روحيته وطراز تفكيره؟

ولكننا إذ رجعنا إلى صدر الإسلام نجد روحية خاصة هي روحية التشيع، تلك الروحية التي كانت هي وحدها القادرة على قبول وصية رسول الله ﷺ بمختلف التفسيرات والتأويلات، على الرغم من الإيمان الكامل به ﷺ.

ان نشأة هذا الانشعاب الإسلامي كان سببها ـ في الحقيقة ـ أن فريقاً من المسلمين ـ وكانوا الاكثرية ـ لم تنظر الا إلى الظاهر، إذ أن بصرها لم يكن حديداً وعميقاً بما يكفي للوصول إلى باطن الأمور ورؤية كل الوقائع. كانوا يرون الظاهر ويحملون الأمور على الصحة في كل الحالات، فيقولون: ان عدداً من كبار الصحابة والشيوخ الذين لهم سابقة في الإسلام قدساروا في طريق لايمكن ان نقول عنه انه ليس هو الطريق الصحيح.

اما الفريق الآخر، وهم الاقلية، فكانوا يقولون: ان الشخصيات تحوز على احترامنا وتقديرنا ماالتزمت الحق واحترمته. فاذا رأينا ان هؤلاء الشيوخ الذين

لهم سابقة في الإسلام هم الذين يدوسون بأقدامهم على الأصول الإسلامية، فإنهم يفقدون احترامنا، لاننا وراء الأصول لا الشخصيات.

وهذه هي الروح التي ولد بها التشيع.

إننا عندما نتابع في التأريخ الإسلامي سلمان الفارسي واباذرالغفاري ومقداد الكندي وعمار بن ياسر وامثالهم نريد ان نرى ما الذي حملهم على التجمّع حول عليّ وترك الاكثرية؟

إننا نرى انهم اناس اصوليون وعارفون بها، متدينون وعارفون بالدين. كانوا يقولون: إننا ينبغي الا نستسلم في افكارنا وادراكنا للآخرين لكيلا نخطيء إذا ما أخطأوا. لقد كانت روحيتهم ـ في الواقع ـ روحية تتحكم فيها الأصول والحقائق، لا الأشخاص والشخصيات.

كان أحد أصحاب الإمام عليّ قدانتابه الشك في حرب الجمل. كان ينظر إلى الطرفين، ففي طرف يرى عليّاً ومعه كبار رجال الإسلام يضربون بسيوفهم في ركابه. وفي الطرف الآخر كان يرى زوجة النبي ﷺ التي قال الله فيها وفي زوجات النبي الاخريات ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾[1] ويرى في ركابها طلحة، من طلائع المسلمين ومن أقدمهم سابقة في الإسلام، ومن أمهر الرماة، قدّم خدمات جمّة للإسلام.

ويرى الزبير، اسبق من طلحة اسلاماً، ذلك الرجل الذي كان مع علي يوم السقيفة.

كان الرجل يزداد حيرة كلما أمعن في الفكر. ما حقيقة الأمر يا تُرىٰ؟ فعلي

---

١ ـ سورة الاحزاب، الآية ٦

وطلحة والزبير من طلائع الإسلام والمضحين في سبيله، ومن أقوى حصونه المدافعة عنه.

ولكنهم الآن يواجه بعضهم بعضاً، فأيهم أقرب إلى الحق؟ ماالذي ينبغي له في مثل هذا الحال؟.

لا شك أننا لايجوز لنا أن نلوم هذا على حيرته تلك وتردده، فلعلنا لو كنا في ظروف مماثلة لتأثرنا بشخصيتي طلحة والزبير وماضيهما المجيد.

ولكننا اليوم إذ نرى علياً وعماراً وأويساً القرني وغيرهم إلى جانب، ونرى عائشة والزبير وطلحة يواجهونهم في طرف آخر، لاينتابنا الشك والتردد في القول بان هذا الطرف الثاني هو الذي يبدوا عليه سيماء الجرم، أي ان آثار الجريمة والخيانة بادية في وجوههم، فبالنظر إلى وجوههم وملامحهم كان الرائي لايخطيء في الحكم عليهم بانهم من أهل النار.

اما لو كنا نعيش في ذلك الزمان ونرى سوابقهم قريبة منا، فلعله لم يكن من المستبعد ان نقع في تردد مماثل.

إننا اليوم إذ نعرف ان الطرف الاول كان على حق والطرف الثاني على باطل، فلاننا بعد مضي الزمن، واتضاح الحقائق، ومعرفة عليّ وعمار من جهة وطلحة والزبير وعائشة من جهة أخرى استطعنا ان ندرك كنه الأمور وان نقضي بالحق. أو إننا إذا لم نكن من أهل الدرس والتحقيق، فإننا ـ علىٰ الاقل ـ قد لُقّنا بذلك منذ طفولتنا. اما في حينه، فإن هذين العاملين لم يكن لهما وجود.

على كل حال، جاء هذا الرجل إلى اميرالمؤمنين وقال له: «أيمكن ان يجتمع زبير وطلحة وعائشة على باطل؟»

ان شخصيات من كبار صحابة رسول الله ﷺ كيف يمكن ان يخطئوا ويسيروا

في طريق الباطل؟

اما جواب علي عليه السلام فيصفه الدكتور طه حسين، الاديب والكاتب المصري، بقوله: انه قول لاحكم منه ولاارفع. فمنذ ان انطفأ الوحي وانقطع نداء السماء لم يسمع كلام عظيم كهذا.(١)

قال علي عليه السلام:

«انك لملبوس عليك. ان الحق والباطل لايعرفان باقدار الرجال. اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله».

فليس صحيحاً أن تتخذ من بعض الناس مقاييس لك، ثم تروح تقيس الحق والباطل عليهم، فتقول: ان العمل الفلاني حق لأن فلاناً وفلاناً وافقوه، وان العمل الفلاني باطل لأن فلاناً وفلاناً خالفوه .. كلا، لايجوز ان يجعل الأشخاص معايير للحق والباطل. بل ان الحق والباطل هما اللذان يجب ان يقاس عليهما الأشخاص. نعم، عليك ان تكون عارفاً بالحق والباطل، لابالاشخاص والشخصيات، فتقيس الافراد ـ سواء أكانوا كباراً ام صغاراً ـ وفق مقاييس الحق، فإن انطبقت عليهم تقبلتهم. وعندئذ لايمكن ان يقال: هل ان عائشة وطلحة والزبير على باطل؟.

هنا جعل عليّ الحق نفسه مقياساً للحق، وذلكم هو روح التشيع ولا شيء غيره. ففرقة الشيعة ـ في الواقع ـ قدولدت من نظرة خاصة تعطي الاهمية للاصول الإسلامية لا للافراد والأشخاص. ولهذا كان لابد ان يتربى الشيعة الاوائل اناساً نقدة يحطمون الاصنام.

كان علي فتى في الثالثة والثلاثين من عمره عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، لايتبعه

١ ـ (علي وبنوه) ص ٤٠

الا قلة يعدون على اصابع اليدين، وفي قباله شيوخ في الستين مع الكثرة الكاثرة. كان منطق هذه الاكثرية هو ان هذا هو طريق المشايخ أو المشايخ لايخطئون، وإننا لعلى اثرهم سائرون. اما الاقلية فكان منطقها يقول: ان ما لايخطىء هو الحق، وعلى المشايخ ان يدوروا حيثما دار الحق.

من هذا يتضح ان الذين يتخذون شعار التشيع شعاراً لهم، ولكن روحهم ليست روح التشيع، هم كثرة كثيرة.

ان طريق التشيع ـ مثل روحه ـ طريق تمييز الحق واتّباعه. وان من أهم آثار ذلك هو الجذب والدفع ـ لاكل جذب ولا كل دفع، فقد قلنا من قبل: ان بعض الجذب يكون جذب الباطل والجرم والمجرم، وبعض الدفع يكون دفع الحق والفضائل الإنسانية ـ انما نقصد جذباً ودفعاً على شاكلة ما لعليّ عليه السلام، فالشيعة تعني نسخة مطابقة لسيرة علي عليه السلام. فعلى الشيعة ان يكونوا مثل علي ـ ايضاً ـ يمتلكون قوتي الجذب والدفع.

كانت هذه المقدمة لازمة لتبيان ان من الممكن ان يموت مذهب من المذاهب، ولكن تبقى روحه حية في اناس آخرين هم بحسب الظاهر ليسوا من اتباع ذلك المذهب، بل قديعتبرون انفسهم من مخالفيه. ان مذهب الخوارج ميت اليوم. أي لاتوجد على وجه الارض ـ اليوم ـ فرقة دينية تطلق على نفسهااسم الخوارج ويتبعها عدد من الناس.

ولكن هل ماتت روح هذا المذهب أيضاً؟

ألم تحل هذه الروح في اتباع مذاهب أخرى؟

أليس فينا ـ مثلاً، والعياذ بالله ـ جمع من ذوي الجمود الديني حلت فيهم تلك الروح؟

هذا موضوع يلزمه بحث خاص به، فقد نستطيع ان نرد على هذا السؤال ان عرفنا مذهب الخوارج جيداً، وماقيمة البحث في الخوارج الا من هذا الباب. علينا ان نعرف لماذا «دفعهم» عليّ عنه، أي لماذا لم تجذبهم قوة جاذبة عليّ، بل على العكس من ذلك، طردتهم قوّته الدافعة[١]؟

ان الذي لاشك فيه ـ كما سنعرف ذلك قريباً ـ هو ان العناصر الروحية التي اثرت في شخصية الخوارج وشكلت روحيتهم لم تكن كلها من تلك العناصر التي تؤثر فيها قوة دافعة علي، فقد كان فيها الكثير من العناصر المتميزة النيرة التي لولا اقترانها بعدد من النقاط المظلمة لوقعت تحت تأثير قوة جاذبة عليّ حتماً؛ ولكن الجوانب المظلمة في روحهم كانت من الكثرة والاتساع بحيث أنها وضعتهم في صف أعداء علي عليه السلام.

١ ـ في الأصل «قوة دافعته». (المصحح)

الخوارج وديمقراطية علي

لقد عامل علي الخوارج بمنتهى الحرية والديمقراطية.

لقدكان خليفة وكانوا من رعاياه، فكان قادراً على ان ينفذ بحقهم ماكانوا يستحقونه. ولكنه لم يسجنهم ولم يجلدهم، بل انه لم يقطع حتىٰ نصيبهم من بيت المال، وكان ينظر اليهم نظرته إلى الآخرين.

ليس في هذا مايدعو إلى العجب في سيرة حياة علي، الا انك قلما تجد نظيراً له في تاريخ العالم.

لقد كانوا احراراً في الاعلان عن عقيدتهم انى شاءوا. وكان الإمام علي عليه السلام وأصحابه يقابلونهم بمعتقداتهم بكل حرية، ويجادلونهم فيها ويتبادلون الادلة والاستدلال.

لعل هذا القدر من الحريه لم يسبق له وجود في العالم.

فما من حكومة عاملت معارضيها بهذا القدر من الديمقراطية. لقد كانوا يأتون إلى المسجد ويقطعون على عليّ خطبته، كان علي يوماً على المنبر، فجاءه رجل يسأل سؤالاً، فرد عليه عليّ الجواب فوراً. فصاح أحد الخوارج من الحاضرين: «قاتله الله، ما أفقهه!» فأراد الآخرون أن يلقوا عليه درساً في الأدب، فمنعهم علي قائلاً: اتركوه، انه انما شتمني انا.

لم يكن الخوارج يأتمون بعلي في الصلاة، لأنّهم كانوا يقولون بكفره، وانما كانوا يحضرون إلى المسجد ولا يصلون خلفه، وكانوا أحياناً يؤذونه. كان علي يوماً يصلي وقد إئتمّ به الناس. فقرأ أحد الخوارج ـ وهو ابن الكواء ـ بأعلى صوته:

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَـسِرِينَ﴾.(١)

كان ابن الكواء يريد بذلك ان يذكر علياً بأننا نعرف سوابقك في الإسلام، فقد كنت اول من اسلم، وقدآخى الرسول بينه وبينك، وضحيت بنفسك في ليلة المبيت اذ نمت في فراش النبي وعرضت نفسك للسيوف المشرعة، ولسنا ننكر خدماتك للإسلام ولكن الله قال لرسوله أيضاً:

انك لو اشركت لحبطت أعمالك، وبما أنك قدكفرت فقد أهدرت أعمالك تلك كلها.

فما الذي فعله علي بازاء ذلك؟ ما ان ارتفع صوت الرجل بتلاوة القرآن حتىٰ سكت علي حتىٰ انتهى الرجل، فاستأنف عليّ الصلاة، فعاد ابن الكواء يكرر الآية، فسكت علي ثانية. كان على يسكت لأنّه حكم القرآن الذي يقول:

﴿وَإِذَا قُرِءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾.(٢)

ولهذا ينبغي على المأمومين السكوت عندما يتلوا الإمام القرآن.

واذا تكرر هذا من ابن الكواء، بقصد الاخلال بالصلاة، تلا الإمام هذه الآية:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.(٣) فسكت ابن الكواء ولم يعد.(٤)

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٦٥

٢ ـ سورة الاعراف، الآية ٢٠٤

٣ ـ سورة الروم، الآية ٦٠

٤ ـ ابن ابي الحديد، ٢٩٠ ص ٣١١

قيام الخوارج وطغيانهم

اكتفى الخوارج في أوائل أمرهم بمجرد النقد والجدل الحر، وكان علي يقابلهم ـ كما قلنا ـ دون أن يتعرض لهم بسوء، ولم يقطع مُرتّباتهم من بيت المال. ولكنهم بعد ان يئسوا شيئاً فشيئاً من توبة علي.. بدلوا أسلوبهم وعزموا على الثورة. اجتمعوا في دار أحدهم حيث خطب فيهم صاحب الدار خطبة مثيرة، ودعا أصحابه إلى الثورة باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقدجاء في خطابه.

«اما بعد، فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم القرآن، ان تكون هذه الدنيا آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بالحق وإن مُنَّ وضُرَّ، فانه من يمن ويضر في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله والخلود في جناته، فأخرجوا بنا ـ اخواننا ـ من هذه القرية الظالم أهلها إلى كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المظلة.[١]

فزاد بأقواله هيجانهم، فتحركوا معلنين التمرد والثورة، فقطعوا الطرق واتخذوا النهب والسلب حرفة[٢] كانوا يريدون بذلك اضعاف الحكم واسقاطه.

ها هنا لم يبق موضع للتغاضي واطلاق الحرية، لأن المسألة لم تعد مسألة اظهار العقيدة، بل أصبحت اخلالاً بأمن المجتمع وتمرداً مسلحاً على حكومة شرعية. لذلك فقد تعقبهم علي ولحق بهم عند شاطيء النهروان، فخطب فيهم ونصحهم وألقىٰ عليهم الحجة، ثم أعطىٰ راية الأمان بيد أبي أيوب الانصارى

---

١ ـ ٢ ـ (الامامة والسياسة) ص ١٤١ ـ ١٤٣ (الكامل) للمبرد، ج ٢

وقال: من استظل بالراية كان في أمان، فرجع من الاثني عشر ألفاً ثمانية آلاف، وركب الباقون رؤوسهم عناداً، فهزموا شر هزيمة ولم يبق منهم سوى عدد معدود.

سمات الخوارج

روحية الخوارج روحية خاصة. كانوا مزيجاً من القبح والجمال، وبلغ جماع امرهم انهم وقفوا في صفوف اعداء علي، فكان ان شخصية علي (دفعتهم) ولم (تجذبهم).

إننا هنا نذكر الجانب الايجابي الجميل عندهم، كما نذكر جانبهم السلبي القبيح الذي جعل من روحيتهم في المجموع روحية خطرة، بل مرعبة.

١ ـ الروحية المناضلة المضحية التي كانت تحملهم على الدفاع عن عقائدهم بكل شدة وصرامة. إننا نجد في تاريخ الخوارج حوادث من التضحية والفداء قلّ نظيرها في تأريخ البشر. وقد ربّتهم روح التضحية ونكران الذات على الشجاعة والجرأة.

يقول عنهم ابن عبد ربه:

«وليس في الفرق كلها أشد بصائر من الخوارج، ولا أشد اجتهاداً، ولا اوطن انفساً على الموت. منهم الذي طعن، فانفذه الرمح، فجعل يسعى إلى قاتله ويقول: وعجلت إليك رب لترضى»(١)

أرسل معاوية شخصاً كان ابنه من الخوارج ليعيد هذا الابن إليه، فلم يستطع الاب ارجاع ابنه عن عزمه. وأخيراً قال له: أي بني، سأذهب لآتي لك بوليدك الصغير لعل حنان الابوة يعيدك إليه. فقال الابن: والله اني لاشوق إلى الضربة

---

١ ـ (فجر الإسلام) ص ٢٦٣ نقلاً عن (العقد الفريد)

الشديدة مني إلى ولدي.[١]

٢ ـ كان الخوارج من المتعبدين المتنسكين، يمضون الليل في العبادة، لاتستميلهم الدنيا بزخارفها. عندما أرسل عليّ يوم النهروان ابن عباس ليبذل لهم النصح، عاد ابن عباس ووصفهم بقوله:

«لهم جباه قرحة لطول السجود، وأيد كثفنات الابل، عليهم قمص مرحضة وهم مشمرون».[٢]

كان الخوارج متمسكين بأحكام الإسلام وظواهره اشد التمسك، يبتعدون عن كل ما كانوا يرونه اثماً. كانت لهم معاييرهم الخاصة التي كانت تمنعهم من اقتراف أي مخالفة، وكانوا ينفرون ممن يرتكب خطيئة. قتل زياد ابن أبيه أحد الخوارج، ثم استجوب خادمه عنه، فقال: ما قدمت له طعاماً في النهار ولافرشت له فراشاً في الليل، فقد كان صائماً نهاره وقائماً بالعبادة ليله.[٣]

كل خطوة من خطواتهم كانت تنبع من العقيدة، وكانوا ملتزمين في جميع أفعالهم، وكانوا يسعون في نشر عقائدهم.

ولقد أوصى بهم علي عليه السلام فقال:

«لاتقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه».[٤]

أي انهم يختلفون عن معاوية وصحبه، فالخوارج سعوا للوصول إلى الحق

---

١ ـ (فجر الإسلام) ص ٢٤٣

٢ ـ (العقد الفريد) ج ٢ ص ٣٨٩

٣ ـ (الكامل) للمبرد، ج ٢ ص ١١٦

٤ ـ (نهج البلاغة) الخطبة ٦

ولكنهم أخطأوا الطريق إليه، ولكن الآخرين كانوا منذ البداية مخادعين، ويسيرون في طريق الباطل. لذلك فقتلكم الخوارج ينفع معاوية وهو أسوأ من هؤلاء وأخطر.

قبل أن نواصل القول في سائر سمات الخوارج، وما دمنا في معرض الحديث عن زهدهم وتقواهم وتقدسهم، لابد من الاشارة إلى ان واحداً من جلائل أعمال الإمام علي ومن اعجبها وابرزها في تاريخ حياته هو جرأته البالغة وشجاعته في كونه قدانبرى لمحاربة هؤلاء المتدينين الذين غلب عليهم الجفاف والتحجر والجمود الفكري والغرور.

لقد شهر علي سيفه بوجه جماعة يرى الناس عليهم علائم الصلاح وملامح التقوى والتزهد بادية، خلقة ثيابهم، يقضون اوقاتهم متعبدين.

فلو كنا نحن من أصحاب علي، ورأيناه يشهر السلاح عليهم، لكانت مشاعرنا تثور، ولكنا نقف بوجهه معترضين، ولفعله منكرين.

ان من بين الدروس القيمة حقاً في تاريخ التشيع خصوصاً، وفي عالم الإسلام عموماً، هو قصة الخوارج هذه.

لقد كان عليّ يدرك كل الادراك أهمية عمله ذاك وعظمته، وفي ذلك يقول: «فأنا فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجتريء عليها أحد غيري، بعد ان ماج غيهبها واشتد كلبها».(١)

ان لعليّ في هذا القول تعبيرين عجيبين:

الاول هو (غيهب الفتنة) أي ظلامها وشمولها واثارتها للشك، فقد كان ظاهر

---

١ ـ (نهج البلاغة) الخطبة ٩٢

الخوارج على درجة من القدسية والتقوى بحيث انه كان يثير شك كل مؤمن نافذ الايمان في صحة مايقوم به علي، فكان هذا يخلق جواً من الغموض والظلام والشبهة والتردد.

اما تعبيره الثاني فهو قوله بما في تلك الفتنة من كَلَب (بالتحريك) .. والكلب هو الجنون المرضي الذي يصيب بعض الكلاب فتعض من تصادفه فتنقل إليه (ميكروب) ذلك المرض المعدي. ففي عضة الكلب يسري الميكروب من لعابه إلى دم الإنسان أو الحيوان، فلايلبث المعضوض حتىٰ يصاب بداء جنون الكلب نفسه، ويهاجم الآخرين ويعضهم، ناقلاً المرض اليهم أيضاً. فاذا دام هذا طويلاً كان من أخطر الأمور. ولهذا فإن العقلاء لايترددون في قتل الكلب المسعور ليجنبوا الآخرين خطره.

هكذا يصفهم الإمام علي عليه السلام. انهم كانوا كالكلاب المسعورة التي لاينفع فيها دواء، فكانوا لايفتأون يعضّون وينشرون البلاء فيزداد عدد المسعورين.

الويل للمجتمع الإسلامي إذا ظهر بينهم متدينون جافون جامدون جهلة لايحيدون عن سبيلهم، فيندفعون يعضون هذا وذاك. فأي قدرة تستطيع أن تقف في وجوه هذه الافاعي التي لاينفع فيها سحر ولاحيلة؟

ما تلك الروح القوية الواثقة التي لايصيبها الارتجاف امام كل ذلك الزهد والتقوى؟ وأى يد لاترتعش وهي ترفع السيف لتنزله على هامات هؤلاء؟

ولهذا يقول علي: «ولم يكن ليجتريء عليها أحد غيري». ان احداً من المسلمين المؤمنين بالله ورسوله والمعاد لم يكن ليجرأ على أن يشهر السيف في وجه هؤلاء، عدا عليّ ببصيرته النافذة وايمانه المكين.

ان امثال هؤلاء انما يجرؤ على قتلهم الذين لايعتقدون بالله وبالاسلام،

لاالمؤمنون الملتزمون من سائر الناس.

لذلك فإن عليّاً يفتخر بفعلته العظيمة قائلاً: «فأنا فقأت عين الفتنة» ودرأت عن المسلمين خطراً عظيماً كان قادماً اليهم مع هؤلاء المتدينين المتحجرين. فلا جباههم المتقرحة من أثر السجود؛ ولاملابسهم الرثة وزهدهم، ولا ألسنتهم الدائمة الذكر لله، ولا حتىٰ ايمانهم الراسخ وثباتهم، لم تستطع ان تغيّم على بصيرتي. فانا وحدي الذي ادركت اني ان تركت هؤلاء يوطدون اقدامهم فإنهم سيصيبون الاخرين بدائهم، ويجرون عالم الإسلام إلى التمسك بالظواهر والقشور وبالجمود الفكري والتحجر العقلي، حتىٰ يقصموا ظهر الإسلام. الم يقل رسول الله ﷺ: «اثنان قصما ظهري: عالم متهتك وجاهل متنسك».

عليّ يريد ان يقول: لو لم‌اقم انا بمحاربة الخوارج في دنيا الإسلام، لما تجرأ أحد بعدي على القيام بذلك، إذ ما كان أحد غيري يستطيع ان يرى فريقاً من الناس ثفنت جباههم من كثرة السجود، وسلكوا مسالك المتدينين، وهم في الوقت نفسه سر في طريق الإسلام .. أناساً يحسبون انهم يعملون في سبيل الإسلام، ولكنهم في الواقع من اعداء الإسلام، ثم ينهض لمحاربتهم ويريق دماءهم.. انا فعلت هذا.

لقد مهد عليّ بعمله ذاك الطريق امام الخلفاء والحكام من بعده، فاقدموا على محاربتهم واراقة دماءهم، بغير ان يعترض الجنود على ذلك، على اعتبار أن عليّاً قدفعل ذلك من قبل.

ان سيرة عليّ ـ في الحقيقة ـ قدفتحت الطريق للآخرين لكي يتمكنوا من مجالدة اناس ظاهري الصلاح والتقوى، ولكنهم في الواقع حمقى جامدون.

٣ ـ كان الخوارج جهلة، فكان من تأثير جهلهم ذاك أنهم لم‌يكونوا يدركون

حقائق الأمور ويسيؤون التفسير. ومن هنا[١] تشكـل اعـوجاج الفـهم عـندهم بالتدريج بصورة مذهب ديني، بحيث انهم لم يبخلوا بأعظم التضحيات في سبيل تثبيته. وفي البداية أظهروا تمسكهم بالفريضة الإسلامية (النهي عن المنكر) كأنهم فريق لاهدف لهم سوى احياء تلك الفريضة الإسلامية.

هنا ينبغي علينا ان نتريث قليلاً لنمعن النظر مـلياً فـي جـزء مـن التأريـخ الإسلامي.

عندما نرجع إلى السيرة النبوية نرى أن رسول الله ﷺ خلال فترة بقائه فـي مكة مدة ثلاث عشر سنة لم يـجز لأحـد الجـهاد، ولاحـتى الدفـاع، بـحيث أن المسلمين أحسوا بالضيق من ذلك، وهاجر جـمع مـنهم إلى الحـبشة بـإذن مـن رسول الله ﷺ، ولكن الآخرين مكثوا وتحملوا العذاب حتىٰ وافت السنة الثـانية من الهجرة إلى المدينة، فأجاز رسول الله ﷺ الجهاد.

خلال فترة مكة تلقى المسلمون التعاليم، وتعرفوا على روح الإسلام، فنفذت الثقافة الإسلامية إلى أعماقهم، فكانت النتيجة انهم عند دخولهم المدينة كان كل منهم داعية من دعاة الإسلام الصادقين، فكان النبي ﷺ يـرسلهم إلى الأطـراف والأكناف فيؤدون واجبهم على خير وجه، وإذا ما اشـتركوا فـي الجـهاد كـانوا يعلمون ما هي الأهداف والمثل التي يحاربون من أجلها، فكانوا، كما قال عنهم علي عليه السلام:

«وحملوا بصائرهم على أسيافهم».[٢]

---

١ ـ في الأصل «ومن ثم». (المصحح)

٢ ـ (نهج البلاغة) الخطبة ١٤٨

إن تلك السيوف المسقاة، وأولئك النفر المتعلمون، هم الذين استطاعوا أن يؤدوا رسالة الإسلام. عندما نقرأ التاريخ ونستمع إلى أقوال أولئك الذين لم يكونوا إلى ما قبل ذلك بسنوات يعرفون شيئاً غير السيف والبعير، فإننا ليأخذنا العجب وتنتابنا الحيرة لدىٰ اصطدامنا بثقافتهم الإسلامية وعلو تفكيرهم.

من المؤسف انه في عهد الخلفاء كان الاهتمام منصباً ـ أكثر ـ على الفتوحات، غافلين من أن عليهم ـ بموازاة فتحهم أبواب الإسلام بوجوه الاخرين واستقبالهم في الإسلام ممن كان يجذبهم التوحيد في الإسلام والعدل والمساواة بين العرب والعجم، أن يعلموهم الثقافة الإسلامية لكي يتعرف الناس على روح الإسلام عن كثب.

كان الخوارج من العرب في الغالب وفيهم افراد قلائل من غير العرب. ولكنهم جميعاً، بعربهم وغير عربهم، كانوا يجهلون الثقافة الإسلامية، وكانوا كمن يريد ان يستعيض عما فيه من منقصة بالتشدد في الركوع والسجود والاطالة فيهما. وبهذا يصفهم علي عليه‌السلام يقول:

«جفاة طغامٌ وعبيدٌ أقزام. جُمِّعوا من كل أوب وتُلُقِّطوا من كل شوب، ممن ينبغي أن يفقّه ويؤدّب ويعلّم ويدرّب ويُولّى عليه ويُؤخذ على يديه. ليسوا من المهاجرين والانصار الذين تبوؤوا الدار».(١)

إن ظهور طبقة من المتدينين الجهلة، الذين كان الخوارج جزءاً منهم، قدكلف الإسلام غالياً. فبغض النظر عن الخوارج الذين كانوا ـ مع كل عيوبهم ـ يتحلّون بالفضيلة والشجاعة والتضحية، ظهر من هؤلاء فريق من المتنسكين الذين خلوا

١ ـ (نهج البلاغه) الخطبة ٢٣٦

حتى من تلك الفضائل، فأخذوا يجرّون الإسلام نحو الرهبانية والانزواء، وروجوا سوق التظاهر والرياء. ولما كان هؤلاء تعوزهم تلك الشجاعة التي تدفع بهم إلى اشهار السيف على أصحاب السلطة، سلّوا سيف اللسان على ارباب الفضيلة، فراحوا يلصقون تهمة الكفر والفسق واللادينية بكل صاحب فضيلة.

على كل حال، فإن من أبرز سمات الخوارج هو الجهل. من جملة جهلهم عدم التفكيك بين ظاهر القرآن وباطنه، أي بين خط القرآن وجلده وبين معناه. ولهذا انخدعوا بحيلة معاوية وعمرو بن العاص الواضحة.

لقد امتزجت (الجهالة والعبادة) في هؤلاء. فكان عليّ يريد أن يحارب جهالتهم، ولكن لم يكن بالامكان فصل جانب الزهد والتقوى والعبادة في هؤلاء عن جانب الجهل فيهم. بل إن عبادتهم كانت هي الجهالة بعينها. فقد كانت العبادة المصحوبة بالجهالة، في نظر عليّ، العالم بالاسلام علماً من الطراز الاول، لاقيمة لها، لذلك فقد ضربهم، ولم تستطع ملامح الزهد والتقوىٰ والعبادة فيهم أن تمنع عنهم علياً.

إن خطر جهل أمثال هؤلاء الأفراد والجماعات أكثر من مجرد الوقوع كآلات بيد الاذكياء الذين يريدونهم حجر عثرة في طريق المصالح الإسلامية العليا. إن المنافقين الذين لادين لهم يسعون دائماً لاستثارة المتدينين الحمقىٰ ضد المصالح الإسلامية، فيصبحون سيوفاً بأيديهم وسهاماً في أقواسهم.

وما أدق الوصف الذي يصف به علي عليه السلام هذه الحالة فيهم إذ يقول:

«ثم أنتم شرار الناس ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه».(١)

١ ـ (نهج البلاغة) الخطبة ١٢٥

قلنا: إن الخوارج بدأوا بهدف إحياء سنة إسلامية، إلّا أن جهلهم وعدم تبصرهم أوصلهم إلىٰ ما وصلوا إليه، فأخطأوا في تفسير القرآن، فأدّى هذا إلى تفردهم في مذهب معين وإلى سلوكهم مسلكاً خاصاً. لقد جاء في القرآن:

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾.(١)

(الحكم) في هذه الآية لله، ولكن لابد من معرفة ما هو المراد بالحكم.

لاشكَ أن المراد بالحكم هنا هو القوانين والأنظمة التي تحكم حياة البشر. هذه الآية لاتعطي حق وضع القوانين لأحد سوى الله، فذلك من الشؤون الخاصة بذات الله(أو بمن يمنحه الله صلاحيته).

ولكن الخوارج اعتبروا الحكم بمعنى الحكومة والحكمية، وصنعوا في ذلك شعاراً لهم وقالوا: لاحكم إلّا لله. قاصدين بذلك إلى القول بأن الحكومة والحكمية والقيادة لله وحده، كما ان لله وحده حق وضع الأحكام والقوانين، وأن ليس لأحد غيرالله أن ينصب نفسه حكماً أو حاكماً بين الناس، مثلما ليس لأحد غيرالله أن يسن قانوناً.

لذلك كانوا إذا رأوا الإمام علياً واقفاً يصلي أو خطيباً على المنبر، نادوا بأعلى اصواتهم: لاحكم الا لله، لالك ولا لأصحابك يا علي.

فكان يرد عليهم بقوله:

«كلمة حق يراد بها باطل. نعم إنه لا حكم إلّا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة الا لله. وإنه لابدّ للناس من امير بر أو فاجر، يعمل في امرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلّغ الله فيها الاجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل،

---

١ ـ سورة الانعام، الآية ٥٧

ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتىٰ يستريح بر ويستراح من فاجر».(١)

اي ان القانون لايجري بنفسه، بل لابد من فرد أو جماعة تقوم باجرائه وتنفيذه.

٤ ـ كان الخوارج أناساً قصيري النظر ضيقيه، يدور فكرهم في افق دان. كانوا يحصرون الإسلام والمسلمين في إطار ضيق محدود من الافكار. كانوا ـ مثل غيرهم من قصيري النظر ـ يزعمون ان الجميع لايفهمون جيداً، أو لايفهمون اطلاقاً، وأنهم قدتجنبوا طريق الصواب فاصبحوا جميعاً من أهل النار.

إن أول ما يفعله قصيروا النظر كهؤلاء هو أنهم يصبغون ضيق نظرهم هذا بصبغة العقيدة الدينية ويحددون رحمة الله، ويجلسون الله على كرسي الغضب دائماً وكانه ينتظر من عباده اتفه زلة ليعذّبهم عذاباً أبدياً.

إن واحداً من أصول عقائد الخوارج هو ان مرتكب الكبيرة ـ كالكذب والغيبة وشرب الخمر ـ كافر وخارج عن الإسلام ويستحق الخلود في النار. وعليه فإن جميع الناس ـ عدا نفر منهم ـ مخلدون في نار جهنم.

ان ضيق النظرة الدينية من سمات الخوارج، ولكننا اليوم نصادف هذه السمة في المجتمع الإسلامي على الرغم من انقراض الخوارج. وهذا هو الذي قصدنا إليه بقولنا: ان الخوارج قدمات شعارهم، إلّا أن روح مذهبهم ما يزال حياً إلى حدّ ما بين بعض الناس والطبقات.

إننا نرى بعضاً من ذوي الأدمغة الجافة يعتبرون جميع الناس ـ باستثناء أنفسهم ونفر معدود آخر ـ من الكفار والملحدين، ويحددون دائرة الإسلام

---

١ ـ (نهج البلاغة) الخطبة ٤٠

والمسلمين بأضيق الحدود.

قلنا في الفصل السابق: إن الخوارج كانوا يجهلون روح الثقافة الإسلامية. ولكنهم كانوا يتصفون بالجرأة. وقدأدى بهم جهلهم ذاك إلى ان يكونوا ضيقى النظر، وهذا بدوره حملهم على التسرع في تكفير الناس وتفسيقهم بحيث انهم حصروا الإسلام بأنفسهم فقط، واعتبروا سائر المسلمين ـ الذين لم يكونوا يرتضون عقائدهم ـ كفاراً. وكان من جرأتهم أنهم كانوا يقصدون أرباب السلطة لكي يأمروهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، معرضين أنفسهم للقتل.

ثم قلنا: ان جمودهم الفكري وتنسكهم وتقدسهم وضيق نظرتهم بقي بعدهم إرثاً للآخرين بغير أن يبقى معه شيء من جرأتهم وشجاعتهم وتضحياتهم.

فكان أن ظهر الخوارج الجبناء، أي أولئك المتقدسون الذين تركوا السيوف في اغمادها، وتخلّوا عن فكرة تقصد رجال السلطة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنّها كانت خطراً عليهم، ولكنهم راحوا يسلقون رجال الفضل والفضيلة بألسنة حداد، فألصقوا بكل صاحب فضل تهمة من التهم، بحيث إنّنا قلّما نجد أحد الفضلاء في تاريخ الإسلام ممن لم يتخذه هؤلاء الخوارج هدفاً لسهام اتهاماتهم: فهذا ينكر وجود الله، وذاك ينكر المعاد، وآخر ينكر المعراج الجسماني، والرابع صوفي، والخامس كذا... الخ...

ولو أننا أخذنا بأقوال هؤلاء لما وجدنا بين أظهرنا أي عالم اسلامي حقيقي، فعندما يكفرون عليّاً فاقرأ على الآخرين السلام، فابن سينا، والخواجه نصير الدين الطوسي، وصدر المتألهين الشيرازي، وفيض الكاشاني، والسيد جمال الدين الاسدآبادي، وحتى محمد اقبال الباكستاني، هم ممن تجرعوا جرعة من كأس هؤلاء.

وفي هذا يقول ابن سينا ما ترجمته:

(تكفير شخص مثلي ليس سهلاً جزافاً
فلا ايمان اقوى من ايماني)
(انا نسيج وحدي في الدهر، فإن اكن كافراً
فما عاد في الدهر مسلم أبداً)

ويقول نصير الدين الطوسي الذي كفره عالم اسمه (نظام العلماء) ماترجمته:

(لئن كفرني نظام بلا نظام   فإن سراج الكذب لاضياء له)
ولكني سوف ادعوه مسلماً   لان جواب الكذب كذب مثله)

على كل حال، لقدكان من سمات الخوارج البارزة ضيق افقهم وقصر نظرهم، مما دعاهم إلى الحكم على الآخرين بالكفر والالحاد.

لقدفند الإمام علي عليه السلام مزاعمهم هذه، وقال: ان النبي صلى الله عليه وآله كان يقيم الحد على المذنب ثم يصلي على جنازته، فلوكان مرتكب الكبيرة كافراً لما صلى النبي صلى الله عليه وآله على جنازته، لأن الصلاة على جنازة الكافر غير جائزة وقدنهى القرآن عن ذلك: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.(١)

«وقدعلمتم ان رسول الله صلى الله عليه وآله رجم الزاني ثم صلى عليه ثم ورثه أهله. وقتل القاتل وورث ميراثه أهله. وقطع السارق وجلد الزاني غيرالمحصن، ثم قسم عليهما من الفيء، ونكحا المسلمات، فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وآله بذنوبهم، واقام حق

١ ـ سورة التوبة، الآية ٨٤

الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام، ولم يخرج اسماءهم من بين أهله».[(١)]

يقول: لنفرض أنّني قد أخطأت فكفرت، فلماذا تكفرون جميع المسلمين؟ إذا ضل أحد وأخطأ فهل ينسحب ذلك على الآخرين فيدخلهم في زمرة الضالين المخطئين الذين يستحقون العقاب؟ لماذا تسلطون سيوفكم على رقاب المذنبين ـ على حد زعمكم ـ وغير المذنبين معاً؟

إن الإمام يأخذ عليهم وجهين من وجوه النقد، فتدفعهم دافعته عنه من اتجاهين:

الاول: إنهم يحمّلون البريء ذنب المجرم ويعاقبونه على ذلك.

والثاني: إنهم يكفّرون من يرتكب ذنباً ويخرجونه من إسلامه، فيضيقون بذلك دائرة الإسلام بحيث إن من يضع قدمه خارج عدد من التعاليم فقد خرج عن الإسلام.

يدين الإمام عليّ فيهم ضيق الأفق وقصر النظر. والواقع أن حرب علي علىٰ الخوارج لم تكن حرباً على افراد، بل كانت حرباً على طراز خاص من التفكير، إذ لو لم يفكر أولئك الافراد على هذه الشاكلة لما عاملهم عليّ تلك المعاملة. انه قتلهم ليقتل افكارهم، ولكي يفهم القرآن على حقيقتة، ولكي يرى المسلمون الإسلام والقرآن كما هما وكما يريده لهما واضع قوانينهما.

إن قصر نظرهم واعوجاج تفكيرهم هما اللذان سهلا لخدعة رفع المصاحف أن تنطلي عليهم، وخلقوا من انفسهم اعظم خطر على الإسلام، إذ منعوا علياً من ان يستأصل جذور النفاق إلى الابد بالقضاء على معاوية وافكاره قضاء مبرماً، فكان

---

١ ـ (نهج البلاغة) الخطبة ١٢٥

ماكان بعد ذلك من الاحداث الفاجعة التي انصبت على المجتمع الإسلامي.(١)

---

١ ـ ان اهم الاحداث الفاجعة التي حلت بالمسلمين على اثر ذلك هي الضربات الروحية والمعنوية التي نزلت بالمسلمين. لقد أقام القرآن الدعوة للإسلام على التبصر والتفكير، وهوالذي فتح باب الاجتهاد والادراك العقلي للناس:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾(٩: ١١٢)

إن الادراك البسيط لأمر من الأمور لايسمى (تفقهاً). إنما التفقه هو الادراك باعمال التفكير والتعمق والتبصر:

﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾(٨: ٢٩)

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٢٩: ٦٩)

في مقابل هذا الاسلوب في التعاليم القرآنية التي كانت تريد ان يضل الفقه الإسلامي دائم الحركة والحياة، اختار الخوارج الجمود والركود، فحسبوا المعارف الإسلامية ميتة راكدة، وأدخلوا في الإسلام الصورة والظاهر.

ان الإسلام لم‌يعن بالشكل والصورة والظاهر في الحياة ابداً، بل كل عنايته تتجه نحو الروح والمعنى، وهو طريق يوصل إلى تلك الاهداف والمعاني. ان الإسلام يضع رسم المعاني والاهداف وطريقة الوصول إليها ضمن اطار حكمه، ويترك الإنسان حراً فيما عدا ذلك، فيتجنب بذلك كل تصادم مع انتشار الثقافة والتمدن.

إننا لانجد في الإسلام وسيلة مادية وشكلاً ظاهرياً له صبغة من (التقديس) بحيث يجد المسلم نفسه ملزماً بالتمسك بذلك الشكل والظاهر.. لذلك، فإن تجنب التعارض مع مظاهر التوسع العلمي والحضاري يعتبر واحداً من الأمور التي تجعل من السهل اليسير انطباق هذا الدين على مقتضيات الزمان، وتزيل اكبر مانع يحول دون خلوده مدى الدهر.

هذا هو نفسه التمازج بين التعقل والتدين، فهو من جانب يحافظ على تثبيت الأصول وتمكينها، وهو من جانب آخر يفصلها عن الشكل، ويعطى الكليّات التي قدتكون لها مظاهر متعددة، الا ان تلك المظاهر لاتغير من الحقيقة شيئاً.

بيد أن تطبيق الحقيقة على المظاهر والمصاديق ليس أمراً سهلاً يقدر عليه كل من هب ودب، بل هو يتطلب ادراكاً عميقاً وفهماً سليماً. اما الخوارج فقد كانوا من ذوي الافكار الجامدة، وماكان لهم عون على ادراك ماوراء ما يسمعون لذلك عندما ارسل علي عليه السلام ابن عباس ليحاججهم،

⇦

⇦ اوصاه قائلاً:
«لاتخاصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمّال ذو وجوه، تقول ويقولون؛ ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً».
أي أن القرآن يعني بالكليات، فهم في مقام الاحتجاج قديستشهدون بآية يعتبرونها مصداقاً لمايقولون، وتستدل أنت بآية أخرى دليلاً على ماتقول، وهذا ما لايؤدي إلى النتيجة المطلوبة من الجدل، فهم لايملكون ذلك القدر من الادراك الذي يمكنهم من استخلاص شيء من حقائق القرآن وتطبيقها على مصاديقها الحقيقية الصحيحة. بل كلمهم حسبما جاء في السنة لأنّها تشمل الاجزاء وهي صريحة في مصاديقها.
وهذه اشارة من الإمام عليه‌السلام إلى جمود الخوارج وجفاف عقولهم مع تدينهم، الأمر الذي يشير إلى امكان انفصال التعقل عن التدين.
ان الجهالة والجمود الفكري هما اللذان أنجبا بالخوارج، فكانوا غير قادرين على التحليل وعلى فصل الفكر عن المصداق.
ظنوا أنه إذا أخطأ التحكيم مرة فإن اساسه باطل وغير صحيح، مع ان من الممكن ان يكون ذلك الأساس ثابتاً وصحيحاً، وأن الخطأ قدوقع في التطبيق. لذلك فاننا نلاحظ في قضية التحكيم مراحل ثلاثاً:
١ ـ يشهد التاريخ أن علياً لم يرض بالتحكيم، فقد أدرك أن عرض معاوية وأصحابه إنّما هو (مكيدة) و(غدر) وقد أصرّ على رأيه هذا.
٢ ـ كان يقول إنه إذا كان لابد من تشكيل لجنة للتحكيم، فإن أباموسى رجل ضعيف الحيلة والتدبير ولايصلح لهذا الأمر، فلابد من اختيار الرجل الصالح، وقدرشح للاضطلاع بالمهمة ابن عباس أو مالكاً الاشتر.
٣ ـ أصل التحكيم صحيح وليس خطأ. وهذا ما أصر عليه عليّ عليه‌السلام أيضاً.
يقول ابوالعباس المبرد في (الكامل في اللغة والأدب) ج ٢ ص ١٣٤ ما خلاصته:
لقد جادل عليّ عليه‌السلام الخوارج بنفسه، وذكّرهم بأنّه كان اشدهم معارضة للتحكيم، فأيدوا قوله.
فقال لهم: الم تحملوني علىٰ القبول؟ فقالوا: اللهم بلى.
فقال: لماذا إذن تخالفونني؟ فقالوا: لقد اقترفنا ذنباً عظيماً فكان لابد من التوبة، فتبنا، فتب أنت
⇦

⇦ أيضاً.

فقال: استغفر الله من كل ذنب. فعاد الجمع وهم من ستة آلاف نفر، وقالوا: لقد تاب علي، وها نحن ننتظر أمره بالتحرك نحو الشام.

فجاءه اشعث بن قيس وقال: يقول الناس: انك ترى التحكيم ضلالاً والتزامه كفراً. فقام الإمام وصعد المنبر وقال: من يظنني رجعت عن التحكيم فقد أخطأ الظن، ومن يراه ضلالاً فهو أضل سبيلاً. فقام الخوارج وغادروا المسجد وثاروا على عليّ عليه السلام.

يقول الإمام علي عليه السلام: إن هذا التحكيم كان خطأ لأن معاوية وأصحابه كانوا يريدون المكر والتوسل بالحيلة، ولأن ابا موسى لم يكن على قدر المهمة، وقلت لكم هذا منذ البداية فرفضتم. الا أن هذا لايعني ان التحكيم اجراء باطل.

لم يكن الخوارج يعترفون بوجود فرق بين حكومة القرآن وحكومة الافراد. ان قبول حكومة القرآن يعني اتباع مايقول به القرآن في مايحدث من حوادث. الا ان قبول حكومة الافراد يعني اتباع آراء أولئك الأفراد واحكامهم ونظرياتهم. وبما ان القرآن لايتكلم، فلابد من استنباط حقائقه باعمال النظر والفكر، وهذا ما لايكون الا عن طريق الافراد. وفي هذا يقول الإمام علي عليه السلام نفسه:

«انا لم نحكم الرجال وانما حكمنا القرآن، وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين الدفتين، لا ينطق بلسان ولابد له من ترجمان، وانما ينطق عنه الرجال ولما دعانا القوم إلى ان نحكّم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله.

وقدقال سبحانه: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ فرده إلى الله ان نحكم بكتابه، ورده إلى الرسول ان نأخذ بسنته. فاذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن احق الناس به. وان حكم بسنة رسول الله فنحن أولى بهم.» (نهج البلاغة: الخطبة ١٢٣)

هنا يتبادر للذهن تساؤل. فبحسب اعتقاد الشيعة وبرأى الإمام نفسه (نهج البلاغة: آخر الخطبة ٢) تكون الامامة ويكون الحكم في الإسلام أمراً انتصابياً وبموجب النص. فلماذا خضع الإمام للتحكيم، ثم راح يدافع عنه بشدة؟

ان الجواب على هذا التساؤل يتبين واضحاً في هذا الذي سبق من خطبة الإمام عليه السلام: فاذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن احق الناس به، واذا حكم بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله فنحن اولاهم به.

⇦

⇦

الفرق الإسلامية وتأثر بعضها في بعض

تنفعنا دراسة احوال الخوارج في معرفة مدى الاثر الذي خلّفوه في التأريخ الإسلامي من حيث السياسة والعقيدة والذوق والفقه وسائر الاحكام.

ان مختلف الفرق والنحل ـ وان تكن منفصلة عن بعض من حيث الشعارات ـ قدتتأثر أحياناً بروح المذاهب الاخرى وتحل فيها روح مذهب من المذاهب، فتتقبل الفرقة روح ذلك المذهب ومعناه، على الرغم من أنها تخالفه، فالسرقة في طبيعة الإنسان.

فقد نجد مثلاً رجلاً سني المذهب شيعياً في روحه ومفاهيمه. وقدنجد العكس أيضاً. فيكون الشخص بطبيعته متديناً وظاهرياً لكنه صوفي في روحه، وقديكون العكس. فمن الممكن ان يكون بعض الناس من الشيعة في الشعار والانتحال، ومن الخوارج في الروح والعمل. وهذا يصدق على الافراد كما يصدق على الامم والملل.

اذا تجاورت النحل وتعاشرت تبادلت العقائد والاذواق، وان تباعدت في شعاراتها. من ذلك مثلاً سريان عادة (التطبير) ـ أي ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات ـ وضرب الطبول والنفخ في الابواق من المسيحيين الارثوذوكس القفقازيين إلى ايران وانتشارها كانتشار النار في الهشيم، بسبب استعداد النفوس والروحيات لتقبلها.

لذلك ينبغي أن نتعرف على روحيات مختلف الفرق. فقد تكون فرقة وليدة حسن الظن، فيلزم ان تتبع معهم قول القائل «ضع فعل أخيك على أحسنه» كأهل السنة الذين يحسنون الظن بالاشخاص، فهم لابد ان ينتقدوا فرقة وليدة منظور خاص وتولي اهتماماً كبيراً للاصول الإسلامية، لابالافراد أو الأشخاص، كالشيعة في الصدر الأول من الإسلام. وثمة فرقة تعنى بالباطن والتأويل الباطني كالمتصوفة، وفرقة أخرى وليدة التعصب والجمود الفكري كالخوارج.

فاذا عرفنا روحية كل فرقة وحوادثها التاريخية الأولى، كان حكمنا اصدق في ماهية العقائد والافكار التي تسربت من فرقة إلى أخرى خلال القرون، وعلى الرغم من الاحتفاظ بشعاراتها الخاصة، تقبلت روحية الفرق الاخرى.

إن العقائد والأفكار أشبه ـ في هذا الباب ـ باللغات التي تسري من لغة إلى أخرى بغير ان يتعمد أحد ذلك، كالذي حصل بعد ان فتح العرب المسلمون ايران، فدخلت كلمات عربية إلى اللغة الفارسية، كما حصل العكس ودخلت بضعة آلاف من الكلمات الفارسية إلى اللغة العربية، كذلك

⇦

⇨ اللغة التركية على عهد المتوكل والأتراك السلاجقة والمغول وغيرها من اللغات. وهكذا كان تنافذ الأذواق والميول.

ان اسلوب تفكير الخوارج وعقليتهم ـ الجمود الفكري وفصلهم التعقل عن التدين ـ اندس في المجتمع الإسلامي بمختلف الصور على امتداد تاريخ الإسلام. وعلى الرغم من ان الفرق الاخرى كانت تعتقد أنها تخالف الخوارج، الا أننا نجد ان روحية هؤلاء قدوضعت بصمتها على طراز تفكيرهم، وما هذا سوى الذي قلناه عن طبيعة اللصوصية في الإنسان والتي ساعد على تفشيها التجاور والمخالطة.

لقد كان من سلوك المتأثرين بالخوارج انهم حملوا شعار محاربة كل شيء جديد وما زالوا كذلك. بل انهم يصبغون وسائل الحياة المادية والاشكال الظاهرية التي قلنا أنها لاقدسية لها في الإسلام، بصبغة قدسية، ويعتبرون الاستفادة من كل جديد كفراً وزندقة.

إننا نعثر بين المدارس الفكرية والعقائدية والعلمية والإسلامية والفقهية على مدارس هي وليدة الروح القائلة بفصل التعقل عن التدين، وهي مدارس يتجلى فيها فكر الخوارج بكل وضوح، فتطرد كل فكرة عن اعتماد العقل للكشف عن الحقائق ووضع القوانين الفرعية، وتقول: ان اتباع هذا الاسلوب بدعة وخروج عن الدين، مع ان القرآن نفسه يحث الإنسان في كثير من آياته على التعقل ويرى في التبصر سنداً للدعوة الإلهيّة.

ان المعتزلة الذين ظهروا في أوائل القرن الثاني الهجري، نشأوا على أثر البحث والتعمق في تفسير معنى الكفر والإيمان، وهل أن ارتكاب الكبيرة يوجب الكفر أم لا. وكان ظهورهم شديد الارتباط بظهور الخوارج من قبل. كان المعتزلة جماعة تريد أن تفكر بحرية وايجاد حياة عقلية. وعلى الرغم من أنهم كانوا يفتقرون إلى المباديء العلمية وأصولها، فإنهم اخضعوا المسائل الإسلامية إلىٰ قدر من الحرية في الدرس والتمحيص، فراحوا يفندون بعض الاحاديث، ولا يقبلون الآراء والنظريات التي تحققوا منها واجتهدوا فيها.

لقد واجه هؤلاء منذ البداية المعارضة والمقاومة من لدن أهل الحديث ومتبعي الظاهر الذين كانوا يرون ظاهر الحديث هو المعول عليه، بغض النظر عن معنى الحديث والقرآن وروحهما، ولم يكونوا يعترفون بأية قيمة لحكم العقل الصريح، بل كل القيمة التي كانوا يقولون بها للعقل انما كان ينحصر في قيمته لتوكيد الظاهر.

⇦

⇨ خلال قرن ونصف من حياة مدرسة المعتزلة العقلية كانوا في اسار تذبذبات عجيبة، إلى ان ظهر الأشاعرة الذين انكروا كلياً قيمة الافكار العقلية المحضة والمقولات الفلسفية الخالصة. قالوا: إن من المفروض على المسلمين أن يتعبدوا على وفق ماجاءهم في ظاهر الاحاديث المنقولة، بغير أن يتعمقوا في التفكير في المعانى أو تدبرها، وكل تساؤل وأخذ ورد بدعة.
كان الإمام احمد بن حنبل، أحد ائمة أهل السنة الاربعة، يخالف اسلوب تفكير المعتزلة اشد المخالفة، بحيث انه سجن وجلد من جراء ذلك، ولكنه لم ينثن عن مخالفته لهم.
وفي النهاية انتصر الاشاعرة وطوي بساط التفكير العقلي، وكان هذا الانتصار ضربة شديدة وجهت إلى الحياة العقلية في الإسلام.
كان الاشاعرة يعتبرون المعتزلة من أصحاب البدع. يقول أحد شعرائهم بعد انتصارهم علىٰ المعتزلة:

ذهبت دولة أصحاب البدع ... ووهى حبلهم ثم انقطع
وتداعى بانصراف جمعهم ... حزب ابليس الذي كان جمع
هل لهم يا قوم في بدعتهم ... من فقيه أو امام يتبع؟

(«المعتزلة» زهري جار الله، ص ١٨٥)

والاخباريون ايضاً، وهم من أصحاب مدرسة فقهية شيعية بلغوا أوج ازدهارهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، كانوا قريبين من الظاهريين وأهل الحديث من أهل السنة، ومن حيث السلوك الفقهي فكلتا المدرستين تسلكان سلوكاً واحداً، وانما يقتصر اختلافهما على الاحاديث التي يجب ان تتبع، فكلتاهما تدينان بانفصال التعقل عن التدين.
لقد عطل الاخباريون عمل العقل تعطيلاً تاماً، واسقطوا الاداراك العقلي من كل قيمة في استخراج الاحكام الإسلامية من النصوص، واعتبروا اتباع العقل حراماً، وهاجموا في مؤلفاتهم الاصوليين ـ وهم أصحاب المدرسة الفقهية الشيعية الاخرى ـ هجوماً شديداً، وقالوا: ان الحجة هي الكتاب والسنة فقط، وبديهي انهم كانوا يعتمدون الكتاب عن طريق التفسير في السنة والحديث، فهم في الحقيقة قداسقطوا القرآن من كونه حجة، مكتفين باتباع ظاهر الحديث.
إننا لسنا الا بصدد بحث اساليب الفكر الإسلامي وتتبع المدارس التي تتبع الخوارج في الفصل بين التعقل والتدين، لأنّه بحث واسع متشعب. وانما كل مانرمي إليه هنا هو الاشارة إلى تأثير ⇦

لم يكن الخوارج يرون سائر المسلمين بسبب قصر نظرهم، فحرّموا ذبائحهم، وأهدروا دماءهم، ولم يتزاوجوا معهم.

⇦ الفرق بعضها في بعض، وتبيان أن مذهب الخوارج الذي لم يدم طويلاً قد بقيت بصماته خلال القرون والعصور الإسلامية حتىٰ الوقت الحاضر الذي نرى فيه عدداً من الكتّاب والمفكرين المعاصرين في دنيا الإسلام يتبنون اسلوب تفكيرهم بعد تحديثه وربطه بالفلسفة الحسية الحديثة.

سياسة رفع المصاحف

إن سياسية (رفع القرآن على الرماح) مازالت رائجة بين المسلمين منذ ثلاثة عشر قرناً. وعلى الأخص كلما كثر المتقدسون والمتظاهرون وراجت سوق التظاهر بالزهد والتقوى، وكثر من ناحية أخرى المستفيدون من سياسة رفع المصاحف. فالدروس التي يجب أن نستخلصها من ذلك هي:

أ - الدرس الاول هو أنه حينما يعتبر الناس الجهال والمغفلين أنهم هم الذين يمثلون التديّن والتقوى، ويتخذونهم نماذج الإسلام فعلاً، يصبح هؤلاء أداة طيعة بيد الاذكياء، فيتخذونهم سداً منيعاً ضد المصلحين الحقيقيين وافكارهم.

وكثيراً ما لوحظ ان العناصر المناوئة للإسلام تستغل هذه الاداة، أي إنها توجه قدرة الإسلام نفسه ضد الإسلام..

ان الاستعمار الغربي جرب هذه الوسيلة مرات عديدة، وما يزال يستغلها لتحريك أحاسيس المسلمين الكاذبة لغرض ايجاد التفرقة بين المسلمين لمصلحته الخاصة.

ما أشده مدعاة للعار أن ينبرى مسلم مخلص لطرد الاجانب، مثلاً، والتخلص من نفوذهم، فيقوم أولئك الذين يريد انقاذهم باختلاق الذرائع والحجج الدينية لوضع سد قوى امامه!.. نعم، إذا كان سواد الناس جاهلاً وغافلاً، فإن المنافقين يستغلون خنادق الإسلام نفسها لمحاربة الإسلام.

ففي ايراننا هذه حيث يفتخر الناس بمحبة آل البيت الاطهار، يقوم المنافقون باستغلال اسم أهل البيت المقدس، ويتخذون من (الولاء لآل البيت) المقدس

خندقاً يحاربون منه القرآن والإسلام وآل البيت لمصلحة اليهود الغاصبين. وهذا افظع انواع الظلم بحق الإسلام والقرآن والنبي الكريم وأهل بيته الكرام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إنّي ما أخاف على أمتي الفقر، ولكن أخاف عليهم سوء التدبير».

ب ـ الدرس الثاني هو ان علينا ان نسعى لكي تكون استنباطاتنا من القرآن صحيحة. فالقرآن لايكون هادياً ومرشداً الا إذا صح تدبره، وصدق تفسيره، واسترشد بهداية آل القرآن الراسخين في علوم القرآن. فما لم يكن اسلوب استنباطنا من القرآن صحيحاً، وما لم نتعلم طريقة الاستفادة من القرآن، لايمكن ان ننتفع به. ان النفعيين أو الجهال قد يقرأون القرآن ولكنهم يسيرون وراء الاحتمال الباطل. لقد سمعتم قول (نهج البلاغة) في ان كلمتهم (كلمة حق اريد بها باطل) فهذا ليس إحياءاً للقرآن وعملاً به، بل هو اماتة القرآن. ان العمل بالقرآن لايكون الا عندما نفهمه فهماً صحيحاً.

ان القرآن يعرض الأمور عرضاً كلياً ومبدئياً، ولكن الاستنباط وتطبيق الكلي على الجزئي لايكون الا بفهمنا اياه فهماً صحيحاً. فمثلاً، لم يذكر في القرآن أن الحرب الفلانية التي سوف تقع بين علي ومعاوية يكون الحق فيها مع عليّ. ان كل ما جاء في القرآن هو:

﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتىٰ تفيء إلى أمر الله﴾.(١)

هذا هو القرآن واسلوب بيان القرآن. انه لايقول: ان الحق مع فلان في الحرب

---

١ ـ سورة الحجرات، الآية ٩

الفلانية، وان فلاناً على باطل. ان القرآن لايذكر الاسماء والافراد. انه لايقول بعد اربعين سنة أو أكثر أو أقل سوف يظهر رجل اسمه معاوية ويحارب علياً، فعليكم ان تحاربوا مع علي. ان القرآن لايدخل في التفاصيل ولايعدد الحوادث ولايضع إصبعه على الحق والباطل.

ليس هذا بالامكان، فقد جاء القرآن ليبقى دائماً وابداً، فليس عليه الا ان يبين الأصول والكليات بحيث انه كلما تقابل حق وباطل في أي عصر من العصور استطاع الناس أن يعلموا ـ وفق مقاييس تلك الكليات والأصول ـ إنّ الأمر يعود إلى الناس لكي يفتحوا عيونهم ليروا ما ينبغي ان يفعلوه وفق مبدأ ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ اقْتَتَلُوا...﴾ فيميزوا الفرقة الباغية من غير الباغية، واذا مافاءت الباغية إلى امر الله قبلوا منها ذلك، واذا ركبت رأسها وتحايلت لانقاذ نفسها من السقوط لكي تتحين فرصة أخرى للهجوم وتبغي مرة أخرى، وتتظاهر بقبول القول ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فلاتنخدعوا بمكرها.

إنّ التعرف على كل هذا يعود إلى الناس أنفسهم. إنّ القرآن يريد للمسلمين الرشد العقلي والاجتماعي، لكي يستطيعوا أن يميزوا بين رجل الحق ورجل الباطل. إنّ القرآن لم يأت لكي يبقى دائماً بالنسبة للناس كوليّ على القاصرين فيعاملهم كما يعامل الولي الصغير القاصر، فيدبر أموره الصغيرة ضمن قيموميته، ويعين له مايفعل في كل حاله من الحالات.

ان معرفة الأشخاص ودرجة صلاحيتهم ولياقتهم ومدى تمسكهم بالاسلام وبالحقائق الإسلامية انما هي ـ من حيث المبدأ ـ واجب، ولكننا غالباً مانغفل عن هذا الواجب الخطير.

يقول علي عليه السلام: «انكم لن تعرفوا الرشد حتىٰ تعرفوا الذي تـركه».[١] أي ان معرفة الأصول والكليات لاتنفع وحدها حتىٰ تطبق على مصاديقها ومفرداتها، إذ يمكن بالخطأ في معرفة الأشخاص وبعدم ادراك الموقف أن تعملوا باسم الحـق وباسم الإسلام وتحت الشعارات الإسلامية، ما هو ضدّ الإسلام، وما هـو ـ فـي الحقيقة ـ لمصلحة الباطل.

لقد ذكر القرآن الظلم والظالم والعدل والحق، ولكن ينبغي معرفة مصاديقها بحيث لانرى الظلم عدلاً، والعدل ظلماً، ثم نقضي عـلى العـدالة والحـق ونـحن نحسب أننا نطبق الكليات بحكم القرآن.

١ ـ (نهج البلاغة) الخطبة ١٤٧

ضرورة محاربة النفاق

إن من أشق الأمور محاربة النفاق، لاننا في الحقيقة نحارب الاذكياء الذين يستغلون أولئك الحمقى. ان هذه الحرب أصعب من محاربة الكفر اضعافاً، لأن محاربة الكفر حرب مكشوفة وظاهرة لا خفاء فيها، أما الحرب مع النفاق فـإنّها حرب مع الكفر المستور.

إن للنفاق وجهين، وجه ظاهر هو الإسلام، ووجه باطن هوالكفر. ان معرفة ذلك من أشق الأمور على عامة الناس، وقدلا يكون ممكناً لهم، ولذلك فإن الكفاح ضد النفاق كثيراً ما يؤول إلى الاخفاق، لأن العامة لا يتعدى شعاع ادراكهم الظاهر، فلا يضيء الباطن الخفي لأنّه ليس بعيد الغور ولا ينفذ إلى الاعماق.

يقول الإمام علي عليه السلام في رسالته إلى محمد بن ابي بكر:

«ولقد قال لى رسول الله: اني لا اخاف على امتي مؤمناً ولا مشركاً. اما المؤمن فيمنعه الله بايمانه، واما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني اخاف عليكم كل منافق الجنان عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويعمل ماتنكرون».[1]

هنا يعلن رسول الله صلى الله عليه وآله

يعلن الخطر من جهة النفاق والمنافقين، وذلك لأن عامة افراد الامة غافلون وتخدعهم الظواهر.[2]

---

١ ـ (نهج البلاغة) الرسالة ٢٧

٢ ـ لهذا نجد على امتداد التاريخ الإسلامي انه كلما قام مصلح يعمل لاصلاح حـالة النـاس ⇦

ولابدّ من القول انه كلما كثر عدد الحمقى كانت سوق النفاق أكثر رواجاً. ان المبارزة مع الأحمق والحماقة مبارزة مع النفاق أيضاً، لأن الاحمق آلة بيد المنافق، إذ لاريب في أن مكافحة الحماقة والحمقى يعتبر نزع سلاح المنافق وتركه اعزل.

⇦ الاجتماعية والدينية، معرضاً منافع المستغلين والظالمين للخطر. بادر أولئك إلى ارتداء لبوس التقدس والتقوى والتدين.

ان المأمون العباسي المعروف بمجونه واسرافه بين رجال السلطة في التأريخ، عندما يرى أن العلويين قدنهضوا، يرتدي جبة مرقعة ويحضر الاجتماعات بها، بحيث ان اباحنيفة الاسكافي الذي لم‌يصله من المأمون دينار ولادرهم، يثني عليه ويمتدحه على عمله.

وقدالتمس آخرون ـ كل بشكل من الاشكال ـ سياسة (رفع المصاحف) المخربة، فأفسدوا كل الاتعاب والتضحيات وخنقوا الانتفاضات في مهدها.

وما هذا سوى جهل الناس وضلالهم لأنّهم لم‌يستطيعوا التمييز بين الشعارات والحقائق، وبهذا أغلقوا على أنفسهم أبواب النهضة والاصلاح، ثم استيقظوا بعد أن انهارت كل المقدمات ولم‌يكن بد من السير في الطريق من اوله.

ان من بين الأمور العظيمة التي نتعلمها من سيرة علي عليه السلام هو ان نضالاً من هذا القبيل لايختص بجماعة دون أخرى، بل حيثما كان المسلمون وأولئك الذين يتزيون بزي الدين، كان هؤلاء وسيلة نفوذ الاجانب وأداة تحقيق اهداف الاستعمار والمستعمرين، ولضمان مصالحهم يتترسون بهؤلاء ويتحصنون بهم، بحيث ان النضال ضد المستعمرين غير ممكن الا بالقضاء على تلك التروس والحصون. فيجب اولاً مكافحة تلك التروس والقضاء عليها لازالة العقبات من طريق الهجوم على قلب العدو.

ولعل اثارة معاوية الخوارج للافساد والتخريب كانت نافذة، وعلى ذلك فإن معاوية، أو في الأقل، أمثال اشعث بن قيس من العناصر المخربة والمشاغبة، قدتترست منذ ذلك اليوم ـ أيضاً ـ بالخوارج.

ان تاريخ الخوارج يعلمنا انه في كل نهضة يجب في البداية القضاء على التروس والحصون ومحاربة الحماقات، كما فعل علي عليه السلام بعد التحكيم، إذ بادر إلى محاربة الخوارج اولاً، بقصد مواجهة معاوية بعد ذلك.

علي الإمام والقائد الحق

إن كيان علي برمته، وتاريخه وسيرته، واخلاقه، وصبغته وريحه وكلماته واقواله، كلها دروس وتعاليم ونماذج للاقتداء وللقيادة.

وكما أن جواذب علي عليه‌السلام تعتبر دروساً تعليمية لنا، فإن قوة دفعه كذلك ايضاً. إننا في الادعية التي نتلوها عند زيارة مرقد الإمام علي عليه‌السلام وسائر الائمة الاطهار ونردد اننا نحب محبيهم ونعادي اعداءهم. ان التفسير الآخر لهذا القول يشير إلى اننا نتوجه إلى حيث مدار جوّك الجاذب، ونبتعد عن مدار قوتك الدافعة.

إن ماقلناه في المواضيع السالفة تناول جانباً من قوى الجذب والدفع عند علي عليه‌السلام، وقداختصرنا الكلام على دافعته خصوصاً؛ ولكن تبين مما قلناه ان عليّاً قددفع عنه طبقتين اثنتين دفعاً شديداً:

١ ـ المنافقين الاذكياء.

٢ ـ الزهاد الحمقى.

إن هذين الدرسين كافيان لمدعي التشيع ليحملاهم على فتح اعينهم لئلا ينخدعوا بالمنافقين. على ابصارهم ان تكون حديدية فتتجاوز النظر إلى الظاهر، فمجتمع التشيع والعصر الحاضر قد ابتلي بهذين الداءين أشد ابتلاء.

والسلام على من اتبع الهدى

الفهـرس

مقدمة الناشر ٥

معرفة القرآن (الجزء ١) ٩

كلمة المترجم ١١

معرفة القرآن ١٥

انواع معرفة القرآن ١٧

الأول: المعرفة السندية والانتسابية ١٧

الثاني: المعرفة التحليلية ٢١

الثالث: معرفة الأصل ٢٢

أصالات القرآن الثلاث ٢٥

شروط معرفة القرآن ٢٦

ما معنىٰ معرفة القرآن؟ ٣١
الفصل الأوّل: معرفة القرآن تحليلياً ٣٧
كيف يعرّف القرآن نفسه؟ ٣٨
معرفة القرآن ٤٠
من يخاطبهم القرآن ٤٦
العقل في نظر القرآن ٤٩
الفصل الثاني: دلائل كون العقل حجة ٤٩
منشأ الخطأ في نظر القرآن ٥٦
الفصل الثالث: القلب في نظر القرآن ٦٠
تعريف القلب ٦١
مميزات القلب ٦٢

معرفة القرآن (الجزء ٢) ٦٩
سورة الفاتحة: ٧٣
إبتداء الأعمال بـ (بسم الله) ٧٥
الله ٧٦
ترجمة كلمة «الله» ٧٩
الفرق بين الرحمن والرحيم ٨٠
الحمد يكون لله ٨٤
التوحيد النظري والتوحيد العملي ٩٥
أصل كلمة عبادة ٩٩

أنواع الشرك والتوحيد ١٠١
حصر العبادات ١٠٤
ضمير الجمع ١٠٥
وجه تسمية السورة ١١٥
الحروف المقطعة ١١٦
انّه هدى ١٢٢
ما معنىٰ إقامة الصلاة ١٢٥
هل يختص الإنفاق بالمال؟ ١٢٦
فلسفة الإنفاق ١٢٧
الكفر المقدس ١٣٥
ما النفاق؟ ١٣٩
نظرية القرآن ١٦٢
الأصالة للحق ١٦٤
مخاطبو القرآن ١٧٧
رسالة التوحيد ١٨١
الشرك والتوحيد ١٨٢
إنكار معجزة القرآن إنكار للقرآن نفسه ١٨٧
لغة القرآن ١٨٧
١ـ ما المعجزة؟ ١٨٩
٢ـ هل المعجزة ممكنة؟ ١٩٢
٣ـ هل تقع المعجزة؟ ١٩٧

٤ـ كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها؟ ١٩٨
الدليل الوضعي: ١٩٩
الدليل الطبيعي: ١٩٩
الدليل العقلي: ٢٠٠
٥ـ رسول الإسلام والمعجزة: ٢٠٢
٦ـ إعجاز القرآن ٢١٤
وجوه إعجاز القرآن ٢١٧

ختم النبوّة ٢٢٩
أبواب السماء ٢٥١
النبوة التبليغية ٢٥٥
الدين الخالد ٢٦١
الجبر التاريخي ٢٦٤
الحاجات: ٢٦٧
مقتضيات الزمان ٢٧٠
التحرك والانعطاف: ٢٧٣
انتقال المسؤولية: ٢٨١
الإجتهاد: ٢٨٣
الرؤىٰ الجديدة: ٢٨٦
النسبية في الإجتهاد: ٢٨٨
في قوّتيه الجاذبة والدافعة ٢٩٣

الإمام علي عليه السلام في قوتيه الجاذبة والدافعة ٢٩١
تقديم ٢٩٥
قانون الجذب والدفع ٣٠٣
الجذب والدفع في عالم الإنسان ٣٠٥
اختلاف الناس في الجذب والدفع ٣٠٧
علي٧ شخصية ذات قوتين ٣١٦
الجواذب القوية ٣٢١
التشيع مدرسة المحبة والعشق ٣٢٤
إكسير المحبة ٣٢٦
تحطيم الحدود ٣٣٠
الحبّ .. يبني أم يخرب؟ ٣٣٢
حب الاولياء ٣٣٧
قوة الحب في المجتمع ٣٤٠
الوسيلة الفضلى لتهذيب النفس ٣٤٢
نماذج من التأريخ الإسلامي ٣٥٠
حبُّ عليٍّ في القرآن والسنة ٣٥٨
سرّ حب عليّ ٣٦٣
عليٌّ يصنع الأعداء ٣٦٩
الناكثون والقاسطون والمارقون ٣٧٢
ظهور الخوارج ٣٧٤

اصول عقائد الخوارج ٣٨٢
الخوارج والخلافة........................ ٣٨٣
الخوارج والخلفاء........................ ٣٨٥
انقراض الخوارج........................ ٣٨٦
أشعار أم روح؟........................ ٣٨٧
الخوارج وديمقراطية علي........................ ٣٩٤
قيام الخوارج وطغيانهم ٣٩٦
سمات الخوارج ٣٩٨
سياسة رفع المصاحف........................ ٤١٨
ضرورة محاربة النفاق ٤٢٢
علي الإمام والقائد الحق ٤٢٤